أحمد الكاتب

لماذا تفرق المسلمون؟

الحقيقة والوهم في الخلاف الطائفي

مقدمة:

الحقيقة والوهم في الخلاف الطائفي

مدخل

لماذا تفرق المسلمون؟

النظريات المختلفة في تفسير حدوث الفرقة بين المسلمين :

١- **البعد عن الدين وحب الدنيا**

٢- التعصب القومي، والنزاع "الشعوبي"

٣- **الظلم والفساد السياسي**

٤- **الحركات الانفصالية، والقرارات الخاطئة، في غياب الأمة**

٥- **الابتعاد عن أهل البيت**

٦- الإبتداع وإتِّباع الأهواء

٧- **الغلو في أئمة أهل البيت**

٨- **التكفير**

٩- دور اليهود والنصارى والمجوس، و الاستعمار الأجنبي

١٠- الطائفية

الاختلاف بين المسلمين قدر محتوم من الله

ضرورة بحث جذور الخلاف في عهد الصحابة

هل الصحابة فوق النقد؟

الباب الأول

جذور التفرقة في التاريخ الاسلامي؟

الفصل الأول

الوحدة الاسلامية في عهد الرسول، وانهيارها بعد وفاته

الفصل الثاني

قيام الدولة القرشية العربية..ودورها في زرع بذور التفرقة بين المسلمين

مرحلة الولادة: السقيفة ..إجهاض الحلم المدني

عدم وجود دستور للحكم في عهد الخلفاء الأربعة الأولين

الفصل الثالث

حروب "الردة"..أو حروب السيطرة على الجزيرة العربية؟

الفصل الرابع

الفتوحات العربية الاسلامية

دافع الدعوة الى الاسلام في الفتوحات العربية

دافع المصالح المادية والغنائم

التمييز العنصري العربي ضد الشعوب المفتوحة

الحركة الشعوبية المضادة

الباب الثاني:

ولادة المذهب السني

الفصل الأول

ماهو المذهب السني؟ ومتى ولد؟

نظرية أصالة المذهب السني

مناقشة تعريف (السُنَّة) وتاريخ ميلاد المذهب

الفصل الثاني

ما هو مفهوم "السُنَّة"؟ ومن هم "أهل السُنَّة"؟

تطور مفهوم "السنة"

حجم "أهل السنة" في البداية

المفاهيم الثلاثة لكلمة "السنة":

١- السُنَّة النبوية

٢- سُنَّة الشيخين والخلفاء الراشدين

٣- سُنَّة الصحابة

الفصل الثالث

ما هي الفوارق بين المذاهب السنية؟

١- **الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (٨٠-١٥٠)**

٢- **الإمام مالك بن أنس (٩٣- ١٧٩هـ)**

٣- **الإمام الشافعي محمد بن إدريس (١٥٠ – ٢٠٤هـ)**

٤- **الإمام أحمد بن حنبل** (١٦٤ . ٢٤١ هـ)

الفصل الرابع

صراع المذاهب المختلفة حول "الهوية السنية"

المبحث الأول: التشكيك بسنية الأشاعرة (المالكية والشافعية)

المبحث الثاني: التشكيك بسنية **الماتريدية** (الأحناف)

المبحث الثالث: التشكيك بسنيَّة أهل الحديث (البخاري ومسلم)

المبحث الرابع:التشكيك بسنية الحنابلة

الباب الثالث

علاقة المذهب السني بالأنظمة السياسية

الفصل الأول

المذهب السني والثقافة السلطانية الأموية

١- جواز الاستيلاء على السلطة بالقوة.

٢- احتكار قريش للسلطة والخلافة.

٣- المحافظة على الجماعة.

٤- منع محاسبة الحكام ومراقبتهم ونقدهم وتغييرهم .

٥- جواز الظلم والفسق والانحراف للحكام.

٦- تحريم الثورة على الظالمين.

٧- الإيمان بالقدر الجبري.

٨- التفضيل بين الصحابة.

٩- تفسير النفاق بالكفر الباطني، فقط .

١٠- الخلط بين الصحابة (المهاجرين والأنصار والطلقاء) والغض عن مساوئ المنافقين وجرائم بعضهم.

١١- نصب العداء لأهل البيت.

١٢- صيام عاشوراء، والفرح بمقتل الإمام الحسين.

الفصل الثاني

العباسيون واستغلال المذهب السني

الأصول الرافضية للعباسيين

المنصور والمعتزلة

العباسيون و"أهل الحديث"

انقلاب المأمون على أهل السنة، واقترابه من الشيعة والمعتزلة

المتوكل وأهل السُنَّة (الحنابلة)

تراجع العباسيين عن السُنَّة الحنابلة

الفصل الثالث

القادر بالله العباسي: توحيد المذاهب السنية في مواجهة الشيعة

البويهيون

الفاطميون

استراتيجية القادر في مواجهة البويهيين والفاطميين:

١- التصدي لاحتفالات الشيعة يومي (الغدير وعاشوراء)

٢- إزالة الخلافات الداخلية بين المذاهب السنية

٣- تأليف الكتب في الرد على الفرق

٤- تعزيز التحالف مع البويهيين في مواجهة الفاطميين

٥- التشكيك بنسب الفاطميين

٦- تعزيز العلاقة السياسية مع أمراء الأطراف (السُنَّة)

٧- إعلان "الاعتقاد القادري" وتفتيش العقائد:

أ- خلق القرآن

ب- الموقف من الصحابة

٨ - إضفاء الشرعية الدينية على الخلافة العباسية

انهيار الخطة القادرية بعد سبعين عاما

العباسيون والتشيع بعد انهيار الدولة الفاطمية

العثمانيون يتبنون المذهب الحنفي

الباب الرابع

ولادة المذهب الشيعي

الفصل الأول

من هم الشيعة؟.. وهل هم حزب سياسي؟ أم طائفة دينية؟

المبحث الأول:من هم الشيعة؟

المبحث الثاني: متى ولد التشيع؟

١- في زمن النبي الأكرم

٢- بعد السقيفة

٣- بعد مقتل عثمان، في الفتنة الكبرى

٤- بعد كربلاء

الفصل الثاني

التشيع السياسي: جوهر المذهب الشيعي

المبحث الأول: لماذا التشيع للإمام علي؟ ملامح سياسة الإمام:

١- إتباع الكتاب والسُنَّة والاجتهاد.

٢- الموقف من الشورى.

٣- الزهد في الدنيا، والخلافة وسيلة وليست غاية.

٤- رفض توريث الخلافة، أو العهد بها الى أحد.

٥- إعلان الحرب على الظلم والظالمين.

٦- حق الأمة في المعارضة والإصلاح.

٧- المال العام أمانة بيد الإمام، وتوزيعه يتم بالسوية.

٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المبحث الثاني: تلامذة الإمام علي من الشيعة الأوائل:

١- الصحابي أبو ذر، نصير الفقراء والمساكين

٢- الصحابي عمار بن ياسر

٣- الامام الحسين بن علي

٤- الثورات العديدة ضد الأمويين والعباسيين

ثورة ابن الأشعث سنة ٨١

ثورة الإمام زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٢

ثورة محمد بن عبد الله "النفس الزكية" سنة ١٤٥

ثورة إبن طباطبا وأبي السرايا سنة ١٩٩

الفصل الثالث

التشيع الديني (الإمامي)

المبحث الأول : محورية أئمة أهل البيت في الحركة الشيعية.

المبحث الثاني: متى ظهر "التشيع الديني"؟

المبحث الثالث: تطور التشيع عبر التاريخ /التطور الكيساني / التطور الإمامي

المبحث الرابع:خط الإنزواء والمهادنة

المبحث الخامس:تطور الزيدية نحو "الإمامية"

الفصل الخامس

التشيع الفقهي "الجعفري"

الفصل السادس

التشيع "الإثنا عشري"

المبحث الأول: ولادة الفرقة "الإثني عشرية" في القرن الرابع الهجري.

المبحث الثاني: الفوارق الرئيسية بين "الاثني عشرية" و"الإمامية":

١- الانتظار للمهدي الغائب: انعدام الحيوية

٢- فتح باب الاجتهاد

٣- دور الأئمة: (الشفاعة) في الآخرة.

٤- التعاطف القلبي والروحي.

٥- الغلو بالأئمة.

٦- التطرف والعنف ضد الآخرين.

٧- الإيمان بالرجعة

المبحث الثالث :السُنَّة الاثنا عشرية

الباب الخامس

ظاهرة التعصب الطائفي

الفصل الأول:

كيف تحول الشيعة من حزب سياسي الى طائفة مغلقة؟

تحول الشيعة من حركة ثورية الى طائفة مغلقة.

محورية أئمة أهل البيت في الحركة الشيعية.

عوامل تشكل الطائفة الشيعية

١- المقاطعة النفسية والفكرية

٢- المقاطعة السياسية

٣ – المقاطعة الاجتماعية

٤ – المقاطعة الاقتصادية

٥-الانطواء وتعزيز العلاقات الداخلية

٦- التطرف ضد الصحابة

٧- رد فعل المسلمين ضد الشيعة بسبب الغلو والتطرف

الفصل الثاني

تحول المذاهب السنية الى طوائف

التعصب والصراع بين المذاهب السنية

الفتنة بين الحنابلة والشافعية

الفصل الثالث

مظاهر التعصب الطائفي وأسبابه

المبحث الأول:مظاهر التعصب الطائفي

المبحث الثاني:أسباب التعصب:

١- القرارات السياسية

٢- الجمود وغلق باب الاجتهاد

٣- المصالح المادية لفئة العلماء والطلاب وأئمة الجمعة والجماعة والقضاة والمفتين.

الفصل الرابع

البيئة العامة لنشوء الفرق الطائفية

١- الاستبداد وتهميش الأمة الاسلامية

٢- تبني الحكام للمذاهب

٣- تديين الحقل السياسي

٤- الإعتماد على الرؤى والأحلام كمصدر ديني

الباب السادس

الحلول المختلفة للمشكلة الطائفية

الفصل الأول

الدعوة للوحدة الاسلامية والاتفاق على أصول الاسلام

العثمانيون يدعون الى الوحدة الاسلامية في مواجهة الاستعمار الغربي

مراجع الشيعة والوحدة الاسلامية

الدعوة للوحدة الاسلامية بعد الحرب العالمية الأولى

الازهر والاعتراف بالمذهب الشيعي الجعفري

الفصل الثاني

التكفير والقتال والهيمنة على الآخرين

الوهابية: تكفير الشيعة، ورفض التقارب معهم

لا وحدة الا بالتنازل لأحد المذهبين

ابن باز: لا لقاء ولا تقارب مع الشيعة

القفاري: لا للوحدة بين السُنَّة والشيعة، ولا بد لهم من العودة الى الاسلام

الفصل الثالث

التعايش والتعاون

الفصل الرابع

الحوار بين المذاهب:

١- الموقف من القرآن الكريم

٢- نظرية الإمامة

٣- الموقف من الصحابة والحديث

٤- الحديث والفكر السياسي

٥- موضوع القدر

٦- المسائل الفقهية، كزواج المتعة المؤقت

٧- التقية

٨- المهدي المنتظر

٩- عاشوراء وزيارة الحسين

١٠- زيارة قبور الأئمة والأولياء والصالحين

من يعلق الجرس؟

الفصل الخامس

مقدمة

الحقيقة والوهم في الخلاف الطائفي

لم يبلغ الانقسام الطائفي بين المسلمين السنة والشيعة، عبر التاريخ، مستوى عنيفا وواسعا وشاملا، مثلما بلغه في بداية الألفية الميلادية الثالثة، ولا سيما بعد الاحتلال الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣ وتفجر الحرب السورية عام ٢٠١١ وسيطرة "داعش" على الموصل وبعض المحافظات العراقية عام ٢٠١٤ وقد بات هذا الانقسام الذي تحول الى اقتتال داخلي، يهدد بتمزيق أكثر من دولة عربية وإسلامية الى دويلات متناحرة في المستقبل، فضلا عن انقسام المسلمين بحدة في عموم العالم، وهو ما أدى ويؤدي الى مزيد من الانحدار وافتقاد المسلمين لعنصر القوة الكامن في الوحدة، وانهيارهم أمام الدول والقوى الأخرى في العالم.

وإذا عدنا الى بداية التاريخ الاسلامي، فسنجد أن الطوائف الاسلامية كانت في البداية حركات سياسة تطالب بالعدل والمساواة، أو مدارس فقهية منفتحة لا تتناقض مع المدارس والحركات الأخرى، ولا تحمل في طياتها عداء لأية شريحة اجتماعية، ولكنها بعد فترة من نشوئها تحولت الى طوائف ميتة ومنغلقة فاقدة لمشاريعها السياسية وروحها وقيمها العلمية ومبادئها الانسانية، وأصبحت مادة للتجارة والاستغلال السياسي في الصراعات الداخلية والدولية.

إن التشيع الأول القديم كان عبارة عن حركة اجتماعية ثورية تطالب بالعدل والحرية لعموم الأمة الاسلامية وليس لطائفة ضيقة أو نخبة معينة، وكانت موجهة ضد الحكام الظلمة وليس ضد أية فئة اجتماعية أو طائفة إسلامية، كحركة الامام الحسين بن علي في كربلاء سنة ٦١ هـ، أو حركة الامام زيد بن علي في الكوفة سنة ١٢٢، أو حركة ذي النفس الزكية محمد بن عبدالله في الحجاز، وأخيه إبراهيم في البصرة سنة ١٤٥، أو حتى حركة ابن طباطبا في الكوفة سنة ١٩٩ أو غيرها من الحركات الثورية في القرون الثلاثة الأولى، ومع أنها كان تدور حول إمامة أهل البيت إلا أنها كانت تحمل أهدافا اجتماعية لمصلحة الأمة الاسلامية، ويدل على ذلك الالتفاف الواسع والتأييد الجماهيري الذي كانت تحظى به. ولكن مفهوم التشيع اختلف فيما بعد، فتحولت

بعض الحركات الشيعية كالاسماعيلية (الفاطمية) والزيدية، الى أنظمة حاكمة هنا وهناك (في اليمن وشمال افريقيا وطبرستان) وتحولت حركات أخرى كالشيعة الاثني عشرية، الى جماعة دينية تاريخية جامدة، بعد وفاة الامام الحسن العسكري سنة ٢٦٠ وفقدان الامام الثاني عشر المفترض (محمد بن الحسن العسكري) حيث لم يبق من التشيع وأهل البيت سوى أطلال وذكريات وطقوس وقشور.

وأما التسنن الأول القديم فقد كان يدور أساساً حول نظرية الشورى كأساس للحكم في مقابل نظرية النص الشيعية الإمامية، وتطور فيما بعد ليلتف حول الخلفاء العباسيين الذين كانوا يتوارثون الخلافة بلا شورى ولا احترام لأهل الحل والعقد، ثم ذهب العباسيون وتهاوى العمود الفقري لأهل السنة، وأصبح الملك بيد المماليك والعثمانيين الذين استولوا على السلطة بالقوة، كمن سبقهم من الملوك.

وبالتالي لم يعد ثمة معنى للخلاف القديم بين الشيعة والسنة ولا بين التشيع والتسنن، حيث لا أئمة من أهل البيت ولا خلفاء عباسين. ومع ذلك فقد ظلت مخلفات الأحزاب والمدارس القديمة (السنية والشيعية) التي تحولت الى طوائف متحجرة، تعمل في الساحة السياسية فتوحد وتفرق، وتشعل نيران الحروب وتؤسس لقيام دول وسحق دول أخرى. وأصبحت مادة بيد الحكام الذين قاموا ، عبر التاريخ، باستغلال الخلافات الطائفية كأداة في سعيهم للاستيلاء على السلطة أو الاحتفاظ بها، في الداخل والخارج. ويحدثنا التاريخ عن استخدام الفاطميين لنظرية النص على الامام علي بن أبي طالب كقاعدة شرعية لحكمهم وتجريد العباسيين من الشرعية الدينية ومحاولة القضاء عليهم، وقيام العباسيين (في زمن الخليفة القادر بالله ٣٨١-٤٢٢) بتجميع الطوائف السنية المختلفة (الحنفية والحنبلية والمالكية والشافعية) كقاعدة شعبية للخلافة العباسية في مقابل الفاطميين في الخارج، والبويهيين الشيعة في الداخل. في الوقت الذي لم يكن هؤلاء الأطراف الثلاثة (العباسيون والفاطميون والبويهيون) يختلفون في طبيعة الحكم الاستبدادي الوراثي بعضهم عن بعض، سوى في الأسماء والشعارات.

لقد احتدم الخلاف الطائفي بين السنة والشيعة، في القرون الوسطى (الرابع والخامس والسادس) ليهدأ فيما بعد، ولا سيما بعد سقوط الدولتين البويهية (سنة ٤٤٩) والفاطمية (سنة ٥٦٧) ثم عاد الخلاف مرة أخرى في القرن العاشر الهجري عند قيام الدولتين الصفوية في بلاد فارس والعثمانية في تركيا.

ومن المعروف أن الدولة الصفوية أسسها الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي (٨٩٢- ٩٣٠هـ) في تبريز (آذربايجان) سنة ٩٠٧هـ وكان له من العمر أربع عشرة عاما، بمعونة شيوخ الطريقة الصوفية الصفوية التي أسسها جده الخامس الشيخ صفي الدين الأردبيلي (٦٥٠هـ). [١] وتميزت هذه الدولة التي تبنت المذهب الشيعي الامامي الإثني عشري، بالمنهج (الرافضي) المتطرف جدا، وسب الخلفاء الثلاثة علنا في الشوارع والمساجد، وإجبار أهل السنة على اعتناق المذهب الشيعي الإثني عشري بالقوة والارهاب، وقتل كثير من العلماء السنة، وبالطبع لم يكن هذا الشاه الصفوي يمثل تعاليم أئمة أهل البيت، ولا يمت الى التشيع الأول (العلوي) بأية صلة، ولا يعبر عن حركة شعبية تبحث عن العدل، وإنما كان يستخدم إسم التشيع (الميت) كأداة لبناء هوية وطنية إيرانية، ودولة مستقلة عن العثمانيين وسلطة ديكتاتورية متوحشة.

وتزامن قيام الدولة الصفوية في بداية القرن العاشر الهجري، مع تطور الدولة العثمانية (التي نشأت نواتها قبل قرنين) الى "دولة خلافة" بعد تبني السلطان سليم الأول (٩١٨- ٩٢٦) لقب "أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين" والقضاء على الخلافة العباسية – المملوكية في مصر، واحتلاله لآسيا الوسطى وسوريا وشمال أفريقيا والحجاز، وامتداد سلطانه الى آتشية السومطرية.

وبالرغم من أن الشيعة الاثني عشرية لم يكونوا يؤمنون بجواز إقامة الدولة في ذلك الوقت ("عصر غيبة الامام الثاني عشر") وأنهم لم يكونوا يؤمنون بشرعية أية خلافة خارج إطار "الأئمة المعصومين" إلا أنهم مالوا الى الدولة الصفوية التي كسرت المقاطعة السياسية التاريخية وأعلنت قيام الدولة الشيعية، وكان كثير من سكان

---

[١] - اختلف المؤرخون حول أصول الصفويين العرقية والمذهبية، فالصفويون أنفسهم كانوا ينسبون أنفسهم الى السلالة العلوية العربية، كعادة الصوفية في كل زمان ومكان، ولكنهم نشأوا في منطقة كردية تركية سنية شافعية، ويقول المؤرخون إن الشيخ صفي الدين الأردبيلي كان سنيا وتتلمذ على يد الشيخ زاهد الجيلاني، شيخ الطريقة الزاهدية في مدينة غيلان، وتزوج الاردبيلي من ابنة الجيلاني، ثم خلفه في مشيخة الطريقة الزاهدية التي باتت تعرف بالصفوية. وانها كانت سنية شافعية، ولكنها تحولت على يد حفيد الأردبيلي الخواجة علي الصفوي الى المذهب الجعفري. واستقطبت الأتراك العلويين والبكتاشية في الأناضول، ثم تحولت من طريقة دينية الى عسكرية تحت قيادة الشيخ جنيد وولده حيدر الذي أعلن الجهاد ضد جورجيا، ثم أعلن ابنه إسماعيل الدولة الصفوية.

الأناضول وسوريا من العرب والترك يعتنقون التشيع (حسب مذاهب مختلفة علوية وبكتاشية وإثني عشرية) ولذلك وجد "الخليفة" سليمان الأول ضرورة لتصفية الشيعة في هذه المنطقة، فقام بقتل أربعين ألفا منهم عام ٩١٩هـ/ ١٥١٤م. [٢] في طريقه للهجوم على الدولة الصفوية (التي كانت قد احتلت العراق أيضا عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٨) والاتصال بالترك والأفغان شرقي بلاد فارس، وإقامة إمبراطورية "خلافة إسلامية" عالمية واحدة.

وقد استغل العثمانيون التطرف الصفوي الرافضي (وسب الخلفاء الثلاثة) لإعلان الحرب على الشيعة والصفويين، وإصدار فتاوى بتكفيرهم وتعبئة جيوشهم ضدهم. استنادا الى فتوى صادرة من "شيوخ الاسلام" تعتبر الشيعة مرتدين عن الاسلام.[٣] فقام السلطان سليم الأول بمهاجمة عاصمة الصفويين (تبريز) عام

---

[٢] – الزقاقي، أحمد، الاساس التشريعي، ص ١٧ انظر ايضا: محمود شاكر، التاريخ الاسلامي ١٥١/٨ وعبد العزيز الدوري: الارث التاريخي ص ٥٤

[٣] – أصدر المفتي العثماني أحمد بن سليمان بن كمال باشا (توفي ٩٤٠هـ) فتوى ضد الصفويين والشيعة جاء فيها: "..وبالجملة إن أنواع كفرهم المنقولة الينا بالتواتر مما لا يعد ولا يحصى، فنحن لا نشك في كفرهم وارتدادهم، وان ديارهم ديار حرب، وان نكاح ذكورهم وإناثهم باطل بالاتفاق... فيحل للمسلمين أموالهم وأولادهم، وأما رجالهم فيجب قتلهم، إلا إذا أسلموا... ويجب أن يعلم أيضا أن جهادهم كان فرض عين على جميع أهل الاسلام الذين كانوا قادرين على قتالهم... قد ذكر في الفتاوى البزازية: أن من أنكر خلافة أبي بكر رضي الله عنه فهو كافر في الصحيح. وكذا خلافة عمر رضي الله عنه وهو أصح الأقوال، وكذا من سب الشيخين كفر، ولو قال إني برئ من مذهب أبي حنيفة أو الشافعي يكفر..." رسالة في إكفار الرافضة، موقع (صيد الفوائد، saaid.net سليمان بن صالح الخراشي: النصيحة الذهبية للشيعة في السعودية وتذكيرهم بفتاوى علماء الدولة التركية) لوحظ بتاريخ ٢٠١٦/٨/٢٤

كما أصدر المفتي محمد أبو السعود أفندي (توفي ٩٨٢هـ) فتوى أخرى قال فيها: أجمع علماء الأعصار على إباحة قتلهم، وإن من شك في كفرهم كان كافرا، فعند الامام الأعظم وسفيان الثوري والأوزاعي أنهم إذا تابوا ورجعوا عن كفرهم الى الإسلام نجوا من القتل، ويرجى لهم العفو كسائر الكفار إذا تابوا، وأما عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وليث بن سعد وسائر العلماء العظام فلا تقبل توبتهم، ولا يعتبر إسلامهم ويقتلون حدا. كما ذكر محمد أمين بن عمر ابن عابدين الدمشقي (١٢٥٢هـ) في كتابه "العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية". ج١ ص ٩٤-٩٦

٩٢٠هـ/ ١٥١٤م وكاد يقضي على الشاه إسماعيل الصفوي. ثم قام ابنه السلطان سليمان بمهاجمة الدولة الصفوية (في عهد طهماسب بن إسماعيل) واحتل مرة أخرى عاصمتها تبريز ووصل الى همدان ومنها توجه الى بغداد فاحتلها دون مقاومة سنة ١٥٣٤ وأعلن نفسه حاميا للطائفة السنية.[٤]

ولم تكن المعركة في الحقيقة بين السنة والشيعة، بقدر ما كانت بين زعيمين أو سلالتين تركيتين هما الصفوية والعثمانية، وانما اتخذت ثوبا طائفيا، واستخدم كل فريق فيها السلاح الطائفي من أجل التوسع وتعزيز السيطرة على البلاد.[٥] ولا شك أن التطرف الصفوي (الرافضي) أعطى العثمانيين سلاحا مهما في المعركة ضد الصفويين.[٦]

---

[٤] - وعاد الصفويون على عهد الشاه حسين لاحتلال بغداد عام ١٦٢٣، ولكن السلطان العثماني مراد الرابع استرجع بغداد عام ١٦٣٧ بعد أن سحق الجيوش الصفوية وقتل ٢٠ ألف جندي، وحوالي ٣٠ ألف مواطن شيعي. وعاد نادر شاه ليهاجم العراق ويحاصر بغداد والموصل عام ١٧٤٣

[٥] - ينقل الدكتور علي الوردي في كتابه "لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث" أن السلطان سليم العثماني والشاه إسماعيل الصفوي كانا كلاهما من أتباع الطريقة الصوفية البكتاشية. وفي شبابهما كانا جالسين بحضور "بالم سلطان" الشيخ البكتاشي المشهور، فاتفقا فيما بينهما على أنهما حين يصلان الى الحكم سيسعيان نحو توحيد المسلمين في عقيدة واحدة (البكتاشية). فلما وصلا الى الحكم كتب إسماعيل الى سليم يذكره بوعده، فأجابه سليم معتذرا بأن وزراءه سنيون وأنه مضطر للتباطؤ في تحقيق وعده. فكان هذا الاعتذار سببا لغضب إسماعيل عليه، حيث وصفه بأنه كذاب وأنه لا يلتزم بكلمته، ومن هنا اشتد العداء بينهما.

[٦] - كما أعطى الأفغان السنة فيما بعد، فرصة للقضاء على الدولة الصفوية واحتلال عاصمتها اصفهان، لمدة ثمان سنوات. وكان الدافع الرئيس لتعبئة الأفغان للقضاء على (الروافض) هو لعن الخلفاء الثلاثة أيام الدولة الصفوية؛ وقد استفتى الأفغان علماء مكّة في هذا الصدد، وحصلوا على فتاوى منهم تحكم بكفر الشيعة وإباحة دمائهم. ولكن الأفغان لم يسلموا السلطة الى الخليفة العثماني الذي طالبهم بالخضوع له، "لعدم جواز قيام خليفتين في وقت واحد"، كما قال المفتي العثماني، وقاموا بالمحافظة على استقلالهم عن اخوانهم العثمانيين السنة الأحناف "لأنهم ليسوا من قريش"، حسبما يشترط الحنابلة، مما أدى الى هجوم العثمانيين عليهم.

وبعد أن تسبب التطرف الصفوي الرافضي المعادي للخلفاء الثلاثة وأهل السنة، في خسارة الدولة الصفوية للعراق وسقوطها في إيران تحت الاحتلال الأفغاني، سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢٢م ، قاد "نادر قلي شاه أفشار" المقاومة الإيرانية، وتولى السلطة، سنة ١١٤٨هـ ١٧٣٦ واشترط عند تتويجه ملكا على ايران، التخلي عن السياسة الفكرية والاعلامية الصفوية (الرافضية) وتبني الاعتدال المذهبي وتصفية التراث الصفوي.[٧] فطرح شعار الوحدة الاسلامية، بين المذهب الجعفري والمذاهب السنية الأربعة الأخرى، وأجبر علماء الشيعة على الالتزام بموقف معتدل من الخلفاء الثلاثة والترضي عليهم، وعقد من أجل ذلك مؤتمرا وحدويا شهيرا في النجف سنة ١٧٤٣م [٨] ودعا في المقابل الحكومة العثمانية للاعتراف بالمذهب الجعفري مذهبا إسلاميا خامسا. ولكن العثمانيين لم يستجيبوا لهذا المطلب ، وإن دعموا الطريقة البكتاشية[٩] التي كانت توالي الأئمة

[٧] - أخذ نادر شاه تعهدا من رؤساء القبائل الايرانية الذين انتخبوه ملكا لإيران ، عام ١١٤٨هـ: الابتعاد عن كلّ لفظٍ يشكّل إهانة لساحة الخلفاء الراشدين، بل يلزمهم الاقرار بهم والتوقير لهم والإجلال فيما لو أتوا على ذكرهم. والتزام الطائفة الشيعية السير على نهج الطائفة السنّية في هذا الأمر، والابتعاد عن المعتقدات الفاسدة والأقوال الكاسدة، التي شاعت بين الإيرانيين في العهد الصفوي.

[٨] - قام نادر شاه بعقد مؤتمر يجمع علماء إيران والعراق وسائر المناطق الإسلامية الأُخرى التابعة له، في مدينة النجف، بتاريخ ٢١ – ٢٤ رمضان ١١٥٦هـ وإعداد وثيقة من شأنها توحيد المذاهب الإسلامية، وقد اشتملت المادّة الأولى فيها على الفقرة التالية: بما أنّ أهل إيران عدلوا عن العقائد السالفة، ونكلوا عن الرفض والسبّ، وقبلوا المذهب الجعفري الذي هو من المذاهب الحقّة، فالمأمول من القضاة والعلماء والأفندية الكرام الإذعان بذلك وجعله خامس المذاهب .

وقد وقع عليها علماء شيعة من النجف وكربلاء قائلين: نقرّ الخلفاء الراشدين (رضوان الله عليه أجمعين) على الترتيب، ونتبرأ من الرفض والتبرّي، ونتمسّك بمنهج الإمام الصادق (المعتدل)، ونتبنّى عقيدته الراسخة؛ انطلاقاً من قبول المذهب الجعفري من قِبَل قدوة العلماء والأعلام: شيخ الإسلام، وأفندية الدولة العلية العثمانية العظام.

[٩] - البكتاشية هي طريقة صوفية تركية تنسب الى الحاج بكتاش ولي (٧٣٨هـ/ ١٣٨٨م) انتشرت في الأناضول، وهي تجمع بين الإيمان بالأئمة الاثني عشرية وتعاليم الطرق الصوفية القلندرية والحيدرية، ولكنها تصنف نفسها بأنها من أهل السنة. وكانت لها علاقات وثيقة مع الجيش العثماني الذي عرف (بالانكشارية) الى أن حاربها السلطان محمود الثاني وقتل كثيرا من شيوخها كما قضى على الجيش الانكشاري عام ١٨٢٦م. وما تزال البكتاشية موجودة في تركيا والبلقان ومصر والعراق، ولا سيما ألبانيا حيث يقيم زعيمها في تكية تيرانا.

الإثني عشر وتحترم الخلفاء الثلاثة. بيد أن سياسة نادر شاه المعتدلة الموالية للخلفاء الثلاثة والصحابة، أدت الى إضعاف حجج العثمانيين في معاداة إيران بتهمة الرفض وسب الصحابة. واكتساب قلوب أهل السنة في ايران وخارجها، وهو ما سمح له بتحقيق نجاحات عسكرية سريعة و مذهلة تمثلت في القضاء على الحكام الأفغان المحتلين، ثم باحتلال أفغانستان والهند وأوزبكستان وتركستان وجزء من العراق.

ورغم التوتر الذي كان يطبع علاقة العثمانيين بشيعة العراق، إلا أن علاقتهم تحسنت قليلا في القرن التاسع عشر، عندما تولى الوالي العثماني في بغداد علي رضا باشا / الذي كان بكتاشيا عام ١٨٣١ فاتسمت علاقاته مع شيعة العراق بالايجابية، وقام بدعم الشعائر الحسينية في بغداد وأعطى لمدينة كربلاء حرية في إدارة نفسها بنفسها. ولكنها انتكست بعد ثورة أهالي كربلاء عام ١٩٤٢ واقتحام الوالي نجيب باشا لكربلاء بالقوة وقتل الكثير من أبنائها.

العثمانيون والوحدة الاسلامية في مواجهة الاستعمار الغربي

وعندما شعر العثمانيون في أواخر القرن التاسع عشر بخطر التهديد الأوربي المتزايد للبلاد الاسلامية، قام السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) برفع راية الوحدة الاسلامية والتقارب مع إيران. وبلغت الحملة العثمانية من أجل الوحدة الاسلامية أوجها في الحرب العالمية الأولى حيث شعر العثمانيون في العراق بحاجتهم الى المجتهدين الشيعة لتعبئة الجماهير فأغدقوا العطايا السخية على مدن العتبات المقدسة، وحاولوا عقد مصالحة بين العلماء السنة والشيعة.[١٠]

مراجع الشيعة والوحدة الاسلامية

وكانت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر قد شهدت حركة سياسية ثقافية قادها السيد جمال الدين الأفغاني (الشيعي الإيراني الأسدآبادي) لتوحيد العالم الاسلامي تحت راية القرآن. كما ورد في مجلة (العروة الوثقى) التي أسسها الأفغاني في باريس، وقال فيها:"هل آن الأوان ليصبح العالم الاسلامي من أدرنة الى بيشاور دولة اسلامية متصلة بالأرض متحدة العقيدة يجمع أهلها القرآن؟ أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى

---

[١٠] – نقاش، اسحاق، شيعة العراق (١٩٩٤) ص ١٠٦ دار المدى ، دمشق، ط ١ ١٩٩٦

أخيه بما حكم الله من قوله " انما المؤمنون إخوة" (الحجرات ١٠) فيقفون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب؟ لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا. فان هذا ربما كان عسيرا ولكن ارجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين... ولكل ذي ملك يسعى بجهده لحفظ الأمر ما استطاع، فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه".[١١] وخاطب الأمة الاسلامية قائلا:"يا أيتها الأمة المرحومة ... اعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربي والتركي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية".[١٢]

ودعا الأفغاني الى تجاوز الخلافات الطائفية، ولا سيما بين الإيرانيين والأفغان قائلا:"الفرس والأفغان.. طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم، وقد زادهما ارتباطا اجتماعيا في الديانة الحقة الاسلامية، ولا يوجد بينهما الا نوع من الاختلاف الجزئي (يشير الى الخلاف الطائفي) لا يدعو الى شق العصا، وتمزيق نسيج الاتحاد، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سببا في تخالف عنيف".[١٣] وخاطب الإيرانيين بالخصوص:"أيها الفارسيون.. كونوا للوحدة الدينية دعامة، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية، أنتم بما سبق أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية.. أظن لا يخفى عليكم أن هذا الوقت أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين، لتكونوا بالاتحاد معهم حصنا حصينا، وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين، أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الانجليز على الممالك الهندية، إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين". [١٤]

---

[١١] - الأفغاني، السيد جمال الدين (١٨٣٨-١٨٩٧)، والشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، العروة الوثقى (١٨٨٤)، ص ٧٣ إعداد وتقديم سيد هادي خسروشاهي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م

[١٢] - المصدر، ص ١٣٩

[١٣] - المصدر، ص ١٩٣

[١٤] - المصدر، ص ١٩٥

ولقيت الدعوة للوحدة الاسلامية استجابة كبيرة من المجتهدين الشيعة الذين أصدروا ، في كانون الأول ١٩١٠ فتاوى جاء فيها: " ... قد رأينا اختلاف كلمة العلماء في غير ما يتعلق بأصول الديانة والشقاق بين سائر طبقات المسلمين هو السبب الموجب لانحطاط دول الاسلام واستيلاء الأجانب على معظم الممالك الاسلامية.. فلأجل المحافظة على الكلمة الجامعة الدينية والمدافعة عن الشريعة الشريفة المحمدية قد اتفقت الفتاوى من المجتهدين العظام الذين هم رؤساء الشيعة الجعفرية ومن علماء أهل السنة الكرام المقيمين بدار السلام، على وجوب الاعتصام بحبل الاسلام كما أمرهم الله به... وعلى وجوب إتحاد كافة المسلمين في حفظ بيضة الاسلام وصون جميع الممالك الاسلامية من العثمانية والإيرانية عن مداخلات الأجانب وتشبثاتهم... ونذكر عامة المسلمين الأخوة التي عقدها الله تعالى بين المؤمنين، ونعلن لهم وجوب التحرز والتجنب عما يوجب الشقاق والنفاق، وأن يبذلوا جهدهم في حفظ نواميس الأمة والتعاون والتعاضد وحسن المواظبة على اتفاق الكلمة حتى تصان الراية الشريفة المحمدية ويحفظ مقام الدولتين العليتين العثمانية والايرانية". ووقع على هذه الفتوى المراجع الكبار كالشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني، وعبد الله المازندراني، وشيخ الشريعة الاصفهاني، واسماعيل بن صدر الدين العاملي، ومحمد حسين المازندراني.[١٥]

[١٥] - نقاش، ص ١٠٨ – ١٠٩ عن مجلة (العلم) سنة ١٩١١ ص ٤٣٤ – ٤٣٦، اعيد نشر هذه الفتوى مع تغيرات طفيفة في العرفان عدد ٦٩ سنة ١٩٨١ ص ٤ – ٥ وقد رحب بهذه الفتوى الشيعية، في مصر، الشيخ محمد رشيد رضا، الذي نشرها في "المنار"، وعلق عليها قائلا: "إن الفتوى أول مؤشر على استعداد المؤسستين الدينيتين الشيعة والسنية لاعلاء وحدة المسلمين". نقاش ص ١٠٩ وعندماقامت ايطاليا باحتلال طرابلس الغرب وبنغازي في تشرين الأول ١٩١١ ، أصدر جميع المجتهدين الشيعة الكبار فتوى تدعو الى الجهاد ضد إيطاليا. وأصدروا بيانات تندد باحتلال ليبيا، وقاموا بجمع التبرعات للحرب ضد إيطاليا ، والدعوة لحشد المقاتلين للدفاع عنها. وقارن عالم شيعي عربي في كلمة له الغزو الايطالي بالحملة الصليبية ودعا الى الوحدة بين المسلمين كافة. وكتب القنصل البريطاني: يبدو أن موجة من المشاعر المتعاطفة مع السنة قد اجتاحت الشيعة في "الكاظمين". نقاش ١١٠

وعندما شن البريطانيون حربهم على الدولة العثمانية، ونزلت قواتهم في الفاو جنوب العراق، هب العلماء الشيعة للدفاع عن العراق والقوات العثمانية وأصدروا الفتاوى بالجهاد، وانخرطوا في عمليات المقاومة.[١٦]

وتعزز الشعور بضرورة الوحدة الاسلامية وتجاوز خلافات الماضي الطائفية، عندما انكشفت الحرب العالمية الأولى عن سقوط الدولة العثمانية ووقوع معظم البلاد الاسلامية تحت براثن الاستعمار البريطاني والفرنسي، وبدأت الخطوات الأولى لاحتلال فلسطين، فقام أحد كبار المجتهدين الشيعة في العراق وهو الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (-١٩٥٢) بزيارة القدس عام ١٩٣١ وصلى الجمعة فيها ودعا الى الوحدة الاسلامية.[١٧]

وقام بعد ذلك الشيخ محمد تقي القمي، بالهجرة الى مصر، وتأسيس (دار التقريب بين المذاهب الاسلامية) في القاهرة، عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٧م والتي ضمت نخبة من العلماء المسلمين من مختلف المذاهب.[١٨] وقامت هذه الدار بإصدار مجلة (رسالة الاسلام) التي استمرت طوال أربعة عشر عاما، وأسفرت

---

[١٦] - واستنادا الى التقارير البريطانية فانه بحلول كانون الثاني ١٩١٥ كان التبشير بالجهاد يمارس في كل مسجد من مساجد العراق. وأرسل مبعوثون من مدن العتبات المقدسة الى العشائر يحثونها على قتال البريطانيين باسم الاسلام... وقيل إن زهاء ١٨ الف متطوع جندوا من بين سكان الفرات العرب الشيعة، ووضعوا بامرة القيادة التركية، وكان على رأس المجاهدين شخصيات دينية شيعية بارزة منها شيخ الشريعة الاصفهاني ومهدي الخالصي ومحمد سعيد الحبوبي ومصطفى الكاشاني ومهدي الحيدري ومحسن الحكيم. نقاش، ص ١١٢

[١٧] - وكان الشيخ كاشف الغطاء (-١٩٥٢) قد دعا من قبل الى وحدة السنة والشيعة، في كتاب له صدر حوالي ١٩٠٩ تحت عنوان (الدين والاسلام، أو الدعوة الاسلامية). نقاش ، **شيعة العراق** ، ص ١٠٤

[١٨] - رأس الجمعية في أول تأسيسها أحد كبار المصلحين الوحدويين الوزير السابق للأوقاف محمد علي علوية باشا، وكان من بين أعضائها الشيخ عبد المجيد سليم، رئيس هيئة الفتوى بالأزهر (أصبح شيخا للأزهر فيما بعد) والشيخ أحمد حسين مفتي وزارة الأوقاف، والشيخ محمود شلتوت (أصبح شيخا للأزهر فيما بعد) والشيخ عبد اللطيف دراز، وكيل الأزهر، والشيخ عيسى ممنون، عضو هيئة كبار العلماء ورئيس الجمعيات الشرعية، والشيخ حسن البنا رئيس جمعية الاخوان المسلمين، والشيخ عبد الوهاب خلاف، والشيخ علي الخفيف والشيخ محمد المدني، وهم من كبار أساتذة الفقه والتشريع بالجامعة، إضافة الى الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، والشيخ محمد تقي القمي، ممثلا للمرجعية الدينية في قم، والشيخ محمد حسين

جهودها عن رأب الصدع التاريخي بين المسلمين السنة والشيعة، بإصدار شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت، عام ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م فتوى تنص على جواز العمل وفق المذهب الجعفري.[١٩] وتدريسه في الأزهر الشريف.

وربما ساهم قيام الأنظمة العلمانية في كل من إيران والعراق وتركيا (بعد سقوط الخلافة العثمانية) وغيرها، في تخفيف حدة التوتر الطائفي في العالم الاسلامي، الى درجة كبيرة، قبل أن يعود التوتر الى السطح مرة أخرى، بعد قيام الثورة الاسلامية في إيران عام ١٩٧٩. وبالرغم من أن هذه الثورة شكلت في جوهرها ثورة على الفكر الشيعي الإمامي الذي يحصر الحق بتشكيل الحكومة في الامام الثاني عشر الغائب محمد بن الحسن العسكري، الذي يعتقد الشيعة بأنه ولد في منتصف القرن الثالث الهجري، ثم غاب منذ ذلك الحين الى اليوم وسوف يظهر في المستقبل، وتخلي الشيعة عن شرط العصمة والنص في الامام، وقبولهم بمبدأ الحكم الجمهوري الديمقراطي القائم على الانتخاب ، وهو ما يقربهم جدا من الفكر السياسي السني القائم على

كاشف الغطاء، والسيد عبد الحسين شرف الدين من علماء النجف الأشرف، والشيخ علي بن إسماعيل المؤيد ممثلا للمذهب الزيدي في اليمن، والقاضي محمد بن عبد الله العمري. ويكيبيديا، نقلا عن كتاب: "تجربة التقريب بين المذاهب الاسلامية" للكاتب المصري فهمي هويدي. وكانت الجمعية تحظى بدعم من المرجع الأعلى للطائفة الشيعية السيد محمود البروجردي (١٩٦٠)

[١٩] - وهذا نصها: "إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الإمامية الإثني عشرية مذهب يجوز التعبد به كسائر مذاهب أهل السُنَّة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات". القاسم، اسعد، ازمة الخلافة، ص ٢٧٤ عن / عن رسالة الاسلام، العدد ٣ من السنة ١١ ص ٢٢٧ عام ١٩٥٩ انظر ايضا تعليق الشيخ محمد الغزالي (١٩٩٦) على هذه الفتوى في كتابه "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين"، حيث قال:"اعتقد أن فتوى الاستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شوط واسع في هذا السبيل، وهو استئناف لجهد المخلصين من أهل السنة وأهل العلم جميعا، وتكذيب لما يتوقعه المستشرقون من أن الأحقاد سوف تأكل هذه الأمة قبل أن تلتقي صفوفها تحت راية واحدة، وهذه الفتوى في نظري بداية الطريق وأول العمل". المصدر، ص ٢١٣-٢١٤ الطبعة السابعة، الجيزة، نهضة مصر للطباعة والنشر ٢٠٠٥

الشورى، ويزيل الخلافات الجوهرية بين السنة والشيعة،[٢٠] الا أن بعض الأسماء والطقوس والقشور المتخلفة من التراث الشيعي القديم، أضفت على الثورة الإيرانية طابعا شيعيا. وبالرغم من أن الثورة الاسلامية الإيرانية رفعت راية الوحدة الاسلامية، وتبنت خطابا معتدلا تجاه الخلفاء الثلاثة، ودعمت القضية الفلسطينية بقوة دون النظر الى هوية الفلسطينيين المذهبية (السنية) إلا أنها حركت الخارطة الطائفية في المنطقة، ودفعت الشيعة للمطالبة بحقوقهم السياسية في العراق ودول الخليج (السنية) والشرق الأوسط، واستقطبت تعاطف كثير من الشباب السنة في البلاد العربية، وهو ما دفع بعض الدول العربية لدعم الرئيس العراقي صدام حسين لشن حرب ضد ايران في الثمانينات، استمرت ثماني سنوات من ١٩٨٠ الى ١٩٨٨ وتأجيج المشاعر الطائفية للوقوف أمام تصدير الثورة الاسلامية الى البلاد العربية.[٢١]

الدور السعودي الوهابي في تعميق الخلاف الطائفي ومنع الوحدة الإسلامية

وبينما كانت تركيا العلمانية هذه المرة بعيدة عن الصراع القومي (بين العرب والفرس) والطائفي (بين السنة والشيعة) في الشرق الأوسط، استلمت الراية المملكة العربية السعودية والحركة الوهابية لمقاومة الثورة الاسلامية الإيرانية والحركة الشيعية في العالم. وفي الواقع لم يكن هناك صراع بين السنة والشيعة ولا بين العرب والفرس، ولكن الأنظمة العربية المستبدة كنظام صدام حسين في العراق ونظام آل سعود في السعودية، وجدت نفسها في مواجهة ثورات شعبية تطالب بالحرية والعدالة والديمقراطية، فاستخدمت الورقة الطائفية، لتحارب فئة من الشعب، وتستقطب فئة أخرى باسم الدفاع عن "أهل السنة".

---

[٢٠] - وكان صاحب "المنار" محمد رشيد رضا قد رحب بالحركة الدستورية في إيران عام ١٩٠٦ واعتبر حكومة الشورى المنبثقة عنها حكومة القرآن، وقال:" لما أعلن الشاه مظفر الدين حكومة الشورى النيابية في ايران (بناء على دستور ١٩٠٦) نوهنا بعمله في (م ٧ و٨ من المنار) وفضلناه بها على سائر ملوك المسلمين وان عارض ذلك بعض علمائهم المتعصبين الجامدين، إذ بينا أن حكومة الشورى هي حكومة القرآن، فاذا نفذتها حكومة ايران تكون هي الحكومة الاسلامية الوحيدة". رضا، محمد رشيد (١٩٣٥)، السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة، الرسالة الأولى ومقدمتها نشرت في مجلة المنار، ص ١٦ الطبعة الثانية ١٩٤٧ دار المنار ، القاهرة

[٢١] - أصدر الاخواني السوري السلفي والمدرس في بريدة في السعودية، محمد سرور زين العابدين كتابا ضد إيران والشيعة بعنوان "وجاء دور المجوس" باسم مستعار هو "عبد الله الغريب". وذلك في عام ١٩٨٢ ، مكتبة الرضوان، مصر ٢٠٠٥

وكانت السعودية قد استخدمت عند تأسيس دولتها الأولى (١٧٤٤-١٨١٨) سلاح التكفير الوهابي ضد الدولة العثمانية (السنية) [٢٢] ثم خنعت في الدولة الثانية بعد تدمير إبراهيم باشا لعاصمتها الدرعية عام ١٨١٨ للدولة العثمانية، خلال القرن التاسع عشر، ثم عادت لتكفير الدولة العثمانية، عند تأسيس الدولة الثالثة، والخروج عليها أثناء الحرب العالمية الأولى.[٢٣] وعندما أراد عبد العزيز بن سعود السيطرة على الحجاز عام ١٩٢٥ حاول أن يظهر بوجه معتدل. [٢٤] وملتزم بالشورى والوحدة الاسلامية.[٢٥] فدعا الى مؤتمر

---

[٢٢] - قام الأمير سعود بن عبد العزيز (١٨١٤م) بتكفير الدولة العثمانية، بعد سيطرته على الحجاز، ورفض الهدنة والصلح معها، وكتب رسالة مطولة الى والي الشام (يوسف باشا) جاء فيها:" وأما المهادنة والمسابلة على غير الإسلام، فهذا أمر محال ، بحول الله وقوته ، وأنت تفهم أن هذا أمر طلبتموه منا مرة بعد مرة ... وبذلتم الجزية على أنفسكم كل سنة ثلاثين ألف مثقال ذهبا ، فلم نقبل منكم ولم نجبكم بالمهادنة ، فان قبلتم الإسلام فخيرتها لكم وهو مطلبنا ، وان توليتم فنقول كما قال الله تعالى: (فان تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم). وقد احتج والي بغداد سليمان باشا ، على هذه الرسالة العنيفة ، فأرسل اليه سعود رسالة يعلن فيها موقفا أكثر صراحة من الدولة العثمانية، ويتهمها بالكفر والشرك والردة ، ويدعوها الى الدخول في الإسلام . وهو ما استفز الدولة العثمانية للقيام بحملة مضادة تمثلت في الإيعاز الى والي مصر محمد علي باشا بالهجوم على الحجاز و نجد و القضاء على الدولة الوهابية. راجع الموسوعة الوهابية: الدرر السنية والأجوبة النجدية ، ج١ ص ٢٨٧ و ٣٠٤ – ٣١٣ و ج٧ ص ٢٦١ . وأيضا : رسائل أئمة دعوة التوحيد ، لفيصل بن مشعل آل سعود ، ص ٥٥ – ٧٩ و هامش عنوان المجد ، لابن بشر، ج١ ص ٣٢٣

[٢٣] – يتحدث أمين الريحاني (١٩٤٠) الذي كان مرافقا لابن سعود، في كتابه "ملوك العرب" عن اعتبار الحركة الوهابية السعودية لغيرهم من المسلمين وخاصة الشيعة "مشركين" ويقول: " أنهم يعتقدون ان من كان خارجاً عن مذهبهم ليس بمسلم فيشيرون الى ذلك في سلامهم بعضهم على البعض:(السلام عليكم يا الإخوان حيا الله المسلمين).واذا سلم عليهم سني او شيعي فلا يردون السلام " . الريحاني ، ملوك العرب، ص ٥٨٤ – ٥٨٥ دار الجيل بيروت، الطبعة الثامنة

[٢٤] - وحسبما يقول محمد جلال كشك (١٩٩٣) فان توماس لورنس (المعروف بلورانس العرب ، وهو الضابط البريطاني المكلف بالاشراف على القوات العربية ضد الدولة العثمانية عام ١٩١٦) وجه تحذيرا لابن سعود بقوله:"إذا كان ابن سعود يريد أن يتخلى عن الوهابية فنحن نرحب باحتلاله للحجاز، وأما إذا كان يريد أن يحافظ عليها فاننا سوف نأتي بالمسلمين الهنود لكي يخلصوا بلاد الحرمين منه، إذا ما أصر على الوهابية". كشك، محمد جلال، السعوديون والحل الاسلامي..مصدر الشرعية للنظام السعودي، ص ٤٩٦ الطبعة الثالثة ١٩٨٢

إسلامي عام سنة ١٩٢٦ في مكة المكرمة ضم الهنود والمصريين والشاميين والجاويين والأتراك، ولكنه لم يدع الشيعة أو الإيرانيين، لأن أعوانه الوهابيين كانوا يكفرون الشيعة وينعتونهم بالرافضة، ويعتبرونهم من أهل دين آخر غير الاسلام، وقد طلبوا من إمامهم ابن سعود أن يلزم الشيعة في القطيف والأحساء البيعة على الاسلام.[٢٦]

وبناء على سياسة التكفير للشيعة، تصدى الوهابيون لفكرة الوحدة الاسلامية، التي كان جمال الدين الأفغاني قد أطلقها في نهاية القرن التاسع عشر، واستطاعوا أن يؤثروا على تلميذه محمد رشيد رضا، صاحب "المنار" لينكفئ عن تلك الدعوة الوحدوية، فأصدر كتابه (السنة والشيعة، أو الوهابية والرافضة) واتهم فيه التشيع للخليفة الرابع علي بن أبي طالب (رض) بأنه كان مبدأ تفرق هذه الأمة المحمدية في دينها وفي سياستها.[٢٧] ثم قام تلميذه الوهابي المصري محمد حامد الفقي (١٩٥٩) مؤسس جماعة أنصار السنة، سنة ١٩٢٦ باتهام الشيعة بكل ما حل بالمسلمين من تمزق وموت وتحطيم لعقائد المسلمين.[٢٨] وقال في خاتمته لكتاب (السنة والشيعة.. أو الوهابية والرافضة) ما يلي:"إن كثيرا من العلماء المسلمين الصادقين، في مختلف العصور حسبوا الشيعة فرقة من المسلمين ضلوا بعض الضلال، فخاطبوهم بلسان الأخوة الاسلامية ودعوهم

---

[٢٥] – المصدر ، ص ٥٢٦-٥٢٧

[٢٦] – أصدر المفتي الشيخ محمد بن عبد اللطيف (و أربعة عشر عالماً آخر) في شعبان سنة ١٣٤٥ (١٧/١/ ١٩٢٧) بيانا جاء فيه : "...أما الرافضة فقد أفتينا للامام ابن سعود أن يلزمهم البيعة على الاسلام ، ويمنعهم من اظهار شعائر دينهم الباطل ، وعلى الامام أن يلزم نائبه في الاحساء ان يحضرهم عند الشيخ (ابن بشر) و يبايعوه على دين الله ورسوله... و يلزمهم بتعليم (ثلاثة الاصول) – وهو كتاب للشيخ عبد الوهاب – و مَن أبى قبول ذلك ينفى من بلاد المسلمين...و أما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فأفتينا الامام بكفهم عن الدخول في مراعي المسلمين و أرضهم ". حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٢٢٧ و أنور عبد الله : العلماء والعرش ص ٤٧١ و التويجري ، عبد العزيز ، لسراة الليل هتف الصباح ، ص ٣٦٧ – ٣٦٩

[٢٧] - رضا، محمد رشيد (١٩٣٥)، السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة، الرسالة الأولى ومقدمتها نشرت في مجلة المنار، ص ٤ الطبعة الثانية ١٩٤٧ دار المنار ، القاهرة

[٢٨] - المصدر، ص ٢٤٦

بذلك الى أن يفيئوا الى ظل الوحدة الاسلامية تحت راية الكتاب والسنة... ونستطيع اليوم أن نؤكد في صدق ويقين جازم أن تلك الحية الخبيثة لن تجد هذه الفرصة الا عند من عرفت الأمة العاقلة الرشيدة أنهم أدعياء اصلاح، بل أدعياء إسلام، مهما زعموا لأنفسهم من صور وألقاب وانهم قلة قد ولتهم الأمة ظهرها".[٢٩] وانتهى الفقي الى "أنه لمن أغبى الغباء وأجهل الجهل بحق الاسلام وباطل الشيعة: ومحاولتهم ضم هؤلاء الحشرات السامة والعمل على تقريبهم والصاقهم الى جسم الأمة الاسلامية". [٣٠]

وفيما كانت مسيرة الوحدة الاسلامية تتعزز بين السنة والشيعة بتأسيس "دار التقريب" في القاهرة سنة ١٩٤٧، ولا سيما بعد إصدار شيخ الأزهر محمود شلتوت لفتوى الاعتراف بالمذهب الجعفري وجواز العمل به سنة ١٩٥٨، كان الوهابيون يمتعضون من ذلك التقارب، حيث قام أحد مشايخ السعودية وهو (محمد نصيف) سنة ١٩٦٠ بنشر كراس لشيخ سلفي سوري يعيش في القاهرة، هو محب الدين الخطيب (١٨٨٦ – ١٩٦٩) تحت عنوان "الخطوط العريضة التي قام عليها دين الأئمة الإثني عشرية" ونادى نصيف في مقدمته للكتاب باستحالة الدعوة للتقريب بين ما أسماه دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية، ومخالفيهم من أهل السنة.[٣١] وأعرب الخطيب في مقدمة كتابه عن أسفه لتأثر الأزهر بفكرة التقريب.[٣٢] واعتبر الدعوة الشيعية للتقريب محاولة لتشييع أهل السنة كما حصل في العراق التي تحولت من بلاد سنية فيها أقلية شيعية إلى بلاد شيعية فيها أقلية سنية. [٣٣]

كما كتب الخطيب مقدمة لكتاب الشيخ عبد الله السويدي عن "مؤتمر النجف" الذي عقده الملك الإيراني نادر شاه الأفشاري سنة ١١٥٦هـ /١٧٤٩م، وقال فيها:"نجم أخيرا داع من الشيعة حضر الى مصر من

[٢٩] - المصدر، ص ٢٤٧

[٣٠] - المصدر، ص ٢٦٩

[٣١] – الخطيب، محب الدين، الخطوط العريضة التي قام عليها دين الشيعة الامامية، (١٩٦٠) ص ٥

[٣٢] – المصدر، ص ٧

[٣٣] – المصدر، ص ٨

إيران ليدعو إلى ما سماه "التقريب بين المذاهب الاسلامية" ومراده من ذلك أن يحدث شيئا جديدا مؤلفا مما عند أهل السنة والشيعة فقط ... ونحن أيقنا من اليوم الأول أن هذا التقريب بين مذهبي السنة والشيعة غير ممكن ولا معقول، ثم هو يؤدي إلى فساد، لأن لكل من المذهبين أساسا يقوم عليه ويختلف اختلافا جوهريا عن الأساس الذي يقوم عليه المذهب الآخر. والطريقة التي يمكن بها التقريب هي أن يتنازل أتباع أحد المذهبين عن مذهبه ويلتحق بأهل المذهب الآخر. ولم نأنس من داعية هذا التقريب أنه وجماعته مستعدون لهذا التنازل، فلم يبق إلا أن يطمع في تنازل أهل السنة عن مذهبهم، أو تكوين مذهب ثالث جديد مؤلفا من بعض ما عند هؤلاء وبعض ما عند هؤلاء، ولا ينتظر بعد ذلك أن يرضى به أهل السنة ولا الشيعة فيكون فسادا جديدا في الاسلام".[٣٤] وقال:" أما الدعوة الجديدة المريبة الى "التقريب" بين مذهبين مختلفين في الأسس التي قام كل منهما عليها، لمآرب يظهر أن لبعض الجهات الدبلوماسية علاقة تشجيع عليها وبطرق سخيفة لا تنطبق على علم ولا على شرع ، فانها جديرة بأن ترفض من أهل السنة ومن الشيعة على السواء لما ينتج عنها من عبث بالمذهبين قد يبلغ الى أن يكون منه مذهب ثالث تزداد به الفرقة بين المسلمين".[٣٥]

وهكذا لم يرَ محب الدين الخطيب أية إمكانية للحوار والتقريب إلا بهذه الصورة:"الطريقة التي يمكن بها التقريب هي أن يتنازل أتباع أحد المذهبين عن مذهبه ويلتحق بأهل المذهب الآخر".[٣٦]

وأصدرت اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء في السعودية، الفتوى التالية، ردا على فتوى الأزهر بجواز التعبد بالمذهب الجعفري: "لا يجوز للمسلم أن يقلد مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية ولا أشباههم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والجهمية وغيرهم".[٣٧] وعززت اللجنة فتواها بالقول "إن مذهب الشيعة الإمامية

---

[٣٤] – السويدي، عبد الله بن حسين بن مرعي العباسي (١١٧٤هـ)، "مؤتمر النجف" مع مقدمة لمحب الدين الخطيب، ص ٨ مطبعة البصري، بغداد، بدون تاريخ

[٣٥] – المصدر، ص ١٠

[٣٦] – المصدر، ص ٨

[٣٧] – فتاوى إسلامية (اللجنة الدائمة للبحوث والافتاء) ج١/١٥٣

مذهب مبتدع في الإسلام أصوله وفروعه".[٣٨] وأصدرت حكما بتكفير عوام الشيعة الاثني عشرية بقولها :"من شايع من العوام إماماً من أئمة الكفر والضلال، وانتصر لسادتهم وكبرائهم بغياً وعدواً حكم له بحكمهم كفراً وفسقاً..لأن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل رؤساء المشركين وأتباعهم، وكذلك فعل أصحابه ولم يفرقوا بين السادة والأتباع".[٣٩]

وقامت المملكة العربية السعودية بحملة فكرية إعلامية لمحاربة الشيعة ورفض أي تقارب معهم، ونشرت عشرات بل مئات الكتب والفتاوى التي تكفرهم، وكنموذج منها كتاب (عقائد الشيعة الاثني عشرية، سؤال وجواب) لعبد الرحمن الشثري، الذي اعتبر فيه الدعوة للتقريب بين السنة والمذاهب الاخرى، فاشلة لأنها تجتث من القلوب قاعدة الاسلام: الولاء والبراء. [٤٠] "ولأن التشيع انما هو ستار لتنفيذ أغراض خبيثة ضد الاسلام وأهله". [٤١] وحسم أمر التقريب بقوله " أخي المسلم... إعلم أنه لا لقاء بيننا وبين الفرق المخالفة للكتاب والسنة إلا وفق الأصول الشرعية التي نصت عليها الآية الكريمة "قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم..." وهي توحيد الله ونبذ الاشراك به وطاعته في الحكم والتشريع واتباع خاتم الأنبياء والمرسلين، فيجب أن تكون هذه الآية شعار كل مجادلة وكل جهد يبذل لتحقيق غير هذه الأصول فهو باطل.. باطل..باطل".[٤٢]

---

[٣٨] – وكانت اللجنة تتألف من: الرئيس: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ونائبه :عبد الرزاق عفيفي، وعضوية كل من: عبد الله بن غديان، وعبد الله بن قعود. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ج٢/٣٧٨

[٣٩] – فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ج٢/٣٧٧

[٤٠] – الشثري، عبد الرحمن بن سعد، عقائد الشيعة الاثني عشرية، سؤال وجواب ، تقديم عبد الله الجبرين، عبد الله بن محمد الغنيمان، عبد الرحمن الصالح المحمود، ص ١٢، مكتبة الرضوان السلفية، البحيرة ، مصر ، الطبعة السادسة ٢٠٠٧

[٤١] – المصدر، ص ١٠٨

[٤٢] – المصدر، ص ١٨١

وقام رئيس قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم ناصر بن عبد الله القفاري بتكفير الشيعة واخراجهم من الاسلام واتهامهم بكل ما قذفهم السابقون واللاحقون من تهم الزندقة والخيانة والتآمر على الاسلام والمسلمين، ورفض أي تقارب معهم.[٤٣]

ابن باز: لا لقاء ولا تقارب مع الشيعة

وأما رئيس اللجنة الدائمة للافتاء في السعودية، الشيخ عبد العزيز بن باز فقد وصف الشيعة بتشابه قلوبهم مع اليهود والنصارى في الزيغ والالحاد والكفر والضلال والحقد على المسلمين والكيد لهم... وقال:"لأمر ما سعى جماعة من شيوخ الأزهر المصريين مع القمي الايراني الرافضي في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وجدّوا في التقارب المزعوم، وانخدع بذلك قلة من كبار العلماء الصادقين ممن طهرت قلوبهم ولم تعركهم الحياة، وأصدروا مجلة سموها (مجلة التقريب) وسرعان ما انكشف أمرهم لمن خدع بهم، فباء أمر جماعة التقريب بالفشل، ولا عجب فالقلوب متباينة، والأفكار متضاربة، والعقائد متناقضة، وهيهات هيهات أن يجتمع النقيضان ، أو يتفق الضدان".[٤٤]

وما فتئ مفتي السعودية السابق إبن باز يحارب فكرة التقريب بين الطائفتين بشدة، فقال في جواب سؤال عن إمكانية التقريب:" التقريب بين الرافضة وبين أهل السنة غير ممكن، لأن العقيدة مختلفة، فعقيدة أهل السنة والجماعة توحيد الله واخلاص العبادة لله... والرافضة خلاف ذلك، فلا يمكن الجمع بينهما، كما إنه

---

[٤٣] – القفاري ، ناصر، مسألةُ التّقريب بين أهْل السُّنة والشّيعَة (١٩٧٩) ج ١ ص ١٨ دار طيبة الرياض، ط ٣، ١٤٢٨هـ وللقفاري عدة كتب أخرى في نقد الشيعة منها: أصول مذهب الشيعة، والبدعة المالية عند الشيعة الإمامية، وتحقيق كتاب: التشيع والشيعة لأحمد الكسروي.

[٤٤] – فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والافتاء ، الفتوى رقم ٧٨٠٧ ج٢ ص ١٣٣ – ١٣٤ جمع الشيخ أحمد بن عبد الرزاق الدويش. الشثري ص ١٨٤ و مجلة المجاهد. السنة الأولى. عدد ١٠ شهر صفر ١٤١٠هـ – مجموع فتاوى ومقالات متنوعة الجزء الخامس

لا يمكن الجمع بين اليهود والنصارى والوثنيين وأهل السنة، فكذلك لا يمكن التقريب بين الرافضة وبين أهل السنة لاختلاف العقيدة".[٤٥]

وأصدرت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء برئاسة عبد العزيز بن باز وعضوية المشايخ عبد الله بن قعود وعبد العزيز بن غديان ، وعبد الرزاق عفيفي ، وعبد الله بن جبرين، فتوى بتاريخ ١٤١٢/٣/١٢ تحت رقم ٢٠٠٨ تقضي بتكفير الشيعة بصورة عامة وإخراجهم من الملة والحكم بتكفيرهم وردتهم ونفاقهم .

حيث ورد فيها ما يلي:

١– إن الشيعة مشركون شركا أكبر يخرج من ملة الاسلام

٢– وانهم مرتدون

٣– وانهم غلاة

٤– وانهم منافقون

وبناء على ذلك فقد تقرر ما يلي

أ – حرمة ذبائحهم

ب – حرمة الزواج منهم

---

[٤٥] – الشثري، ص ١٨٥ و مجموع فتاوى ابن باز، ج ٥ /١٣٠ – ١٣١ ورفض إبن باز حتى فكرة التعاون بين السنة والشيعة في محاربة الأعداء الخارجيين كالشيوعيين والاسرائيليين، قائلا: "لا أرى ذلك ممكنا، بل يجب على أهل السنة أن يتحدوا وأن يكونوا أمة واحدة وجسدا واحدا، وأن يدعوا الرافضة أن يلتزموا بما دل عليه كتاب الله وسنة الرسول (ص) من الحق. فاذا التزموا بذلك صاروا إخواننا وعلينا أن نتعاون معهم، أما ما داموا مصرين على ما هم عليه من بغض الصحابة وسب الصحابة إلا نفرا قليلا، وسب الصديق وعمر، واعتقادهم في الإثني عشر، أنهم معصومون وأنهم يعلمون الغيب، كل هذا من أبطل الباطل ، وكل هذا يخالف ما عليه أهل السنة والجماعة". ابن باز، مجموع فتاوى ج٥ /١٣٠ – ١٣١

ج – رفض دعاواهم في الأخوة الاسلامية

وقد بنى هؤلاء المشايخ فتاواهم ، حسبما جاء فيها ، على ما يلي:

١- دعاء الشيعة لعلي بن ابي طالب دائما في الشدة والرخاء ، ودعاء أئمتهم ، ومناداتهم في القيام والقعود ، وذلك حسب السماع الشخصي لأفراد منهم في (عرفات) والسعي والطواف ، كما يقول الشيخ ابن جبرين.

٢- الغلو في وصف الامام علي ، حسب السماع الشخصي في عرفات

٣- جعل الامام علي ربا وخالقا ومتصرفا في الكون ، وعلمه بالغيب وامتلاك الضر والنفع

٤- الطعن في القرآن الكريم والزعم بتحريفه ، والحذف منه ما يتعلق بأهل البيت وأعدائهم.

٥- عدم اعتبار القرآن دليلا

٦- الطعن في أكابر الصحابة والخلفاء الثلاثة ، وبقية العشرة وأمهات المؤمنين

٧- عدم قبول أحاديث الصحابة واتهامهم بالكفر

٨- العمل بأحاديث مكذوبة أو لا دليل فيها

٩- ممارسة النفاق والتقية

١٠- التمسك بالنفاق كعقيدة

وفي الحقيقة لا يمر يوم في السعودية إلا وتصدر فتوى من أحد المشايخ الوهابيين أو مجموعة منهم بكفر الشيعة وضرورة محاربتهم ومقاطعتهم، كالفتوى التي أصدرها الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك بتاريخ ١/ ١/

٢٠٠٧ والتي يقول فيها: إن "الرافضة" في جملتهم هم شر طوائف الأمة وتجتمع فيهم موجبات الكفر والشرك.. تكفير الصحابة .. وتعطيل الصفات .. والشرك في العبادة بدعاء الاموات.. والاستغاثة بهم....". ويضيف "هذا واقع الرافضة الإمامية الذين أشهرهم الإثنا عشرية فهم في الحقيقة كفار مشركون لكنهم يكتمون ذلك " . وقال البراك في فتواه "مذهب أهل السنة.. ومذهب الشيعة ضدان لا يجتمعان. فلا يمكن التقريب إلا على أساس التنازل عن أصول مذهب السنة أو بعضها أو السكوت عن باطل الرافضة وهذا مطلب لكل منحرف عن الصراط المستقيم". [٤٦] وعاد البراك مرة أخرى ليؤكد موقفه الرافض لأي تقارب بين السنة والشيعة، بتاريخ ٢٠١٢/٢/٢٥ فقال:"السنة والرافضة مذهبان متناقضان وطائفتان مختلفتان ومذهبهما ضدان لا يجتمعان؛ ... والدعوة إلى التقريب بين السنة والرافضة يشبه الدعوة إلى التقريب بين النصرانية والإسلام، ومعلوم أن الكفر والإسلام ضدان لا يجتمعان وكذلك السنة والبدعة، ومعلوم أن طائفة الرافضة هم شر طوائف الأمة؛ فقد جمعوا إلى أصولهم الكفرية أصول المعتزلة وشر ما تقوم عليه الصوفية، ... فالذي يدعو إلى التقريب بين السنة والشيعة إما جاهل بحقيقة المذهبين، وإما متجاهل مغالط، والغالب على دعاة التقريب من الشيعة التلبيس والمغالطة، وأما دعاة التقريب من أهل السنة ففيهم المخدوعون، الذين يظنون أن الخلاف بين السنة والشيعة من جنس الخلاف بين المذاهب الفقهية، كالحنبلية والشافعية والمالكية والحنفية". [٤٧]

ولم يجد البراك مانعا من التحريض على قتال الشيعة، فأجاب على سؤال حول إمكانية وجود جهاد بين فئتين من المسلمين (أي: السنة مقابل الشيعة)؟ وقال:"إن من المعروف أنَّ الشيعة تعني الرافضة، وهم الإمامية الاثني عشرية، لهم اعتقادات باطلة ... وعلى هذا إن كان لأهل السنة دولة وقوة وأظهر الشيعة بدعهم، وشركهم، واعتقاداتهم، فإن على أهل السنة أن يجاهدوهم بالقتال، بعد دعوتهم ليكفوا عن إظهار

---

[٤٦] - نشرت الفتوى بموقع البراك على الانترنت . http://www.taghrib.org/pages/news.php?nid=248

[٤٧] - موقع الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك :الفرق والجماعات الإسلامية - أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تاريخ الفتوى: ٢٣-١١-١٤٢٥ هـ ، تاريخ النشر: ٣ ربيع الآخر ١٤٣٣ (٢٠١٢/٢/٢٥) ، http://ar.islamway.net/fatwa/36667

شركهم، وبدعهم، ويلزموا شعائر الإسلام، وإذا لم تكن لأهل السنة قدرة على قتال المشركين، والمبتدعين، وجب عليهم القيام بما يقدرون عليه من الدعوة، والبيان".[٤٨]

وقد أعطى هذا الموقف الوهابي السعودي السلبي العنيف من الشيعة، الحركات الوهابية الناشطة في البلاد الأخرى كالعراق وسوريا ولبنان وباكستان وأفغانستان، شرعية استباحة دماء الشيعة وأموالهم وأعراضهم.[٤٩]

ومن الواضح اعتماد الموقف الوهابي المكفر للشيعة، على قراءات متعمدة للمتطرفين والغلاة والدمج بينهم وبين عموم الشيعة، وعلى صور نمطية تاريخية قديمة سلبية، واتهامات عشوائية، ونظرات غير علمية، ومعاملة طائفة على ضوء كتب وأقوال قديمة وشاذة وفردية، و تعميم غير مبرر ، وخلط كبير بين جميع فرق الشيعة الحاضر منها والمنقرض، وعدم ملاحظة التطورات النقدية الهائلة التي قام بها علماء الشيعة عبر التاريخ لتصفية التراث الشيعي ومكافحة الغلاة والمتطرفين. وقد أقرت بذلك فتوى أخرى صادرة عن اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء تحت رقم ٧٣٠٨ وقالت: " إن الشيعة فرق كثيرة منها الغلاة وغير الغلاة". ولكن الوهابيين نسوا هذه الفتوى وعادوا للخلط بين مختلف تياراتهم، في خضم الحرب الإعلامية المعلنة ضد عامة الشيعة.

---

[٤٨] – البراك، عبد الرحمن . موقع المنجد سؤال رقم (١٠٢٧٢) .

[٤٩] – وقد عانت الحركة الوهابية نفسها من التكفير من قبل حركات داخلية مضادة لها تكفر آل سعود والمشايخ التابعين والمؤيدين له، وتدعو وتعمل من أجل إسقاط النظام السعودي "نظرا لافتقاده الشروط الشرعية الدينية التي تؤهله للاستمرار في الحكم". كحركة "الإخوان" الذين انقلبوا على المؤسس عبد العزيز بن سعود، عام ١٩٢٧ وحركة جهيمان بن سيف العتيبي الذي قام باحتلال الحرم المكي عام ١٩٧٩ وأعلن فيه ظهور المهدي (محمد بن عبد الله القحطاني) . وتنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن، الذي أعلن سنة ١٩٩٧ **في** رسالة مفتوحة وجهها الى عامة المسلمين وأبناء الجزيرة العربية بالخصوص: "خيانة النظام السعودي للأمة، وموالاة الكفّار ومناصرتهم ومظاهرتهم على المسلمين، واعتبار ذلك من نواقض الإسلام العشرة". ثم قام (في سنة ٢٠٠٣) باتهام النظام السعودي بالردة والكفر، كما أصدر صديقه عاصم المقدسي كتابا تحت عنوان: "الكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية". وأصدر أحد كبار علماء الوهابية وهو الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي (٢٠٠٢) فتوى بتكفير من يناصر الولايات المتحدة في حربها ضد المسلمين (في أفغانستان). مما أثار حفيظة وزير الداخلية نايف بن عبد العزيز، الذي حذر من عملية التكفير الموجهة ضد الحكومة والعلماء التابعين لها، وقال:"نحن أهل الاسلام نحن الذين نطبق شرع الله فكيف يتجرأ أناس مثل هؤلاء ويكفرون أبناء البلد ، قيادة وعلماء ورجالا ونساء؟ كيف نقبل هذا؟".(تصريح بتاريخ ٢٠٠١/١٠/١٨)

وبالرغم مما كان يفترض بالمسلمين المصارحة والحوار وتحديد نقاط الاختلاف والعمل من أجل تذويبها وازالتها، فان التيار السلفي الوهابي استغل تلك السلبيات الموروثة لاتخاذ موقف قاطع برفض الحوار مع الشيعة كما رأينا.

ما هي الحقيقة والوهم في الخلاف الطائفي؟

والسؤال الآن: هل الخلاف الطائفي حقيقي؟ أم سياسي مفتعل يختفي وراء الأسماء والعناوين الطائفية؟ وهل هو داخلي؟ أم خارجي؟ وما هي حقيقة الخلاف الطائفي في التاريخ؟ وكيف نقضي عليه؟ وهل تشترك الطوائف في مصالح مشتركة؟ أم يوجد بينها تناقض وعداء واقعي؟

وما هي الخلافات الجوهرية والقشرية، القديمة والحديثة، والزائلة والباقية ؟

وكيف نحل هذه الخلافات ونوحد المسلمين من جديد؟

وإذا كانت الوحدة الاسلامية ضرورية فلماذا فشلت محاولات التقريب بين المسلمين، خلال القرن العشرين، و لم تؤت ثمارها كما كان منتظرا؟

لقد اطلعت على عشرات الكتب والمقالات التي بحثت في موضوع الخلاف السني والشيعي، والتي كتبت من الطرفين، وحاولتْ التقريب والتوحيد بين المذهبين ، ووجدتها تفشل في تقديم رؤية عميقة لعوامل الاختلاف بين السنة والشيعة، ولذلك تفشل في تقديم الحل الناجع للقضاء على ذلك الاختلاف. فان معظم الكتابات الوحدوية تنظر الى الطوائف السنية والشيعية في نسختها الأخيرة المتبلورة بعيدا عن جذورها الأولى، وإلى إفرازاتها القشرية والسطحية والفرعية كالمسائل الفقهية والطقسية والتاريخية وبعض العادات والتقاليد السيئة، ولا تنظر الى جوهر الخلاف واتجاهاته الأساسية والحيوية. فكيف يمكن أن ينتج أي حوار لا يعرف المحاور نفسه ولا خصمه، ولا عدوه من صديقه، ولا جوهر خلافه مع الآخرين من تبعات ومخلفات الخلافات التاريخية البائدة؟

لم تدرك تلك المحاولات الوحدوية مع الأسف الشديد جوهر الخلاف وأنه ليس بين السنة والشيعة كطوائف، وإنما هو بين الحكام والشعوب، وهكذا لم تعرف جوهر الخلاف الطائفي ولم تلمسه، فذهبت تعالج القشور والسطوح والبثور والأعراض، ولم يستعد أي طرف للتنازل عن بعض أفكاره الميتة وأطره المنقرضة، فأصبح الحوار عقيما كحوار الطرشان.

ومن هنا حاولت في هذه الدراسة أن أغوص عميقا في جذور الخلاف الطائفي السني – الشيعي، وأن أكتشف طبيعة تكوّن كل طائفة، وأميز بين عناصر الخلاف القديمة البائدة، وعناصر الاتفاق التي يمكن أن تجمع الفريقين، وأبتعد عن الخلافات القشرية والسطحية. وتساءلت مثلا: ما هو المذهب الشيعي؟ وما هو خلافه الرئيسي مع أهل السنة؟ هل هي نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت القائمة على النص والعصمة والسلالة العلوية الحسينية؟ كما يؤكد عليها كل من كتب دفاعا عن الشيعة أو انتقد التشيع؟ أم أن هذا خلاف هامشي وتاريخي وبائد ولا معنى له اليوم؟ إذن فما هو جوهر الخلاف الراهن بين السنة والشيعة؟ وما هو جوهر المذهب الشيعي المعاصر؟ وهل أهل السنة هم خصوم الشيعة؟ أم إخوانهم وأهلهم الذين يناضلون من أجل تحقيق العدالة لهم والدفاع عنهم؟

كما تساءلت أيضا: ما هو جوهر المذهب السني؟ هل هو الإيمان بالشورى في مقابل النص؟ أم العمل بالسنة (الأحاديث النبوية)؟ والإيمان بالصحابة وأخذ الدين عن السلف الصالح؟ والتمسك ببعض المسائل الفقهية والنظريات الكلامية؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة وأسئلة أخرى، كان لزاما عليَّ أن أدرس تاريخ تكون الطوائف وأنظر بدقة إلى الخلافات الأساسية السابقة والمتأخرة، والباقية اليوم، وألاحظ التطورات البنوية الحاصلة في طبيعة كل طائفة، بما يقلبها رأسا على عقب، ويجعل منها نسخة مضادة لما كانت عليه في بدء نشوئها، وهو ما يفتح بابا واسعا من التشابك والتعقيد والاختلاط بين عناوين الطوائف الوهمية والحقيقية. وسوف أضرب مثلا واحدا الآن لكي أقرب الصورة، فأقول: إن الشيعة الامامية كانوا يقولون في بدء نشوئهم بنظرية النص والوراثة في الامامة، في مقابل أهل السنة الذين كانوا يقولون بالشورى وحق الأمة في اختيار الأئمة، فاذا قال الشيعة

اليوم بنظرية الشورى وأخذوا بالنظام الديمقراطي، في حين التزم أهل السنة مثلا بنظام الحكم الوراثي الملكي، أو العسكري، فمن هو الشيعي؟ ومن هو السني في حقيقة الأمر؟

وبناء على ذلك كيف يكون الحوار بين السنة والشيعة؟ وماهو الاختلاف الجوهري بينهما؟ وهل الاختلاف والتناقض هو بين الطوائف؟ أم بين الحكام والشعوب؟

ووجدت من الضروري لمعرفة جذور الاختلاف الطائفي (السني – الشيعي) معرفة الاسباب المختلفة لانقسام المسلمين عبر التاريخ، منذ بداية تأسيس الأمة والدولة الاسلاميتين، أي منذ عهد الصحابة وقيام دولة الخلفاء الراشدين، وبحث عوامل الاختلاف بشفافية وصراحة، ليس من أجل نكأ جراح الماضي، وإنما من أجل معرفة الاسباب الحقيقية للاختلاف وتفجر الحروب والثورات الداخلية، ومعالجتها وبناء الوحدة الاسلامية المنشودة، على أسس متينة.

وبما أن الصراع الطائفي بين الشيعة والسنة كان من أكبر الصراعات التاريخية المزمنة والمستمرة عبر التاريخ، فقد إرتأيت أن أركز على محتوى هذا الصراع وأسبابه أكثر من عوامل الصراع السياسية والقومية والإقليمية والاقتصادية.

وإذا وفقني الله لاكتشاف جذر الخلاف بين الطائفتين، فربما لن انتهي الى تقديم حلول للجمع والتقريب بينهما، وانما تقديم أطروحة جديدة تخلع ثوب السنة والشيعة معا، لترتدي ثوبا عصريا يقوم على العدل والحرية والشورى، والديمقراطية، والعلمانية، والدولة المدنية وليس الدولة الدينية.

ويمكن لهذه الأطروحة أن تقوم على الجمع بين الجماهير المحرومة والمظلومة من كلتا الطائفتين، والبحث عن المصالح المشتركة والآلام والآمال المشتركة للجماهير بغض النظر عن هوياتها المذهبية، والفصل والتضاد مع الأنظمة السياسية "السنية والشيعية" الديكتاتورية الظالمة والمعادية للجماهير.

وهذه الأطروحة تتطلب بالطبع القيام بعمليتي نقد متوازيتين للفكرين الشيعي والسني بكل شفافية وموضوعية، والتحرر منهما تماما، وتقديم مشروع للوحدة بعيداً عن ذينك الفكرين التاريخيين، في طار الاسلام والمصلحة العامة للأمة الاسلامية.

ومن الله تعالى التوفيق.

أحمد الكاتب

لندن

٧/٧ / ٢٠١٦

مدخل

لماذا تفرق المسلمون؟

بسم الله الرحمن الرحيم

بينما يعيش المسلمون اليوم أخطر أزمة تتهدد وجودهم ومستقبلهم، فانهم ينسون أوامر ربهم بالوحدة والاتحاد فيما بينهم، فيذهب كل قوم الى الاهتمام بقوميتهم، وأبناء كُلّ بلد الى الاهتمام فقط بمواطنيهم، وكل طائفة الى الاهتمام بأتباعها.

لا يوجد اليوم أي شعور وحدوي راسخ يجمع بين المسلمين، فهم يسيرون في اتجاه انعزالي وتشرذمي بشكل مطرد ومتزايد، حتى تكاد تنقسم القوميات الى قبائل، والبلاد الى مقاطعات، والطوائف الى أحزاب. والسؤال الآن الذي يؤرق كل مسلم اليوم هو:

– لماذا تفرق المسلمون وتشرذموا الى طوائف وفرق متناحرة؟ وما الذي يدفعهم الى التناحر والاقتتال؟ وقد أمرهم الله تعالى بالوحدة فقال:

- إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (الأنبياء٩٢).
- وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (المؤمنون٥٢).
- وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران،١٠٣).

– لماذا تفرق المسلمون؟..هل حدث ذلك لأسباب داخلية؟ أم خارجية ولنقصٍ في الدين؟ أم أنَّه حصل بسبب الغلو فيه؟.. هل تفرق المسلمون بسبب الخلافات السياسية؟ أم الفكرية والفقهية؟ أم حدث بسبب اتِّباعهم الهوى وابتعادهم عن الدين؟ وهل اختلافهم رحمة؟ أم نقمة؟ وهل كانت المذاهب الدينية علامة على قوة الفكر الاسلامي وحيويته؟ أم عاملاً وسبباً في إضعاف الاسلام والمسلمين؟ وهل اختلاف المسلمين سمة فريدة فيهم؟ أم هي سُنَّة طبيعية تاريخية لازمت جميع الأديان؟

– هل الانقسام والصراع قدر الأمة الاسلامية الذي لا مفرَّ منه؟ وأن وحدتها ضرب من الوهم والخيال المستحيل؟ وأن قدرها العيش في ظل الصراع الطائفي المزمن الى الأبد؟ أم أن ذلك حدث بسبب بعض الأخطاء والعوامل السلبية التي إذا قمنا بمعالجتها وتصحيحها أمكننا أن ننعم بالأمن والوحدة والسلام؟

– هل يمكن أن يتَّحد المسلمون مرة أخرى وينسوا الخلافات القومية والطائفية؟ وإن أرادوا التوَّحد فعلى أي أساس يمكنهم تحقيق ذلك؟

لقد حاول كثير من المفكرين المسلمين تحليل أسباب التفرق والاختلاف، وتقديم رؤى ونظريات تعالج تلك الأسباب، وتؤدي الى الوحدة، وهي باختصار، كما يلي:

١- البعد عن الدين وحب الدنيا

يطرح خالد عبد المنعم الرفاعي، في موقع (طريق الاسلام) السؤال التالي: (ما أسبابُ تَفَرُّقِ المسلمين برغم دَعْوَةِ الإسلام للوحدة؟)[٥٠] ويذكر في الجواب عدة أسباب كالبعد عن الدين والابتداع فيه، وحب الدنيا، واتباع سنن اليهود والنصارى. ويعتبر (الجهل ونسيان العلم) من أفعال النصارى التي عاقبهم الله بسببها بإلقاء العداوة والبغضاء بينهم الى يوم القيامة، بناء على الآية الكريمة: "وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (المائدة١٤) ". ويقول:"لا شكَّ أنَّ التفرق يعني تفارُق الأهواء، وقد تكون هذه الأهواء من الأغراض الشخصية والدنيوية ما جعل النية مدخولة، وليست خالصة لوجه الله، وهذا ما نشاهده اليوم، وهو أنَّ كل فرقة من الفرق المنتمية إلى الإسلام، هي في الواقع لا تتمسك بقواعد الإسلام، ولا بأصوله الثابتة". ويذهب الرفاعي الى أن البعد عن الدين هو سبب تفرق المسلمين، ثم يقترح، كحل لما نحن فيه: "الرجوع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله، وما كان عليه السلف الصالح في القرون الخيريَّة وما بعدها؛ قال صلى الله عليه وسلم: "ترَكْتُ فيكم ما إنْ تَمَسَّكْتُم به لن تَضِلُّوا، كتاب الله وسُنَّة رسوله"... فإذا فعلنا ذلك اتحدنا، ودانت لنا الدنيا".[٥١]

٢- التعصب القومي والتنازع الشعوبي

يعلل القاضي أبو بكر ابن العربي (٥٤٣ هـ) سبب تفرق المسلمين في عهدهم الأول، برجوعهم الى العصبية، فيقول:"كانت الجاهلية مبنية على العصبية، متعاملة بينها بالحمية، فلما جاء الاسلام بالحق، وأظهر الله منته على الخلق، قال الله سبحانه: "واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا". (آل عمران، ١٠٣) وقال لنبيه:"لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف

---

[٥١] - الرفاعي، خالد عبد المنعم، موقع طريق الاسلام:
أسباب-تفرق-المسلمين /www.islamway.net/fatawa/35722

بينهم، إنه عزيز حكيم". (الأنفال، ٦٣) فكانت بركة النبي تحميهم، وتجمع شملهم وتصلح قلوبهم، وتمحو ضغائنهم، فاستأثر الله برسوله ونفرت النفوس وتماسكت الظواهر منجزة ما دام الميزان قائما، فلما رفع الميزان – كما تقدم ذكره في الحديث – أخذ الله القلوب عن الألفة، ونشر جناحا من التقاطع، حتى سوى جناحين بقتل عثمان، فطار في الآفاق، واتصل الهرج الى يوم المساق، وصارت الخلائق عزين، في كل واحد من العصبية يهيمون، فمنهم بكرية، وعمرية، وعثمانية، وعلوية، وعباسية، كل يزعم أن الحق معها وفي صاحبها، والباقي ظلوم غشوم مقتر من الخير عديم، وليس بمذهب، ولا فيه مقالة، وانما هي حماقات وجهالات، أو دسائس للضلالات، حتى تضمحل الشريعة وتهزأ الملحدة من الملة، ويلهو بهم الشيطان ويلعب، وقد سار بهم في غير مسير، ولا مذهب". [٥٢]

ولكن الفقيه المصري السيد سابق (١٩٤٧م)، يرفض هذا الرأي وينفي حدوث أي خلاف كبير بين الصحابة "ومن بعدهم من القرون المشهود لهم بالخير"، ويقدم صورة وردية عن جيل الصحابة، ويقول بأنه "لم يقع بينهم اختلاف الا في مسائل معدودة كان مرجعه التفاوت في فهم النصوص" . [٥٣] كما يُنقل عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز قوله:"إن هذه الأمة لم تختلف في دينها ولا في نبيها ولا في كتابها.. وانما اختلفت في الدينار والدرهم".[٥٤]

ولذلك يغفل محمد أبو زهرة، دور الصحابة ، في معرض بيانه لعوامل تفرق المسلمين، ويشير الى دور العصبية العربية في العهد الأموي، ثم رد فعل الشعوبية عليها. [٥٥] ويقول:"كانت العصبية الاقليمية أو الشعوبية كما سميت في التاريخ الاسلامي، قد أخذت تتخلل الى الجماعات الاسلامية، وكانت في الوجود

---

[٥٢] – ابن العربي، أبو بكر (٥٤٣ هـ) العواصم من القواصم، ص ٣٥٠ – ٣٥١ تحقيق الدكتور عمار طالبي ١٩٧٤، مكتبة دار التراث، القاهرة

[٥٣] – السيد سابق، فقه السنة (١٩٤٧) ج ١ ص ٧– ٨، دار مصر للطباعة، الفتح للاعلام العربي، القاهرة

[٥٤] – ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء التاسع، فصل خلافة عمر بن عبد العزيز.

[٥٥] – الشعوبية، هي حركة التسوية بين الشعوب، أو الإيمان بتساوي الشعوب وعدم وجود فضل للعرب على غيرهم من العجم، بناء على آية "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير" (الحجرات، آية ١٣) أو القول بتفضيل العجم على العرب والانتقاص منهم. وكما جاء في (القاموس المحيط): "الشعوبي بالضم محتقر العرب، وهم الشعوب" قال عنها القرطبي : "هي حركة تبغض العرب وتفضل العجم" وقال الزمخشري في (أساس البلاغة):" وهم الذين يصغرون شأن العرب، ولا يرون لهم فضلا على غيرهم". وقد انتشرت الشعوبية في البداية بين الفرس لأنهم أول من دخل في الاسلام من غير العرب، ثم بين مولدي الأندلس والأتراك.

وراء العصبية العربية التي انبعثت من مراقدها في العهد الأموي، فكانت العصبية الجنسية وراء العصبية العربية وكلتاهما جاهلي في معناه، ناف للحقائق الاسلامية، والوصايا المحمدية". [٥٦]

ويشرح أبو زهرة ذلك بقوله:"ظن الكثيرون أن السبب الأكبر هو قيام العصبية العربية من سباتها وانبعاثها من مرقدها" [٥٧] ويضيف:"ما أن جاءت الدولة الأموية ، وقد كانت عربية، وكانت شديدة التعصب للعرب، ولم تعط الموالي حقهم الكامل في الاسلام، وأرادت الاسلام عربيا، ولم تفهم انه دين الكافة... ولشدة التعصب للعرب من الدولة الأموية روي أنه في الجيش ما كان يقسم لغير العربي اذا اشترك في الجهاد، مع ان حكمه على غير العربي، كالعربية على سواء، بل كان يرضخ له اذا جاهد مع المجاهدين أي يعطى عطاء غير مقدور من غير أن يقتسم من العرب. وتلك في حكم الاسلام قسمة ضيزى، ما كانت عدلا لأن الجهاد على الجميع والغنائم لكل فيها سهم معلوم وحظ مقسوم، وتلك جاهلية في الاسلام وما كانت تجوز في ظل خليفة أو من هو قائم مقام الخليفة. [٥٨]

ويؤكد ذلك محمد السماك فيقول: "لما ضعفت روح التكامل الخلقي في الاسلام كان الفوز للنزاع الشعوبي وكان فوزا على حساب سلطان الاسلام، فتجزأت الدولة وتم النصر لأعداء الاسلام".[٥٩] دون أن يشير بالطبع الى دور العصبية لدى الجيل الأول في تفرق المسلمين.

٣- الظلم والفساد السياسي

ويشكل (الظلم والفساد السياسي) كعامل من عوامل البعد عن الدين امتداداً للتحليل السابق، ولكنه يتمثل في ابتعاد الحكام عن العدل واستغلال السلطة لتحقيق مآرب خاصة. حيث يؤشر الشيخ الأزهري

---

[٥٦] - أبو زهرة ، محمد (١٩٧٤) الوحدة الاسلامية (١٩٧١) ص ١١ دار الرائد العربي، بيروت لبنان

[٥٧] - المصدر، ص ١٦٣

[٥٨] - المصدر، ص ١٦٤

[٥٩] - الأمين، حسن، الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي (١٩٩٧) دار الغدير، بيروت، ط ١ ص ٢٢٣

(القرآني) أحمد صبحي منصور، الى بداية تفرق المسلمين في عهد عمر بن الخطاب، بسبب الفتوحات العربية التي تمت والتي انطوت على امتصاص ثروات الشعوب المفتوحة في الشام والعراق وفارس ومصر، باسم الجزية والخراج، وتكديسها في جيوب الفاتحين العرب، فيقول: "إن احتلال العرب المسلمين للبلاد المفتوحة هو الذي أوجد المذهبية والفرقة بين المسلمين العرب وغير العرب". كما ان الصراع على تلك الثروات بين الفاتحين العرب كانت سببا للثورة على عثمان بن عفان، وانفجار الفتنة الكبرى الأولى في الاسلام. [٦٠]

وهذا ما يذهب اليه الكاتب الشيعي محمد حسين الزين في كتابه (الشيعة في التاريخ) حيث يقول تحت عنوان: "بدء الفتن في الملة الاسلامية ومَن أثارها وسبَّبها؟": "دامت الأمة على ذلك الشكل من الاتحاد والاخلاص للاسلام والمسلمين، والعمل بتلك السنن والتعاليم النبوية قدر الجهد، الى أواخر أيام عثمان (رض) حيث تغلبت فئة من بطانته وتولت الأعمال، وانتشرت في البلاد تأمر وتنهى حسب الأهواء وتنال ما تريد من الملاذ والملاهي التي حرمها الشرع الشريف ولم يعتدها المسلمون من قبل ولم يستطيعوا الصبر عليها والإغضاء عن فاعليها، فكان من الطبيعي أن ينهضوا ويملأوا الأرض والسماء بصدى أصواتهم الحرة واستنكاراتهم الشديدة". [٦١]

ويبدو أنَّ (الديكتاتورية) تحتل قمة الظلم والفساد السياسي، حينما تتمثل في احتكار السلطة لقبيلة معينة أو شخص معين، وإلغاء الشورى، والاستيلاء على السلطة بالقوة وتوريثها للأبناء غصبا لإرادة الأمة، وقتل أي معارض للحاكم ، وقد تجسدت بأوضح صورها في توريث معاوية الحكم لابنه يزيد، بالقوة والإكراه، مما أدى الى ثورة الامام الحسين بن علي، ومقتله في كربلاء، ثم ثورة أهل المدينة وقمعهم في واقعة الحرة، ثم ثورة أهل مكة بقيادة عبد الله بن الزبير، وما تبعها من ثورات ضد الحكم الأموي، وسيطرة الحجاج على العراق، واراقته للدماء ما أفرز حالة من التمزق والتشرذم وترسيخ للمذهبية السياسية.

---

[٦٠] – منصور، أحمد صبحي، ٢٠٠٦ مقال تحت عنوان: المسكوت عنه في سيرة عمر بن الخطاب في الفكر السني، موقع أحمد منصور

[٦١] – الزين، محمد حسين، الشيعة في التاريخ (١٩٣٨)، ص ١٣٩ مكتبة النجاح، الطبعة الثانية، مطبعة العرفان صيدا لبنان

وربما كان في قوله تعالى "وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم".(الشورى،١٤) الذي يتحدث عن أهل الكتاب، إشارة واضحة الى دور البغي والظلم في تفريق كلمة المسلمين، أيضا.[٦٢]

٤- الحركات الانفصالية، والقرارات الخاطئة، في غياب الأمة

وكنتيجة للفتنة الكبرى، ومحاولة السيطرة على الأمة بالقوة حدثت التجزئة السياسية الأولى في الدولة الاسلامية الناشئة على يد والي الشام (معاوية بن أبي سفيان) الذي أعلن تمرده على السلطة الشرعية للامام علي بن أبي طالب، وانفصاله عنها قبل أن يسيطر على جميع أرجاء الدولة الاسلامية، بعد تنازل الامام الحسن بن علي له عن الخلافة، سنة ٤١ للهجرة.

ثم حدثت ثورات عديدة كادت تقضي على الحكم الأموي، كثورة عبد الله بن الزبير، ولكنَّ عدداً من الحكام الأمويين ظلوا هم المسيطرين على الحكم في الدولة الاسلامية ردحا من الزمن ونجحوا في قمع تلك الثورات، حتى اختلفوا فيما بينهم بعد ذلك، فانهارت دولتهم في النهاية أمام الثورة العباسية سنة ١٣٢.

---

[٦٢] - يلخص محمد أبو زهرة أسباب التفرق، في :" فساد الحكم عند الحكام، وصيرورته ملكية تتغالب مع غيرها، وتطبيق قانون الغابة على المسلمين بعضهم مع بعض، فلم يفرق الحكام بين حكم نبوي يستمد أصوله من الاسلام، وحكم الغلب والقهر. وإهمال الشورى عند تعيين الحاكم، وفي حكمه، فان الله تعالى يقول "وأمرهم شورى بينهم" وان ذلك يقتضي ألا يختار الحاكم إلا بشورى المؤمنين، وأن تكون بعد الشورى حرية المبايعة وأن يوفى الحاكم بحق البيعة ويوفي المحكوم بحقها، وحقها من الحاكم العدل وألا يهلك الحرث والنسل، وأن يعمل ما فيه خير المسلمين، وأن يستشير حتما أهل الرأي والخبرة...وجعل الحكم وراثيا ، يتلقاه الخلف عن السلف كأن الشعوب مادة تورث، وأن الحكم حق ينتقل من مالك الى مالك، وما نظر الاسلام الى الشعوب هذه النظرة، وقد وصف الرسول هذا النوع من الحكم بأنه ملك عضوض، وأنه ترتب على جعل الحكم وراثيا أن تولاه غلمان لا يدركون ويتلعب بهم. وقد نتج من إهمال الشورى، وصيرورة الحكم استبداديا في إقامته، وفي نظامه، إهمال رأي الجماعة الاسلامية إهمالا تاما، فانقطع الاتصال بين الحاكم والمحكوم، وطغى الحاكم وذل المحكوم". أبو زهرة ، الوحدة الاسلامية ، ص ٢٢٦

بيد أن الأمويين لم يستسلموا لإرادة الأمة، فقام عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بالسيطرة على الأندلس البعيدة عن عاصمة الخلافة العباسية، وفصلَ القسم الغربي من الدولة الاسلامية عن القسم الشرقي منها فصلا نهائيا سنة ١٣٨ هجرية.

ولم يمض وقت طويل حتى قام الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٩٢-١٧٠) بالتمهيد لتجزئة ما تبقى من الدولة الاسلامية طواعية ومن أعلى موقعٍ في الدولة، عبر تفويضه إبراهيم بن الأغلب ولاية إفريقيا سنة ١٨٤، ليحكمها بصورة وراثية، كما يقول حسن الأمين:"أنشأ أسرة ملكية في إفريقيا ووهبها تلك الولاية لتستقل بها وتنفصل عمليا عن الدولة. وهكذا قامت الدولة الأغلبية في إفريقيا مستقلة تمام الاستقلال، ما عدا بعض الشكليات التي لا أثر لها في التجزئة الحقيقية والاستقلال الكامل".[٦٣]

ثم قام هارون الرشيد وهو في قمة جبروته، بتقسيم ما تبقى من الدولة العباسية في آسيا الى قسمين منفصلين انفصالا كاملا، وجعل ولاية العهد لولده محمد الأمين على بغداد والقسم الغربي من الدولة، في حين جعل ابنه عبد الله المأمون (وليا تاليا للعهد) وحاكما على مرو والقسم الشرقي الممتد من مدينة همذان الى أقاصي أرض الدولة الاسلامية، وذلك خوفا من صراعهما على السلطة بعد وفاته، ومع ذلك فقد دخل الأخَوان في حرب ضروس دامت خمس سنوات هزم المأمون فيها الأمين وقضى عليه سنة ١٩٨هـ.

٥- الابتعاد عن أهل البيت

وفي محاولة من الشيعة لتحليل عوامل الاختلاف والتفرق بين المسلمين، اعتبر عامتهم: (الابتعاد عن أهل البيت) بعد وفاة رسول الله (ص) أكبر سبب لتفرق المسلمين، وهو ما يذهب إليه صالح الكرباسي، الذي يقول في معرض جوابه عن سؤال (لماذا تفرق المسلمون؟): إن "عدم التمسك بكتاب الله وأهل بيت الرسول (حسب حديث الثقلين) هو السبب الأول والرئيس لتفرق المسلمين".[٦٤]

[٦٣] - الأمين، الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي (١٩٩٧) ص ٢٢٢- ٢٢٣

[٦٤] - موقع مركز الاشعاع الاسلامي للدراسات والبحوث الاسلامية، على شبكة الانترنت.

وهو ما يؤكده أيضا علي الحائري ، حيث يقول: "السبب الرئيسي في ذلك هو أنّهم لم يعتصموا جميعاً بحبل الله الذي أُمروا بالاعتصام به، ولم يتمسّكوا بالثقلين الذين تركهما النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لهم، وأمرهم بالتمسّك بهما، وهما: " كتاب الله، وعترته أهل بيته "، ووَعَدهم بأن لا يضلّوا أبداً ما إن تمسّكوا بهما، كما جاء في حديث الثقلين المتواتر عند المسلمين، فلو كان المسلمون بعد النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد تمسّكوا بالقرآن والعترة لكان هذا التمسّك في الواقع هو الكفيل بوحدتهم ؛ لأنّ هذين الثقلين: "القرآن، والعترة "، لا يختلفان فيما بينهما، ولا يفترقان عن بعضهما إلى يوم القيامة، كما قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): " وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض"، فكلاهما واحد، ونهجهما واحد، فلا منشأ للاختلاف والتفرّق حينئذٍ" . [٦٥]

وهذا ما يردده أيضا جعفر علم الهدى، الذي يعلل سبب تفرق المسلمين "بابتعادهم عن خطّ أهل البيت ومنهجهم وسيرتهم" ويستشهد بحديث الثقلين وحديث آخر هو "مثل أهل بيتي كسفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومَن تركها غرق" ويضيف: "فلو كان المسلمون يتبعون الأئمة المعصومين من العترة الطاهرة لم يحصل بينهم الخلاف، و لحصلت لديهم الهداية، والسعادة الدنيوية والأُخروية، قال الله تعالى: "وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا". (الجن، ١٦) و الوحدة التي دعا اليها الإسلام بقوله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا". (آل عمران،١٠٣) هي التمسك بأهل البيت".[٦٦]

وأما صائب عبد الحميد، فيعتبر الانقلاب السياسي على "أولي الأمر" الذين أمر الله بطاعتهم "أول افتراق وقع في الأمة بعد غياب رسول الله (ص) وقد تمدد مع الزمن ليكتسب كل مقومات الفرقة الواقعية، سياسيا وفكريا وعقديا وفقهيا".[٦٧]

٦- الإبتداع وإتِّباع الأهواء

---

[٦٥] – موقع: (الحقائق الاسلامية) على شبكة الانترنت.

[٦٦] – موقع (منتديات الدفاع عن الصحابة)، سبب تفرق المسلمين من منظور الروافض، على العنوان التالي: www.al-sahaba.net

[٦٧] – عبدالحميد، صائب، المذاهب والفرق في الاسلام، ص ٣٨ مركز الرسالة. ويضيف: إن " احداث مرجعية "سنة الشيخين" وتحريم رواية سنة النبي أول إحداث لفرقة في التاريخ الاسلامي". المصدر، ص ٣٥ – ٣٦

وفي مقابل تحليل الشيعة لسبب تفرق المسلمين، يقول "أهل السنة": إن سبب التفرق والاختلاف هو: (إتباع الأهواء والبدع)، وخروج طوائف منهم عن نهج السُنَّة والجماعة، وهذا معلوم من الدين بالضرورة وقد أخبر الله عنه وحذر منه: "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ".(الأنفال، ٤٦) وأخبر به رسوله (ص) وحذر منه. لكن الذم إنما يكون للمفارق، وهم أهل الأهواء والسبل، لا للمتمسك بالحق والسُنَّة وهم السلف الصالح أهل السُنَّة الذين أخذوا بأسباب العزة والنصر والتمكين وهو الاعتصام بحبل الله. وإن كتب العقائد الخارجة عن السنة، وهي كتب أهل الأهواء، هي التي رسخت الفرقة وأسهمت في حدوث النكسات على الأمة، بخلاف كتب السلف التي تمثل دين الله الذي يأمر بالجماعة والطاعة، وينهى عن الفرقة والخروج.

يقول ناصر القفاري: "خرجت كثير من الطوائف التي تتسمى بالإسلام وليس لها من الإسلام نصيب، ونادت بآراء وعقائد غريبة عن الإسلام وبعيدة عن كتاب الله وسُنَّة رسوله – صلى الله عليه وسلم –. ولقد كان لظهور هذه الأفكار والعقائد والطوائف آثار بعيدة المدى في تفريق الأُمة، وإضعاف شأنها". ويستشهد القفاري بقول لابن تيمية:"إذا ترك الناس بعض ما أنزل الله، وقعت بينهم العداوة والبغضاء؛ إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه؛ بل (تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ". (المؤمنون: آية ٥٣).[٦٨]

وقد اتهم القاضي الإيراني (الإصلاحي الناقد للشيعة والتشيع) أحمد كسروي (١٩٤٥) الشيعة الإمامية بأنهم سبب الفرقة، وحملهم مسؤولية الانشقاق بين المسلمين، فقال في كتابه:"التشيع والشيعة": "أما الخلافة، فكان المسلمون يعتقدونها شورى بين المهاجرين والأنصار، والشيعة ادعوها أمراً إلهيا. فزعموا أن الخليفة هو نائب عن النبي، فيجب أن يكون مختارا من الله، ومنصوصا عليه من النبي، وهذا المختار لا يكون إلا الامام المبعوث، فالامام عند الشيعة رجل إلهي، وهو الخليفة أيضا. وأتى هذا التطور بنتائج عظيمة، منها:

[٦٨] – القفاري، ناصر، مسألةُ التّقريب بين أهْل السُّنة والشّيعَة (١٩٧٩) ج١ ص ٥ دار طيبة الرياض، ط ٣، ١٤٢٨هـ و ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١٣ ص٢٢٧.

أن الشيعة (أي هذه الفئة الجعفرية) انفصلت عن جماعة المسلمين، وصارت لها عقائد وأحكام على حدتها، وتأصلت العداوة بين الفريقين".[٦٩]

وهو ما ذهب اليه أيضا محمد رشيد رضا (١٩٣٥)، صاحب مجلة "المنار" الذي اتهم التشيع للخليفة الرابع علي بن أبي طالب (رض) بأنه كان مبدأ تفرق هذه الأمة المحمدية في دينها وفي سياستها.[٧٠]

ولكن الشيخ علي آل محسن، يرد هذا الكلام قائلا: إن الشيعة الامامية هم الفرقة الناجية، و"لا ريب في أن أهل السُنَّة والمعتزلة والخوارج وغيرهم من الطوائف لم يتمسكوا بأهل البيت عليهم السلام، فوجب بمقتضى الحديث (الفرقة الناجية) وقوعهم في الضلال، وأما الشيعة الامامية فاتبعوهم وأتخذوهم أئمة، فكانوا بذلك هم الناجين دون غيرهم".[٧١]

٧- الغلو في أئمة أهل البيت

وإضافة الى اتهام الشيعة بابتداع نظرية الإمامة والنص على الامام علي بن أبي طالب بالخلافة، وأن ذلك سبب افتراق الأمة إلى شيعة وسنة، فان هناك اتهامات أخرى للمتطرفين والغلاة من الشيعة برفع درجة الأئمة الى مستوى أعلى من ذلك، بالقول إن الأئمة يعلمون الغيب وأنهم يوحى لهم، أو يستوحون علمهم "لدنيّاً" من الله، بدون تعليم، وكذلك رفعهم درجات أخرى أعلى من ذلك بالقول إن الأئمة أنبياء أو آلهة أو محل حلول الله، وعلى الأقل أن الله فوض اليهم الخلق والحياة والموت والرزق والحساب وتدبير الكون.

وهذه أقوال قال بها عدد من الفرق المغالية، في زمن الامام علي بن أبي طالب (كالسبئية)، وزمن الإمام جعفر الصادق (كالخطابية)، ومن بعده من الأئمة خلال القرون الثلاثة الأولى (كالمفوضة والنميرية)، وقد

---

[٦٩] -كسروي، أحمد (١٩٤٥) التشيع والشيعة، ص ٤٨ تحقيق ونشر ناصر بن عبد الله القفاري وسلمان بن فهد العودة، ١٩٨٨

[٧٠] - رضا، محمد رشيد (١٩٣٥)، السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة، الرسالة الأولى ومقدمتها نشرت في مجلة المنار، ص ٤ الطبعة الثانية ١٩٤٧ دار المنار ، القاهرة

[٧١] - آل محسن، علي، مسائل خلافية حار فيها أهل السنة، ص ٢٤٣ شبكة الشيعة العالمية.

قاومها أئمة أهل البيت واستنكرها الشيعة الامامية، ولكنها وجدت طريقها الى بعض المصادر الشيعية القديمة كـ "بصائر الدرجات" للصفار القمي و"الكافي" للكليني، وبعض الحشويين والأخباريين، والمتطرفين الشيعة المعاصرين، وهو ما أثر على صورة الشيعة في أذهان كثير من أهل السنة، مما دفعهم الى اتهام عامة الشيعة بتبني تلك الأقوال، واتخاذ موقف سلبي منهم، وتحميلهم مسؤولية الفرقة بين المسلمين.

٨- التكفير

وهو نوع من التطرف في الحكم على الآخرين حكاما ومحكومين، أدى ويؤدي الى القطيعة والتفرق والاقتتال بين المسلمين، وربما كان بعض الصحابة الذين ثاروا على عثمان بن عفان، واتهموه بالكفر، كما يروى عن السيدة عائشة أنها كانت تحرض عليه وتقول:"اقتلوا نعثلا فقد كفر" ربما كانوا هم أول من سن سنة التكفير قبل الخوارج. وقد اتبعهم "الخوارج" الذين انشقوا عن جيش الامام علي بن أبي طالب، بعد واقعة التحكيم الفاشلة بينه وبين معاوية، واتهموه بالكفر وطالبوه بالتوبة لقبوله بالتحكيم. وهو ما أدى الى حرب النهروان، ثم الى مقتل الامام بيد أحد الخوارج (عبد الرحمن بن ملجم المرادي) سنة ٤٠ للهجرة.

وقد استمر منهج التكفير، بعد ذلك بقيام الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة من المسلمين، والاعتقاد بعدم غفران الله ذنبه في الآخرة، كما استمر في قيام بعض المتطرفين من السنة والشيعة عبر التاريخ بتكفير كل من لا يؤمن بعقيدتهم أو ينسجم معهم.

وبلغ التطرف في التكفير أوجه، لدى الحركة الوهابية التي أعلنت تكفير معظم أبناء الأمة الاسلامية، ممن لا يؤمن بعقيدة محمد بن عبد الوهاب، أو يرتكب ناقضا من نواقض الدين، حسب تفسيره لها. [٧٢]

ويرد "الوهابيون" التهمة، بالقول: بأن الشرك الذي وقع فيه كثير من أبناء الأمة الاسلامية، يشكل عاملا مهما في تمزيق الأمة، بناءاً على فكرتهم في إخراج "المشركين" من الاسلام، حيث أن "الوهابيين"

---

[٧٢] - انظر: كتب محمد بن عبد الوهاب: (كشف الشبهات)، ص ٥ و٩، و(التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) ص ٣٦ و(رسالة في معنى لا إله إلا الله).

يؤمنون بأن التوسل بالأموات من الأولياء والصالحين والأئمة والأنبياء، والاعتقاد بأنهم يستطيعون شفاء المرضى وحل مشاكل الناس من داخل قبورهم، نوع من الشرك بالله، وأنه شرك أكبر مخرج من الملة، وبما أن كثيرا من السُنَّة والشيعة يزورون قبور الأئمة والأولياء والصالحين، فانهم مشركون، ولا بد من القطيعة معهم. [٧٣]

ولكن التكفير الوهابي لم يقتصر على تكفير من يتوسل بالأولياء والصالحين، وانما امتد الى شرائح وفئات عريضة من المسلمين، ممن يختلف فكر محمد بن عبدالوهاب معهم في رؤيته للأمور، كتبني النظام الديمقراطي، أو القول بعلمانية الدولة، وهو ما يتجلى –كنموذج – في "فتوى" أحد شيوخ الوهابية (علي بن خضير الخضير) التي يقول فيها:" هذه رسالة مختصرة في قواعد يعرف فيها المسلم الفرق بين دينه العظيم وبين الوثنية الجديدة والشرك المعاصر المسمى بالعلمانية بجميع أصنافها الكثيرة، ليجتنبها ويبتعد عنها ويبرأ منها ومن أهلها المسمَين بالعلمانيين و يبرأ إلى الله منهم ويكفرهم ويعاديهم ويبغضهم ويجاهدهم، سواء أكانوا مفكرين أو مثقفين أو سياسيين أو حكام أو صحفيين أو مغنين أو ممثلين أو نظريات أو حكومات أو أنظمة وغير ذلك".[٧٤]

---

[٧٣] - الحركة "الوهابية" أسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٨٩١-١٧٠٣) في منتصف القرن الثامن عشر، حيث أعاد تفسير الإيمان بالله ومعنى التوحيد، ووضع شروطا عسيرة لمن يطلق عليه اسم المسلم، وأكثر من "نواقض الإيمان" بحيث حكم على غالبية المسلمين بالشرك والكفر كفرا مخرجا من الملة. وهو ما أدى الى خروج "الوهابيين" وانشقاقهم عن الدولة العثمانية، وإقامة دولة "وهابية سعودية" في نجد والجزيرة العربية في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي، امتدت حوالي خمسين عاما، ثم انهارت في ١٨١٨ وقامت دولة أخرى في ظل العثمانيين في القرن التاسع عشر، ثم قامت دولة ثالثة في بداية القرن العشرين، وهي التي لا تزال تحكم "السعودية" حتى الآن. وانبثقت عنها حركات وهابية عديدة في العالم الاسلامي تؤمن بمنهج التكفير وتتشدد في الحكم على الآخرين بالشرك، وخاصة الصوفية والشيعة، ونجحت أخيرا (في الأول من تموز ٢٠١٤) في إعلان "دولة الخلافة" في الموصل من العراق وبعض مناطق الشام، بقيادة إبراهيم عواد البندر "أبو بكر البغدادي" .

[٧٤] – الخضير، علي بن خضير، القواعد الأربع التي تفرق بين دين المسلمين ودين العلمانيين، موقع (رسالة الأنبياء) (www.risalatun.com) و موقع (صيد الفوائد www.saaid.net)

٩- دور اليهود والنصارى والمجوس

بالاضافة الى العوامل الداخلية السابقة، حاول بعض المسلمين، منذ "الفتنة الكبرى" أن يحللوا سبب تفرق المسلمين واقتتالهم بعوامل خارجية من أعداء الاسلام، وذكر الطبري من رواية سيف بن عمر حول عبد الله بن سبأ الذي يقول إنه لعب دورا كبيرا في تأجيج الفتنة التي أدت الى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان. [٧٥]

وذكر آخرون أنَّ ابن سبأ، وهو من أصول يهودية يمنية، قام بتأسيس حركة مغالية تعتقد بألوهية الامام علي بن أبي طالب.[٧٦]

كما ذهب بعض آخر الى أنه كان وراء تأسيس المذهب الشيعي. [٧٧]

يقول ابن تيمية:"أول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة، حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب فعاقب الطائفتين، أما الخوارج فقاتلوه فقاتلهم، وأما الشيعة فحرق غالبيتهم، وطلب قتل عبدالله بن سبأ فهرب منه".[٧٨]

ويقول ابن حزم: "رأى الأعداء أن كيد الإسلام على الحيلة أنجع؛ لأنهم راموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق، فرأوا أن كيده عن طريق التخطيط والاحتيال والتآمر أجدى؛ فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واستشناع ظلم علي – رضي الله عنه – (في زعمهم) ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام". [٧٩]

---

[٧٥] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢ ص ٦١٥

[٧٦] – الكشي، اختيار معرفة الرجال، عبد الله بن سبأ، ص ١٠٧– ١٧٤

[٧٧] – العمري، سلطان بن عبد الله، موقع (ياله من دين)

[٧٨] – ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم ص 44 – ومجموع الفتاوي ، ج - 10 ص 24

[٧٩] – ابن حزم، الفصل بين الملل، ج٢ ص١٠٨ – ١٠٩

وذهب ابن تيمية الى أن عقيدة الجبرية التي دعا اليها الجهم بن صفوان، ترجع الى اصل يهودي، وأن أول من تكلم بها طالوت بن أعصم اليهودي، وقد بثها الى أبان بن سمعان، وبثها أبان الى الجعد بن درهم، وأخذها الجهم بن صفوان من الجعد بن درهم. وان عقيدة القدري التي دعا اليها معبد الجهني، وغيلان الدمشقي انما ترجع الى أصل نصراني، فان رجلا نصرانيا يدعى سوسن كان قد أظهر الاسلام فأخذ عنه غيلان الدمشقي هذه العقيدة، واخذها معبد عن غيلان، ثم ان ذلك النصراني قد ارتد وعاد الى نصرانيته. [٨٠]

ويتحدث الكاتب المصري محمد الشكعة، عن سبب تفرق المسلمين، فيعزوه الى مؤامرات المجوس والسبئية والشعوبية، ويقول في كتابه "إسلام بلا مذاهب": "لم يندك (أظنُّه يقصد لم يندقَّ أو لم يُغرز) خنجر الفرقة في صدر الاسلام بأيدي المسلمين، ولكن بأيدي قوم ادعوا الاسلام ليصلوا الى هذه الغاية، ولم يدخل الاسلام يوما الى قلوبهم، فالمجوسية والسبئية والشعوبية قد لعبت أدوارها بمهارة كاملة حين بذرت بذور الخلاف بين المسلمين منذ فجر الاسلام الى يومنا هذا".[٨١]

وهكذا يعزو ناصر القفاري سبب تفرق المسلمين الى الأعداء، فيقول:"حقق الأعداء ما يريدون، وجنوا ثمرة تآمرهم ضد المسلمين. وكان أنكى صراع وأطول نزاع.. وأخطر اختلاف: ما حصل بين أهل السُنَّة والشيعة.. فلقد شهد التاريخ أحداثاً دامية تمثلت في الصراع العنيف الذي دار بين الطائفتين، واستمر قائماً ... يزداد أو يخف على اختلاف المراحل التاريخية.. وإلى يومنا هذا، يشتد الصراع ويزداد لهيبه، ويبدو أن الأعداء يريدون أن يستثمروا الخلاف بين أهل السُنَّة والشيعة، بتوسيع نطاقه، وتأجيج حدته ليحققوا مكاسب أكبر". [٨٢]

ويقول محمود الرضواني:"أسهمت المؤثرات الخارجية في تفرق كلمة المسلمين وظهور الفرق الإسلامية، وكان من أبرز تلك المؤثرات: دخول كثير من الناس في الإسلام ظاهرا، وهم يبيتون النية باطنا لهدمه وزعزعته في صدور أهله، وأكثر هذا الصنف كان من اليهود والنصارى والفرس، وقد ظهر تأثير هؤلاء على المسلمين

---

[٨٠] - ابن تيمية، مجموع الفتاوى ، ج٥ ص ٢٠

[٨١] - الشكعة، محمد، إسلام بلا مذاهب، ص ٢٥٣

[٨٢] - القفاري، ناصر، مسألةُ التّقريب بين أهْل السُنة والشّيعَة (١٩٧٩) ج١ ص ٦

بوضوح في آراء كثير من الفرق التي تنتمي إلى الإسلام مثل آراء الروافض الغلاة والجهمية والمعتزلة والنصيرية، وغيرهم ممن ظهرت الأفكار الأجنبية واضحة في معتقداتهم، وقد نبه علماء الإسلام على هذه القضية وأولوها عنايتهم... وبعد أن تم الفتح الإسلامي لبلاد فارس، ودخل الفرس في دين الله أفواجا، لم يكن من السهل أن يتعرف كل الفرس على الإسلام كما أراده الله، فالأعداد المسلمة منهم كانت كبيرة، والعادات والأديان والأفكار القديمة متأصلة في نفوسهم، فوجدت نبتة الرفض البغيضة في تلك البلاد بيئة مناسبة، واستمدت أفكارها الرئيسية بشأن الإمام المعصوم وآل بيته مما رسخ في أذهانهم من معتقدات قديمة.

أما أثر اليهود في فرق المسلمين فقد بدا واضحا من خلال شخصية عبد الله بن سبأ، والأحداث التي افتعلها، والأفكار التي روَّجها من القول بالرجعة والوصية وغيرها من الأفكار التي اخترعها".[٨٣]

دور الاستعمار الأجنبي في تفرقة المسلمين

يقول رئيس حزب التحرير الأسبق، عبد القديم زلوم ، في كتابه:"كيف هدمت الخلافة؟" (الصادر سنة ١٩٦٢) حول تآمر الدول الأوربية على الدولة الاسلامية، بشأن نشأة الوهابيين والحكم السعودي ما يلي:"كانت إنجلترا قد حاولت عن طريق عميلها عبد العزيز بن محمد بن سعود، ضرب الدولة الاسلامية من الداخل، وكان قد وجد للوهابيين كيان داخل الدولة الاسلامية بزعامة محمد بن سعود، ثم ابنه (حفيده) عبد العزيز، فأمدتهم انجلترا بالسلاح والمال، واندفعوا على أساس مذهبي للاستيلاء على البلاد الاسلامية الخاضعة لسلطان الخلافة، أي رفعوا السيف في وجه الخليفة، وقاتلوا الجيش الاسلامي جيش أمير المؤمنين، بتحريض من الانجليز وإمداد منهم ، وذلك لأخذ البلاد من الخليفة وحكمها حسب مذهبهم، وإزالة ما أحدثته المذاهب الاسلامية الأخرى غير مذهبهم بالقوة وحد السيف... وكان معروفا أن هذه الحملة الوهابية عمل انجليزي، لأن آل سعود عملاء للانجليز، وقد استغلوا المذهب الوهابي – وهو من المذاهب الاسلامية، وصاحبه الامام محمد بن عبد الوهاب مجتهد من المجتهدين – استغلوا هذا المذهب في أعمال سياسية لضرب الدولة الاسلامية، والاصطدام مع المذاهب الأخرى، لإثارة حروب مذهبية داخل الدولة العثمانية... وبدأوا هذا النشاط بطريقة جديدة هي نشر هذا المذهب عن طريق الحرب والفتح وإزالة معالم المذاهب الأخرى من

---

[٨٣] – الرضواني، محمود عبد الرزاق، كفاية الطالبين في بيان ملل المخالفين وفرق المعاصرين، "العوامل الخارجية وتأثيرها في نشأة الفرق وتفرق الأمة الإسلامية" موقع الرضواني: www.alridwani.com

الوجود، وإقامة مذهبهم مكانها... وصاروا يحملون السيف لمقاتلة المسلمين لترك ما يعتنقون من آراء غير المذهب الوهابي، ولاعتناق آراء المذهب الوهابي، ويقاتلون الخليفة، ويفتتحون البلاد الاسلامية... وهكذا سار الأمراء السعوديون متخذين المذهب الوهابي أداة سياسية لضرب الدولة العثمانية دولة الخلافة، وإثارة حروب مذهبية بين المسلمين".[٨٤] ويضيف:" كانت عمولة آل سعود للانجليز وولاؤهم لهم أمرا معروفا لدى دولة الخلافة... وكان معروفا أنهم يسيرون من قبل الانجليز، وكان الانجليز أنفسهم لا يخفون وقوفهم الى جانب السعوديين دوليا، أضف الى ذلك الأسلحة الكثيرة والعتاد الكبير الذي وصل اليهم عن طريق الهند، والأموال التي تحتاج اليها الحرب ويحتاج اليها تجهيز الجيوش".[٨٥] ويشير زلوم أخيرا الى دور الدول الأوربية في إثارة النعرات القومية والنزعات الاستقلالية في الدولة العثمانية، وتكريش النزعة القومية العربية لتمزيق الوحدة الاسلامية. [٨٦] وقيام الانجليز أخيرا في أعقاب الحرب العالمية الأولى واحتلال معظم أراضي الدولة العثمانية بتقسيمها الى دول عديدة على أساس القومية والوطنية. [٨٧]

١٠- الطائفية

يعتبر محمد أبو زهرة الطائفية أحد الأسباب التي فرقت المسلمين، ويقول:"كانت الطائفية أول طريق اتجه بالمسلمين الى الفرقة والانقسام". [٨٨] "وقد ترتب على الطائفية أن انقسمت الحكومة الاسلامية الى حكومات متفرقة، فكان الأدارسة بالمغرب، ثم الفاطمية بالمغرب ومصر والشام، وأخذت تنقص الأرض من أطرافها على العباسيين، وكل ذلك على حساب الوحدة الاسلامية". [٨٩] ويضيف:"كان للطائفية أثر أشد

---

[٨٤] - زلوم، عبد القديم، كيف هدمت الخلافة؟ ١٩٦٢، ص ٨ - ١٠ الطبعة الثالثة، موقع: www.deleeli.com/pdf/how-khilafa.pdf

[٨٥] - المصدر، ص ١١

[٨٦] - المصدر، ص ١١

[٨٧] - المصدر، ص ٥١ - ٥٢

[٨٨] - أبو زهرة ، محمد (١٩٧٤) الوحدة الاسلامية (١٩٧١) ص ٢٢٧

[٨٩] - المصدر، ص ٢٢٨

واقوى تأثيرا: الافتراق النفسي، فقد كانت كل طائفة تحسب نفسها مسلمين منفصلين عن الآخرين، وكل فرقة تحسب أن أتباعها هم وحدهم المسلمون". [٩٠]

الاختلاف بين المسلمين قدر محتوم من الله

وفي الوقت الذي يهتم كثير من المسلمين بمعالجة أزمة التفرق والاختلاف، يذهب الشيخ السلفي عبد العزيز الريِّس الى: أن اختلاف الأمة الاسلامية قدر مكتوب عليها كما كتب على اليهود، الذين افترقوا الى اثنتين وسبعين فرقة، وإن الأمة الاسلامية ستفترق الى ثلاث وسبعين فرقة، بناء على الحديث المشهور المنسوب الى النبي الأكرم (ص): "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلاَنِيَةً، لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي".[٩١] والحديث الآخر المروي عن معاوية بن قرة عن أبيه عن النبي (ص) قال:" لا يزال ناس من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة". (أخرجه البخاري في صحيحه مع اختلاف يسير في اللفظ) وهو ما يفهم أيضا من الآية الكريمة:"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم". (هود، ١١٩) مما يوحي باليأس من توحيد الأمة، والقبول بواقعها الممزق، والذهاب بدلا من العمل على توحيدها، الى التفتيش عن الفرقة الناجية والانتماء اليها، وذلك لأن المهم ليس الاتحاد مع الفرق الضالة، وإنما التمسك بالحق. كما يقول الشيخ السعودي عبد العزيز الريس:" مقتضى العمل بأحاديث الافتراق تقليل الجماهير لأن من لم يكن من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة

---

[٩٠] - المصدر، ص ٢٢٩

[٩١] – لم يروه البخاري ومسلم، ورواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم عن معاوية بن أبي سفيان، بصيغة أخرى استبدل فيها جملة "ما أنا عليه وأصحابي" بكلمة "إلا واحدة وهي الجماعة". في إشارة من معاوية الى نظام حكمه. وفي رواية الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص "هي ما أنا عليه وأصحابي" وفي رواية البيهقي والطبراني "هم السواد الأعظم" وصحح الحديث الحاكم، والذهبي، وابن تيمية، والشاطبي، وابن حجر والألباني وآخرون، كما صححه بعض علماء الشيعة كالشيخ علي آل محسن، وضعفه ابن حزم وابن الوزير وآخرون كالدكتور طهَ جابر العلواني، والشيخ يوسف القرضاوي، وحسن السقاف وحسن فرحان المالكي.

الوحيدة فإنه مبتدع يعادى، ومؤدى قول هؤلاء (الذين ينكرون الحديث) إبعاد العقيدة السلفية عقيدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه التي علق الله رضاه عليها وبها تفتح الجنان وتغلق أبواب النيران".[٩٢]

وربما استعان اليائسون من اتحاد المسلمين، أيضا، بحديث البخاري عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ (ص) قَالَ: "لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ". ولما كان اليهود والنصارى قد تفرقوا، فلا بد أن يتفرق المسلمون، ويستحيل جمعهم على كلمة واحدة.

وكذلك ربما يعتمد اليائسون من الوحدة على قول الله تعالى لآدم وحواء "إهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين". (البقرة، ٣٦) الذي يشير الى حتمية الصراع بين البشر، واستحالة الوحدة بين الناس.

عود على بدء

والسؤال الآن: ما هو دور كل عامل من العوامل الآنفة في تمزيق وحدة المسلمين؟ وهل يستقل كل عامل بدوره؟ أم تقوم كل تلك العوامل مجتمعة في التسبب في الاختلاف والتفرق بين المسلمين؟ وأن بعضها يشكل فعلا ابتدائيا وبعضها رد فعل؟ وبعضها سابقا وبعضها أسبق؟ وبعضها عاملا رئيسا وبعضها هامشيا أو وهميا؟ وما هو جذر كل تلك العوامل؟ هل هو العامل السياسي؟ أم الثقافي والفكري؟ أم الاقتصادي؟ أم الديني؟

ضرورة بحث جذور الخلاف في عهد الصحابة

[٩٢] – الريس، عبد العزيز، تأكيد المسلمات السلفية في نقض الفتوى الجماعية بأن الأشاعرة من الفرق المرضية، ص ٢٣ دار الامام أحمد، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ. قدم له عدد من علماء الوهابية كأحمد النجمي، وعبيد الجابري، وصالح الفوزان، وعبد المحسن العباد. راجع موقع (الاسلام العتيق) تحت إشراف الشيخ الدكتور عبد العزيز بن ريس الريس، على العنوان التالي: www.islamancint.com

إذا كان الجواب على هذا السؤال مركبا ومعقدا، فلا بد أن نعود إلى تاريخ المسلمين الأوائل لبحث عوامل التفرقة ، وبالخصوص تاريخ الصحابة، إن أردنا أن يكون بحثنا جادا ومفيدا، ولا بد أن نتجاوز من أجل ذلك العقدة التي تحول دون بحث تجربة الصحابة بحرية وشجاعة وموضوعية، وهي عقدة التقديس والتعظيم والخوف من تعميق الخلاف الطائفي.

وبالرغم من أن المسلمين الأوائل لم يجدوا بأسا في نقد الصحابة والثورة على الخلفاء "الراشدين" الا أن الرأي العام الاسلامي "السني" حاول في القرون اللاحقة إغلاق ملف الصحابة، وإسدال ستار من القدسية والتعظيم على أشخاص الصحابة وتاريخهم وحتى أخطائهم، ومنع أي نقد لأي واحد منهم.

هل الصحابة فوق النقد؟

عندما يبحث أغلب "أهل السنة" – عادة– مسألة الخلاف والفرقة بين المسلمين، يرفضون التفكير بأي نقد للصحابة، ويتوجهون بدلا من ذلك الى نقد الأحداث والأشخاص والأفكار التي ظهرت بعيداً عن الصحابة أو وقعت بعد زمانهم بأجيال.

وذلك لأن المسلمين، وخاصة من "أهل السنة"، ينظرون الى صحابة رسول الله (ص) باعتبارهم الجيل المثالي الأول الذي عاصر الرسالة وساهم كمثالٍ أعلى في تأسيس الأمة الاسلامية التي ظلت تستلهم الكثير من الملامح الأخلاقية من أشخاصهم الكريمة وتجاربهم الغنية.

و يرى أولئك بأنَّ الصحابة قاموا بدور الوسيط الناقل للرسالة الاسلامية ولتراث الرسول الأعظم للأجيال اللاحقة عبر الزمان والمكان، وبالتالي فانهم لا بدَّ أن يكونوا فوق النقد والمحاسبة، سيَّما وأنَّ الله تعالى قد مدحهم في كتابه الكريم في أكثر من موضع حيث قال: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله". (آل عمران ١١٠) "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدأ ذلك الفوز العظيم". (التوبة ١٠٠) و "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا". (الفتح ١٨) وكذلك: "محمد رسول الله والذين معه أشداء

على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيما". (الفتح ٢٩)

بناء على ذلك يرفض "أهل السنة" الخوض في الحديث عن "الصحابة"، أو القيام بأي نقد لأي "صحابي"، ويعتقدون بأنهم فوق النقد والتجريح وانهم خير القرون[٩٣] أو أنهم كانوا بعيدين عن الفتنة تماما، كما يقول الدكتور منير الغضبان:"لقد أكدنا أن الصحابة لم يشاركوا في الفتنة".[٩٤]

أو كما يقول الفقيه المصري السيد سابق: "لم يقع بينهم اختلاف إلا في مسائل معدودة كان مرجعه التفاوت في فهم النصوص". [٩٥]

وقد سئل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان وصفين وما كان بينهما، فقال:"تلك دماء كف الله يدي عنها وأنا أكره أن أغمس لساني فيها".

وسئل الامام أحمد بن حنبل عن الصحابة، فقال: "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون". (البقرة ١٣٤) وأوصى تلامذته بالكف عن مساويء الصحابة وقال:

---

[٩٣] – قال ابن تيمية في "العقيدة الواسطية": ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: ان هذه الآثار المروية في مساويهم، منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيِّر عن وجهه الصريح. والصحيح فيه معذورون: اما مجتهدون مصيبون، واما مجتهدون مخطئون".

[٩٤] – الشنقيطي، محمد بن المختار، الخلافات السياسية بين الصحابة، ص ٢٧٠ ، ٢٠٠٣ الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط ٢، ٢٠١٣

[٩٥] – السيد سابق، فقه السنة (١٩٤٧) ج ١ ص ٧– ٨

"تحدثوا بفضائلهم وأمسكوا عما شجر بينهم". واعتبر في (أصول السنة) انتقاص واحد من اصحاب رسول الله (ص) أو بغضه لحدث كان منه، أو ذكر مساويه، ابتداعا، ومبررا لاتهامه **على الإسلام**.[٩٦]

وقال ابن بطة:"**ان الحق في كل ما قالوه والصواب فيما فعلوه**".[٩٧] واستدلوا بحديث منسوب للنبي: "**اذا ذكر أصحابي فأمسكوا**..".[٩٨] وحسب بعض الأحاديث فان النبي رفض أن يقتل حاطب بن أبي بلتعة، الذي قام بخيانة المسلمين والتجسس لقريش، عشية الفتح، وقال لعمر الذي دعى لقتله: "انه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: أعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم".[٩٩]

ورغم أن الشيخ يوسف القرضاوي يقول:" إن أهل السُنَّة متفقون على عدم عصمة الصحابة من الخطأ والخطيئة"، ويدعو الى دراسة تاريخ الصحابة بموضوعية وتحليل علمي، واستخراج الحقائق من بين ركام الأباطيل الكثيرة التي دخلت فيما يروى عن هذه الفترة في كتب التاريخ.[١٠٠] وينتقد الذين يدعون الى الكف عن البحث والنقد في تاريخ الصحابة.[١٠١] الا أنه (القرضاوي) يشترط على أي باحث "الايمان والالتزام بخيرية القرون الثلاثة الأولى "التي صحت بها الأحاديث واستفاضت" والتي تشمل عصر الراشدين وعصر بني أمية بصفة عامة، وهذا مهم في تقويم عهد بني أمية عامة، وعهد مؤسسيها خاصة، فنحن مأمورون بالتأسي بهم "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي".(أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان والحاكم، وضعفه

---

[٩٦] – كتاب الإبانة لما للصحابة من المنزلة والمكانة، تأليف الشيخ حمد بن عبد الله ابراهيم الحميدي، وتقديم **الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن السعد**. وهما أستاذان من أساتذة علم الحديث والعقيدة والدعوة في المملكة العربية السعودية. ص ١٧٧

[٩٧] – ابن بطة، الإبانة على أصول السنة والديانة، ص ٢٦٣

[٩٨] – الحميدي، الإبانة .**مقدمة الشيخ السعد**، ص ٦٤ – ٦٥

[٩٩] – متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤) كما رواه أحمد (٦٠٠) وأبو داود في الجهاد (٢٦٥٠) والترمذي في التفسير (٣٣٠٥)

[١٠٠] – القرضاوي، مقدمة كتاب "الخلافات السياسية بين الصحابة"، للشنقيطي محمد بن المختار، ص ٢٠

ابن القطان الفاسي).[102] وهو ما يعيدنا بالتالي الى تقديس "الخلفاء الراشدين" والاحجام عن نقدهم بموضوعية.[103]

وما عدا هذه الدعوة الجديدة والخجولة للبحث الموضوعي، فان "أهل السنة" عادة، وبناء على تلك النظرة الايجابية المغالية الى الصحابة، يرفضون التفكير بأي نقد لهم، ويتوجهون الى نقد الأحداث والأشخاص والأفكار التي ظهرت بعيدا عن الصحابة أو وقعت بعد زمانهم بأجيال، أو يلقون بالمسئولية على عاتق اليهود المسلمين كعبد الله ابن سبأ. [104]

ولكن السؤال هل إن تلك الآيات تتحدث عن عصمة الصحابة بصورة مطلقة؟ أم انهم كسائر البشر الذين لهم مصالحهم وأهواؤهم واجتهاداتهم الخاصة وأخطاؤهم، وبالتالي يمكن دراسة أعمالهم وخطواتهم، ولاسيما في الأمور السياسية التي لم ينزل بها تشريع إسلامي؟

إن القرآن الكريم يؤكد على تقييم الناس على أساس الإيمان والعمل الصالح، ولا يعطي وعدا مطلقا بالصلاح والنجاة والفوز في الآخرة لأحد، حتى لو كان من أقرب المقربين للنبي الأعظم، بل ولو كان النبي نفسه، حيث يقول:" وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ". (الزمر ٦٥)، و"وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً، إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً". (الاسراء ٧٤ – ٧٥)، ويقول الله عز وجل متحدثا عن نبيه الكريم:"وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ

---

[101] – المصدر، ص ٢٣

[102] – المصدر، ص ٣١

[103] – يعيد محمد أبو زهرة أسباب الفرقة والانقسام، الى ما بعد عصر أبي بكر وعمر، ويقول: إن الفتن الطاحنة الهادمة ظهرت في عصر ذي النورين عثمان، وفي عهد إمام الهدى علي. أبو زهرة ، محمد (١٩٧٤) الوحدة الاسلامية (١٩٧١) ص ٨ دار الرائد العربي، بيروت لبنان

[104] – يقسم محمد بن المختار الشنقيطي في كتابه (الخلافات السياسية بين الصحابة) مواقف أهل السنة منهم الى خمسة مواقف بين الناقدين لهم والمدافعين بغلو عنهم.

حَاجِزِينَ". (الحاقة ٤٤ – ٤٧) ويأمره:" قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم". وقد وردت هذه الآية مرتين في سورة الأنعام آية ١٥ والزمر آية ١٣، ويخاطب الله تعالى نساء النبي وهن أقرب الناس اليه:" يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيرا. ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين، وأعتدنا لها رزقا كريما". (الأحزاب ٣– ٣١)

وكان الله تعالى يحذر أصحاب النبي، من الوقوع في الفتنة والانقلاب والردة، ويتوعد المنقلبين منهم بالعذاب والخسران، حيث يقول عز وجل:"مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ". (آل عمران ١٧٩)، ويقول مخاطباً الجيل الأول من المسلمين، في أعقاب معركة بدر:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ". (الأنفال ٢٤) ويقول تعالى محذراً الصحابة:"وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ".(آل عمران ١٤٤) ويحذرهم أيضا:" وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ".(آل عمران ١٠٥ – ١٠٧)

وهناك آيات أخرى صريحة بعدم عصمة الصحابة، واشتراط العمل الصالح لتزكيتهم، كآية:"يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم". (محمد ٣٣) وآية: ".. ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والاخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون". (البقرة ٢١٧) وقد حذر رسول الله (ص) المسلمين يوم العقبة من التفرقة والاقتتال الداخلي والكفر، فقال:"يا أيها الناس ألا إن دماءكم وأموالكم حرام

عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ فقالوا: نعم. فقال: اللهم أشهد. ثم قال: ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض".[١٠٥]

وهو ما يعني أن تقييم الصحابة يقوم على أساس أعمالهم الصالحة وطاعتهم لله، وأنهم غير معصومين، ولا توجد حصانة خاصة لهم، أو هالة مقدسة تمنعهم من الخطأ أو مواجهة العذاب.

ونحن لا نريد ان نقيم صحابيا أمام الله أو ندخله الجنة أو النار، وانما نريد أن ندرس ما قاموا به من أعمال وانتهجوا من سياسات، لا يزال البعض يعتبرها قدوة وأسوة وشرعا يجب سلوكه، ولا سيما في طريقة الحكم وإدارة البلاد.

ولكن وبما أن الخلافات التي ثارت بين الصحابة، ألقت بظلالها على جميع مراحل التاريخ الاسلامي.[١٠٦] فلا بد أن نفتح ملف الصحابة، ونتساءل: لماذا حدثت التفرقة بين الصحابة؟ وكيف كانت وحدتهم؟ وهل حدثت التفرقة بينهم بسبب ابتعاد بعضهم عن الدين واعتصامهم بالعصبية والأهواء؟ أم بسبب الخلافات السياسية؟ وهل كان للصحابة وتجاربهم السياسية والعسكرية دور في زرع بذور الخلاف والتفرقة في التاريخ الاسلامي؟

يقول الدكتور محمد بن المختار الشنقيطي:"ان الخلافات التي ثارت بين الصحابة، القت بظلالها على جميع مراحل التاريخ الاسلامي، بل صاغت الحضارة الاسلامية وطبعتها بطابع خاص، منذ القرن الأول

---

[١٠٥] – ابن سعد، الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٦٠ . ٢٦١ (في ذكر ومن حلفاء بني مخزوم: عمار بن ياسر). وقد كان بعض أصحاب رسول الله المعنيين بأمر المنافقين، كحذيفة بن اليمان (رض)، يلاحظون تزايد النفاق بعد وفاة رسول الله، نتيجة الإقبال على الدنيا، ولذا كان حذيفة يقول:"إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد رسول الله (ص)، كانوا يومئذٍ يسِرون، واليوم يجهرون". ويقول أيضا: "إنما كان النفاق على عهد النبي (ص) فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان". ويخاطب المسلمين محذراً:"إنكم اليوم معشر العرب لتأتون أموراً إنها لفي عهد رسول الله (ص) النفاق على وجهه". مسند أحمد ج ٥ ص ٣٩١ حديث حذيفة بن اليمان عن النبي (ص)، واللفظ له. مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٦٤ كتاب المناقب: باب ما جاء في الكوفة.

[١٠٦] – وقد عبر عن ذلك ابن تيمية بقوله:"... وذلك الشجار بالألسنة والأيدي أصل لما جرى بين الأمة بعد ذلك، فليعتبر العاقل بذلك". ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٥١/٣٥

الهجري حتى اليوم، فهي – بحق – مفتاح التاريخ الاسلامي والمجتمع الاسلامي. وقد عبر عن ذلك ابن تيمية بقوله:"... وذلك الشجار بالألسنة والأيدي أصل لما جرى بين الأمة بعد ذلك، فليعتبر العاقل بذلك".[١٠٧]

وهو ما يسمح لنا بإعادة قراءة تاريخ الصحابة، وبحث ملف التفرقة في التاريخ الاسلامي، من أجل العثور على جذر المرض وتقديم الدواء الناجع له، إذ لا بد أن نبحث بشجاعة وموضوعية وعلمية، ونطرح جميع التساؤلات والفرضيات، ونتوقف عند جميع الأحداث والخطوات التي اتخذها الصحابة بمن فيهم الخلفاء الأربعة، بعيدا عن الإيمان أو الالتزام "بخيرية القرون الأولى"، أو حديث "عليكم بسنة الخلفاء الراشدين من بعدي" الذي ينبغي أن نشك في صحته.

ومن هنا سيكون ضروريا بحث كيفية تأسيس الدولة العربية الاسلامية التي أقامها أبو بكر، والمباحثات الأولى التي جرت حول انتخابه في سقيفة بني ساعدة، وما تلاها من خطوات تاريخية اتخذها لفرض سلطانه على الجزيرة العربية، ثم قيام المسلمين بعد ذلك بعملية الفتح للشام والعراق ومصر وفارس وغيرها من البلدان، ودور كل ذلك في ترسيخ أو إضعاف الوحدة الاسلامية.

ومن المعروف أن الخلاف الطائفي التاريخي بين السنة والشيعة يبدأ من عملية انتخاب أبي بكر في السقيفة، بعيدا عن رأي أهل البيت، والتفاف فريق من المسلمين حول علي بن أبي طالب الذي امتنع عن البيعة لمدة ستة أشهر. ثم القول بنظرية النص أو الشورى، وما أعقب ذلك من خلاف بين علي ومعاوية، والعلويين والأمويين، وظهور السنة والشيعة عبر التاريخ.

وبالرغم من مضي قرون طويلة على تلك الخلافات السياسية بين العوائل القرشية المختلفة، إلا أن آثارها الفكرية والسياسية لا تزال باقية الى اليوم، ممثلة في التراث الطائفي السني والشيعي.

وسوف نقوم في هذا الكتاب بدراسة تاريخ نشوء الطوائف والظروف المحيطة بها، وتطورها، والحلول المختلفة المقدمة لمعالجة مشكلة الافتراق والتشرذم الطائفي في العالم الاسلامي.

---

[١٠٧] – الشنقيطي، محمد بن المختار، الخلافات السياسية بين الصحابة (٢٠٠٣)، ص ٦٥ عن ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٥١/٣٥

الباب الأول

جذور التفرقة في التاريخ الاسلامي؟

الفصل الأول

الوحدة الاسلامية في عهد الرسول، وانهيارها بعد وفاته

يحدثنا القرآن الكريم عن وحدة الأمة الاسلامية التي تحققت في زمن الرسول في آيتين هما "إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون". (الأنبياء، ٩٢) و "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون". (المؤمنون، ٥٢) ...

وكما هو واضح فانهما تتحدثان عن وحدة الأمة وليس عن وحدة الدولة. وقد عزز النبي الكريم تلك الوحدة عندما انتقل الى المدينة المنورة، حيث استطاع أن يوحد في البداية عشائر المدينة من الأوس والخزرج، بعد أن كانوا في قتالٍ متواصل لعقود طويلة.

نعم تمكن النبي من وضعهم في بوتقة إيمانية واحدة، ثم أضاف اليهم المهاجرين الذين قدم معظمهم من مكة، ومن قبيلة قريش بالذات.

ولكن تلك الوحدة لم تخلُ من بعض الشوائب العصبية والمصلحية السياسية. وقد وقع خلال السنوات العشر التي قضاها النبي في المدينة بصفته حاكماً بعض الحوادث التي كادت تفجر خلافا بين المهاجرين والأنصار، بتأثير من زعيم المدينة السابق عبد الله بن أبي بن سلول (المنافق)، لا سيما في غزوة بني المصطلق، في السنة السادسة للهجرة، عند بئر المريسع، عندما اشتبك مولى لعمر بن الخطاب مع أحد الأنصار، فقال ابن أبي سلول محرضا الأنصار على المهاجرين: قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: "سمن كلبك يأكلك" أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضر من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.[١٠٨] وكاد قوله هذا أن يشعل فتنة بين المهاجرين والأنصار، ولكن النبي قضى عليها بحكمته.

ورغم الوحدة الاسلامية بين الأنصار من الأوس والخزرج، إلا أنهم لم يتخلصوا تماما من العصبيات القبلية، وقد أخرج البخاري، في قصة حديث الإفك: إن رسول الله (ص) قال: "من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي" فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميّة، فقال: كذبت لعَمر الله، لا تقتله ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير، فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله (ص) على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت.[١٠٩]

وربما نلمس أيضا بعض ملامح الخلاف المكبوت بين الفريقين (المهاجرين والأنصار) عند وفاة الرسول، حيث بادر الأنصار الى الاجتماع منفردين في سقيفة بني ساعدة لاختيار أمير من بينهم، قبل أن يبادر المهاجرون الى السقيفة ليحاججوهم أنهم أولى منهم بالإمارة، وينتخبوا أبا بكر كخليفة.

---

[١٠٨] – الطبري، محمد بن جرير، التفسير، سورة المنافقين. ص ٤٠٨

[١٠٩] – البخاري، ج ٣ ص ١٥٦ و ج ٦ /٨

واذا كانت الوحدة بين المهاجرين والأنصار هشة نوعا ما، بسبب وجود بعض المنافقين في المدينة، وبقاء بعض الرواسب العصبية، والصراعات السياسية بين المؤمنين منهم، فان الوحدة الاسلامية في اطارها الكبير الأوسع كانت أكثر هشاشة، نتيجة إسلام الكثير من الأعراب إسلاما ظاهريا يقتصر على التلفظ بالشهادتين وأداء الصلاة، ولكن بدون توغل الإيمان عميقا في نفوسهم، وهو ما يحدثنا عنه القرآن الكريم: "قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم".(الحجرات، ١٤) وقد جاء عن عطاء بن السائب: ان عامة من مع النبي يومئذ غير مؤمنين، ولذلك تفجرت تلك الوحدة وتهاوت بعد وفاة الرسول مباشرة، عندما ارتد معظم العرب عن الاسلام.

وكانت وحدة الأمة التي أقامها النبي، من الناحية السياسية الدولية، أشبه بالفيدرالية، أو أضعف منها، حيث لم يشكل النبي دولة سياسية واحدة، ولم يجعل من نفسه ملكا على العرب أو المسلمين، وإنما اكتفى بالولاء الديني وأخذ الزكاة من المسلمين. وكان ملوك الجزيرة العربية (في البحرين وعمان واليمن وحضرموت واليمامة) الذين أسلموا في حياة النبي، يرتبطون به ارتباطا دينيا، ويحافظون على استقلالهم السياسي في نفس الوقت، وقد وجه لهم رسائل دعاهم فيها الى الاسلام ووعدهم بالمحافظة على ملكهم تحت أيديهم.[١١٠] ثم وفى لهم بذلك.[١١١] وهذا ما يؤكد أن الوحدة التي أقامها الاسلام كانت وحدة دينية أكثر منها وحدة سياسية. ويعزز هذا الرأي عدم وجود أي أمر في القرآن الكريم بتشكيل دولة أو إمبراطورية إسلامية واحدة، أو أي دعوة لتأسيس دولة وإقامة نظام حكم، وهذا ما يفسر عدم قيام النبي بتعيين خليفة له، وعدم تشكيل مجلس شورى لانتخاب أحد من بعده، مما يدل على عدم اهتمامه بمسألة السلطة والدولة، وعدم تشكيلها محوراً لوحدة الأمة الاسلامية.

ولا شك أن تجربة النبي الأكرم في المدينة تختلف عن تجربته في مكة، ففي مكة كانت مجرد دين، وأما في المدينة فقد تطورت الى ممارسة كثير من أعمال الدولة كالحرب والسلام، واخذ الزكاة، وإقامة الحدود،

---

[١١٠] – راجع: تاريخ ابن خلدون ، ج٢ ص ٣٦ و ج٢ ص ٣٨

[١١١] – ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ١٠٠٨ و ص ١٠٢٦راجع أيضا: أحمد زيني دحلان، السيرة الحلبية ٧٧/٣

ورعاية الفقراء، ولكن حكومته لم ترتق الى مستوى الدولة في المفهوم الحديث، ولا القديم، ولم تكن العلاقة مع الإمارات والممالك المسلمة ترتقي الى مستوى الدولة الواحدة وحتى الدولة الفيدرالية أو الكونفدرالية، وإنما كانت مجرد علاقة سياسية دينية، ولو كان النبي بصدد إقامة دولة واحدة لأرسل جيوشا وحاميات عسكرية إليها وغيَّر من زعمائها وقياداتها السياسية والعسكرية، وهو ما لم يفعله.

هذا بالضبط هو ما دفع الشيخ الأزهري علي عبدالرازق الى التساؤل:" إذا كان رسول الله (ص) قد أسس دولة سياسية، أو شرع في تأسيسها، فلماذا خلت اذن من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم؟ ولماذا لم يعرف نظامه في تعيين القضاة والولاة؟ ولماذا لم يتحدث الى رعيته في نظام الملك وفي قواعد الشورى؟ ولماذا ترك العلماء في حيرة واضطراب من أمر النظام الحكومي في زمنه؟ ولماذا ولماذا؟ نريد أن نعرف منشأ ذلك الذي يبدو للناظر كأنه إبهام أو اضطراب أو نقص، أو ما شئت فسمه، في بناء الحكومة أيام النبي (ص) وكيف كان ذلك؟ وما سره؟". [١١٢]

وكان عبد الرازق أول من لفت الأنظار الى الفصل القائم بين النبوة والملك، في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذي أصدره (سنة ١٩٢٥) غداة سقوط الدولة العثمانية، وقال فيه: إن "قيام الحكومة انما هو غرض من الأغراض الدنيوية التي خلى الله سبحانه وتعالى بينها وبين عقولنا، وترك الناس أحرارا في تدبيرها على ما تهديهم اليه عقولهم وعلومهم ومصالحهم وأهواؤهم ونزعاتهم".[١١٣] معتبراً أبا بكر أول ملك في الاسلام، وقال: إن"الوحدة العربية التي وجدت في زمن النبي عليه السلام لم تكن وحدة سياسية بأي وجه من الوجوه، ولا كان فيها معنى من معاني الدولة والحكومة، بل (لا) تعد أبدا أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة. وحدة الإيمان والمذهب الديني لا وحدة الدولة ومذاهب الملك".[١١٤]

وبالطبع فان هذا الرأي يخالف تماما ما ذهب اليه الكاتب المصري خليل عبد الكريم (٢٠٠٢ م) من أن النبي قام بتأسيس "دولة إسلامية" وأنه سلمها لقريش، كما يقول في كتابه (قريش من القبيلة الى الدولة

---

[١١٢] – عبدالرازق، علي، الاسلام وأصول الحكم، ١٩٢٥ ، ص ١٥٠

[١١٣] – المصدر، الكتاب الثاني، الباب الثالث، الفقرة السابعة.

[١١٤] – المصدر، ص ١٦٩

المركزية):"إن النبي مهد لإقامة دولة قريش التي كان جده قصي قد بدأ في تأسيسها". وقد بنى عبد الكريم رأيه هذا على حديث: "الخلافة في قريش".[115]

وإذا رفضنا موضوع تسليم النبي الدولة لقريش، فيمكن الجمع بين الرأيين بالقول بأن النبي أقام دولة، ولكن ليس بمعنى الدولة الحديثة، أو المهيمنة بقوة على الممالك والإمارات العربية في ذلك الزمن.

واذا سلمنا بأن النبي محمد أسس "أمة اسلامية" ضمت عدة دول عربية كانت قائمة في الجزيرة العربية، في ذلك الوقت، وأنه لم يؤسس كيانا سياسيا واحدا، ولا دولة عربية واحدة، ولم يكن بصدد تأسيس امبراطورية اسلامية واحدة تحكم العالم، فلا بد أن نعرف بأن قريشا كانت تحاول قبل الاسلام أن تشكل زعامة دينية سياسية لقبائل الجزيرة العربية، وأنها حاربت الاسلام في البداية خوفا على زعامتها، وأن قريش أقامت في ظل أبي بكر دولة قرشية عربية ذات ملامح "إسلامية"، وقد رأت تلك الدولة النور باجتهاد شخصي من أبي بكر، وليس بناء على إرادة نبوية.

وقد أدت تلك النزعة القرشية في السيطرة على الجزيرة العربية، قبل الإسلام وبعده، الى ولادة نظام سياسي قائم على القوة والعنف، وتشكيل نموذج ساهم ويساهم حتى الآن في زراعة بذور التفرقة والخلاف في العالم الاسلامي، وربما يساهم حديث يرويه البخاري عن أبي هريرة عن الرسول الأكرم أنه قال: "هلكة أمتي

---

[115] – روى البخاري عن معاوية أنه سمع النبي يقول: "إن هذا الأمر في قريش". البخاري ج٥ ص١٣ وروى هو ومسلم عن عبد الله بن عمر أن النبي (ص) قال:"لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان". المصدر، ج ٥ ص ١٣ و مسلم – كتاب الإمارة – باب الناس تبع لقريش، ص ٤٨٠ وروى أحمد في مسنده: أن النبي قال:"الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا، ووعدوا فوفوا، واسترحموا فرحموا". أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلي في مسنديهما والطبراني. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٠ ولكن توجد مناقشة في صحة هذا الحديث الذي لم يثبت عن النبي، من عدة جوانب: أولها: مخالفته للقرآن الكريم الذي ينص على المساواة والتعارف بين القبائل والشعوب. وثانيها: عدم معرفة الأنصار به، ومبادرتهم لاختيار أمير عليهم من أنفسهم. وثالثها: قول عمر:"إن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة، استخلفت معاذ بن جبل". (البخاري وأحمد وغيرهما) ومعاذ لا نسب له في قريش. وهذا ما يدفعنا للاعتقاد بأن هذا الحديث قد تطور لاحقا من قولٍ لأبي بكر في السقيفة:"إن هذا الأمر لا تدين العرب فيه إلا لهذا الحي من قريش" الى نسبته للنبي، في ظل هيمنة قريش على الخلافة قرونا من الزمن.

على أيدي غلمة من قريش" بإلقاء بعض الضوء على دور قريش في أزمة الصراع على السلطة في التاريخ الاسلامي.

وهو ما أوضحه ابن حجر العسقلاني في شرحه لذلك الحديث، حيث قال: "المراد أنهم يهلكون الناس بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله، فتفسد أحوال الناس، ويكثر الخبط بتوالي الفتن. وقد وقع الأمر كما أخبر صلى الله عليه وسلم".[١١٦]

الفصل الثاني

قيام الدولة القرشية العربية..ودورها في زرع بذور التفرقة بين المسلمين

مرّ تأسيس الدولة القرشية العربية بمراحل ثلاث هي:

١- مرحلة الولادة الأولى في سقيفة بني ساعدة، بعد وفاة الرسول الأعظم (ص) مباشرة.

٢- مرحلة السيطرة على الجزيرة العربية في ما يسمى بحروب "الردة".

٣- مرحلة الفتوح العربية للعراق والشام ومصر وفارس وغيرها من البلدان.

وقد اتسمت هذه الدولة بسمات أبرزها "الخلافة الدينية" والعصبية القبلية، والعنف، والاستبداد، وكان لكل مرحلة من تلك المراحل آثار كبرى في مسيرة المجتمع الاسلامي، وولادة الحركات والثورات والأحزاب والطوائف التي نشأت في التاريخ الاسلامي.

وسوف نمر بسرعة على أهم ملامح تلك المراحل الثلاث، وآثارها السياسية والفكرية.

[١١٦] - ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ٩/١٣

١- مرحلة الولادة: السقيفة ..إجهاض الحلم المدني

لم يضحِّ أحد من أجل نصرة الاسلام مثلما ضحى الأنصار، فهم لم ينصروا الرسول فقط وإنما ضحوا بكيانهم السياسي الخاص، فقد كانوا على وشك تتويج زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول ملكا عليهم، وكانوا ينضمون له الخرز، عندما استقبلوا الرسول في مدينتهم.[١١٧] ولم يساوموا النبي في مقابل نصرتهم له.[١١٨]

ولكن الأنصار - أو بعضاً منهم - كما يبدو، كانوا ينتظرون وفاة رسول الله ليعيدوا بناء مملكتهم، وعندما توفي الرسول بادروا الى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة لكي ينتخبوا زعيمهم سعد بن عبادة، الذي خلف عبد الله بن أبي، ملكا عليهم، كبقية الملوك المسلمين في أطراف الجزيرة العربية، وذلك في ظل فراغ دستوري وعدم وصية الرسول الى أي خليفة من بعده، أو إشارته الى قيام دولة إسلامية واحدة في الجزيرة العربية، وكذلك عدم تحدث النبي عن كيفية قيام الدولة الجديدة، وحدودها، وهويتها، وطريقة انتخاب الحاكم وشروطه ومواصفاته وصلاحياته.

وهو ما فتح الباب أمام الأنصار للاجتماع في السقيفة لانتخاب أمير لهم وإعادة تشكيل إمارتهم الخاصة، وكادوا ينجحون في اختيار سعد بن عبادة أميراً عليهم، لولا مسارعة شيوخ المهاجرين القرشيين (أبو بكر وعمر وعبيدة بن الجراح) الى السقيفة، ونجاحهم في إحباط هذه المحاولة.[١١٩]

وكانت الكفة السياسية قد مالت في السنتين الأخيرتين من حياة الرسول، لصالح المهاجرين، بعد دخول مشركي قريش في الاسلام بعد الفتح، بصورة جماعية، واجتماع السلطتين الروحيتين: القرشية القديمة، والاسلام، في قبضة قبيلة واحدة.

---

[١١٧] - الطبري، محمد بن جرير، التفسير، ص: ٤٠٩

[١١٨] - كما ساومه أحد زعماء قبيلة بني حنيفة الذي عرض على النبي وهو محاصر من قريش، أن يدعمه في مقابل تعهده بضمان وراثة السلطة (التي سوف تقوم في المستقبل) له ولعشيرته بني حنيفة.

[١١٩] - الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ج٣ ص٢٠١- ٢١٨

وقال عمر بن الخطاب للأنصار:" والله لا يرضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، وأولوا الأمر منهم، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين. من ينازعنا سلطان محمد وميراثه؟ ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مُدلٍ بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة". وأكد ذلك أبو بكر فقال:"إن هذا الأمر لا تدين العرب فيه إلا لهذا الحي من قريش".[١٢٠]

وهنا طرح أحد زعماء الأنصار وهو الحباب بن المنذر، التقسيم أو الانفصال، فقال: "منا أمير ومنكم أمير، فإنا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكنا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوانهم".[١٢١]

ولكن المهاجرين رفضوا هذه الفكرة بشدة، فطرح الأنصار فكرة تداول السلطة بينهم وبين المهاجرين، مرة لهؤلاء وأخرى لهؤلاء، ولكن المهاجرين رفضوا هذه الفكرة أيضا، وأصروا على تشكيل سلطة واحدة بزعامتهم. وكاد إصرار المهاجرين على الوحدة والزعامة أن يشعل حرباً بينهم وبين الأنصار الذين كانوا يخافون على مستقبلهم السياسي ونصيبهم من السلطة. إذ قال سعد بن عبادة لقومه الأنصار: "استبدوا بهذا الأمر، فإنه لكم دون الناس". وقال الحباب بن المنذر: "يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فان أبوا عليكم ما سألتم فأجلوهم عن بلادكم، وتولوا هذا الأمر عليهم، فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم، فإنه دان لهذا الأمر ما لم يكن يدين له إلا بأسيافنا، أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة (أي نعيد الحرب بيننا وبينكم قوية) والله لا يردُّ عليَّ أحد ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف". [١٢٢]

وهنا تدارك عمر الموقف بحكمته فقال:" فلما كان الحباب هو الذي يجيبني لم يكن لي معه كلام، لأنه كان بيني وبينه منازعة في حياة رسول الله فنهاني عنه، فحلفت أن لا أكلمه كلمة تسوؤه أبدا".[١٢٣] ثم اقترح

---

[١٢٠] – سيرة ابن هشام، ج ٦ ص ٧٨– ٨٢ والدينوري، الإمامة والسياسة، ج١ ص ١٢ – ١٧

[١٢١] – الطبري: ج٣ ص٣١٨، والبلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: أنساب الأشراف ج٢ ص٢٦٠

[١٢٢] – الدينوري ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: الإمامة والسياسة ج١، ص١٢، الطبري: ج٣ ص٢١٨– ٢٢٠

[١٢٣] – الطبري، ج٢ ص ٤٤٥، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ٢١ – ٦١

عمر على الأنصار بأن يضمن المهاجرون لهم المنزلة الثانية، وقال: "ليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نفتات دونكم بمشورة ولا تنقضي دونكم الأمور".[١٢٤]

وهنا حصل انشقاق في صفوف الأنصار، بين الأوس والخزرج، فقال زعيم الأوس أسيد بن حضير، لعشيرته: "لا والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا".

فمالت الكفة لصالح المهاجرين، وبادر أسيد الى مبايعة أبي بكر، وكان سعد بن عبادة مريضا، فلم يستطع مقاومة المهاجرين. وفرضت المعادلة السياسية القائمة نفسها، وانتخب "أبو بكر أول ملك في الاسلام". كما يصفه الشيخ علي عبد الرازق. [١٢٥]

ولئن اتسمت عملية انتخاب أبي بكر خليفة للرسول، بطابع الشورى التي جرت في السقيفة، ثم في أخذ البيعة من المسلمين في المسجد النبوي، الا أنها في الحقيقة كانت كما يقول عمر بن الخطاب "فلتة وقانا الله شرها، فمن عاد لمثلها فاقتلوه، فأيما رجل بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فانه لا يؤمر واحد منهما تغرة أن يقتلا".[١٢٦] إذ أن تلك العملية لم تجرِ ضمن مجلس شورى متفق عليه، ولا واضح المعالم

---

[١٢٤] - الطبري، ج٢ ص ٤٤٥، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ٢١ — ٦١ وابن الأثير، في الكامل في التاريخ، ج١ ص ٣٦٠ والدينوري، الإمامة والسياسة، ج١ ص ١٢ - ١٧

[١٢٥] - عبد الرازق، علي، الاسلام وأصول الحكم، ص ٧٥ ويضيف:"اذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لأبي بكر، واستقام له الأمر، تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية، عليها كل طوابع الدولة المحدثة وانها إنما قامت كما تقوم الحكومات، على أساس القوة والسيف. تلك دولة جديدة أنشأها العرب، فهي دولة عربية وحكم عربي، ولكن الاسلام كما عرفت دين البشرية كلها لا هو عربي ولا هو أعجمي". المصدر، ص ١٧٥

[١٢٦] - الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ص ١٦ وقد أورد القاضي عبد الجبار الهمداني عن شيخه أبي علي: ان عمر يقصد بالفلتة: البغتة من غير روية أو مشاورة، وان من عاد إلى الطريقة التي تمت بها البيعة لأبي بكر من غير مشاورة أو عذر ولا ضرورة ثم طلب من المسلمين البيعة فينبغي قتله. المغني في التوحيد والامامة، ج٢٠ القسم الأول ص ٣٤٠

والحدود، وقد شابها نوع من العنف كاد أن يودي بحياة زعيم الأنصار سعد بن عبادة، الذي امتنع عن البيعة حتى آخر يوم في حياته. [١٢٧] كما امتنع زعيم الهاشميين علي بن أبي طالب عن البيعة لمدة ستة أشهر، وتم تهديده بحرق البيت عليه إن لم يبايع أبا بكر. [١٢٨]

كما ان الوعد الدستوري الذي قدمه المهاجرون للأنصار، بمشاركتهم في السلطة واستيزارهم، والالتزام باستشارتهم، ذهب مع الريح، مع اختلال معادلة القوة أكثر لصالح المهاجرين، بعد انضمام القرشيين "الطلقاء" اليهم. ولم يقم أحد من الخلفاء التالين باستيزارهم أو استشارتهم في انتخاب الخليفة الجديد (ما عدا الامام علي بن أبي طالب) فقد عهد أبو بكر الى عمر من بعده، وكما يقول المؤرخون: إن أبا بكر دعا عثمان بن عفان وقال له اكتب:"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة .. إني استخلفت بعدي عمر بن الخطاب، فان بَرَّ و عدل فذلك ظني به ورأيي، وان بدَّل وجار فلكل امرئ ما

---

[١٢٧] – أخرج البخاري قصة سعد وفيها:فأخذ عمر بيده [بيد أبي بكر] فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل قتلتم سعدا، فقال عمر: قتله الله، وفي رواية لابن حبان: ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل من الأنصار :قتلتم سعدا، قال عمر فقلت وأنا مغضب: قتل الله سعدا فإنه صاحب فتنة وشر.

[١٢٨] – ورد في مصنف ابن أبي شيبة (توفي سنة ٢٣٥) عن محمد بن بشر (بن الفرافصة العبدي، توفي سنة ٢٠٣) حدثنا عبيد الله بن عمر (بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب) حدثنا زيد بن أسلم (العدوي، توفي سنة ١٣٦) عن أبيه أسلم (مولى عمر بن الخطاب، توفي بين سنة ٦٠ – ٧٠ هـ): أنه حين بويع لأبي بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان علي والزبير يدخلان على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشاورونها ويرتجعون في أمرهم، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب خرج حتى دخل على فاطمة فقال: " يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ما من أحد أحب إلينا من أبيك، وما من أحد أحب إلينا بعد أبيك منك، وأيم الله ما ذاك بمانعي إن اجتمع هؤلاء النفر عندك، أن أمرتهم أن يحرق عليهم البيت ". قال: فلما خرج عمر جاءوها فقالت: تعلمون أن عمر قد جاءني وقد حلف بالله لئن عدتم ليحرقن عليكم البيت وأيم الله ليمضين لما حلف عليه، فانصرفوا راشدين، فَروا رأيكم ولا ترجعوا إلي، فانصرفوا عنها فلم يرجعوا إليها حتى بايعوا لأبي بكر". ابن أبي شيبة، المصنف، كتاب المغازي، ما جاء في خلافة أبي بكر وسيرته، رواية رقم ٤

اكتسب، والخير أردتُ، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون". وخرج الى الصحابة وقال: إني قد استخلفت عليكم بعدي عمر.[129]

وهناك رواية أخرى تتحدث عن كتابة عثمان العهد على لسان أبي بكر عند احتضاره وغيبوبته: "أما بعد؛ إني قد إستخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيرًا منه". كما ينقل الطبري. [130]

وقد حاول ابن تيمية تبرير العهد بقوله:" إن مبايعة عمر لأبي بكر واستخلاف أبي بكر لعمر لم يكن في الحالتين إلا ترشيحا، ولو قُدِّر أن الصحابة لم ينفذوا عهد أبي بكر في عمر لم يصر إماما... ولو أن أبا بكر بايعه عمر وطائفة وامتنع سائر الصحابة من بيعته لم يصر إماما بذلك، وإنما صار إماما بمبايعة جمهور الناس... وأما عهده إلى عمر فتم بمبايعة المسلمين له بعد موت أبي بكر فصار إماما".[131]

ومن الواضح أن هذه محاولة من إبن تيمية لتبرير عمل أبي بكر المخالف للشورى. وبغض النظر عن الحجة التي ساقها أبو بكر لتبرير قرار العهد من "إرادة الخير للمسلمين"، فان مبدأ الشورى كان يقتضي استشارة زعماء المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين، قبل اتخاذ ذلك القرار. ولكن شيئا من هذا لم يحدث. ولا يوجد دليل على قدرة الصحابة على الرفض، والمخالفة.

---

[129] - الهمداني، القاضي عبد الجبار، المغني في التوحيد والإمامة، ج٢٠ قسم ٢ ص ٥ – ٧ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢ ص ٣١

[130] - قال أبو جعفر: قال الواقدي: حدثني إبراهيم بن أبي النضر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، قال: دعا أبو بكر عثمان خاليًا، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين؛ أما بعد. قال: ثم أغمى عليه، فذهب عنه، فكتب عثمان: أما بعد؛ إني قد استخلف عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيرًا منه، ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ علي، فقرأ عليه، فكبر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي! قال: نعم، قال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله، وأقرها أبو بكر رضي الله عنه من هذا الموضع.

[131] - ابن تيمية، منهاج السنة ج١ ص ١٤٢ والمنتقى من ميزان الاعتدال، للذهبي، ص ٦٢–٦٣

وقد تجلت هيمنة قريش، مرة أخرى في تشكيل عمر لـ "هيئة الشورى" التي عينها من أجل انتخاب خلف له، والمؤلفة من زعماء البيوتات القرشية الستة فقط، وهم (علي بن أبي طالب سيد بني هاشم، وعثمان بن عفان شيخ بني أمية، وطلحة بن عبيد الله كبير بني تيم، والزبير بن العوام زعيم بني أسد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رأسي بني زهرة). مع استثناء الأنصار والتأكيد بصراحة على أن ليس لهم من الأمر شيئا.

وقد كان تشكيل تلك الهيئة السداسية (القرشية) ينبئ عن احتكار قريش للسلطة، وتمتع عمر بصلاحيات دستورية وسياسية أوسع من التي كان يمارسها في حياته، حيث لم يرجع في تشكيل هيئة الشورى الى الأنصار فضلا عن الشعوب المسلمة العربية وغير العربية، ورسم بقراره هوية الخليفة الجديد.[١٣٢]

وقد كرست هذه الخطوة حصر الخلافة في قريش في المستقبل، ووضعهم في مرتبة أعلى من بقية المسلمين، واعتبار ذلك تشريعا ثابتا ومقدسا، ولا سيما عند الفقهاء من أهل السنة.

يقول الإمام النووي في (شرحه لصحيح مسلم): تعليقا على حديث "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان" و"الناس تبع لقريش في الخير والشر": "هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر أن الخلافة مختصة بقريش، لا يجوز عقدها لأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة، فكذلك بعدهم، ومن خالف فيه من أهل البدع، أو عرض بخلاف من غيرهم فهو محجوج بإجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم بالأحاديث الصحيحة. قال القاضي: اشتراط كونه قرشيا هو مذهب العلماء كافة، وقد احتج به أبو بكر وعمر – رضي الله عنهم – على الأنصار يوم السقيفة، فلم ينكره أحد.

---

[١٣٢] - يقول الدكتور محمد سهيل طقوش: "إن عملية انتخاب أبي بكر كانت أقرب إلى الواقع السياسي منها إلى إجراء انتخابي، لكن سرعان ما خرجت البيعة عن إطار الشورى إلى إطار التعيين ... في عهد دولة الخلافة الأموية، وما يليه من عهود أخرى باتجاه التعيين، وفقًا لتطور الظروف السياسية التي يمر بها كل عهد". طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ١/ ٢٧

قال القاضي: وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع، ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا، وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار". ويضيف النووي: "هم أصحاب الخلافة والناس تبع لهم...إن هذا الحكم مستمر إلى آخر الدنيا ما بقي من الناس اثنان". [١٣٣]

ولعل أبرز وأخطر بند في وصية عمر كان يتمثل في تشريع استخدام القوة الى حد القتل لمن يرفض نتيجة "الشورى القرشية" حتى لو كان من "العشرة المبشرة بالجنة" (أهل الشورى) الذين قال عمر عنهم: "إن النبي قد توفي وهو راض عنهم".

وربما كان عمر ينظر الى مصلحة الدولة العربية القرشية القائمة، في ظل الصراع مع الدول الأخرى، وحفاظا على وحدتها، ولكن تشريع القتل للمعارضة، وانكار حق الاختلاف، في ظل عدم وجود نظام سياسي شامل قائم على الشورى والتشاور بين شريحة واسعة من المسلمين، يدل أيضا على قيام الدولة القرشية على أساس القوة والعنف.

وبالرغم من اتسام النظام السياسي العربي (القرشي) بالعنف، إلا أنه لم يكن يتمتع بالنضج الدستوري الكافي، حيث كان يعطي "الخليفة" صلاحيات مطلقة، كما هو حال الحكام في ذلك الزمان، ولا يرسم حوله قنوات للشورى والمعارضة والاصلاح، تضمن سلامة النظام السياسي واستمراره لمدة طويلة، فقد أدت "هيئة الشورى العمرية القرشية" عملها وذهبت الى البيت، ولم تستمر كهيئة تشريعية رقابية الى جانب الخليفة المنتخب (عثمان بن عفان)، مما أتاح له مخالفة التعهد الذي قطعه على نفسه أمام هيئة الشورى بالسير على سُنَّة الشيخين، والاستيلاء على سلطات أوسع، والاستبداد بالادارة والأموال العامة وانفاقها كيفما يشاء،

---

[١٣٣] - النووي، يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم ١٨١٨ و١٨١٩

وتعيين من يشاء من أقاربه الأمويين (الطلقاء) على الولايات الاسلامية المختلفة في مصر والعراق والشام[١٣٤]، وقمع من ينتقده بشدة.[١٣٥]

وعندما ولدت تلك السياسة حركة شعبية معارضة، لم يكن النظام قادرا على حل الأزمة بشكل سلمي، لعدم وجود محكمة دستورية تقوم بالفصل بين الطرفين (الحاكم والمعارضة) فانتهت الأزمة الى انفجار دموي قتل فيه الخليفة عثمان، فيما عرف "بالفتنة الكبرى" التي استمرت بعد ذلك في عهد الحاكم الجديد الامام علي بن أبي طالب، عندما خرج عليه بعض أقطاب المعارضة السابقة وهم الصحابيان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة.

[١٣٤] – ففي سنة خمس وعشرين عزل عثمان سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى مكانه الوليد بن عقبة بن أبي معيط – وهو أخو عثمان لأمه – ثم ولى عليها بعده سعيد بن العاص، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولّى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وعين ابن عمه عبد الله بن عامر واليا على البصرة (وكان في الخامسة والعشرين من عمره). وهكذا احتل الأمويون كل المناصب العليا في الدولة، من وزير عثمان مروان بن الحكم، الى والي الشام معاوية. قال سعيد بن المسيب: ان عثمان كثيرا ما كان يولي بني أمية ممن لم يكن له مع النبي عليه الصلاة والسلام صحبة، فكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد (ص) وكان عثمان يستعتب فيهم فلا يعزلهم... فلما كان في الست الأواخر استأثر بني عمه فولاهم وما أشرك معهم. السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧

[١٣٥] – وقد ضرب عثمان عمار بن ياسر لأنه قدم له كتابا ينتقد فيه بعض أعماله، حتى أغشي عليه وفتق بطنه. يقول المؤرخون:"اجتمع ناس من أصحاب النبي (ص)، فكتبوا كتابا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنّة رسول الله وسنّة صاحبيه، وما كان من هبته خمس أفريقيا لمروان، وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين... وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور ... وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم، واستغنى برأيه عن رأيهم ... ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان، فمضى عمار حتى جاء دار عثمان، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية، فدفع إليه الكتاب فقرأه، فقال له: أنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: نعم... فقال مروان: يا أمير المؤمنين ان هذا العبد الأسود (يعني عمارا) قد جرّأ عليك الناس، وإنك ان قتلته نكلت به من وراءه، فقال عثمان: اضربوه، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه، فغشي عليه فجروه فطرحوه على باب الدار". الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢ ص ٤٨٥ والإمامة والسياسة ج١ ص ٣٥ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢ ص ٤٠

واستغل والي الشام معاوية بن أبي سفيان، ثغرة دستورية أخرى في نظام البيعة الذي كان يقتصر على أهل المدينة، واحتج بأنه لم يكن شاهدا أو مشاركا في عملية انتخاب الامام علي، وبالتالي فانه في حل من البيعة له، وله الحق في التمرد على الخليفة الجديد.

وقد رد عليه الامام قائلا:"إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد. وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضى، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة الى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى".[١٣٦]

وبالرغم من وجود عوامل عديدة للفتنة الكبرى التي عصفت بالمسلمين بقيادة الصحابة، كحب الدنيا والهوى والعصبية والصراع السياسي والنفاق وما يقال عن التآمر اليهودي (في دور إبن سبأ) فانه يمكن الاشارة الى احتكار قريش للسلطة بصورة مطلقة (وانتقالها من المهاجرين الى الطلقاء)، كعامل أكبر في تفرق المسلمين بحدة في "الفتنة الكبرى".[١٣٧]

فلو كانت هنالك محكمة دستورية تحسم الخلاف بين عثمان والمعارضة لما تفجرت الأزمة وانتهت بمقتله، ولو كان هناك نظام للشورى يمثل جميع المسلمين ويقوم بانتخاب الخليفة ومراقبته ومحاسبته وتحديد صلاحياته، لما انحرف عثمان، ولا خرج طلحة والزبير، ولا تمرد معاوية ضد الامام علي، ولا انشق الخوارج عليه.

---

[١٣٦] – الامام علي، نهج البلاغة، ٣/٧

[١٣٧] – بعد تفجر الاحتجاجات في مصر والعراق، عقد عثمان سنة ٣٥ اجتماعا في الحج مع الولاة المهمين والمستشارين لمناقشة الأمر، فأشار بعضهم بقمعها بالقوة، وأشار بعضهم الى معالجتها بالمال، ولكن عمرو بن العاص خاطب عثمان بصراحة: يا أمير المؤمنين، أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعتدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزما امض قدما. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢ ص ٦٤٣ دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ موقع Islamport

ولئن كان معاوية قد نجح بعد تنازل الامام الحسن عن الخلافة، في توحيد المسلمين بالقوة، فان الفتنة لم تمت وانما خمدت لبعض الوقت خلال عهده، وقد عادت لتلتهب بعد وفاته، ولا سيما بعد إلغائه لمبدأ الشورى نهائيا، وتعيين ابنه يزيد خلفا له، وأخذ البيعة له بالقوة والاكراه مسبقا.[١٣٨] وهو ما فتح الباب أمام سلسلة من الثورات في العالم الاسلامي، كانت أولاها ثورة الامام الحسين بن علي في كربلاء عام ٦١ للهجرة، ثم ثورة أهل المدينة بقيادة عبد الله ابن غسيل الملائكة عام ٦٢ وثورة عبد الله بن الزبير في مكة في نفس العام.

واذا كان يزيد بن معاوية قد قضى على ثورة الامام الحسين بمجزرة في كربلاء، وقضى كذلك على ثورة أهل المدينة بمجزرة أخرى أكبر وأبشع في واقعة الحرة.[١٣٩] فانه لم يستطع القضاء على ثورة ابن الزبير الذي نجح في تأسيس "خلافة" امتدت لعشر سنين، بعد وفاة يزيد سنة ٦٣ الى الحجاز والعراق وفارس ومصر، وكادت تقضي على ما تبقى من الأمويين في الشام .

ولا نريد هنا أن نستعرض تاريخ الأمويين أو الثورات العديدة التي قامت ضدهم، ولكنا نريد أن نؤشر الى قيام النظام العربي (الاسلامي) على أساس القوة والغلبة، وغياب الشورى، وانعدام أي دستور يكفل

---

[١٣٨] – يقول الحسن البصري:"أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذو الفضيلة. واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير...". تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٣٢ وابن الأثير، البداية والنهاية، الجزء ٦ صفحة ٢٢٥

[١٣٩] – قال ابن حجر:" فأرسل اليهم مسلم بن عقبة المري، وأمره أن يستبيح المدينة ثلاثة ايام وأن يبايعهم على أنهم خول وعبيد ليزيد، فاذا فرغ منها نهض الى مكة لحرب ابن الزبير، ففعل بها مسلم الافاعيل القبيحة، وقتل بها خلقا من الصحابة وأبنائهم وخيار التابعين، وأفحش القضية الى الغائة، ثم توجه الى مكة... ونصبوا على الكعبة المنجنيق، فأدى ذلك الى وهي اركانها ووهي بنائها، ثم احترقت..". ص ٢٥٥ عن ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣١٦/١١ وقال ابن تيمية: "فصار عسكره في المدينة ثلاثا، يقتلون وينهبون، ويفتضون الفروج المحرمة. ثم ارسل جيشا الى مكة المشرفة، فحاصروا مكة، وتوفي يزيد وهم محاصرون مكة، وهذا من العدوان والظلم الذي فعل بأمره". ص ٢٥٦ عن ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٤٠٨/٣

انبثاق الحكام من الأمة بصورة سلمية تمثيلية، وهو ما كان يشكل أكبر مصدر للقلق والمعارضة والتمرد والفرقة والانقسام بين المسلمين.

وكما يقول محمد بن المختار الشنقيطي:"إن أزمة الحضارة الاسلامية أزمة دستورية في جوهرها، وهي أزمة بدأت بذرتها ليلة السقيفة، وتحولت الى فتنة عمياء في (الجمل) ثم شبت حربا هوجاء في (صفين). وقد انتصرت في صفين القوة على الحق، والبغي على العدل، والملك على الخلافة".[١٤٠]

وهذا ما أشار اليه من قبل الشيخ علي عبد الرازق بقوله: " إننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الأمر وجدنا أن الخلافة في الاسلام لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة، وأن تلك القوة كانت، إلا في النادر، قوة مادية مسلحة. فلم يكن للخليفة ما يحوط مقامه إلا الرماح والسيوف، والجيش المدجج والبأس الشديد، فبتلك دون غيرها يطمئن مركزه، ويتم أمره...لا نشك مطلقا في أن الغلبة كانت دائما عماد الخلافة، ولا يذكر التاريخ لنا خليفة إلا اقترن في أذهاننا بتلك الرهبة المسلحة التي تحوطه، والقوة القاهرة التي تظله، والسيوف المصلتة التي تذود عنه".[١٤١]

وأضاف:"إذا كان في هذه الحياة الدنيا شئ يدفع المرء الى الاستبداد والظلم، ويسهل عليه العدوان والبغي، فذلك هو مقام الخلافة، وقد رأيت أنه أشهى ما تتعلق به النفوس، وأهم ما تغار عليه. وإذا اجتمع الحب البالغ والغيرة الشديدة وأمدتهما القوة الغالبة، فلا شئ إلا العسف، ولا حكم إلا السيف".[١٤٢] و"إن

---

[١٤٠] - ويضيف: "ولا يزال المسلمون عاجزين عن الخروج من هذا المأزق الدستوري حتى اليوم، رغم ما تضمنه القرآن والسنة من مبادئ هادية في بناء السلطة وأدائها، ورغم ما توفره التجربة الانسانية المعاصرة من عبرة مفيدة في هذا المضمار. .. ان الأمة لن تخرج من أزمتها التاريخية الا اذا أدركت كيف دخلت اليها. والمثير للأسى حقا أن حواجز كثيفة من المقدسات الوهمية لا يزال يحول بيننا وبين قراءة تلك المرحلة التأسيسية الحرجة من تاريخ الاسلام". الخلافات السياسية بين الصحابة، ص ٤٩-٥٠

[١٤١] - عبدالرازق، علي، الاسلام واصول الحكم ١٩٢٥ ص ١٢٩

[١٤٢] - المصدر، ص ١٣١

تلك التي دعوها الخلافة أو الامامة العظمى لم تكن شيئا قام على أساس من الدين القويم، أو العقل السليم".[١٤٣]

وأما الشيخ الأزهري (القرآني) أحمد صبحي منصور، فهو يرجع جذور ظاهرة تفرق المسلمين إلى الفتوحات العربية التي تمت في عهد عمر بن الخطاب، والتي انطوت على امتصاص ثروات الشعوب المفتوحة في الشام والعراق وفارس ومصر، باسم الجزية والخراج، وتكديسها في جيوب الفاتحين العرب، فيقول: "إن احتلال العرب المسلمين للبلاد المفتوحة هو الذي أوجد المذهبية والفرقة بين المسلمين العرب وغير العرب". كما أن الصراع على تلك الثروات بين الفاتحين العرب كان سببا للثورة على عثمان بن عفان، وانفجار الفتنة الكبرى الأولى في الاسلام. [١٤٤]

عدم وجود دستور للحكم في عهد الخلفاء الأربعة الأولين

لم يكن يوجد دستور واضح للحكم في عهد الخلفاء الأربعة، يحدد صلاحية الخليفة في الشؤون المالية والسياسية، وانما كان الأمر عرضة لاجتهاد الحاكم وتقواه، وقد حاول المهاجرون والأنصار الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، على عجل، أن يتفقوا على دستور معين، وبعض ملامح النظام السياسي، وطريقة تقاسم السلطة، بأن يتنازل فيها الأنصار عن الحكم في مقابل الاحتفاظ بالوزارة والمشورة، وبالرغم من أن اتفاقهم كان محدودا في إطار المدينة، إلا أن المهاجرين القرشيين لم يلتزموا به، وفرضوا سلطتهم بعد ذلك على الأنصار، كما فرضوها على سائر القبائل والشعوب العربية في الجزيرة، والمناطق المفتوحة كالعراق والشام ومصر وفارس.

---

[١٤٣] - المصدر، ص ١٣٨

[١٤٤] - منصور، أحمد صبحي، ٢٠٠٦ مقال تحت عنوان: المسكوت عنه في سيرة عمر بن الخطاب في الفكر السني، موقع أحمد منصور

وكانت سلطة الخلفاء مطلقة تسمح لهم بالتصرف كيفما أرادوا. ومع أنهم كانوا يعلنون التزامهم بالشريعة الاسلامية، إلا أن الشريعة لم تكن واضحة، أو مبينة، أو شاملة للجانب الدستوري والسياسي، ولذلك فقد كانت ثمة فجوة كبيرة في طريقة انتخاب الحاكم وطريقة عزله، وطريقة إدارته للأمور السياسية والمالية، وهو ما سمح لأبي بكر بتعيين عمر خليفة من بعده، وتعيين عمر للشورى المؤلفة فقط من ستة من زعماء قريش المهاجرين، وتحديد صيغة الشورى بحيث تؤدي إلى انتخاب عثمان، ثم قيام عثمان بن عفان بتولية أقاربه على الأمصار المفتوحة (العراق والشام ومصر) وإغداق الأموال الهائلة عليهم.[١٤٥] وهو ما أدى الى ثورة عامة ضده، أدت في النهاية الى مقتله.

وحتى عندما انتخب الإمام علي بن أبي طالب من قبل الثوار، فان غياب الدستور الذي يحدد من يحق له الانتخاب ومن لا يحق له، سمح بتمرد والي الشام معاوية بن أبي سفيان، على أمير المؤمنين الجديد، بحجة عدم مشاركة معاوية في عملية الانتخاب.

وقد رد عليه الامام علي بأن الحق في الشورى هو حصر للمهاجرين والأنصار، وأن معاوية من الطلقاء الذين لا يحق لهم تولي السلطة أو المشاركة في انتخاب الامام، ولا سيما أنه لم يكن في العاصمة (المدينة) وقت الانتخاب، وأن أهل المدينة يبتون في الأمر وليس للغائب أن يحتج أو يرفض، بمعنى أن لا حق للأقاليم والمدن البعيدة أن تشارك في عملية انتخاب الإمام. وكان قد مضى، في ذلك الوقت، على نشوء جيل المهاجرين والأنصار، خمس وعشرون عاما على الأقل، وهو ما يعني ولادة جيل جديد ليس من المهاجرين والأنصار، وانما من المسلمين العاديين الذين كانوا يبحثون عن دور سياسي لهم.

---

١٤٥ – عندما تولى عثمان الخلافة بعد وفاة عمر، أبقى على المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة لمدة عام، ثم عزله وجعل مكانه سعد بن أبي وقاص لمدة عام، ثم عين في العام التالي الوليد بن عقبة، أخاه من أمه. الذي كان قد أسلم في اللحظة الأخيرة بعد فتح مكة. ثم عين عثمان اثنين من ابناء عمومته واليين على البصرة والكوفة هما عبد الله بن عامر وسعيد بن العاص (وكانا في الخامسة والعشرين من عمرهما). واصبح الأمويون عندئذ يشغلون كل المناصب العليا في الامبراطورية العربية الاسلامية، فوزير عثمان في المدينة هو مروان بن الحكم، والمحتسب في المدينة الحارث بن الحكم الأموي، ووالي الشام معاوية، ووالي مصر عبدالله بن أبي سرح (أخي عثمان من الرضاعة)، وغدا الآن، بعد التعيينات الجديدة، والي البصرة والكوفة أمويين.

واذا أضفنا إليهم أبناء المناطق المفتوحة من المسلمين الجدد، فان المشكلة تكبر وتتوسع.

الفصل الثالث

حروب "الردة"..أو حروب السيطرة على الجزيرة العربية؟

بالرغم من أن بيعة أبي بكر كانت فلتة، ومحصورة بين فئة قليلة من المسلمين هم المهاجرون والأنصار، في غياب تام من ممثلي بقية المسلمين في الجزيرة العربية، إلا أن البيعة كانت سلمية نوعاً ما وقائمة نسبياً على الشورى، وقد أسست لقيام النظام السياسي القرشي في المدينة ومكة وما حولهما، من قبائل متحالفة معهما، ولكن الصورة اختلفت في عموم الجزيرة العربية، حيث كان إسلام القبائل العربية بصورة عامة: سياسيا إسميا وسطحيا وضعيفا وحديثا، وهو ما كان يستدعي مزيدا من الحكمة والصبر والمودة واللين في التعامل معها، وتأليفها، من أجل تكريس الاسلام في قلوبها، وتعزيز أواصر الأخوة الاسلامية معها .

ولكن النظام القرشي (البكري) الفقير اقتصاديا، كان بحاجة الى أموال لكي يستمر في الحياة، وهذا ما دفع الخليفة الجديد أبا بكر لاتخاذ قرار بجباية الزكاة من تلك القبائل في اليمامة والبحرين واليمن، التي كانت تعيش أوضاعاً اقتصادية أفضل من الحجاز القاحل.

ولئن كان الرسول الأعظم يجبي الزكاة منها، فلأنه كان يمتثل الى أمر إلهي مباشر وخاص له بجباية الزكاة:"خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها وتزكيهم، وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم، والله سميع عليم". (التوبة، ١٠٣) بينما لم يكن يوجد أي نص قرآني أو نبوي بالطلب من أي حاكم آخر (أو خليفة للنبي)

بجباية الزكاة من الناس، حيث توجد في القرآن، حوالي ثلاثين آية تأمر الناس بإخراج الزكاة، وإنفاقها في سبيل الله والفقراء والمساكين، ولكنها مطلقة لا تشير الى وجوب تسليمها لشخص معين، ولا سيما أن الاسلام لم ينص على تأسيس دولة معينة ولم يرسم ملامح نظام سياسي خاص.

وهذا ما كان يسمح للقبائل العربية لحكم نفسها بنفسها، وإخراج زكواتها وتوزيعها بين الفقراء والمساكين في مناطقها، بصورة لا مركزية، ولكن أبا بكر (والنظام القرشي) الذي اعتبر نفسه وريثا لنظام رسول الله وخليفة له، اعتبر تسليم الزكاة إليه عنوانا على اعتراف القبائل العربية بسلطته وخضوعها له، ولذلك قرر أبو بكر بعد توليه السلطة، مد سلطانه الى جميع ربوع الجزيرة العربية، وجباية الزكاة بالقوة من المسلمين (حتى من الذين لم يبايعوه ولم ينتخبوه حاكما) وهذا ما دفع عامة القبائل الى الكفر بالاسلام، أو التمرد على سلطته والامتناع عن إخراج الزكاة، أو الخضوع له.

وتذكر المصادر التاريخية: أن ممثلي قبائل أسد وغطفان وطيء اجتمعوا، بعد وفاة النبي، وأرسلوا وفدًا مفاوضًا عنهم إلى المدينة، مطالبين بإعفائهم من الزكاة (أو بالأحرى تسليم الزكاة لأبي بكر)، فاستقبل أبو بكر الوفد استقبالًا حسنًا، لكنه رفض طلبهم بترك الزكاة رفضًا قاطعًا على الرغم من أنهم أكدوا عزمهم على الاستمرار في الالتزام بالدين وأداء الصلاة، ولما عادوا خائبين من المدينة ارتدوا، والتحقوا بالمتنبئ طليحة الأسدي.[١٤٦]

وهذا ما عبر عنه أيضا زعيم بني عامر قرة بن هبيرة الذي قال لعمرو بن العاص عندما مر به منصرَفه من عُمان:"يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة (ويقصد الزكاة)، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم". [١٤٧]

وكما يقول الطبري: قد جاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة، ويمنعون الزكاة، فلم يقبل ذلك منهم وردهم.

[١٤٦] - الطبري، ج٣ ص٢٥٨ وفي نسخة أخرى، ص ٥٠٥

[١٤٧] - الطبري، السنة الحادية عشرة، ص ٥٠٥

وقد خرجت فعلاً الأكثرية الساحقة من القبائل العربية على حكم أبي بكر، ولم يبق مواليًا له سوى نواة صغيرة جدًا تتألف من القبال التالية:

- قريش وحلفاؤها التقليديون الذين كانوا يعيشون بالقرب من مكة .
- والأوس والخزرج وحلفاؤهم التقليديون الذين كانوا يسكنون بالقرب من المدينة .
- وثقيف في الطائف، فقد ثبتت مزينة وغفار، وجهينة وبلى وأشجع وأسلم وخزاعة؛ على الإسلام، وذلك لأن هذه القبائل كانت تربطها بمكة، والمدينة مصالح مشتركة، وهي تدخل تقليديًا في تحالف معها.

وفي ما عدا ذلك فقد عمت "الردة" سكان المناطق الأخرى في الجزيرة العربية، ولا سيما اليمن وعمان وحضرموت، وكما يقول الطبري:"ارتدت العرب؛ إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة؛ ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية".[١٤٨]

هشاشة الاسلام والردة

وكان بعض تلك القبائل قد أسلم سياسيا بدافع المصلحة أو الخوف، لا اسلاما عقائديا، كما قال تعالى:"قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم". (الحجرات ١٤)[١٤٩]

ولم يكن إسلام الكثير من القبائل راسخا وقويا، وإنما كان حديثا وسطحيا، ولم تكن الفرصة قد أتيحت لتلك القبائل لتتشرب من معين الاسلام وتتعرف على مبادئه وأركانه بصورة واسعة، حيث لم تكن جماهير القبائل قد تعرفت على النبي مباشرة، وانما عبر وفود من زعمائها زارت المدينة وأعلنت الاسلام بصورة جماعية، ولذلك كانت ردتها سهلة وسريعة.

---

[١٤٨] - المصدر

[١٤٩] - وقد شرح ذلك البخاري في "باب اذا لم يكن الاسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل". البخاري ١/١٨

كما أن ردتها لم تكن عن الاسلام بصورة كاملة، أو عودة إلى الشرك وعبادة الأصنام، وانما كانت عن بعض المفاهيم الاسلامية، أو بعض الالتزامات المالية كدفع الزكاة لأبي بكر.

وقد لعبت عوامل عديدة في الردة كالصدمة النفسية بوفاة الرسول، أو حدوث الشبهة بامكان الجمع بين نبيين، أو العصبية القبلية (وصراع العدنانيين مع القحطانيين، أو مضر وربيعة) أو رفض الخضوع لقريش ومركز المدينة، وهذا ما يدعونا للتوقف عند معنى "الاسلام" و "الردة" والنظر بعمق الى البعد السياسي للكلمات، أكثر من المعنى العقائدي والإيماني.

وإذا كان إسلام القبائل العربية يعني الخضوع لسلطة المدينة فان ردتها كانت في الواقع ردة سياسية عن الخضوع للمدينة أو رفضا لسيطرة قريش. وذلك بدليل عودة الكثير منهم الى الاسلام مرة ثانية بسرعة، بعد معركة خاطفة، أو حتى بمجرد اقتراب الجيوش الاسلامية، خلال عام أو أقل من عام، ثم انخراطهم في حركة الفتوح في العراق والشام، بما فيهم المتنبئ طليحة والمتنبئة سجاح.[١٥٠]

ولعل أبرز مثل على العامل السياسي في الردة هي قصة بني حنيفة، القبيلة الكبيرة التي كانت تقطن اليمامة وسط الجزيرة العربية، والتي كانت تنافس قريش في زعامة العرب، وتحاول الحفاظ على استقلالها.

وحسبما يقول المؤرخون، فان النبي قد عرض على ملك اليمامة (هوذة بن علي) الاسلام، في مقابل وعد بالمحافظة على ملكه، إن أسلم، كما هي عادة النبي في رسائله الى الملوك، حيث جاء فيها:"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله الى هوذة بن علي: سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك". [١٥١] ولكن (هوذة بن علي) الذي توفي

---

[١٥٠] - ظلت سجاح في بني تغلب تعيش مغمورة بين أهلها، ثم دخلت في الإسلام عندما انتهى رأي أسرتها إلى الاستقرار في البصرة التي غدت المركز الأول لبني تميم في عهد بني أمية، وعاشت مسلمة، وماتت في سنة ٥٥هـ/ ٦٧٥م . الطبري، ج٣ ص٢٧٥

[١٥١] - راجع ابن هشام، في الجزء الرابع في ذكر الرسائل، والطبري في تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني. واليعقوبي، في الجزء الثاني، في ذكر الرسائل، وابن الأثير في الكامل في التاريخ، وابن كثير في البداية والنهاية.

في السنة الثامنة للهجرة، رد على رسالة النبي، قائلا:" ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل إلي بعض الأمر أتبعك". ويبدو أنه كان يطمح الى أكثر من المحافظة على ما في يديه، كوراثة النبي، وهو ما أغضب النبي، وجعله يقول:" لو سألني سيابة – قطعة من الارض – ما فعلت، باد وباد ما في يديه". [١٥٢]

وعندما جاء وفد اليمامة الى المدينة في السنة التاسعة، وأعلن إسلامه. حاول أحد سادتهم (مسلمة بن حبيب الحنفي) أن يفاوض الرسول على السلطة في المستقبل، وقال: "إن جعل لي محمد الأمر بعده تبعته". فأقبل اليه رسول الله وفي يده قطعة من قضيب، وقال:" لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك ما رأيت".[١٥٣]

ويختلف المؤرخون المسلمون في تفاصيل هذا اللقاء ولكنهم يجمعون على طلب المشاركة في السلطة أو انتقال سلطة النبي الى بني حنيفة، بعد وفاته، كما ورد في رواية لابن اسحاق: أن (مسيلمة) قال لرسول الله: إن شئت خلينا لك الأمر وبايعناك على أنه لنا بعدك، فقال: "لا، ولا نعمة عين، ولكن الله قاتلك".

ولما عاد وفد اليمامة الى بني حنيفة أعلن مسيلمة النبوة، وكتب الى النبي محمد رسالة يقول فيها: "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: ألا إنى أوتيت الأمر معك فلك نصف الأرض ولي نصفها ولكن قريشاً قوم يظلمون" (أو يعتدون) فأرسل له النبي :"من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من أتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين".[١٥٤]

---

[١٥٢] – دحلان، السيرة الحلبية، ج ٣ ص ٢٥٤ وأيضا: كتاب عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ص ٤٦ و كتاب الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.

[١٥٣] – الصنعاني، مبارق الازهار، ج ٢ ص٦١-٦٢، و القسطلاني، ارشاد الساري، ج ٦ ص ٤٣٥-٤٣٦، و صاحب (نشوة الطرب) ج ٢ ص٦٣١ و ابن هشام، ج ٤ ص ٢٢٢-٢٢٣

[١٥٤] – ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص ١٠٢٠ و البخاري، حديث رقم ٤٣٧٣

وعندما حدثت الردة بعد وفاة رسول الله، والتقى مسلمة الحنفي (مسيلمة الكذاب) بسجاح قال لها:"لنا نصف الأرض، وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش، فحباك به، وكان لها لو قبلت".[١٥٥]

ويتجلى عامل التطلع نحو الاستقلال في ردة بني حنيفة، في قول أحد أسراها الذي وقف أمام أبي بكر وقرأ: "يا ضفدع نقي نقي، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم يعتدون".[١٥٦] وقول شاعرهم: "أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر. أيورثنا بكرا اذا مات بعده، وتلك لعمر الله قاصمة الظهر".

ولا شك بارتداد بعض العرب الذين كانوا قد أسلموا حديثا، ولكن موضوع السلطة المتمثلة في الزكاة، كان أهم عامل من عوامل التمرد الذي احتف بعناوين أخرى، واصطبغ بشعار (كالنبوة) .

ويذكر المؤرخون المسلمون أسماء خمسة أشخاص قادوا "الردة" وادعوا النبوة، هم:

١- عبهلة (عيهلة) بن كعب، المعروف بالأسود العنسي، الذي ادعى النبوة في اليمن، وغلب على ما بين حضرموت الى الطائف. وطرد العمال المسلمين الذين كانوا يجمعون الصدقات، فأمرهم أن يردوا ما بأيديهم فهم أولى به: "أيها المتوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به، وأنتم ما أنتم عليه". [١٥٧]

٢- طلحة بن خويلد الأسدي، الذي ادعى النبوة في قبائل بني أسد وغطفان وطئ (في شمالي الجزيرة) وتبعه كثير من العرب عصبيةً، كزعيم غطفان، عيينة بن حصن، الذي كان يقول: "نبي من الحليفين (يعني أسدًا وغطفان) أحب إلينا من نبي من قريش". [١٥٨]

---

[١٥٥] - تاريخ الطبري، السنة الحادية عشرة، ص ٥١٠

[١٥٦] - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٦ ص ٩٢

[١٥٧] - الطبري: ج ٣ ص٢٣١، ٢٣٢

[١٥٨] - المصدر

٣- مسلمة بن حبيب الحنفي، الذي ادعى النبوة والشراكة مع رسول الله محمد (ص) في بني حنيفة (وسط الجزيرة العربية).

٤- سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية، التي ادعت النبوة في بني تميم (شرق الجزيرة) .

٥- ذو التاج لقيط، الذي ادعى النبوة في عمان.

ويبدو أن المؤرخين المسلمين يبالغون بعض الشئ في صبغ حركة التمرد العربية بطابع الردة عن الاسلام، وتضخيم دور أولئك "الأنبياء"، حيث لم يكن بعض هؤلاء سوى شعراء أو كهنة مثل طلحة الأسدي، الذي ادعى نزول جبرئيل عليه، وسجعه ببعض الكلمات، وأمر المسلمين بترك الركوع والسجود في الصلاة، وقوله: "إن الله لم يأمر أن تمرغوا وجوهكم في التراب، أو أن تقوسوا ظهوركم في الصلاة"، و"إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم، وقبح أدباركم شيئًا، فاذكروا الله أعفة قيامًا".

وكذلك أمر الكاهنة الشاعرة سجاح، التي قادت قومها بني تميم. ولم يردنا شئ عن (ذي التاج لقيط) كما لم يردنا شئ عن (الأسود العنسي) الذي قاد حركة الردة في اليمن، غير ادعائه بنزول ملكين عليه.

وربما كان أكثر ما وردنا هو عن (مسلمة الحنفي) الذي ادعى النبوة في زمان رسول الله، وطلب منه في رسالة، الاعتراف به كشريك في النبوة. ونقل لنا المؤرخون المسلمون بعض أقواله، وأهمها ما يتضمن مطالبته بتقاسم الجزيرة العربية "لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يظلمون (أو يعتدون)".

وهو ما يعبر عن المضمون السياسي لدعوته أكثر من دعوى النبوة، أو اتخاذ النبوة غطاء لحركة الاستقلال في اليمامة، ورفض الخضوع لسلطة قريش.

ومما يدل أيضاً على جوهر البعد السياسي في الردة، هو التزام المرتدين بالاسلام عموما، وبالصلاة، وقيام مسيلمة بتقديم صداق الى سجاح بمناسبة زواجه منها يتمثل بوضع بعض الصلوات عن قومها،

وقوله:"إن مسلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد: صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر".[159]

وبما أن الردة بصورة عامة، وفي البداية خصوصا، لم تكن عن الاسلام، وانما امتناعا فقط عن أداء الزكاة لأبي بكر، فقد أنكر عمر على أبي بكر إعلانه الحرب على تلك القبائل لذلك السبب، وقال له: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (ص): "أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله، فمن قالها عصم مني ماله ونفسه الا بحقه، وحسابه على الله"؟. فقال أبو بكر: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فان الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا (أو عناقا) كانوا يؤدونه لرسول الله (ص) لقاتلتهم على منعه" فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. [160]

وبالرغم من أن قريشا لم يكن قد مضى على إسلامها الجماعي إلا سنتان، فانها لم ترتد، بسبب موقعها القيادي في دولة أبي بكر، واستفادتها سياسيا واقتصاديا، ومع ذلك تقول المصادر التاريخية: قد ارتج أهل مكة، وكادوا يرتدون، لولا معرفتهم بأن الاسلام يصب في صالحهم، وهذا ما عبر عنه سهيل بن عمرو الذي وقف على باب الكعبة وصاح بهم: يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله ليتمَّنَّ الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله (ص) فلقد رأيته قائما مقامي هذا وحده وهو يقول:"قولوا معي لا إله إلا الله تُدِن لكم العرب وتؤدي إليكم العجم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله" فمن بين مستهزىء ومصدق فكان ما رأيتم والله ليكونن الباقي. فامتنع الناس من الردة. ولذلك تصدر القرشيون قيادة الحروب ضد "المرتدين" من أجل تعزيز سلطة أبي بكر ودولة قريش.

كتاب أبي بكر إلى القبائل المرتدة ووصيته للأمراء

---

[159] – تاريخ الطبري، ص ٥١٠

[160] - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الجزء الأول، مسألة ٢٩ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله الا الله...

وقد قرر أبو بكر استخدام القوة المفرطة ضد "المرتدين" أو مانعي الزكاة إليه، فوجه رسالة عامة الى جميع القبائل المسلمة و"المرتدة" وطالبها بالعودة الى الاسلام، والخضوع لسلطته، ودفع الزكاة له، وجاء فيها:

- "بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة؛ أقام على إسلامه أو رجع عنه: سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى... وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله، وما جاءكم به نبيكم، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، ... وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به؛ اغترارًا بالله، وجهالة بأمره، وإجابة للشيطان...وإني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله؛ فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه؛ ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك؛ ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبى النساء والذرارى، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام؛ فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله. وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم؛ والداعية الأذان؛ فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم؛ وإن لم يؤذنوا عاجلوهم؛ وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم؛ فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم؛ وحملهم على ما ينبغي لهم".[١٦١]

ومن الواضح أن الرسالة (والجيوش) لم تكن من أجل الدعوة الى الاسلام فقط، وانما من أجل إخضاع القبائل لسلطة أبي بكر وجباية الزكاة منها، وهذا ما تكرر أيضا في العهود التي أعطاها أبو بكر لأمراء الجيوش التي بعثها للقتال، وجاء فيها:

- "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته، وأمره بالجد في أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام؛ فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له؛ ثم

[١٦١] - تاريخ الطبري، السنة الحادية عشرة، ص ٥٠٣ الطبعة الرابعة، بيت الأفكار الدولية، عمان، الرياض

ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم، ويعطيهم الذي لهم؛ لا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم؛ فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف؛ وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله؛ فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل؛ وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان؛ وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحد شيئًا أعطاه إلا الإسلام؛ فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه، ومن أبى قاتله؛ فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه، إلا الخمس فإنه يبلغناه...". [١٦٢]

استخدام العنف في عملية الإخضاع

وبما أن حروب أبي بكر ضد "المرتدين" لم تكن لإعادتهم للاسلام بقدر ما كانت محاولة للسيطرة على الجزيرة العربية، فقد اختلفت (تلك الحروب) في عنفها عن تجربة الرسول في الدعوة السلمية للرسالة الاسلامية، والتي أدت الى دخول الناس في دين الله أفواجا.

وكان مما أوصى به أبو بكر جنوده: "إذا نزلتم منزلا فأذنوا وأقيموا، فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شئ إلا الغارة، ثم اقتلوهم كل قتلة، الحرق فما سواه، وإن أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم، فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم، وإن أبوها فلا شئ إلا الغارة ولا كلمة".

وعندما حقق خالد بن الوليد نصرا سريعا وحاسما على قبائل غطفان وأسد، في معركة بزاخة، كتب اليه أبو بكر:"ليزدك ما أنعم لله به عليك خيرا...ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين، إلا قتلته ونكلت به غيره، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن في ذلك صلاحا فاقتله".

---

[١٦٢] - المصدر

فأقام على البزاخة شهرا يصعد عنها ويصوب، ويرجع اليها في طلب أولئك، فمنهم من أحرق، ومنهم من قمطه ورضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال.[١٦٣] ولم يقبل خالد إسلام أحد من أسد ولا غطفان ولا هوازن ولا سليم ولا طيئ إلا بعد أن جاءوه بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على أهل الاسلام في حال ردتهم، فجمعهم في الحظائر، وأحرقهم بالنيران، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار وحزق بالنبال.[١٦٤]

وأسر خالد زعيم غطفان (عيينة بن حصن) بعدما انهزم الناس عن طليحة، فقدم به على أبي بكر فكان صبيان المدينة يقولون له وهو مكتوف: يا عدو الله أكفرت بعد إيمانك؟ فيقول: "والله ما آمنت بالله طرفة عين".

وأما طليحة فقد ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال: يا معشر فزارة من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل. ثم انهزم فلحق بالشام، ثم أسلم حين بلغه أن أسدًا وغطفان قد أسلموا ولم يزل مقيمًا فيها حتى مات أبو بكر. ثم أتى عمر فبايعه حين استخلف. فقال له: ما بقي من كهانتك فقال: نفخة أو نفختان بالكير. ثم رجع إلى قومه فأقام عندهم حتى خرج إلى العراق (في الفتوح).

وكان مالك بن نويرة زعيم بني يربوع قد وادع سجاح وتردد، ثم دعا قومه إلى التفرق والدخول في هذا الأمر، ولما انتهى خالد من بزاخة توجه اليه، وبث السرايا أن يأتوه بكل من لم يجب، وإن امتنع أن يقتلوه، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه، فأمر خالد باعتقاله مع زعماء عشيرته.

وعندما أراد خالد قتله، قال مالك: أتقتلني وأنا مسلم أصلي إلى القبلة؟ فقال خالد: لو كنت مسلمًا لما منعت الزكاة، ولا أمرت قومك بمنعها، أما علمت أن الصلاة والزكاة معًا، لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال مالك: قد كان صاحبكم يقول ذلك، قال خالد: أوما تراه لك صاحبًا؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك.

---

[١٦٣] – المصدر، ص ٥٠٧

[١٦٤] – المصدر، ص ٥٠٦

ثم تجادلا في الكلام، فقال خالد: إني قاتلك، فقال له: أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال خالد: هذه بعد تلك. وكان عبد الله بن عمر، وأبو قتادة الأنصاري حاضرين، فكلما خالدًا في أمره، فكره كلامهما، فقال مالك: يا خالد إبعثنا إلى أبي بكر، فيكون هو الذي يحكم فينا، فقال خالد: لا أقالني الله إن لم أقتلك، وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه. ثم نزا على امرأته أم تميم بنت المنهال.

وقد احتج عمر على قتل خالد بن الوليد لمالك وقال له: قتلت امرءأ مسلما ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك، ثم قال لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقا، فإن لم يكن هذا حقا، حق عليه أن تقيده. وقال: عدو الله عدا على إمرئ مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته. وأكثر عليه في ذلك وطالب بعزله .– وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته – فقال:هيه يا عمر! تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد. وودى مالكا ورد السبي.[١٦٥]

وبعد ذلك، أعلن أبو بكر حربا شعواء على بني حنيفة، وأوصى خالد بن الوليد بوصية عجيبة تخالف سماحة الاسلام وتعاليم النبي محمد في الحروب، وهي:" إياك يا ابن الوليد ونخوة بني المغيرة، فاني عصيت فيك من لم أعصه في شئ قط، فانظر بني حنيفة، فانك لم تلق قوما يشبهونهم. كلهم عليك. ولهم بلاد واسعة، فاذا قمت فباشر الأمر بنفسك...فاذا لقيت القوم، فأعد للأمور أقرانها. فان أظفرك الله بهم، فإياك والابقاء عليهم. أجهز على جريحهم، واطلب مدبرهم، واحمل أسيرهم على السيف. وهول فيهم القتل، وخوفهم بالنار، وإياك أن تخالف أمري، والسلام".

وفي رواية أخرى: " فان أظفرك الله بهم، فلا تبق منهم أحدا".[١٦٦] وهذا ما أدى الى حدوث مجزرة قتل فيها من بني حنيفة عشرون ألفا. [١٦٧] ولم يتوقف القتل فيهم إلا بعد أن تولى قيادتهم مجاعة بن مرارة الحنفي، بعد مقتل مسلمة الحنفي، فعمل مكيدة وأقنع خالد بن الوليد بوقف القتال. وتقرر الصلح على شرط أن

---

[١٦٥] – المصدر، ص ٥١١ – ٥١٢

[١٦٦] – محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، ص ١٨٦ و ص ١٩٣

[١٦٧] - كما قتل ٧٠٠ مسلم في معركة عقربة منهم ٣٩ من صحابة النبي بالاضافة الى ١٢٠٠ من المسلمين الذين اسلموا مؤخرا من البدو المتحالفين.

يسلم بنو حنيفة نصف ما عندهم من الذهب، والفضة والسلاح، والخيل، وربع السبي، وحائطًا من كل قرية ومزرعة. ويعصم المسلمون دماءهم على أن يدخلوا في الإسلام.[١٦٨]

وحشر بنو حنيفة للبيعة والبراء مما كانوا فيه، وجيء بهم إلى خالد في معسكره، فبايعوا وأعلنوا توبتهم من الردة، وعودتهم إلى الإسلام، ثم فتحت الحصون وأخرج ما فيها من السلاح، والحلقة والكراع، والذهب والفضة، فقسمه خالد على الجند وعزل الخمس، فأرسله إلى أبي بكر مع وفد من بني حنيفة تدليلًا على توبتهم، فجددوا إسلامهم أمامه .[١٦٩]

بعد انتصار خالد على بني حنيفة في معركة عقربة (يوم بستان الموت) أرسل أبو بكر جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمي، الى البحرين (قبائل بني بكر وعبد القيس) التي كانت قد انتفضت على ملكها المسلم (المنذر بن ساوي) ودفعوا القبيلة المهزومة الى جزيرة دارين، وقتل المسلمون كل رجالها واستولوا على غنائم كثيرة وأسروا عددا كبيرا منهم.

واستطاع المسلمون دعم ابني الجلندي في عمان، والتوجه بعدها الى اليمن.

ولا يوجد تفسير لهذه القسوة في الحرب، سوى تحقيق الهدف السياسي في السيطرة، أكثر من الدعوة الى الله، أو إعادة بني حنيفة الى الاسلام. بالرغم من أن أبا بكر لم يقدم أية حجة شرعية مقنعة على كونه "خليفة رسول الله" ووجوب طاعته من قبل بقية المسلمين، في الوقت الذي كان يمكن إعادة الناس إلى الاسلام – على فرض ردتهم- بالتحاور معهم، وهدايتهم بالتي هي أحسن وبصورة سلمية، لو لم يلجأ أبو بكر إلى قرار تأسيس دولته القرشية العربية.

وقد أسس أبو بكر بذلك سُنَّة إعدام أي مرتد عن الاسلام، خلافا لقوله تعالى: "لا إكراه في الدين" و "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، وذلك حسب منطق الدولة، وليس منطق الاسلام.

---

[١٦٨] - الطبري، ص٢٩٤-٢٩٧

[١٦٩] - انظر نص كتاب الخليفة إلى قائده ورد خالد عليه في المصدر نفسه، وابن أعثم، ج١ ص٣٩، ٤٠.

وقد شكلت حروب أبي بكر مع القبائل العربية المسلمة أو المرتدة، وسيطرته عليها في ما عرف "بحروب الردة" منهجا سياسيا في قيام الدول الإسلامية على القوة، وتركت جرحا ظل ينزف في ضمير الأمة، لم يندمل بسهولة. كما أدت الى زرع بذور الحقد والخلاف بين المسلمين. وكان لها دور كبير في حركة الخوارج (التي كان معظمها من القبائل النجدية كبني حنيفة وبني تميم) التي انشقت عن جيش الامام علي في الكوفة، بعد حرب صفين، ثم استمرت بعد ذلك في العهد الأموي، وكانت تحاول الاستقلال واستعادة السلطة من قريش أو مشاركتها فيها، وكانت تذهب الى أن الخلافة من حق جميع المسلمين ولا تقتصر في قريش. [١٧٠]

الفصل الرابع

الفتوحات العربية الاسلامية

ما أن استتب الأمر لأبي بكر على الجزيرة العربية، وأخضع القبائل "المرتدة" خلال عام من توليه "الخلافة" حتى أطلق صفارة الهجوم على المناطق الشمالية في العراق والشام وفلسطين، التي كان يسكنها في الغالب عرب مسيحيون وفرس مجوس، حيث أرسل نداء إلى القبائل العربية المسلمة، بالنفير للجهاد في العراق والشام، والانخراط في ما عرف تاريخيا "بالفتوح الاسلامية".

وقد قام أبو بكر في الناس خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله، وقال:" ألا إن لكل أمر

[١٧٠] - زعماء الخوارج من بني حنيفة أو من بكر بن وائل، مثل نافع بن الأزرق صاحب الأزارقة، ونجدة بن عامر الحنفي صاحب النجدية الذي خرج من اليمامة. وعمران بن حطان، وعطية بن الاسود الحنفي، الذي ظهر بأرض سجستان، والضحاك بن قيس بن الحصين، الذي بايعه مائة وعشرون الف مقاتل على مذهب الصفرية، وعبد الرحمن بن ملجم، قاتل الامام علي، وشبث بن ربعي، مؤذن سجاح، الذي شارك في قتل الحسين في كربلاء.

جوامع، فمن بلغها فهي حسبه؛ ومن عمل لله كفاه الله. عليكم بالجد والقصد؛ فإن القصد أبلغ؛ ألا أنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا أجر لمن لا حسبة له، ولا عمل لمن لا نية له. ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به؛ هي التجارة التي دل الله عليها، ونجى بها من الخزي؛ وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة".[١٧١]

ثم أرسل أبو بكر ثلاثة جيوش الى الشام بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، وكتب إلى خالد بن الوليد بعد فراغه من حرب اليمامة: أن سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الأبلة (البصرة لاحقا) وتألف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت "الفتوح" التي طردت الروم من الشام ومصر، وأسقطت الدولة الساسانية في العراق وفارس، وأدخلت شعوبا عريضة في الاسلام، محل فخر واعتزاز بقوة الاسلام وتحقيق العرب لمعجزة النهوض الحضاري باسم الاسلام.

وقد كانت في الحقيقة، امتدادا طبيعيا لروح الدعوة الاسلامية ونشر الدين الحق في العالم، وكانت تختلف عن موجات الغزو العربية التي اعتاد البدو القيام بها في الأزمنة السابقة. ولكنها لم تكن بوصية من الرسول الأكرم لأبي بكر بإقامة أمبراطورية عالمية إسلامية، بل كانت باجتهاد شخصي من الخليفة الجديد، وبدافع من ضرورات أمنية واقتصادية .[١٧٢]

---

[١٧١] – الطبري، ج ٢ ص ٣٣٣

[١٧٢] – كما يقول الكاتب المصري الأزهري الشيخ أحمد صبحي منصور، في مقال له في موقعه على النت، والذي يتساءل: هل كانت تنطلق من بواعث إسلامية في نصرة المستضعفين، أو مصالح اقتصادية عربية؟ وهل كانت ضرورة لنشر الاسلام، أو دفاعا عن المسلمين؟ وهل كانت بوصية من الرسول محمد (ص)؟ أو بقرار اجتهادي من أبي بكر؟

ولذلك لم تقم "الفتوح" بنشر الاسلام بالسيف، وإنما اكتفت بفرض السيادة الاسلامية على المناطق المفتوحة، وتركت الحرية الكاملة لسكان تلك المناطق من المسيحيين واليهود والمجوس للدخول في الاسلام طواعية.[١٧٣]

ومع ذلك فقد كانت تلك "الفتوح" تنطوي على ظلم كبير للشعوب المفتوحة التي وجدت نفسها فجأة أمام قوات عسكرية تخيرها بين الاسلام خلال ثلاثة أيام، أو دفع الجزية، أو القتال، وهي لا تفهم من الاسلام شيئا ولم يتسن لها دراسة الإسلام، وعندما رفضت الجزية للفاتحين، ودافعت عن نفسها تعرضت للقتل والعدوان والسبي. وكان ذلك عملا منافيا لروح الإسلام.

فقد جاء الاسلام يحث المسلمين على نشر العدل في الأرض ويدعوهم للدفاع عن المستضعفين، كما في قوله تعالى:"وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا". (النساء، ٧٥-٧٦) وجاء الاسلام ليحث المسلمين على نشر كلمة الله بالحكمة والموعظة الحسنة:"أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن". (النحل، ١٢٥) "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم". (العنكبوت، ٤٦)

وقد بعث رسول الله (ص) رسالة الى هرقل ملك الروم يدعوه للاسلام، وكتب فيها:"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأسلم تسلم، وأسلم

---

[١٧٣] - وقد تمت بعض الفتوحات بتعاون من سكان تلك المناطق في الشام ومصر، من المسيحيين الذين كانوا يتعرضون لقمع السلطات البيزنطية، بسبب اختلاف مذاهبهم مع مذهب القيصر. يقول المؤرخ البريطاني: ول ديورانت في (قصة الحضارة):"لا يسعنا الا أن نسلم – مع هذه التحفظات – بأن الخلفاء الأولين من أبي بكر الى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الانسانية في رقعة واسعة من العالم، وانهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله، ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شئ، وأن يخربوا كل شئ كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين، لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب". ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ص ١٥٠ ج١٣

يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فان عليك إثم الأريسيين.[174] قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون".(آل عمران، ٦٤).

كما أرسل رسالة أخرى الى كسرى الثاني برويز (٦٢٨ م) فيمن أرسل إلى الملوك بعد صلح الحديبية، رسالة يدعوه فيها إلى الاسلام، جاء فيها:"بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله؛ وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا؛ أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس".[175]

وكان القرآن الكريم قد اعترف بالأديان الكتابية السابقة فقال:"إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". (البقرة، ٦٢) وذكر المجوس في آية أخرى، وترك أمر الفصل بينهم إلى الله يوم القيامة، فقال:"إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شئ شهيد". (الحج، ١٧) ولم يحرض على قتالهم، أو السيطرة عليهم.

وحصر الاسلام القتال في الدفاع عن النفس، فرفض اعتداء المسلمين على الآخرين، ولم يأمرهم بإجبار الناس على الاسلام بالسيف، فقال: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين". (البقرة، ١٩٠) وقال: "فمن اعتدي عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم، واتقوا الله". (البقرة، ١٩٤). وقال:"...فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا". (النساء ٩٠)

---

[174] – قال النووي: معناه أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك، وينقادون بانقيادك.

[175] – الاصبهاني، أبو نعيم موسى بن مهران (٤٣٠هـ)، دلائل النبوة، الفصل السابع عشر. أخرجه عن ابن اسحاق بلا إسناد. وأخرجه أيضا ابن أبي الدنيا في دلائل النبوة، عن ابن اسحاق. وابن كثير، السيرة النبوية، ج٣ ص ٥٠٨

ومن هنا تبدو "الفتوح" ومهاجمة القبائل والدول المختلفة المسيحية والمجوسية، وإجبارها على الدخول في الاسلام، أو دفع الجزية أو القتال، مناقضة لرسالة الاسلام، في الوقت الذي كان يمكن للمسلمين حمل القرآن والدعوة الاسلامية ونشرها في الأرض بصورة سلمية.

وعندما سيطر المسلمون على الشام والعراق وفارس ومصر، لم يعتنق الناس الاسلام بصورة آنية، فقد اختار معظمهم البقاء على أديانهم اليهودية والنصرانية والمجوسية مقابل دفع الجزية، في حين أسلمت شعوب كثيرة في الأرض، فيما بعد، بصورة سلمية وطوعية، كمسلمي أفريقيا وآسيا وإندونيسيا وماليزيا والفليبين والهند والبنغال، وغيرها من البلاد، مما يثير – لدى المقارنة بين الفتوح العسكرية ونشر الاسلام بصورة سلمية – سؤالاً عن ضرورة الفتوح ودورها في عملية الأسلمة، أو دورها المعكوس في إعاقة انتشار الاسلام ردحا من الزمن، بما أراقته من دماء، وتضمنته من سبي ونهب للثروات، وما خلفته من أحقاد وثورات، وما هو الهدف الحقيقي من الفتوح: هل هو نشر الاسلام؟ أم التوسع السياسي، والحصول على الغنائم، والأراضي الخصبة؟.

ولئن كانت لغزوات النبي في السنين الأخيرة من حياته ضد يهود خيبر ودومة الجندل وجنوب سوريا، أسباب دفاعية وأمنية، فان النبي توفي ولم يعين خليفة من بعده، ولم يوص اليه بالطبع بفتح العالم وإقامة امبراطورية عالمية باسم الاسلام.

ولكن أبا بكر الذي سيطر على الجزيرة العربية بالقوة تحت شعار حروب الردة، سرعان ما وجه نداء إلى القبائل المسلمة بالتوجه لفتح البلاد الأخرى في شمال الجزيرة، والتي كانت تقع تحت حكم الدولة الساسانية (كالعراق) والدولة البيزنطية (كالشام).

وقد جاءت الفتوح في العراق والشام، في وقت مناسب جدا، بعد صراع طويل ومنهك بين الساسانيين والبيزنطيين، حيث كان كسرى الثاني: خسرو برويز (٥٩١ — ٦٢٨ م) قد احتل منذ سنوات سوريا ومصر وآسيا الصغرى، وحاصر القسطنطينية، ثم قاد هرقل ملك الروم هجوما مضادا على بلاد فارس، فاحتل الشام ومصر، وهزم الساسانيين في معركة الزاب سنة ٦٢٨ (السنة السادسة الهجرية، في أيام صلح الحديبية) مما

أدى الى قيام ابن كسرى (قباذ شيرويه) بالانقلاب على أبيه، وقتله، ووقوع بلاد فارس في سلسلة من الانقلابات العسكرية والفوضى والتناحر بين الأمراء.[١٧٦]

وهو ما يشير الى ضعف الدولتين الساسانية والبيزنطية، وعدم استقرارهما في ذلك الوقت، مما أتاح الفرصة للقوات العربية الاسلامية التقدم نحو الأمام في كلا البلدين، كما تنبأ القرآن الكريم:"غُلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلِبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله". (الروم، ٢ — ٥)

ولو لم تكن الدولة الساسانية بذلك الضعف والاختلاف، لربما كان التاريخ يأخذ منحى آخر، ولما تجرأ العرب على اقتحامها وهزيمتها.

وإذا رجعنا الى الحوارات التي جرت بين القادة المسلمين، والأمراء والملوك الفرس عشية الفتح لوجدنا منطق القوة ينتصر على منطق السلام.

وقد ذكر الطبري حوارا جرى بين القائد الفارسي رستم وشخص يسمى زهرة، دعاه للاسلام، فقال رستم: وما هو؟ قال: أما عموده الذي لا يصلح منه شئ إلا به، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى. قال: ما أحسن هذا؟ وأي شئ أيضًا؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى. قال: حسن، وأي شئ أيضًا؟ قال: والناس بنو آدم وحواء، إخوة لأب وأم، قال: ما أحسن هذا؟ ثم عرض رستم ما قال على أشراف أهل فارس فأبوا وأنفوا لأنهم كانوا يقسمون المجتمع الى سبع طبقات أشراف وسفلة.

[١٧٦] - تولى السلطة في فارس بعد مقتل كسرى الثاني برويز سنة ٦٢٨م كل من قباذ الثاني شيرويه، وأردشير الثالث (٦٢٩)، وشهر براز (٦٢٩)، وكسرى الثالث (٦٢٩)، وبوران دخت بنت كسرى (٦٣٠) و بيروز الثاني (٦٣٠)، وسابور بن شهر براز، و آرز ميدخت بنت كسرى (٦٣١)، وهرمز السادس (٦٣١)، وكسرى الرابع (٦٣١) و يزدجرد الثالث سنة (٦٣٤)

وليست لدينا وسيلة للتأكد من صحة الخبر من مصادر مستقلة ومحايدة، ولكن يبدو من هذا الحوار أن رستم وأهل فارس لم يكونوا مشركين أو عبدة نار، وأنه لم يكن لديه أو لديهم مانع من قبول كلمة التوحيد.

ولكن الفاتحين أطلقوا عليهم اسم "المشركين" كما أطلقوه على اليهود والنصارى، حسبما يبدو من الطبري في رواياته التاريخية عن الفتوح. وبالرغم من ذلك فقد أخذ المسلمون من المجوس الجزية، أسوة بأهل الكتاب، وذلك بناء على حديث روي مرسلا عن النبي أنه قال:"سنوا بهم سُنَّة أهل الكتاب" .

وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله (ص) أخذ الجزية من مجوس هجر، وروي عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس، فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لقد سمعت رسول الله يقول:"سنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب". [١٧٧]

وسواء كان المجوس من أهل الكتاب أو لم يكونوا، فانهم فوجئوا بالقوات العربية الاسلامية بقيادة خالد بن الوليد، تغير على قراهم في جنوب العراق، والتي كان يقطنها النصارى العرب، ويتأهبون لشن هجوم كاسح على الدولة الساسانية، مما أثار تعجبهم واستغرابهم، وطلب الملك يزدجرد من القادة العرب أن يبعثوا له برسل يوضحون له أسباب الهجوم، فقال لهم: ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا؟ أمن أجل أنا أجممناكم، وتشاغلنا عنكم، اجترأتم علينا! وقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذات بين منكم؛ قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم. لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم؛ وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم.

---

[١٧٧] – قال الشافعي: تقبل الجزية من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما، ويلتحق بهم المجوس في ذلك، واحتج بالآية المذكورة "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر..." فان مفهومها أنها لا تقبل من غير أهل الكتاب، وقد أخذها النبي من المجوس فدل على إلحاقهم بهم. وقال أبو عبيد: ثبتت الجزية على اليهود والنصارى بالكتاب وعلى المجوس بالسنة، واحتج غيره بعموم قوله في حديث بريدة وغيره:"فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى الاسلام، فإن أجابوا وإلا فالجزية". واحتجوا أيضا بأن أخذها من المجوس يدل على ترك مفهوم الآية، فلما انتفى تخصيص أهل الكتاب بذلك دل على أن لا مفهوم لقوله "من أهل الكتاب"وأجيب بأن المجوس كان لهم كتاب ثم رفع. ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب.

وهكذا سأل القائد العسكري الفارسي رستم رجلا من العرب في عشية معركة القادسية: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ وكما يقول الطبري فانه أراد أن يصالح العرب، ويجعل لهم جعلًا على أن ينصرفوا عنه، وجعل يقول فيما يقول: انتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا؛ فكنا نحسن جوارهم، ونكف الأذى عنهم، ونوليهم المرافق الكثيرة، نحفظهم في أهل باديتهم؛ فنزعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شئ من أرضنا؛ وقد كان لهم في ذلك معاش – يعرض لهم بالصلح؛ وإنما يخبره بصنيعهم، والصلح يريد ولا يصرح.

ولكن الوفود العربية المتعددة أصرت على عرض رسالة الاسلام، أو إعطاء الجزية، أو الحرب.

ولم يكن يتاح بالطبع للفرس والعرب النصارى أن يدرسوا الاسلام أو يعرفوا مضمونه خلال أيام، كما لم يكن من المعقول أن يستسلموا ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فلم يكن أمامهم سوى الدفاع عن أنفسهم والاستعداد للحرب.

دافع الدعوة الى الاسلام في الفتوحات العربية

لا شك أن الموجات البشرية العربية التي انطلقت من الجزيرة، لم تكن كسابقاتها من موجات الغزو التي اعتاد عليها العرب قبل الاسلام، وكذلك الرومان والساسانيون، والتي كان يشن فيها البدو غاراتهم من أجل الحصول على الغنائم، وانما كانت تحمل رسالة عقدية، ومتى ما اجتمعت البداوة مع العقيدة أصبحت قوة لا يستهان بها.

وإذا لاحظنا خطاب أبي بكر عند إطلاق تلك الموجة لوجدنا مفهوم "الجهاد في سبيل الله" واضحا فيه، حيث قال:" ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به؛ هي التجارة التي دل الله عليها، ونجى بها من الخزي؛ وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة".[١٧٨]

---

[١٧٨] – الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢ ص333

وقال عمر لعتبة بن غزوان إذ وجهه إلى البصرة: يا عتبة، إني قد استعملتك على أرض الهند، وهي حومة من حومة العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها، وأن يعينك عليها. وادع إلى الله؛ فمن أجابك فاقبل منه، من أبى فالجزية عن صغار وذلة، وإلا فالسيف في غير هوادة. [١٧٩]

وكذلك نجد موضوع الدعوة للاسلام، في الرسائل التي كان يوجهها قادة الجيوش المسلمة الى القبائل والأمراء والملوك، كما في رسالة خالد بن الوليد إلى هرمز (أحد أمراء الفرس): "أما بعد، فأسلم تسلم".

وفي حوار خالد مع أشراف النصارى في الحيرة، حيث قال لهم:" أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم وما عليهم ؛ فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة؛ جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم... اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم ...". [١٨٠]

كما نجد الروح الرسالية في خطاب النعمان بن مقرن، أمام الملك الفارسي الأخير يزدجرد، عندما سأله عن سبب مجيئهم الى بلاده، فقال:" إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة؛ فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين؛ فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص.

فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب؛ وبدأ بهم وفعل؛ فدخلوا معه جميعًا على وجهين: مكروه عليه فاغتبط؛ وطائع أتاه فازداد؛ فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كما عليه من العداوة والضيق؛ ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله... فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم؛ وإلا قاتلناكم .

---

[١٧٩] - المصدر، ج ٢ ص440

[١٨٠] - المصدر، ج ٢ ص316

وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبي فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوا مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبي فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم. فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من نأوأه؛ فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر؛ وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجى نفسك.". [١٨١]

وفي عشية حرب القادسية، أرسل رستم رسالة الى سعد بن أبي وقاص، يقول فيها: أعلمني بما أنت عليه من دينك، وأخبرني مَن سلطانك.

وطلب منه أن يرسل اليه رسولا يطلعه على مقصوده من قتال العجم حتى ينفذه الى حضرة يزدجرد، ويعرض عليه ما تحمله. فأرسل سعد اليه رسولا يحمل الرسالة التالية:" بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على خاتم الرسل والهادي الى أقوم السبل، الذي هو خيرة الخلق، والصادع بالصدق والحق، النبي الهاشمي المبعوث الى الانس والجن، ثم قال: إن تبع ملككم هذا النبي الطاهر، وزين بقبول رسالته الباطن والظاهر، فملك الدارين له مسلم، وهو على التاج والتخت مقرر محكم، وكان رسول الله له شافعا مشفعا". فختم الكتاب ونفذه مع شعبة، فأقبل متقلدا سيفه فقال لرستم: ان قبلت الدين فعليك السلام. [١٨٢]

ووقف أحد المسلمين أمام القائد العسكري رستم، وقال له:"إنا لم نأتكم لطلب الدنيا؛ إنما طلبنا وهمتنا الآخرة... بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولًا، فدعانا إلى ربه، فأجبناه – ثم شرح له الاسلام قائلا:

- "أما عموده الذي لا يصلح منه شئ إلا به، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى... وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى...". [١٨٣]

وفي حوار آخر بين رستم وربعي بن عامر، قال هذا:"الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى

---

[١٨١] – المصدر، ج ٢ ص391 و٤٤٦

[١٨٢] – المصدر، ج ٢ ص430

[١٨٣] – المصدر، ج ٢ ص ٤٥٦

خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه حتى نفضي إلى موعود الله".

وهو ما كره حذيفة بن محصن، أمام رستم، فقال:" إن الله عز وجل من علينا بدينه، وأرانا آياته، حتى عرفناه وكنا له منكرين. ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث؛ فأيها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام وننصرف عنكم، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة. وكان مما أتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى، فسرنا بذلك فيما بيننا، نرى أن الذي قال لنا ووعدنا لا يخرم عنه ولا ينقض؛ حتى اجتمعت العرب على هذا، وكانوا من اختلاف الرأى فيما لا يطيق الخلائق تألفيهم. ثم أتيناكم بأمر ربنا، نجاهد في سبيله، وننفذ لأمره، وننتجز موعوده، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه؛ فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلفنا فيكم كتاب الله... فاقبلوا نصيحتنا؛ فوالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم".[١٨٤]

وقال ربيع بن البلاد السعدي أحد قادة المسلمين في حرب القادسية، وهو يحشد قومه:" يا معاشر العرب، قاتلوا للدين والدنيا؛ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين".[١٨٥]

دافع **المصالح المادية والغنائم**

وبالرغم من تلك الروح الرسالية التي نجدها ظاهرة في خطابات الخلفاء والقادة المسلمين، فاننا نجد أيضا بعض الإشارات للدوافع المادية التي كانت تحرك بعض القبائل العربية أو تدفعهم للقتال والغزو، كما في خطاب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما ندب المسلمين للجهاد في العراق، فقال:"إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النعجة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك؛ أين الطراء المهاجرون عن موعود الله! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها؛ فإنه قال: (ليظهره على الدين كله)، والله مظهر دينه، ومعز ناصره، ومول أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون! .. العراق العراق.. ذروا بلدة قد قلل الله

---

[١٨٤] – المصدر، ج ٢ ص401

[١٨٥] – المصدر، ج ٢ ص ٤٠٩

شوكتها وعددها، واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس". [١٨٦]

ونجد ذلك أيضا في خطاب خالد بن الوليد وهو يحث جنده على التوجه للعراق:" ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلاع من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه".[١٨٧]

وهو ما نجده أيضا في نهاية حوار حذيفة بن محصن مع رستم، حيث قال له: "والله أن لو لم يكن ما نقول لك حقًا، ولم يكن إلا الدنيا، لما كان لنا عما ضربنا به من لذيذ عيشكم، ورأينا من زبرجكم من صبر، ولقارعناكم حتى نغلبكم عليه".

وكذلك في خطاب سعد بن أبي وقاص، عشية القادسية:" قال الله جل ثناؤه: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)، إن هذا ميراثكم وموعود ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج؛ فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها، وتقتلون أهلها، وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم".[١٨٨]

وقد كان واضحا منذ البداية أن الدعوة للاسلام كانت وسيلة الى الحصول على المغانم، تحت تهديد السلاح. ولو كان الهدف هو الدعوة للاسلام لتمت بطرق سلمية وإقناعية وحوارية، وعبر القراء والعلماء لا المقاتلين، وليس من موقع التحدي، وقبل أن يفهم الخصم ما هو الاسلام وما هو الدليل على صحته بما يحمله على تغيير دينه، وخلال ثلاثة أيام.

وقد لعب قانون الغنائم وتوزيعها على المقاتلين بعد إخراج الخمس للدولة، دورا كبيرا في دفع العرب الفقراء للانخراط في حركة "الجهاد". ولا نتصور أن أكثرهم كان سيلبي دعوة الجهاد، لو لم يكن يحصل على

---

[١٨٦] – المصدر، ج ٢ ص ٣٧١

[١٨٧] – المصدر، ج ٢ ص ٣١٢

[١٨٨] – المصدر

غنيمة، وهو ما يدعم الرأي القائل بأن الهدف الأعلى كان الحصول على الغنائم، وأنهم استخدموا الاسلام كوسيلة لتشريع الحرب والعدوان على القبائل والدول المسالمة التي لم تبدأهم بقتال، وكلما حقق العرب الفاتحون انتصارات عسكرية وحصلوا على غنائم؛كلما شجعهم ذلك وشجع الآخرين على الانخراط في حركة الفتوح، حتى اشترك فيها المرتدون سابقا ومنهم المتنبئ طلحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، والأشعث بن قيس.

وكان أبو بكر قد منع القبائل المرتدة من المشاركة في الفتوح كعقاب لها، ثم قام عمر بفتح الباب أمامها لأنه كان يحتاج أيضا الى مزيد من المقاتلين في مواجهة الدولة الساسانية، ولكن لم يسمح للمرتدين بقيادة الجيوش أو التأمُّر على أكثر من مائة مقاتل.

كما اشترك في المعارك بعض العرب المسيحيين من بني النمر وتغلب، بدوافع قومية، وليس بالطبع من أجل نشر الاسلام الذي لم يكونوا قد آمنوا به بعد. [١٨٩]

وقد كسب الفاتحون العرب خلال سنوات من الأموال ما لا يحصى سواء باسم الجزية أو الخراج، وتم الاعتراف بالمجوس، باعتبارهم أهل كتاب، وتم السماح لهم بدفع جزية سنوية مقابل احتفاظهم بدينهم، تماما مثل جيرانهم من المسيحيين واليهود.

وقرر الخليفة عمر بن الخطاب أن تبقى كل أراضي البلاد المفتوحة عنوة، من حقول وبساتين وأراضي مراعي، في أيدي أصحابها باعتبارها ملكا عاما لدولة المسلمين غير قابل لنقل ملكيته. ويذكر الطبري عن غنائم العرب بعد فتح المدائن ما يفوق الخيال، من الذهب والجواهر وكنوز كسري وعرشه، حتى كانوا يجدون

---

[١٨٩] - وقدم أنس بن هلال النمري ممدًا للمثنى في أناس من النمر نصارى وجلاب جلبوا خيلًا - وقدم ابن مردى الفهري التغلبي من أناس بن تغلب يصارى وجلاب خيلا - وهو عبد الله بن كليب بن خالد - وقالوا حين رأوا نزول العرب والعجم: نقاتل مع قومنا. فلما طال القتال واشتد، عمد المثنى إلى أنس بن هلال، فقال: يا أنس، إنك امرؤ عربي، وإن لم تكن على ديننا؛ فإذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي، وقال لأبن مردي الفهر مثل ذلك فأجابه. وجلب فتية من بني تغلب أفراسًا، فلما التقى الزحفان يوم البويب، قالوا: نقاتل العجم مع العرب، فأصاب أحدهم مهران يومئذ.

بعض البيوت مليئة بالذهب والجواهر.[190]

والمحصلة النهائية أن الفقراء المعدمين في البلاد المفتوحة كانت تؤخذ منهم الاموال لأثرياء العرب الذين تكدست لديهم الأموال من الغنائم والخراج والجزية، فأصبحوا وقتها اثرى اثرياء العالم.

جاء في تاريخ ابن سعد:

جاء الى عمر كل من عثمان وابن عباس فأعطاهما مالا كثيرا، وينقل عن ابن عباس قوله:"اما عثمان فحثا، واما انا فجثيت لركبتي ".

ويضيف: " دعاني عمر بن الخطاب فأتيته فاذا بين يديه نطع عليه الذهب منثور حثا، قال: هلم فاقسم هذا بين قومك".

وبعث عمر الى أم المؤمنين زينب بنت جحش بكومة ذهب، فلما رأتها فزعت منها واستترت منها، ثم القت عليها ثوبا، وقالت لخادمتها " اقبضي منه واذهبي به الى بني فلان"، وما زالت توزعه حتى نفذ.

واستمر عمر يوزع هذه الكنوز والأموال وهو يقول: لأزيدنهم ما زاد المال، لأعدنه لهم عدا، فأن اعياني لأكيلنه لهم كيلا، فأن اعياني حثوته بغير حساب، ويقول في موقف آخر: إني لأرجو أن أكيل لهم المال

---

[190] – المصدر، ج ٣ ص١٩– ٢٠، و ج٤ ص٢٦– ٢٧ و تاريخ ابن كثير، ج ٧ ص ٦٦: ٦٧ يقول الدكتور احمد صبحي منصور: إن عمر بعد ان اسقط الدولة الفارسية فرض على اهلها الجزية وفرض على ارضها الخراج، وهؤلاء الناس (الغلابة) لم يحاربوا احدا، بل ان الدولة الفارسية نفسها لم تعلن الحرب علي الدولة العربية، ولم تقتحم الجزيرة العربية، بل العكس هو ما حدث، فالعرب المسلمون هم الذين اقتحموا علي الفرس دارهم، وبعد ان هزموا الجيوش في مواقع متعددة داخل بلادها، سلبوا كنوز الفرس في كل مدينة، واسترقوا الذرية من النساء والاطفال فيما بينهم، ثم بعدها فرضوا علي المساكين اهل البلاد المفتوحة جزية علي الرءوس، ثم ضريبة علي الارض، ولا يتفق ذلك مع تشريعات القرآن بكل تاكيد .وما حدث في مصر كان افظع ... فقد كان البيزنطيون يحتلون ارضهم ويضطهدونهم في دينهم، لذلك عاونوا العرب في فتح بلادهم نكاية في الروم، وأسهب المقريزي في توضيح انواع المساعدة التي قدمها المصريون لجيش عمرو الضئيل منذ أن نزل الفرما الى أن فتحوا له ابواب الاسكندرية خلسة .. ومع ذلك كافأهم عمر وعمرو بفرض الجزية عليهم!!

بالصاع .[١٩١]

وشمل عمر برعايته كل العرب، ليصلهم المال مهما تباعدوا، فقال: " والله لأن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو في مكانه " والتفت بعين الرعاية الي سفلة العرب ومجرميهم ليجعل لهم حظا من هذا المال، فقال: " لئن بقيت لأجعل عطاء لسفلة الناس الفين " وهكذا لم يدع احدا من العرب الا فرض له مرتبا من الرضيع الى البعيد الى السافل .[١٩٢]

وهذا ما خلق حالة من التفاوت الطبقي بين العرب المسلمين وبين سكان البلاد المفتوحة، ولم يقتصر الأمر على هذا، فان طريقة توزيع عمر لأموال الخراج على المسلمين كانت أيضا متفاوتة، مما خلق طبقية اقتصادية في داخل العرب المسلمين.

ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

فقد فرض عمر للعباس عم النبي خمسة وعشرين ألفًا – وقيل: أثنى عشر ألفًا - وأعطى نساء النبي عشرة آلاف عشرة آلاف؛ إلا من جرى عليها الملك؛ فقال نسوة رسول الله: ما كان رسول الله يفضلنا عليهن في القسمة؛ فسوِّ بيننا؛ ففعل، وفضل عائشة بألفين لمحبة رسول الله إياها فلم تأخذ، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف؛ في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر، ومن ولى الأيام قبل القادسية؛ كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف.

ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشأم ألفين ألفين؛ وفرض لأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة، ألفين وخمسمائة، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفًا ألفًا، ثم فرض للروادف: المثنى خمسمائة خمسمائة، ثم

---

[١٩١] - ابن سعد، الطبقات الكبري، ج ٣ ص ٢٠٧، ٢١٥- ٢١٨

[١٩٢] - المصدر، ج ٣ ص ٢١٢، ٢١٦، ٢١٩

للروادف الثليث بعدهم؛ ثلثمائة ثلثمائة؛ سوى كل طبقة في العطاء، قويهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم، وفرض للروادف الربيع على مائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد على مائتين، وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة، ونساء من بعدهم إلى الحديبية على أربعمائة أربعمائة؛ ونساء من بعد ذلك إلى الأيام ثلثمائة ثلثمائة، ونساء أهل القادسية مائتين مائتين، ثم سوى بين النساء بعد ذلك، وجعل الصبيان سواء على مائة مائة مسكينًا، وأطعمهم الخبز، فأحصوا ما أكلوا، فوجدوه يخرج من جريبتين، ففرض لكل إنسان منهم ولعياله جريبتين في الشهر.

مجزرة ألّيس

ولم تكن "الفتوح" تمثل فقط عدوانا على أناس مسالمين، وانما كانت تتضمن قدرا كبيرا من العنف والارهاب، في وقت كانت قوات الدولة الساسانية مضطربة، وضعيفة، ولذلك فان بعض القرى المكشوفة كانت تضطر لعقد الصلح مع قوات المسلمين، وعندما كانت قوات الفرس تعود اليهم أو تقترب منهم كانوا يضطرون الى التنصل من اتفاقية الصلح، ومن تلك القرى التي انقلبت على خالد بن الوليد نتيجة لانقلاب الموازين العسكرية قرية تسمى "ألّيس" قرب الحيرة، وكانت قرية عربية نصرانية، غضبت لمقتل إخوة لها من نصارى بكر بن وائل في (يوم الولجة) فتمردت، فأقسم خالد قائلا: اللهم إن لك علي أن أجري نهرهم بدمائهم! ولما سيطر عليهم ثانية "نادى في الناس: الأسر الأسر! لا تقتلوا إلا من امتنع؛ فأقبلت الخيول بهم أفواجًا مستأسرين يساقون سوقًا، وقد وكل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يومًا وليلة، وطلبوهم الغد وبعد الغد؛ حتى انتهوا إلى النهرين، ومقدار ذلك من كل جوانب ألّيس فضرب أعناقهم، حتى قال له القعقاع: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم؛ فأرسل عليها الماء تبر يمينك. وقد كان صد الماء عن النهر فأعاده، فجرى دمًا عبيطًا فسمى نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم. وبلغت قتلاهم من ألّيس سبعين ألفًا ". وقتل خالد في وقعة (المذار) في صفر سنة اثنتي عشرة، ثلاثين ألفًا سوى من غرق. [١٩٣]

---

[١٩٣] – الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢ ص314

واحتل خالد مدينة (عين التمر) فضرب أعناق أهل الحصن أجمعين. وسبى كل من حوى حصنهم، وغنم ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل، عليهم باب مغلق؛ فكسره عنهم، وقال: ما أنتم؟ قالوا: رهن؛ فقسمهم في أهل البلاء؛ منهم نصير أبو موسى بن نصير، ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد بن سيرين. [١٩٤]

وعندما انتشر خبر موت عمر قامت على الفور ثورات، اذ رأت الأمم المفتوحة والتي اصبحت ضمن امبراطورية المسلمين، أن الفرصة سانحة لاستعادة استقلالها.

فنشبت في فارس بشكل خاص تمردات محلية لا حصر لها لدرجة أنه في الفترة من ٦٤٤ الى ٦٤٩ دخل جيشا المسلمين الكبيران في كل من الكوفة والبصرة في سلسلة معارك، أما الولايات الأكثر بعدا في المناطق الجبلية في أرمينيا وأذربايجان والقوقاز، فسرعان ما استعادت استقلالها، لقد قاوموا الهجمات العربية المضادة الدؤوبة ودمروا على الأقل جيشين عربيين، كان أحدهما يضم على الأقل ٤٠٠٠ رتل من المقاتلين المسلمين الأشداء

وثارت مصر في نفس السنة، وهو العام الأول من حكم عثمان، مدعومة بهجوم مضاد شرس شنته الامبراطورية البيزنطية التي أرسلت أسطولا من ثلاثمائة سفينة إلى ميناء الاسكندرية فهب سكان الاسكندرية الناطقون باليونانية دعما للاسطول البيزنطي وقتلوا ١٠٠٠ جندي من جنود الحامية العربية.

وعندما استعاد عمرو بن العاص السيطرة على الاسكندرية دمر المدينة وذبح المتمردين واسترق نساءهم واطفالهم، وعفى عن الاقباط وألغى عنهم الجزية لأن العرب لم يتمكنوا من حمايتهم من البيزنطيين.

في سنة ٦٤٩ فتح معاوية قبرص وجرى الاتفاق على أن تدفع للخليفة الضريبة نفسها التي كانت تدفعها للامبراطور البيزنطي في القسطنطينية وقيمتها سبعة آلاف درهم في السنة.

---

[١٩٤] – المصدر، ج ٢ ص324

ولكن معاوية عاد فاتهم أهل قبرص بخرق بنود المعاهدة ومساعدة البييزنطيين في هجومهم على الاسكندرية سنة ٦٥٣ فأمر بانزال بري آخر في الجزيرة وتم نهب المدن الساحلية وحملت السفن العربية عددا كبيرا من الأسرى.

التمييز العنصري العربي ضد الشعوب المغلوبة

وإضافة الى النهب والسلب والسبي والقتل، فقد تركت حروب الفتح العسكرية جرحا نفسيا بين الفاتحين والمفتوحين، حيث جعلت العرب يستعلون على الأقوام الأخرى، وجعلت هؤلاء يحقدون على العرب، وبدلا من تطبيق المبادئ الاسلامية الداعية الى المساواة والتعارف بين الشعوب، كما جاء في قول الله تعالى "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وقول النبي" لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى"، أو "لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا أو ليكونن أهون على الله من الجعل يدهده الخراء بأنفه". و"إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالأباء. إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي. الناس كلهم بنو أدم، وأدم من تراب".

فان الحكام العرب وخاصة الأمويين مارسوا سياسة تمييز عنصري ضد الفرس المسلمين، وذلك لأن الفاتحين العرب، احتفظوا بثقافة استعلائية عنصرية على الشعوب المغلوبة، ونشروا أحاديث مزيفة عن تفوق العرب العنصري، لا تزال موجودة في التراث السني، مثل ما يرويه "مسلم" في (صحيحه) من حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله (ص) قال:"إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم". و "الناس تبع لقريش مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم، والناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا" و"إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين" و"لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان". (البخاري ومسلم)

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٦/٢) وكذلك الطبري في (تهذيب الآثار) أن جماعة من الصحابة قالوا لسلمان الفارسي:"صل بنا، يا أبا عبد الله، أنت أحقنا بذلك" فقال:"لا، أنتم بنو إسماعيل الأئمة، ونحن الوزراء". (صححه الألباني في الإرواء) وروي عن سلمان قوله:"اثنتان فضلتمونا بها يا معشر العرب: لا ننكح نساءكم ولا نؤمكم".

وهذا مما احتج به بعض الفقهاء الذين جعلوا العربية من الكفاءة بالنسبة الى الأعجمي، حتى فرقوا بينهما عند عدمها.

قال ابن تيمية في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم": "باب تفضيل جنس العجم على العرب نفاق. فإن **الذي عليه أهل السُنَّة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم:** عبرانيهم وسريانيهم، رومهم و فرسهم وغيرهم... وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بمجرد كون النبي (ص) منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم أنفسهم أفضل... وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم وعبد الله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم... ولا نقول بقول الشعوبية وأرذال الموالي الذين لا يحبون العرب ولا يقرون لهم بفضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف".[١٩٥]

وقال ابن تيمية: "العربُ أفضل بني آدم، وجمهور العلماء على أن جنس العرب خير من غيرهم".[١٩٦]

وأضاف:"هذا على مذهب الجمهور الذين يرون فضل العرب على غيرهم" ثم ذكر ذهاب طائفة إلى عدم التفضيل بين هذه الأجناس، كالقاضي أبي بكر بن الطيب، ثم قال: "وهذا القول يقال له مذهب الشعوبية، وهو **قول ضعيف من أقوال أهل البدع**".[١٩٧]

---

[١٩٥] – موقع ابن أمين: http://www.ibnamin.com/arab_superiority.htm

[١٩٦] - ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٧ | ٤٧٢) و ٢٩/١٩

[١٩٧] - ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (١٣١/٣٢) و (٤ | ٦٠٠) وقد ألف الإمام مرعي بن يوسف الحنبلي الكرمي (١٠٣٣هـ) كتابا تحت عنوان: "مسبوك الذهب، في فضل العرب، وشرف العلم على شرف النسب".

وبناء على ذلك اعتبر ابن تيمية التشبه بالأعاجم – غير العرب – من قبيل التشبه بالشياطين ! .. مع فارق بسيط وهو أن الشيطان مذموم لذاته بخلاف الأعجمي !

وتسامح قليلا في فتاواه: اذ اعتبر التشبه بالأعاجم خير من التشبه بالكلاب والحمير والخنازير والاجناس الاخرى التي اعتبرها ناقصة ! [١٩٨]

الحركة الشعوبية المضادة للعرب

وهو ما أولد حركة مضادة عرفت بالشعوبية التي كانت تطالب بالعدالة، وترفع شعار (المساواة) وترفض تفضيل جنس العرب على جنس العجم، أو تفضيل العجم على العرب.

وقد استفادت كثيرا من كتاب انتشر في القرن الثاني الهجري، وهو (مثالب العرب) لهشام بن الكلبي (– ٢٠٤). [١٩٩] الذي كان "أصله – كما يقول أبو الفرج الاصفهاني– زياد بن أبيه، فانه لما ادعى انتسابه إلى أبي سفيان وعلم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمها بنسبه، ومع سوء آثاره فيهم، عمل كتاب المثالب، وألصق فيه بالعرب كلها كل عيب وعار وحق وباطل، ثم بنى على ذلك "الهيثم بن عدي" وكان دعيا، فأراد أن يعرّ أهل البيوتات، تشفيا منهم، وفعل ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى، وكان أصله يهوديا... فجدد كتاب زياد وزاد فيه. ثم نشأ "غيلان" الشعوبي.. فأبدع كتابا عمله لطاهر بن الحسين، وكان شديد التشعب والعصبية، خارجا عن الاسلام بأفاعيله، فبدأ فيه بمثالب بني هاشم".

وهو ما يذهب اليه أيضا ابن قتيبة الدينوري الذي يقول: "كان زياد حين كثر طعن الناس عليه في استلحاق معاوية له بأبي سفيان عمل كتابا في المثالب لولده، وقال: من عيركم فاقرعوه بمنقصته ومن ندد عليكم بادهوه بمثلبته، فان الشر بالشر ينفى والحديد بالحديد يفلج".

---

[١٩٨] - ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ص ١٢٩

[١٩٩] – الكلبي، هشام ، مثالب العرب، (٢٠٤ هـ)، تحقيق نجاح الطائي، الطبعة الأولى ١٩٩٨ دار الهدى بيروت — لندن

ويتفق معهما في ذلك الاديب الأندلسي أبو عبيدة البكري (٤٠٠-٤٧٨هـ) الذي يقول في (شرح أمالي القالي) بأن أصل كتاب المثالب لزياد بن أبيه، ويضيف: "وأما كتاب المثالب والمناقب الذي بأيدي الناس اليوم فانما هو للنضر بن شميل الحميري وخالد بن سلمة المخزومي، أمرهما هشام بن عبد الملك أن يبينا مثالب العرب ومناقبها وقال لهما ولمن ضم اليهما: دعوا قريشا بما لها وما عليها، فليس لقريش ذكر في ذلك الكتاب".[٢٠٠]

وبغض النظر عن اتجاهات الحركة الشعوبية المختلفة، فان التمييز العنصري العربي دفع أبناء الشعوب الأخرى ولا سيما الفرس الى القيام بثورات متتالية ضد الحكم العربي في عهد عمر وعثمان، وفي أواخر الدولة الأموية، وتطورت تلك الحركة لاحقا الى حركة شعوبية معادية للعرب، كما تشعبت منها حركة معادية للاسلام والمسلمين، في القرن الثالث الهجري، عرفت بالبابكية. ينقل أنور الجندي عن ابن قتيبة قوله:" إن الشعوبية تدفع أصحابها الى الغلو في القول والإسراف في الذم" ويقول: وهم حين يركزون على الأمة العربية إنما يتطلعون منها الى هدم الاسلام نفسه. وينقل أيضا عن السيد المرتضى قوله:"الزندقة تعادي الاسلام والعروبة معا: تبدأ بالتهجم على العرب الى مهاجمة العربية، وتنتهي بالهجوم على الاسلام"ويضيف الجندي:"وقد أدرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة. قال: فانما عامة من ارتاب بالاسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فان التجاوز عن الدين يؤدي الى تجاوز كافة القيم".[٢٠١]

وقد انخرط "الموالي" وهم المسلمون غير العرب (وأكثرهم من الفرس) الذين والوا القبائل العربية، في الثورة على الحكام الأمويين، ودعم الحركات المعارضة، فساهموا بقوة في ثورة المختار الثقفي في الكوفة سنة ٦٦، ثم في حركة العباسيين بقيادة أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٢.

وعندما قتل المنصور، أبا مسلم الخراساني، انتفض أتباعه الفرس "الراوندية" بقيادة تلميذه سنباذ، وتواصلت حركات المعارضة الفارسية أيام المهدي العباسي الذي أطلق عليهم اسم "الزنادقة". وعاد الفرس

---

[٢٠٠] - الأمين، حسن، الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي ، ص ٢٢٤

[٢٠١] - الجندي، أنور، المؤامرة على الاسلام، ص ١٢٦ دار الاعتصام، القاهرة

"البرامكة" ليستولوا على الحكم في عهد هارون الرشيد إلى أن قضى عليهم. [٢٠٢]

ويعزو بعض المؤرخين جوهر النزاع بين الأمين والمأمون الى الصراع بين العرب والفرس، ولئن اضطر المعتصم للاستعانة بالأتراك بدلا عن الفرس والعرب، فان الفرس عادوا بعد حوالي قرن الى السيطرة الكاملة على العباسيين، تحت ظل البويهيين الذين حكموا العراق وفارس من سنة ٣٣٤ الى ٤٤٧ هـ.

يقول محمد خليفة التونسي:" اعتبر العرب أنفسهم جيلا يمتاز على سائر الأجيال، ووضعوا أنفسهم في موضع سام، ووضعوا كل من عداهم في موضع وضيع، وسموا أنفسهم العرب، وسموا كل من عداهم العجم، وأظهروا مفاخرهم يتحدون بها العجم جميعا، وبرز لهم العجم فتحدوهم بمفاخرهم، وكثر احتكاك هؤلاء بهؤلاء في كل مكان وامتدت الملاحاة والمفاخرة حتى عاب العجم على العرب مثلا إمساك خطبائهم بالعصا، ورد ممن كانوا في صف العرب عليهم ذلك فعدوه مفخرة، وكثرت مجالس المناظرة بين العرب والموالي ولا سيما الفرس للأسباب السابقة، ولما كان للفرس من سلطان في أيام العباسيين وكان الفريقان يتبادلان الاحتقار والتفاخر، وظهر ذلك على ألسنة الشعراء والعلماء، فألف كثير من الفرس الكتب في مثالب العرب، وأول من شجع على ذلك الخلفاء والأمراء والعرب أنفسهم، فنحن نعلم أن العصبيات القبلية العربية التي نجح النبي في إسكانها قد بدأت تظهر بعده ولا سيما في الدولة الأموية، واستدعى هذا أن يطلب الخلفاء وأتباعهم من علماء الأنساب تأليف الكتب في مثالب القبائل العربية التي كانت تناهضهم، وكتب المفاخر في مفاخر القبائل التي تناصرها، فلما برزت الشعوبية لمناهضة العربية وجدت في كتب المثالب أصولا تحتذيها في الطعن على العرب متفرقين ومجتمعين، وإنا نجد في كتب التراجم أسماء كتب في مثالب العرب عامتهم أو قبائلهم من

---

[٢٠٢] - يقول أنور الجندي:"طرد البرامكة الأصمعي من بلاط الخليفة (الرشيد) وأحلوا محله أبو عبيدة، وابو عبيدة مثقف جمع الى الثقافة العربية: الثقافة اليهودية والمجوسية فقد كان أبوه يدين بالتوراة وجده يعتقد بالمجوسية، وكان شعوبيا متعصبا ألف كتب المثالث والطعن على العرب منها كتاب المثالب في قبيلة باهلة... وعلان أو غيلان كان شعوبيا عارفا بأنساب العرب منعطفا الى البرامكة نسخ للرشيد والمأمون في بيت الحكمة، وألف كتاب المثالب الذي هتك به العرب وأظهر مثالبها. يقول الآلوسي: كان غيلان زنديقا ثنويا فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن الاسلام بدأ فيه بمثالب قريش ثم سائر العرب ونسب اليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان". المصدر، ص ٢٢٠

الكبراء والأدباء والعلماء".[٢٠٣]

وقد شارك كثير من الشعراء الموالي قومهم في ذكر مثالب العرب والتندر بهم حتى في مجالس الخلفاء والأمراء العرب... كبشار وأبي نواس ومهيار بن مرزويه الديلمي، الذين تمتلئ دواوينهم قصائد في التعصب للشعوبية والطعن على العرب، والسخرية منهم. وكما يقول أنور الجندي فقد:" ركزت حملات الشعوبية على الجذور والأصول فهي تهاجم العربية قبل الاسلام وتتهمهم في كل شئ: في أسلوب حياتهم وفي فصاحتهم وخطبهم وفي أنسابهم وفي علاقاتهم الاجتماعية وفي مقاييسهم الخلقية".[٢٠٤]

ومن الملاحظ أن بعض الكتاب العرب الذين يتحدثون عن الشعوبية المعادية للعرب والعروبة والاسلام، لا يذكرون دور العرب الفاتحين العنصريين في استفزاز الشعوب المغلوبة وظلمها باسم الاسلام، وأنها كانت رد فعل على سياسة الحكام العرب العنصرية البعيدة عن الاسلام.

الباب الثاني

ولادة المذهب السني

[٢٠٣] - التونسي، محمد خليفة، مجلة الرسالة، العدد ٦٤٥ سنة ١٩٤٥- الزندقة Wikisource.org/wiki/

[٢٠٤] - الجندي، أنور، المؤامرة على الاسلام، ص ١٢٧

في خضم الصراع السياسي المحتدم بين الحكم الأموي والعباسي، والمعارضة الشيعية، في القرون الثلاثة الأولى، ولد عدد من المذاهب الفكرية والفقهية والسياسية، بعضها كان يميل الى المعارضة كالمعتزلة والامام أبي حنيفة، وبعضها كان يميل الى الحكام، كالمرجئة والقدرية (الجبرية) وبعض أهل الحديث.

ثم اختلطت هذه المذاهب وافترقت، واجتمع بعضها الى بعض، فنتجت المذاهب السنية والشيعية.[٢٠٥] ومنذ ذلك الحين انشقت الأمة الاسلامية الى طائفتين كبيرتين، واستمر الخلاف الى اليوم.

ونظرا لأن الخلاف الطائفي السني – الشيعي، هو أطول وأعمق خلاف عانت وتعاني منه الأمة الاسلامية، فسنقوم في الأبواب والفصول القادمة بتسليط الضوء على حقيقة كل مذهب، وتاريخ نشوئه، أملاً بالعثور على عوامل الخلاف الجوهرية مع المذهب الآخر، من أجل التوصل بعد ذلك الى سيناريوهات الحلول الممكنة والمقترحة لمعالجة ذلك الخلاف والقضاء عليه جذريا، وتوحيد الأمة الاسلامية.

وسنبدأ ببحث ملف المذهب السني، ثم نعقبه بدراسة الملف الشيعي.

لا يمكن تحديد ساعة زمنية لولادة أي مذهب في التاريخ، فالمذاهب عادة تولد نواة صغيرة ثم تنمو وتتطور بتراكم الأفكار والنظريات عبر فترة طويلة، وقد تعلن عن نفسها أو إسمها في مناسبة معينة أو بواسطة شخص معين في فترة محددة، ولكن مضمونها يبقى عرضة للتغير والتطور والإبدال والتناقض بين التيارات المختلفة، والأجيال المتعاقبة، في كل مذهب، والتي تفسر المذهب كما تريد، وقد تضع بداية لمولدها في ساعة معينة.

وفي الإسلام ربّما إدعى البعض أنَّ المذاهب التي يتبعونها ولدت في مرحلة تاريخية معيّنة أو قد تدعي طائفة ما ولادة مذهبها بالاقتران مع الاسلام، أو تحاول أن تعتبر نفسها الممثل الحقيقي والرئيسي للاسلام، بينما تصف المذاهب الأخرى بالخروج والابتداع والانشقاق عن الخط الرئيسي للاسلام والمسلمين.

---

[٢٠٥] – وقد غلب على المذاهب السنية (الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية) الطابع الفكري والفقهي، وإن انطوت على بعض الملامح السياسية، بينما غلب الطابع السياسي على المذاهب الشيعية (الزيدية والاسماعيلية والاثني عشرية)، وإن امتلكت مدارس فقهية خاصة.

وتقوم بعض المذاهب بقراءة التاريخ السابق على ولادتها قراءة جديدة، وتؤرخ لنفسها من بعض الأحداث أو المواقف السياسية والفكرية السابقة. وذلك في محاولة منها للتغطية على تأريخ ولادتها المتأخرة، والتبرؤ من تهمة الحدوث والبدعة.

الفصل الأول

ماهو المذهب السني؟ ومتى ولد؟

نظرية أصالة المذهب السني

لقد اعتاد كثير من أئمة "أهل السنة" تعريف "المذهب السني" بأنه يمثل الكتلة الرئيسية التاريخية للمسلمين. حيث يقول الإمام مالك بن أنس في تعريفه للسنّة: "هي ما لا إسم له غير السنّة". [٢٠٦] وأن أهل السُنَّة هم " الذين ليس لهم لقب يعرفون به؛ لا جهمي ولا قدري ولا رافضي". [٢٠٧]

ويقول الفقيه الأندلسي علي بن أحمد ابن حزم (٤٥٦هـ): "أهل السنة.. أهل الحق، ومن عداهم فأهل البدعة؛ فإنهم الصحابة ومن سلك نهجهم من خيار التابعين – رحمة الله عليهم – ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها، رحمة الله عليهم".[٢٠٨]

[٢٠٦] – القفاري، مسألةُ التّقريب ، ج١ ص ٣٥ عن الشاطبي، الاعتصام، ج١ ص ٥٨

[٢٠٧] – ابن عبد البر، الانتقاء، ص ٣٥

[٢٠٨] – ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي (توفي سنة ٤٥٦هـ)، الفصل بين الملل، ج ٢ ص ١٠٧

ويقول ابن تيمية (٧٢٨هـ): "وطريقتهم – أي أهل السُنَّة – هي دين الإسلام، لكن لما أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم –: أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السُنَّة والجماعة".[٢٠٩]

ويقول الكاتب السعودي المعاصر ناصر القفاري:"أهل السُنَّة ليس لهم لقب يعرفون به لأنهم الأصل الذي انشق عنه كل المخالفين، والمخالف هو الذي سرعان ما يشتهر ببدعته حينما يتنكب السبيل، والأصل لا يحتاج إلى سمة خاصة تميزه؛ إنما الذي يحتاج لإسم هو الفرع المنشق، وأهل السُنَّة هم أصحاب الطريق الوسط السائرون على الصراط المستقيم المخالفون لأهل البدع".[٢١٠]

ويؤكد القفاري أن أهل السُنَّة "لم يكونوا بحاجة في بادئ الأمر إلى التميز؛ ذلك أنهم الأصل الذي انشق عنه المخالفون، والأصل ليس بحاجة إلى ما يميزه؛ إنما الذي يحتاج لإسم هو الفرع المنشق الذي سرعان ما يشتهر ببدعته حينما يتنكب السبيل".[٢١١]

وهكذا يرفض أنور الجندي (٢٠٠٢ م) ما يسميها "الدعاوى الباطلة التي يدعيها بعض الجاهلين أو المتجاهلين من أن السُنَّة فرقة أو طائفة طارئة" ويقول: إن "السنة" ليست مذهباً معيناً بين المذاهب وليس طرفاً من الأطراف، وإنما هي: "مدرسة الأصالة الإسلامية". [٢١٢]

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي: "إن السني الذي يتحول إلى المذهب الشيعي إنسان خاسر لأنه انتقل من المذهب الذي يمثل الإسلام الصحيح".[٢١٣]

ومن خلال هذا التعريف يغدو السؤال عن تاريخ معين لولادة مذهب "أهل السنة" بدون معنى، "لأنهم الامتداد الطبيعي والأصيل للاسلام"، كما يقول الدكتور مصطفى حلمي: "إن أهل السُنَّة والجماعة هم الامتداد الطَبِيعيّ للمسلمين الأوائل الذين تركهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو عنهم راض، ولا

---

[٢٠٩] – ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، مجموع الفتاوى، ج٣ ص ١٥٩

[٢١٠] – القفاري ، مسألةُ التّقريب ، ج١ ص ٣٥

[٢١١] – المصدر، ج ١ ص ٤٠

[٢١٢] – المصدر، ج١ ص ٤٣ عن الجندي، أنور، المؤامرة على الإسلام، ص ٢٦٦

[٢١٣] – في حوار مع برنامج "القاهرة اليوم" على قناة "أوربت" يوم الخميس ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٨

نستطيع أن نحدد لهم بداية نقف عندها كما نفعل مع باقي الفرق، والسؤال عن نشأة أهل السُنَّة والجماعة ليس له موضع، كما هو الحال إذا تساءلنا عن منشأ الفرق الأخرى".[٢١٤]

وبناء على ذلك يرى حلمي أن أصول التاريخ الإسلامي لم تعين السَنة التي ظهر فيها مصطلح (أهل السُنَّة) .[٢١٥]

وهو ما يشرحه ابن تيمية بقوله: إن " مذهب أهل السُنَّة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعاً عند أهل السُنَّة والجماعة.. وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنّة.. فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولاً؛ بل إن السُنَّة كانت موجودة معروفة قبله ... فصار إماماً من أئمة السنّة، وعلماً من أعلامها، لقيامه بإعلامها وإظهارها، واطلاعه على نصوصها وآثارها، وبيانه لخفي أسرارها، لا لأنه أحدث مقالة أو ابتدع رأياً". [٢١٦]

ويقول ناصر القفاري:" كثيراً ما يخلط بين الحديث عن بداية التسمية ونشأة المسمى "وهو المذهب أو أهله"، وحتى رأينا من يتحدث عن السُنَّة كأنها فرقة أو طائفة طارئة في الإسلام، كسائر الفرق الأُخرى التي انشقت عنها". [٢١٧]

ويضيف:"من هنا نقول إن السؤال عن نشأة مذهب أهل السُنَّة كما يُسأل عن نشأة سائر الفرق لا مكان له، لأن مذهبهم هو مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، لكن السؤال ينبغي أن يتوجه إلى "بداية التسمي بذلك الاسم". "لا نشأة المسمى" وهو المذهب وأهله، ومن الخطأ الخلط في ذلك".[٢١٨]

---

[٢١٤] – حلمي، مصطفى، نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، ص ٢٩٢.

[٢١٥] – المصدر، ص ٢٨٤.

[٢١٦] – القفاري، مسألةُ التّقريب، ج١ ص ٤٠ عن ابن تيمية، منهاج السنة، ج٢ ص ٤٨٢، ٤٨٣ و ٤٨٦، تحقيق: الدكتور رشاد سالم .

[٢١٧] – المصدر، ج١ ص ٤٣

[٢١٨] – المصدر، ج١ ص ٤٢

مناقشة تعريف (السُنَّة) وتاريخ ميلاد المذهب

وبالرغم مما يقوله أئمة بارزون من "أهل السنة" بأن مذهبهم هو عين الاسلام، وأنه امتداد طبيعي وأصيل له، فان النظر الى تعريفهم للمذهب ينطوي على ملامح خاصة لا يمكن معرفتها بسهولة من القرآن الكريم، بل تبدو متناقضة معه، وأمور لم تكن مطروحة في زمن الرسول الأعظم (ص) ونظريات فكرية ومواقف سياسية وشخصية، وأحكام فقهية دار حولها جدل في أوقات معينة، مما يوحي بولادة "المذهب السني" في تاريخ معين، قد لا يكون في يوم معين وانما في فترة معينة أو في عهد معين، أو قرن محدد.

وإذا ألقينا نظرة على رسالة "أصول السنة" للإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) التي أسست لإعلان "المذهب السني" في القرن الثالث الهجري، فسوف نجد أنها تعبر عن الفكر السياسي الذي تبلور في العهد الأموي، كجواز الاستيلاء على السلطة بالقوة. و"السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البَرّ والفاجر". وتحريم الثورة على الظالمين، والغض عن مساوئ الصحابة وجرائم بعضهم . وكل هذه أمور حادثة بعد وفاة رسول الله، ولا علاقة لها بالكتاب والسُنَّة النبوية، وإنما تستند الى بعض الأحاديث (التي يصححها ابن حنبل) أو رغبات السلطات الأموية في قمع الثورات الشعبية ومطالبة الناس بالخنوع والاستسلام لهم. وبالتالي فانها تعبر عن تبلور "المذهب السني" في العهد الأموي.

وإذا نظرنا في تعريف ابن تيمية "لأهل السنة": إن "لفظ "أهل السنة" يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف الا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسُنَّة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى، ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يُرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل السُنَّة والحديث ".[٢١٩] فسوف نجد أنَّ ابن تيمية يؤسس التعريف "السني" على مواقف سياسية تاريخية حادثة، لا علاقة لها بالكتاب والسُنَّة النبوية، وكذلك الجدل المتأخر حول صفات الله بين ما يسمى بأهل السُنَّة أنفسهم، أي بين أهل الحديث (الحنابلة) والأشاعرة. وهو جدل تفجر في القرن الثاني الهجري بين أهل الحديث والمعتزلة، ثم امتد الى الأشاعرة في القرن الرابع.

[٢١٩] – ابن تيمية، منهاج السنة، ج٢ ص ٢٢١

وهناك تعريف ثالث لابن تيمية، يقول فيه:"من قال بالكتاب والسُنَّة والإجماع كان من أهل السُنَّة والجماعة".[٢٢٠]

ومن المعلوم أن "الإجماع" هو الآخر كان موضوعا للجدل والنقاش، في وقت متأخر، ولم تثبت حجيته لجميع المسلمين، ولا لجميع أهل السُنَّة أنفسهم، وانما يعبر عن موقف سياسي، كما لم يثبت في التاريخ، ويشكك فيه حتى أحمد بن حنبل.

إنَّ عبد الرحمن ابن رجب (٧٩٥هـ) يشير الى تطور مفهوم أهل السنة"، فيقول: "السنة: طريقة النبي (ص) التي كان عليها هو وأصحابه، السالمة من الشبهات والشهوات، ثم صار معنى السُنَّة في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم: عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر وفضائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة". [٢٢١]

كل هذه الأمور التي ميزت "المذهب السني" (كالايمان بشرعية الخلفاء الثلاثة، والتفضيل بينهم، والقول بالقدر، أو بعدم خلق القرآن، والاعتراف بمن يستولي على السلطة أميراً واجب الطاعة، وان كان فاسقا أو ظالما، وتحريم الثورة عليه) هي أمور لم تكن مطروحة في زمن الرسول الأعظم ولا توجد بصراحة في القرآن

---

[٢٢٠] – القفاري، مسألةُ التّقريب ، ج١ ص٣٠ عن ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣ ص٣٤٦ .

وقال ابن تيمية: (وهذه المسألة – مسألة عثمان وعلي – ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها) .الفتاوى، ج ١٥٣/٣

[٢٢١] – ينقل القفاري أيضا عن محمود شكري الآلوسي (١٣٤٢هـ) قوله بأن "السنة في الأصل تقع على ما كان عليه رسول الله (ص) وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه حتى الهَدْي والسمت، ثم خصت في بعض الإطلاقات بما كان عليه أهل السنة من إثبات الأسماء والصفات خلافاً للجهمية المعطلة النفاة، وخصت بإثبات القدر ونفي الجبر خلافاً للقدرية النفاة وللقدرية الجبرية العصاة. وتطلق – أيضاً – على ما كان عليه السلف الصالح في مسائل الإمامة والتفضيل، والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله (ص)". الألوسي، غاية الأماني،٤٢٨/١ .

الكريم، وقد جرى حولها جدل بين المذاهب الاسلامية، واحتج كل مذهب بما لديه من تفسير للقرآن أو رواية لحديث أو اجتهاد في حكم، خلال القرون الثلاثة الأولى. [٢٢٢]

واذا عدنا الى تعريف ابن تيمية الآنف لهوية "أهل السنة" بأنها تقوم على الاعتراف بخلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل، فان التعريف الثاني الذي يقدمه حول صفات الله، ويميز به بين أهل الحديث، وبين غيرهم من الأشاعرة، يضيق التعريف الأول ويحصره في دائرة ضيقة هم "أهل الحديث" فقط، ويخرج الأشاعرة (المالكية والشافعية) وكذلك الماتريدية (الأحناف) من "أهل السنة" فضلا عن المعتزلة. بالرغم من أن جميع هؤلاء يؤمنون بخلافة الثلاثة، ويشكلون الغالبية العظمى من المسلمين أو "أهل السنة" المعروفين في التاريخ.

إن أسماء وعناوين المذاهب السنية المختلفة، كالحنفية (نسبة الى الامام أبي حنيفة النعمان) أو المالكية (نسبة الى الامام مالك بن أنس) أو الشافعية (نسبة الى الامام الشافعي) أو الحنبلية (نسبة الى الامام أحمد بن حنبل) أو الأشعرية (نسبة الى الامام أبي الحسن الأشعري) تؤكد حدوث تلك المذاهب في وقت متأخر، واستحالة تمثيل كل تلك المذاهب لما كان عليه الرسول وأصحابه، ولا سيما أن تلك المذاهب تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا، كما هو الحال بين الأحناف والحنابلة، أو بين الحنابلة والأشاعرة (المالكية والشافعية) فضلا عن المعتزلة، فكيف يمكن القول بأن المذاهب السنية تمثل الأصالة الاسلامية والامتداد الطبيعي للاسلام، وأنها ليست فرقا حادثة؟

إذن فإن الاضطراب في تعريف "أهل السنة" يكشف أو يلقي بعض الضوء على تاريخ ولادة "المذهب السني" وحجمه الحقيقي وكونه فرقة، أو فرقا، من الفرق الاسلامية، وليس التيار العام للمسلمين.

كما إن النظر بعمق إلى منظومته الفكرية والسياسية، وتعدد التيارات المختلفة داخله، يكشف عن توقيت ولادته، وظروف نشأته وتطوره عبر الزمن.

---

[٢٢٢] – وهذا ما يعترف به القفاري الذي يقول:"لا شك أن التأمل العقلي – أيضاً – يرشدنا إلى أن بداية التسمية كانت عند استفحال أمر البدعة وازدياد خطر الفرقة، وحينذاك بدأ أئمة السنّة يواجهون البدعة بالدعوة إلى السنّة ويجابهون الفرقة بالالتزام بالجماعة". القفاري، مسألةُ التّقريب ج١ ص ٤٧

الفصل الثاني

ما هو مفهوم "السُنَّة"؟ ومن هم "أهل السُنَّة"؟

تطور مفهوم "السنة"

إن مفهوم كلمة "السُنَّة" تطور مع الزمن، فهي كانت تعني في البداية "الأحكام المستحبة" ثم "السُنَّة النبوية العملية المتواترة" ولكنها أصبحت فيما بعد تعرف بأنها كل ما روي عن النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير، سواء في تفصيل الواجبات، أو تبيان المستحبات.[٢٢٣] ثم تطور مفهومها فأصبح إسما علما على طائفة من المسلمين.

وتبعا لذلك فقد تطور مفهوم "أهل السنة" في عدة مراحل:

حيث كان عنوان "أهل السنة" في البداية، في القرن الثاني الهجري، يطلق على عدد محدود من رواة الأحاديث.

وقبل أن تتحول الصفة الى إسم، والمفهوم الى مصطلح، كان لقب "أهل السُنَّة" يشمل كل من يلتزم بسُنَّة الرسول ويعمل بها أو يدعو اليها، من الشيعة والخوارج والمعتزلة والفقهاء والمحدثين. وذلك حسبما يظهر من النصوص التي تنقل عن ابن عباس كقوله:" النظر الى الرجل من أهل السُنَّة – يدعو الى السُنَّة وينهى عن البدعة– عبادة". وعن عبد الله بن مسعود أنه قال:" الاقتصاد في السُنَّة خير من الاجتهاد في البدعة". وعن الحسن البصري قوله: "**يا أهل السُنَّة ترفقوا رحمكم الله فإنكم من أقل الناس**". وعن أيوب السختياني

---

٢٢٣ – يقول الشيخ محمود أبو رية: "**إن السنة لم تكن يومئذ تعرف الا بالسنة العملية. و**هي سنن الرسول المتواترة، وما أجمع عليه مسلمو الصدر الأول، وكان معلوما عندهم بالضرورة، كل ذلك قطعي لا يسع أحد جحده أو رفضه، بتأويل ولا اجتهاد ككون الصلاة المعروفة خمسا، وكون الفجر ركعتين والمغرب ثلاثا والبواقي أربعا... هذه هي سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، اما اطلاقها على ما يشمل الأحاديث فاصطلاح حادث. وإن أحاديث الآحاد التي لم يعمل بها جمهور السلف، هي محل اجتهاد في أسانيدها ومتونها ودلالتها، لأن ما صح سنده منها يكون خاصا بصاحبه...". أبو رية، محمود، أضواء على السنة المحمدية، ص ٤٠٤

(خليفة الحسن البصري):"إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة". و"اذا كان الرجل صاحب سُنَّة وجماعة فلا تسأل عن أي حال كان فيه". وعن عمر بن عبد العزيز أنه كتب بإحياء السُنَّة وإماتة البدعة. وعن الأوزاعي قوله:" كان يقال خمس كان عليها أصحاب محمد (ص) والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة واتباع السُنَّة وعمارة المساجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله". وعن فضيل بن عياض قوله:"إن لله عبادا يحيي بهم البلاد وهم أصحاب السنة".[٢٢٤]

وهو ما يدل على أن كلمة "السنة" كانت تشابه كلمة "حزب الله" كصفة عامة قبل أن تصبح اسما عَلَماً لجماعة معينة مثل "حزب الله اللبناني".

ومن هنا أدخل إمام "أهل السُنَّة والجماعة" في القرن الخامس الهجري، هبة الله ابن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، أسماء عدد من أئمة أهل البيت كمحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين، وابنه محمد بن علي، وزيد بن علي، وعبد الله بن حسن، وجعفر بن محمد الصادق، في عداد أئمة أهل السنة.[٢٢٥] وحسبما يقول جلال الدين السيوطي (٩١١هـ): إن أهل الحديث كانوا سابقا يضمون مرجئة ونواصب وشيعة وقدرية وجهمية وخوارج وواقفية غير ذلك.[٢٢٦]

أو كما يقول أسعد القاسم: إن لقب "أهل السنة" كان ابتداءا وصفا لمجموعة من العلماء المشتغلين بتدوين الأحاديث النبوية، والذين عرف منهجهم في تحصيل العقائد والأحكام من ظواهر الروايات باسم "فرقة أهل الحديث" التي ظهرت في عهد الأمويين، ولأن موضوع الاحاديث هو السُنَّة النبوية، فان كلمة السُنَّة أصبحت تستخدم احيانا بديلا لكلمة الحديث".[٢٢٧]

---

[٢٢٤] – اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم ٦٤– ٧٨

[٢٢٥] – المصدر، فقرة رقم ٦٤– ٧٨ وحلمي، مصطفى، نظام الخلافة في الفكر الاسلامي، ص ٢٨٤ وص٢٦٩

[٢٢٦] – السيوطي، تدريب الراوي، ج١ ص ٣٢٨

[٢٢٧] – اسعد القاسم، ازمة الخلافة، ص ٢٥١

حجم "أهل السنة" في البداية

وفي الحقيقة، يمكن القول إنَّ تعريف الامام أحمد بن حنبل، الضيق "لأهل السنة"، يعبر عن حجم "أهل السنة" في ذلك التاريخ، ويخرج معظم المسلمين قديما وحديثا من دائرة أهل السنة، ويلقى بهم خارجاً في خانة أهل البدعة، بدءا من الشيعة والمعتزلة ومروراً بالأحناف، وانتهاءاً بالأشاعرة، ونظراً لأن أحمد بن حنبل كان يؤمن بعدالة جميع الصحابة، ويرفض الخوض فيما شجر بينهم ويعتبر ذلك الموقف من السنة، فقد وضع حاجزاً بينه وبين الشيعة والخوارج والمعتزلة وكثير من المسلمين الذين كانوا ينتقدون الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومعاوية، وأخرجهم من دائرة "أهل السنة" التي كان يرسمها بيديه. وانحاز بذلك الى جانب "الحزب العثماني الأموي".[٢٢٨]

وهكذا أصبح كثير من الصحابة والتابعين وبعض أهل الحديث الذين كانوا يفضلون الامام علي على بقية الصحابة "شيعة" حتى إن لم يقولوا بنظرية النص، وأصبح الامام الشافعي شيعيا ورافضيا في نظر يحيى بن معين (زميل أحمد بن حنبل) لأنه كان يفضل الامام علي على معاوية أو عثمان.[٢٢٩]

[٢٢٨] – يقول أبو بكر الخلال: أخبرني محمد بن هارون إن اسحاق بن ابراهيم حدثهم قال: سألت ابا عبد الله (أحمد بن حنبل) عمن قدم عليا على عثمان فقال: **هذا رجل سوء**. الخلال، أبو بكر، السنة، ج ٢ ص ٣٨٢

[٢٢٩] – فقد قيل له يوماً: إن فيك بعض التشيع لأنك تظهر حب آل محمد، فقال: يا قوم ألم يقل رسول الله (ص):" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين"؟ أليس من الدين أن أحب قرابتي وذوي رحمي اذا كانوا من المتقين؟ وأنشد أبياته المعروفة:" يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض. سحراً اذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائضِ. إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي". الجندي، عبد الحليم، الامام الشافعي، ص ٢٠

ولأن عملية التقسيم الطائفي التي قام بها "أهل السنة" جاءت متأخرة بعدة قرون، فقد أعادت قراءة التاريخ وتقسيم الناس على أسس غير دقيقة، وصنفت من لم يصنف نفسه تحت هذا الاسم أو ذاك، واتخذت من الآراء السياسية الشخصية مقياساً لوسم هذا "سنياً" أو ذاك "شيعياً".

وهذا ما يفسر ارتباك كتاب الفرق المتأخرين (في القرنين الرابع والخامس) في تعريف "الشيعة" و"السنة" والحد الفاصل بينهما، فبينما ذهب بعض الكتاب إلى أن الشيعة هم من يقولون بأفضلية الامام علي على بقية الصحابة، يقول بعض آخر: إنهم من يؤمنون بتفضيله على عثمان، ويقول قسم ثالث: إنهم من يؤمنون بالنص على الامام علي من قبل الرسول بالخلافة، وإنَّ أهل السُنَّة هم من لا يقول بذلك.[٢٣٠]

ومن الواضح أن المذهب السني، كان في البداية، ولاسيما في القرن الثاني الهجري، يمثل تياراً نخبوياً ثقافياً صغيراً يتجسد في أهل الحديث، وعندما تحول إلى تيار شعبي في القرن الثالث، في أيام أحمد بن حنبل، فانه ظل كذلك تيارا أقلويا، ولم يكن يمثل "جماعة المسلمين" أو حتى غالبيتهم. في حين كان التيار الشيعي أو المعتزلي يحظيان بشعبية فكرية وسياسية أوسع.

ويدل تصريح لأحد أئمة السُنَّة هو سفيان الثوري (٩٧ – ١٦١)، على حجم "أهل السنة" في القرن الثاني، بالنسبة لعامة المسلمين، حيث يقول:"استوصوا **بأهل السُنَّة** خيرا فانهم غرباء. وإذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سُنَّة وآخر بالمغرب فابعث اليهما بالسلام وادعُ لهما، **ما أقل أهل السُنَّة والجماعة**".[٢٣١]

كما يفهم ذلك من تصريح لإمام آخر من أئمة أهل السُنَّة في القرن الرابع، وهو البربهاري، الذي يقول: "كان الدين الى خلافة عمر بن الخطاب، وهكذا كان في زمن عثمان، فلما قتل عثمان رضي الله عنه، جاء الاختلاف والبدع، وصار الناس أحزابا، وصاروا فرقا، فمن الناس من ثبت على الحق عند أول التغيير، وقال به، وعمل به، ودعا الناس اليه. فكان الأمر مستقيما حتى كانت الطبقة الرابعة في خلافة بني فلان (بني العباس؟) انقلب الزمان، وتغير الناس جدا، وفشت البدع، وكثر الدعاء الى غير سبيل الحق

---

[٢٣٠] – لمزيد من المعلومات راجع الباب الرابع من هذا الكتاب (من هم الشيعة؟ ومتى ولدوا؟)

[٢٣١] – اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم ٦٤– ٧٨

والجماعة، ووقعت المحن في كل شيء لم يتكلم به رسول الله (ص) ولا أصحابه، ودعوا الى الفرقة، ونهى رسول الله (ص) عن الفرقة، وكفر بعضهم بعضا، وكلٌ دعا الى رأيه والى تكفير من خالفه، فضلَّ الجهال والرعاع ومن لا علم له، وأطمعوا الناس في شيء من أمر الدنيا، وخوفوهم عقاب الدنيا، فأتبعهم الخلق على خوف في دنياهم ورغبة في دنياهم، **فصارت السُنَّة وأهلها مكتومين**، وظهرت البدع وفشت، وكفروا من حيث لا يعلمون من وجوه شتى، **ووضعوا القياس**، وحملوا قدرة الرب وآياته وأحكامه وأمره ونهيه على عقولهم وآرائهم، فما وافق عقولهم قبلوه، وما لم يوافق عقولهم ردوه، **فصار الاسلام غريبا، والسُنَّة غريبة، وأهل السُنَّة غرباء في جوف ديارهم**". [٢٣٢]

ويقول: "...هلك الخلق حتى كانت أيام جعفر، الذي يقال له المتوكل، فأطفأ الله به البدع، وأظهر به الحق، وأظهر به أهل السنة، وطالت ألسنتهم مع قلتهم، وكثرة أهل البدع إلى يومنا هذا". [٢٣٣] ويضيف: "إن الخلق كأنهم في ردَّة إلا مَن عصم الله منهم".[٢٣٤] مما يكشف عن حجم "أهل السنة" وكونهم أقلية في مقابل من يسميهم البربهاري بـ:"أهل البدعة" وهم عامة المسلمين.

ويؤكد ذلك إمام أهل السُنَّة في القرن الخامس، هبة الله اللالكائي حيث يقول: "...مضت على هذه القرون ماضون ...حتى ضرب الدهر ضرباته... وظهر قوم أجلاف زعموا أنهم لمن قبلهم أخلاف... وابتدعوا من الأدلة ما هو خلاف الكتاب والسنة... ثم اتخذوها دينا واعتقادا... وضللوا من لا يعتقد ذلك من المسلمين، **وتسموا "بالسُنَّة والجماعة"** ومن خالفهم وَسَموه بالجهل والغباوة، فأجابهم الى ذلك من لم يكن له قدم في معرفة السنة... واقتصر على اسمه دون رسمه لاستعجال الرئاسة، ومحبة اشتهار الذكر عند العامة والتلقب بإمامة أهل السنة، وجعل دأبه الاستخفاف بنَقَلَة الأخبار، وتزهيد الناس أن يتدينوا بالآثار لجهله بطرقها وصعوبة المرام بمعرفة معانيها...حتى عفت رسوم الشرائع الشريفة ومعاني الاسلام القديمة، وفتحت دواوين الأمثال والشبه **وطويت دلايل الكتاب والسنة، وانقرض من كان يتدين بحججها**...

---

[٢٣٢] – الإمام البربهاري، شرح السنة، ص٣٢ – ٣٣

[٢٣٣] – المصدر، ص ٣٤ – ٣٥

[٢٣٤] – المصدر، ص ٤٥

وصار كل من أراد صاحب مقالة وجد على ذلك الأصحاب والأتباع، **وتوهم أنه ذاق حلاوة السُنَّة والجماعة بنفاق بدعته،** وكلا انه كما ظنه أو خطر بباله".[٢٣٥]

المفاهيم الثلاثة لكلمة "السنة":

ما يهمنا الآن هو التوقف عند المقصود من مصطلح "أهل السنة" والنسبة "السنية" التي شكلت جوهر ذلك المذهب، هل هي "السُنَّة النبوية" فقط؟ أم "سنة" الشيخين أبي بكر وعمر، و"سنة" الصحابة عموما، بما يصلح لتمييز من يؤمن بها عن بقية المسلمين من الشيعة وغيرهم ممن لا يؤمن بسُنَّة الشيخين والصحابة؟.

ذلك لأنه إذا كان مفهوم "أهل السنة" يتطابق مع الاسلام الأولي والسُنَّة النبوية فقط، فلا يوجد مبرر لاطلاقه على مذهب خاص، ولا مبرر للتخلي عن مصطلح "المسلمين" الذي ركز عليه القرآن في عدة آيات مثل:"ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل". (الحج،٧٨) "ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين". (فصلت، ٣٣) "وأمرتُ أن أكون من المسلمين". (النمل، ٩١)

٤- السُنَّة النبوية

امتاز "أهل السنة" عن غيرهم من المسلمين باعتبارهم الأحاديث الواردة عن الرسول الأكرم (ص) جزءا من "السُنَّة النبوية"، ورفعهم لها الى مستوى القرآن الكريم، وموازاته، واعتبارها نصا متكافئاً معه، من حيث وجوب العمل بكليهما، فهما معا جزءان أو قسمان كلاهما يتمم الآخر، ويجمعهما معا إسم النصوص الموحى بها، والتي يرجع إليها أولاً في إثبات أحكام الشريعة، كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥

---

[٢٣٥] - اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، ج١ ص ١٧ – ١٩

هـ) في (المستصفى من علم الأصول):"قول رسول الله حجة...لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، لكن بعض الوحي يتلى، فيسمى "كتابا" وبعضه لا يتلى وهو "السنة".[٢٣٦]

وبلغ التطرف لدى بعض "أهل السنة" شأواً أبعد من ذلك، بوضعهم "السنة" في منزلة أعلى من القرآن الكريم، وذلك بقولهم "إن السُنَّة حاكمة على القرآن، وإنها تخصص عموم القرآن، وتنسخه، ولو كانت أخبار آحاد؛ في حين لا يعارض القرآن الأحاديث ولا يخصصها". كما اشتهر عن يحيى بن كثير قوله: "**السُنَّة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب قاضٍ على السنة**".[٢٣٧] أو كما قال البربهاري:"**إن القرآن إلى السُنَّة أحوج من السُنَّة إلى القرآن**".[٢٣٨] أو كما قال أبو بكر الآجري (-٣٦٠) الذي أنكر عرض الأحاديث على القرآن، وحذر منه أشد التحذير.[٢٣٩] واعتبر من يقول به "خارجا عن ملة الإسلام، وداخلا في ملة الملحدين ".[٢٤٠]

---

[٢٣٦] – الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ص ١٢٠ ج ٢ تحقيق حمزة بن زهير حافظ، المكتبة الوقفية، شركة المدينة المنورة للطباعة. و "إن الكل من عند الله. إن كلام الله واحد وليس بكلامين، أحدهما قرآن والآخر ليس بقرآن. الاختلاف بينهما بالعبارة فقط، فربما عبر الله بكلامه بلفظ منظوم يأمرنا بتلاوته فيسمى قرآناً، وربما عبر بلفظ غير منظوم فيسمى سنة، والكل مسموع من الله". فوزي، إبراهيم، تدوين السنة، ص ١٦٢

[٢٣٧] – رواه الدارمي في سننه، باب السنة قاضية على كتاب الله، ١١٧/١ وابن عبد البر في: جامع بيان العلم ١٩١/٢ ورواه ابن شاهين في شرح مذاهب أهل السنة رقم ٤٩ ص ١٠٤ والهروي في ذم الكلام رقم ٢١١ وابن بطة في الإبانة الكبرى، باب ذكر ما جاءت به السنة من طاعة رسول الله، رقم ٨٨ – ٨٩ والحازمي في الاعتبار، ص ٥٣ والخطيب في الكفاية، ص ١٤ وأورده السيوطي في مفتاح الجنة، ص ٧٣، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ٥٩

[٢٣٨] – البربهاري، شرح السنة، ص ٣٣

[٢٣٩] – وضع الآجري بابا خاصا في كتابه "الشريعة": هو (باب في التحذير من طوائف تعارض سنن النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب الله عز وجل وشدة الإنكار عليهم) . الآجري، الشريعة، ص ٥١.

[٢٤٠]– المصدر، ص ٤٦، ٥٤.

وقد أكد المحدث المعاصر محمد ناصر الدين الألباني (١٩٩٩م)، مقولة "**السُنَّة حاكمة على كتاب الله**" وقال:"يجب اعتبار الكتاب والسُنَّة مصدراً واحداً لا فصل بينهما أبدا".[٢٤١]

٥- سُنَّة الشيخين والخلفاء الراشدين

يبدو من خلال بعض الأحاديث التي يرويها "أهل السنة" حول الشيخين أبي بكر وعمر، أنهم يعنون بالسنة، في جزء منها، سُنَّة الشيخين والخلفاء الراشدين.

فقد رووا عن النبي (ص) أنه قال:"اقتدوا باللذين بعدي أبي بكر وعمر". [٢٤٢] وقال: "عليكم بسنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة".

ورووا عن عرباض بن سارية السلمي، أنه قال: وعظنا رسول الله (ص) موعظة دمعت منها الأعين ووجلت منها القلوب. قلنا يا رسول الله: إن هذه موعظة مودع فبما تعهد إلينا؟ قال:"قد تركتكم على البيضاء ليلها ونهارها لا يرجع عنها بعدي إلا هالك ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ...".[٢٤٣] وبناء على ذلك اعتبر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز سُنَّة الشيخين جزءا من الدين، وقال في خطبة له:" ألا إن ما سنَّ رسول اللّه

---

[٢٤١] – الألباني، منزلة السنة في الإسلام، ص ٢١ – ٢٢ موقع الألباني، على العنوان التالي: www.alalbany.nt/4408

[٢٤٢] – ابن حجر المكي، الصواعق المحرقة، ص ٥

[٢٤٣] – اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم:٧٩ أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن العباس **أنبا** عبد الله بن سليمان بن الأشعث ثنا أحمد بن صالح **أنبا** أسد بن موسى أنبا معاوية بن صالح حدثني ضمرة بن حبيب عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي أنه سمع عرباض بن سارية السلمي يقول...

(ص) وصاحباه فهو دين نأخذ به وننتهي إليه، وما سنَّ سواهما فإنا نرجئه".[٢٤٤] واعتبر ابن رجب الحنبلي "**سُنَّة الخلفاء الراشدين متَّبَعة كاتباع السنة**".[٢٤٥]

كما اعتبر الدكتور عبد الله الدميجي سُنَّة الخلفاء الراشدين واجبة الاتباع كسُنَّة الرسول، وقال: "هذا أمر صريح منه (ص) بوجوب الالتزام بسنته وسُنَّة الخلفاء الراشدين... كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أمر – أي النبي– باتباع سُنَّة الخلفاء الراشدين، وهذا يتناول الأئمة الأربعة، وخص أبا بكر وعمر بالاقتداء بهما، ومرتبة المقتدى به في أفعاله وفيما سنه للمسلمين فوق سُنَّة المتبع فيما سنه فقط".[٢٤٦]

ومن هنا، يعزو الدكتور أسعد القاسم تسمية "أهل السنة" الى السُنَّة العمرية ويقول: "قام عمر بن الخطاب قبل موته بإصدار أمر بالعمل بكل ما صدر عنه وعن سلفه أبي بكر أثناء خلافتهما من قول أو فعل بما في ذلك كل التأويلات والاجتهادات، والتي عرفت بمجموعها بسيرة الشيخين أو سُنَّة الشيخين، وليكون العمل بها ملازما للعمل بكتاب الله وسُنَّة نبيه أبد الدهر".[٢٤٧]

٦- سُنَّة الصحابة

وإضافة الى سُنَّة الشيخين والخلفاء الراشدين، تعود تسمية "أهل السنة" في جزء آخر منها، الى "سُنَّة الصحابة"، بناء على الحديث الذي رووه عن النبي الأكرم: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم". وأنه

---

[٢٤٤] – السيوطي، عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، عمر بن عبد العزيز، ص ٢٠١ موقع :Islamic-books

[٢٤٥] – الدميجي، عبد الله، الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، ص ١٢٥ – ١٢٦ ومن المعروف أن عمر بن الخطاب أمر بتشكيل مجلس شورى يتكون من ستة من زعماء قريش المهاجرين ليبحث في انتخاب خليفة له، وجعل أحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف حكما في حالة اختلاف الستة من أهل الشورى، بشرط أن يعاهد من يبايع له بأن يعمل بسيرة الشيخين بجانب العمل بكتاب الله وسنة نبيه.

[٢٤٦] – المصدر، ص ١٢٥ – ١٢٦

[٢٤٧] – القاسم، اسعد، أزمة الخلافة ص ٩٤

قال: "ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة – وهي الجماعة – قيل يا رسول الله من هم؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي".

وبناء على ذلك اعتبر "أهل السنة" كل أحاديث الصحابة جزءا من "السُنَّة النبوية"، وعدم التفريق بين المهاجرين والأنصار والطلقاء، والمؤمنين والمنافقين، ورفعهم جميعا فوق مستوى النقد، إلى درجة تقارب العصمة والقدسية. قال أحمد بن حنبل:"إن أصول السُنَّة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله (ص) والاقتداء بهم وترك البدع". [٢٤٨] واعتبر الإمام الحسن بن علي البربهاري (٣٢٩هـ) الالتزام بسُنَّة الصحابة جزءاً من الالتزام بالسنة، فقال: "**اعلموا أن الاسلام هو السُنَّة، والسُنَّة هي الاسلام**، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فمن السنة لزوم الجماعة، فمن رغب غير الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه، وكان ضالا مضلا. والأساس الذي تبنى عليه الجماعة وهم: **أصحاب محمد (ص) ورحمهم أجمعين، وهم أهل السُنَّة والجماعة، فمن لم يأخذ عنهم فقد ضل وابتدع**... وذلك أن السُنَّة والجماعة قد أحكما أمر الدين كله، وتبين للناس فعلى الناس الاتباع. واعلم – رحمك الله – ... قد بين رسول الله (ص) لأمته **السُنَّة وأوضحها لأصحابه، وهم الجماعة، وهم السواد الأعظم**. والسواد الأعظم: **الحق وأهله، فمن خالف أصحاب رسول الله في شيء من أمر الدين فقد كفر**".[٢٤٩] "واعلم رحمك الله... **إن**

---

[٢٤٨] – قام الامام أحمد بن حنبل بتعريف الصحابة تعريفاً جديداً اعتبر فيه "**كل من صحبه سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه**".(**أصول السنة**) ورفض انتقادات الفقهاء السابقين مثل الإمام أبي حنيفة وغيره لبعض الصحابة كأبي هريرة وكعب الأحبار وعبد الله بن عمرو بن العاص، واعتبر كل ما ورد عنهم من حديث صحيحاً غير قابل للشك والتجريح. وهذا ما أكده أئمة علم الأُصول من أهل السنة كابن الصلاح وابن كثير، وابن بطة، والنووي، والآمدي. راجع: الحميدي ، الإبانة لما للصحابة من المنزلة والمكانة. ص ١٨٣ وص ١٨٤ و ص ١٨٥ و ص ١٨٦ وأبو رية، أضواء على السنة المحمدية، ص ٣٤٢ – ٣٤٣ اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم:٣١٧

[٢٤٩] – الإمام البربهاري، شرح السنة، ص ١٧ – ١٨ وحسبما يقول الشيخ محمد أبو زهرة:" فان التابعين كانوا يأخذون **رأي الصحابي** – سواء أكان مجمعا عليه أم غير مجمع عليه – على **أنه سنة**، لا على أنه مجرد رأي، **فأقوال الصحابة سنة عندهم يجب اتباعها، ولو كان أساسها الظاهر الاستنباط المجرد**، وكذلك جاء من بعدهم الفقهاء المجتهدون، فاعتبر أكثرهم رأي الصحابي حجة يجب الأخذ بها...وقال ابن القيم في بيان قوة رأي الصحابي: إن الصحابي إذا قال قولاً أو حكم بحكم أو أفتى بفتيا، فله مدارك ينفرد بها عنا، ومداركه نشاركه فيها، أما ما يختص به **فيجوز** أن يكون سمعه من النبي شفاها، أو من صحابي آخر عن رسول الله..". أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٢٦٢ – ٢٦٣

الدين هو التقليد، والتقليد لأصحاب محمد".[250] "والحق ما جاء به من عند الله (ص) والسُنَّة: سُنَّة رسول الله (ص)، **والجماعة**: **ما اجتمع عليه اصحاب رسول الله (ص) في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان**".[251]

وقال عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) في (الفرق بين الفرق):"اعلموا أسعدكم الله أن أهل السُنَّة والجماعة ...رأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسُنَّة ومن إجماع الصحابة".[252]

وهكذا، فان أسعد القاسم يعزو أيضا جانبا من تسمية "أهل السنة" الى "سُنَّة الصحابة" ويقول:"أصبح الشرع عند أهل السُنَّة بعد كتاب الله وسُنَّة نبيه هو ما عمله الصحابة ورضوا به".[253] وهو ما يفسر تميز "أهل السنة" بهذا الاسم عن بقية المسلمين.

الفصل الثالث

ما هي الفوارق بين المذاهب السنية؟

١- الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (١٥٠-٨٠)

يعتبر الإمام أبو حنيفة مؤسس المذهب "الحنفي" أول الأئمة الأربعة من "أهل السنة". ويعد من التابعين، فقد لقي عددا من الصحابة منهم أنس بن مالك. ولكنه لم يشتهر بهذا اللقب (السني) في زمانه،

[250] - المصدر، ص ٣٣

[251] - المصدر، ص ٣٦

[252] - البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق، ص ٣٠٠ -٣٠١

[253] - القاسم، أزمة الامامة والخلافة، ص ٣٢٨

وكان ولا يزال يدور جدل كبير حول انتمائه لأهل السنة. لأنه لم يكن على وفاق مع منهج "أهل الحديث" الذي تبلور لاحقا باسم "أهل السنة"، بل كان يؤمن بالاجتهاد والقياس والرأي، ويرفض خبر الواحد إذا ورد على خلاف القياس، ولهذا لم يقبل حديث المصرّاة. [٢٥٤]

وتبعا له كان إمام الحنفية في مصر أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (٣٢١هـ) ينقد الحديث نقد معنى وإن صح السند في نظر المحدثين. [٢٥٥]

ولم يكن الإمام أبو حنيفة يساوي بين القرآن والسنة، بل كان يفضل القرآن عليها ويقول:"آخذ بكتاب الله تعالى، فإن لم أجد فبسُنَّة رسول الله (ص) فإن لم أجد في كتاب الله ولا في سُنَّة رسول الله (ص) أخذت بقول الصحابة، ولا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم، (وفي رواية أخرى:آخذ بقول من شئت منهم وأدع من شئت منهم)، فإذا انتهى الأمر الى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن المسيب – وعد رجالا – فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا". [٢٥٦]

وقال ابن خلدون في فصل "علوم الحديث":" إعلم أيضا بأن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه البضاعة والإقلال، فأبو حنيفة رحمه الله، قيل إنه إنما بلغت روايته الى سبعة عشر حديثا ، أو نحوها، وأحمد بن حنبل رحمه الله، في مسنده خمسون ألف حديث".

وأكد ابن خلدون في "المقدمة": إذا كان أبو حنيفة قليل الرواية من الحديث، فإن ذلك يرجع الى شدة تثبته في الرواية والتحمل، وليس تركا للحديث متعمدا، وقال:" إنما قلَّت روايته لما شدد في شروط الرواية

---

[٢٥٤] – التصرية هي جمع اللبن في الضرع من أجل التدليس على المشتري، وهو حرام، واختلف في انعقاد البيع أو فسخه، والحديث المشار اليه هو قوله عليه السلام:"من اشترى شاة مصراة فلينقلب بها فليحلبها، فإن رضي حلابها أمسكها وإلا ردها، ومعها صاع من تمر" (مسلم)

[٢٥٥] – أبو رية، أضواء على السنة المحمدية، ص ٣٦٩ وربما تعرض مذهبه على يد شيوخ المذهب فيما بعد الى الأخذ بمنهج أهل السنة.

[٢٥٦] – ابن عبد البر، الانتقاء، ص ١٤٢

والتحمل، وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي، وقلّت من أجلها روايته، فقلّ حديثه، وأما انه ترك رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك. ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه، واعتباره ردا وقبولا، وأما غيره من المحدثين، وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط، وكثر حديثهم، والكل عن اجتهاد، وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم، وروى الطحاوي فأكثر، وكتب مسنده وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين".[٢٥٧]

وقد جمع تلامذته فيما بعد، الأحاديث التي اعتمدها في فقهه، في (مسند) خاص، فلم تتجاوز الخمسمائة حديث بكثير.

وكان الإمام أبو حنيفة قريبا من المعارضة الشيعية في أيام الدولة الأموية، حيث لم يكن الانفصال الطائفي الشيعي – السني، قد حدث بعد، إذ وقف مع ثورة الامام زيد بن علي، سنة ١٢٢هـ ورفض أن يعمل عند والي الكوفة الأموي يزيد بن عمر بن هبيرة، فحبسه الوالي وضربه، كما رفض مرة أخرى تولي القضاء للخليفة العباسي المنصور، وامتنع أن يكون قاضي القضاة، وأيد ثورة الإمام محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم بقوة، سنة ١٤٥ فحبسه المنصور وتوفي في السجن في بغداد عام ١٥٠.

وكان أبو حنيفة أقرب الناس الى المعتزلة الذين يعدون أكثر الناس تشدداً في رفض الأحاديث المروية عن النبي، واشترطوا لقبول الحديث أن يكون موافقاً للقرآن، وعدم معارضته للعقل.

حيث كان أبو الهذيل العلاف (٢٣٥هـ) يرى أن الحجة بالخبر عن النبي لا تقبل إلا بشهادة عشرين رجلا، تشترط فيهم العدالة. ولهذا لم يلتزم المعتزلة بأكثر من ثمانين حديثاً متواتراً.

وكان إبراهيم بن سيار النظّام (٢٢١هـ) يستخدم العقل في تقييم الروايات ويعرضها على القرآن، ويحكم على السند من خلال المتن، ويرفض قبول الحديث حتى إذا "صح" سنده، خلافاً لأهل الحديث الذين كانوا يسلمون "للسنة" دون توقف حتى إذا كانت تتناقض مع العقل أو تخالف القرآن. ولم يكن النظّام يعترف بعدالة جميع الصحابة أو ينظر إلى رواياتهم وكأنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[٢٥٨]

---

[٢٥٧] – ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٤٤٤ دار القلم، بيروت ط ٦ ١٤٠٦/١٩٨٦

[٢٥٨] – الخيون، رشيد، معتزلة البصرة وبغداد، ص١٣ و١٠٧ و ياسين، عبد الجواد، السلطة في الإسلام، ص ١٢١ – ١٢٢

٢- الإمام مالك بن أنس (٩٣- ١٧٩هـ)

يعتبر الامام مالك مؤسس المذهب "المالكي" ثاني الأئمة الأربعة، وقد كان محدثا وفقيها، اشتهر بكتابه "الموطَّأ" واعتمد منهجا خاصا به يقوم على القرآن الكريم، والسُنَّة النبوية، والإجماع، وعمل أهل المدينة، والقياس، والمصالح المرسلة، والاستحسان، والعرف والعادات، وسد الذرائع، والاستصحاب. كما يقول القرافي في (شرح تنقيح الأصول).

وبينما كان المعتزلة يقفون إلى يسار الإمام أبي حنيفة، فان الإمام مالك، كان يقف الى يمينه، في منطقة وسطى بينه وبين الحنابلة، حيث كان يؤمن بأن مصادر التشريع هي: الكتاب والسُنَّة والإجماع والقياس. ويتحدث في (الموطأ) عن منهجه قائلاً: "فيه حديث رسول الله وقول الصحابة والتابعين ورأيي، وقد تكلمت برأيي، وعلى الاجتهاد، وعلى ما أدركت عليه أهل العلم ببلدنا، ولم أخرج من جملتهم الى غيره".

وقد كان الإمام مالك، يتزعم مدرسة الحديث في المدينة، ويختلف مع أهل الرأي في العراق، في مدى الاعتماد على الحديث وشروط قبوله والعمل به، ثم اللجوء الى القياس. فقد كان يأخذ بالرأي ويعتمد عليه، وأحيانا يتوسع فيه أكثر من فقهاء الرأي في العراق، حتى قال يحيى ابن معين: إن مالكاً لم يكن صاحب حديث، بل كان صاحب رأي. وقال الليث بن سعد: أحصيت على مالك سبعين مسألة وكلها مخالفة لسُنَّة الرسول.[٢٥٩]

في حين كان مفهوم الإمام مالك للسُنَّة النبوية أعم، ليشمل ما يعرف عند علماء الحديث بالمأثور، كفتاوى الصحابة والتابعين، وهو بهذا المعنى يعطي لعمل أهل المدينة وإجماعهم مكانة خاصة، ويجعله من قبيل السُنَّة.

٣- الإمام الشافعي محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤هـ)

---

[٢٥٩] - وقد اعترف مالك بذلك، وألف الدارقطني جزءا فيما خولف فيه مالك من الاحاديث في الموطأ وغيره، وفيه أكثر من عشرين حديثا، وهو من محفوظات الظاهرية بدمشق. أبو رية، محمود، أضواء على السنة المحمدية، ص ٢٩٩

يشكل الإمام الشافعي (مؤسس المذهب الشافعي) تقريبا، امتدادا للإمام مالك، فقد درس (الموطأ) عنده في المدينة. كما درس أيضا عند القاضي الحنفي محمد بن الحسن الشيباني، في بغداد. وكان أول من وضع أسس علم أصول الفقه، في كتابه (الرسالة). وساوى فيه بين الكتاب والسنة، وقال:"ذكر الله الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سُنَّة رسول الله، وهذا يشبه ما قال، والله أعلم. لأن القرآن ذكر، واتبعته الحكمة، وذكر الله منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز – والله أعلم – أن يقال: الحكمة هاهنا الا سُنَّة رسوله، لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به وسُنَّة رسوله، مبينة عن الله معنى ما أراد، دليلا على خاصه وعامه، ثم قرن الحكمة بها كتابه، فاتبعها إياه، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله".[٢٦٠]

وقد اعتبر في (الرسالة) مصادر التشريع هي: خبر الواحد، والإجماع، والقياس والاجتهاد فيما لا كتاب فيه ولا سُنَّة ولا إجماع، والاستحسان، وأقاويل الصحابة. وقال:"نحكم بالإجماع ثم القياس، وهو أضعف من هذا، ولكنها منزلة ضرورة، لأنه لا يحل القياس والخبر موجود... وكذلك يكون ما بعد السُنَّة حجة إذا أعوز من السنة".[٢٦١]

وقام الشافعي بتقسيم أعمال الانسان الى واجب ومندوب وحرام ومكروه ومباح، وأدخلها جميعا تحت ظل التشريع السماوي، وقال في مقدمة (الرسالة):"ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة الا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها".[٢٦٢]

ومع أن الشافعي، اعتبر "السنَّة" موازية للكتاب (خلافا لأبي حنيفة)، إلا أنه رفض نسخ الكتاب بالسنة، خلافا لما كان يقول به "أهل الحديث"، وقال:"أبان الله لهم أنه إنما نسخ من الكتاب بالكتاب، وإن السُنَّة لا (ليست) ناسخة للكتاب ، وانما هي تبع للكتاب، يمثل ما نزل نصا، ومفسرة معنى ما أنزل الله منه

---

[٢٦٠] – الشافعي، الرسالة، بيان فرض الله في كتابه اتباع سنة نبيه.

[٢٦١] – المصدر، باب منزلة الإجماع والقياس.

[٢٦٢] – واستشهد بآيات: ابراهيم، ١، النحل، ٤٤/ النحل ٨٩/ الشورى ٥٢

جملا. قال الله "وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم". (يونس ١٥) فأخبر الله أنه فرض على نبيه اتباع ما يوحى اليه، ولم يجعل له تبديله من تلقاء نفسه. وفي قوله "ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي" بيان ما وصف من أنه لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه، كما كان المبتدي لفرضه فهو المزيل المثبت لما شاء منه جل ثناؤه، ولا يكون ذلك لأحد من خلقه. وهكذا سُنَّة رسول الله لا ينسخها إلا سُنَّة رسول الله".[٢٦٣]

٤- **الإمام أحمد بن حنبل** (١٦٤ . ٢٤١ هـ)

اشتهر الإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب "الحنبلي" كزعيم "لأهل السُنَّة"، لما قام به من تأسيس لأصول المذهب. وما اتخذه من موقف رافض وشديد لمدرسة الفقهاء والمجتهدين "أهل الرأي"، حيث ذهب إلى التمسك بالحديث كما هو (وقد روى في مسنده حوالي أربعين ألف حديث) معتبراً ذلك من السنة، ورافضاً أي جدل أو نقاش في الأحاديث، فضلاً عن ردها، معتبراً ذلك بدعة مخالفة للسنة، فقال في رسالته في (أصول السنة):" أصول السُنَّة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) والاقتداء بهم، وترك البدع. وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال والخصومات في الدين. والسُنَّة عندنا آثار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليس في السُنَّة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول والأهواء. إنما هو الاتباع وترك الهوى".

---

[٢٦٣] – الشافعي، الرسالة، ابتداء الناسخ والمنسوخ. وإن كان الشافعي قد استشهد بحديث عبادة بن الصامت عن جلد الثيب ورجمه، (كما في قصة ماعز وامرأة الأسلمي) اللذين رجمها رسول الله، بعد نزول آية الجلد، مستدلا بذلك على نسخ السنة لعقوبة (الجلد) عن الزانيين الثيبين. الشافعي، الرسالة، وجه آخر في الناسخ والمنسوخ

وأشار أحمد إلى أهمية "التصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها. لا يقال: لِمَ؟ و كيف؟، إنما هو التصديق والإيمان بها. ومن لم يعرف تفسير الحديث، ويبلغه عقله؛ فقد كفي ذلك وأحكم له؛ فعليه الإيمان به والتسليم له".

ثم طالب بالتسليم للأحاديث التي اعتبرها صحيحة، وقال:"لا يكون صاحبه – وإن كان بكلامه سُنَّة – من أهل السُنَّة حتى يدع الجدال ويسلِّم، ويؤمن بالآثار...والحديث عندنا على ظاهره، كما جاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) والكلام فيه بدعة. ولكن نؤمن به كما جاء على ظاهره. ولا نناظر فيه أحداً".[٢٦٤]

وقد رفض الإمام أحمد بن حنبل القياس والعمل بالرأي، وذهب إلى تفضيل الأحاديث المرسلة والضعيفة على الرأي، واعتبار ذلك أصلا من أصول السنة. وحسبما يقول ابنه عبد الله: أنه سمع أباه يقول: "الحديث الضعيف أحب إليَّ من الرأي". فسأله عن الرجل يكون ببلد لا يجد فيه إلا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيمه، وأصحاب رأي، فتنزل به النازلة. فقال أحمد بن حنبل: "يسأل أصحاب الحديث، ولا يسأل أصحاب الرأي. ضعيف الحديث أقوى من الرأي".[٢٦٥]

وشكل الامام أحمد ملامح مذهب خاص وجديد أطلق عليه: "مذهب أهل السُنَّة" وإن كان قد سبقه إلى القول ببعض ما ذهب اليه محدثون، أو أئمة آخرون. فأصبح مصطلح "أهل السنة" عنوانا خاصا على "المذهب الحنبلي"، كما يقول الدكتور أسعد القاسم. [٢٦٦]

---

[٢٦٤] – الامام أحمد بن حنبل، أصول السنة .

[٢٦٥] – ابن القيم، إعلام الموقعين، ج ١ ص ٧٦، ٧٧

[٢٦٦] – يقول أسعد القاسم: عندما برز الامام احمد بن حنبل وتصدر العمل في تدوين العقائد والمعارف المأخوذة من تلك الاحاديث في مطلع القرن الثالث الهجري، أخذ يوسع استخدام لقب "أهل السنة" والذي كان مخصوصا بالعلماء مدوني السنة النبوية، ليشمل أيضا الاتباع المقلدين لمذهبه والعوام المؤيدين لمنهج أهل الحديث. وبهذا يكون أحمد بن حنبل قد احتكر اسم أهل السنة ليكون عنوانا خاصا لبعض المسلمين دون غيرهم من اهل القبلة. القاسم، اسعد، أزمة الخلافة والامامة، وآثارها المعاصرة، ص ٣١٠ الغدير، ط١ ١٩٩٧ بيروت لبنان .

وكانت القضية الكبرى التي أضفى عليها الامام أحمد صفة "السُنَّة" ومخالفة البدعة، هي مسألة خلق القرآن، وهي قضية كلامية لا علاقة لها بالسُنَّة النبوية، كان المسلمون قد اختلفوا حولها في القرن الثاني الهجري فقال بعضهم: بأن القرآن مخلوق وحادث، وقال بعضهم: بأنه قديم وليس بمخلوق، ويقال إن أول من قال بأن القرآن مخلوق هو الإمام أبو حنيفة.[٢٦٧] ثم تبنى ذلك المعتزلة والخليفة العباسي المأمون الذي كان يعتبر القول بقدم القرآن شركاً بالله وكفراً وإلحاداً، ويسمي من يقول بذلك "أهلَ البدعة".

وقد رد الإمام أحمد بن حنبل على هؤلاء، فقال:"القرآن كلام الله وليس بمخلوق.. فإن كلام الله ليس ببائن منه، وليس منه شيء مخلوق". ورغم وجود آيات قرآنية عديدة تشير الى حدوث القرآن[٢٦٨] وعدم وجود آيات صريحة تنفي الخلق عنه، فان الامام أحمد أصرَّ على اعتبار القول بخلق القرآن بدعة ومخالفة للسنة، وبدَّع حتى من يقف في ذلك، فقال:" ومن قال باللفظ وغيره، ومن وقف فيه قال: (لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق، وإنما هو كلام الله). فهذا صاحب بدعة مثل من قال: (هو مخلوق)، وإنما هو كلام الله ليس بمخلوق". وأضاف:"**القرآن علم الله فمن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر**".[٢٦٩]

وهناك روايات أخرى ينقلها تلامذة أحمد بن حنبل عنه، أنه كان يكفر من يقول بخلق القرآن، ومن يقف في ذلك.[٢٧٠]

---

[٢٦٧] – وقد ورد في كتاب (الفقه الأكبر) المنسوب اليه ما يلي: "القرآنُ كلامُ اللهِ تعالى في المصاحِفِ مكتوبٌ، وفي القلوبِ محفوظٌ، وعلى الألسُنِ مقروءٌ، وعلى النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مُنزَّلٌ، ولفظُنا بالقرءانِ مخلوقٌ، وكتابتُنا لهُ مخلوقةٌ، وقراءتُنا لهُ مخلوقةٌ، والقرءانُ غيرُ مخلوقٍ ... نحنُ نتكلمُ بالآلاتِ والحروفِ، واللهُ تعالى يتكلمُ بلا حروفٍ ولا آلةٍ. والحروفُ مخلوقةٌ، وكلامُ اللهِ تعالى غيرُ مخلوقٍ". كما ينقل ذلك عن تلميذه أبي يوسف. الخيون، رشيد، معتزلة البصرة وبغداد، ص ٤٦

[٢٦٨] – مثل (انا انزلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون) سورة يوسف آية ٢، و (ولو جعلناه قرانا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمي وعربي) فصلت ٤١، و (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) الأعراف ٥٢، و(وهذا كتاب انزلناه مبارك) الأنعام ٩٢

[٢٦٩] – اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم:٤٥٠

[٢٧٠] – الأشعري، الإبانة عن اصول الديانة،ص ٤٢ – ٤٣ وانظر أيضا: "السنة" للامام أحمد. الخلال، السنة، ج٥ ص ١٢٧ و ص ١٢٩ و ص ١٣٥

ومن هنا فان معركة الإمام أحمد الكبرى، لم تكن مع الشيعة بقدر ما كانت مع الامام أبي حنيفة والمعتزلة "أهل الرأي" الذين كان ينبزهم بأهل البدعة، ويتهمهم بالشرك والكفر والكيد للاسلام، بسبب رفضهم لمعظم الأحاديث التي يتداولها "أهل السنة"، وإيمانهم بالعقل والقياس والاجتهاد، وقولهم بخلق القرآن، وتنزيههم الخالق عن صفات المخلوقين.

فقد سمع أحمد بن حنبل يوماً قولاً لأبي حنيفة فقال: من قال هذا فقد كفر!.[٢٧١] وعقد ابنه عبد الله، في كتابه (السنة) باباً لشتم أبي حنيفة، بعنوان: (ما حفظت عن أبي والمشايخ في أبي حنيفة) ووصفه: بأنه كان ينقض عرى الاسلام عروة عروة. وشاركه في نقده لأبي حنيفة ابن حبان في (المجروحين) والبخاري، وابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) وابن أبي شيبة في (مصنفه) وبعدهم: الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) واللالكائي في كتابه (شرح اصول السنة).

وذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل أن حماد بن سلمة كان يلعن أبا حنيفة، وأن شعبة كان كذلك يلعن أبا حنيفة.[٢٧٢] وأن حماد بن أبي سليمان قال لسفيان الثوري: "بلِّغ أبا حنيفة المشرك أني منه بريء".[٢٧٣] وقال له: ألا تعجب من أبي حنيفة يقول: "القرآن مخلوق"؟!، **قل له: يا كافر يا زنديق**. اذهب الى **الكافر** (يعني أبا حنيفة)، فقل له: ان كنت تقول إن القرآن مخلوق فلا تقربنا.[٢٧٤]

وقال عبد الله: كان الأوزاعي وسفيان يقولان: ما ولد في الاسلام على هذه الأمة أشأم من أبي حنيفة.[٢٧٥] وأن مالك بن أنس كان يقول في أبي حنيفة قولاً يخرجه من الدين، وأنه كان يقول: ما كاد أبو حنيفة إلا الدين.[٢٧٦] وينقل عن الأوزاعي أنه قال عند وفاة أبي حنيفة: الحمد لله الذي أماته، فانه كان

[٢٧١] – اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم:١٨٣١

[٢٧٢] – عبد الله بن أحمد بن حنبل، كتاب السنة فقرة:٣٤٥ ص ٢١١ مجلد ١

[٢٧٣] – الأشعري، الإبانة عن اصول الديانة،ص ص ٤٣

[٢٧٤] – عبد الله بن أحمد بن حنبل، كتاب السنة:٢٣٩ و ٢٤٠ و٢٤١ ص ١٨٤ مجلد ١

[٢٧٥] – المصدر، ص ١٨٨ مجلد ١

[٢٧٦] – المصدر، ص ١٩٩ مجلد ١

ينقض عرى الاسلام عروة عروة.[٢٧٧] كما ينقل عن شريك بن عبد الله قوله: أصحاب أبي حنيفة أشد على المسلمين من عدتهم من لصوص تاجر قمي.[٢٧٨]

ويقول إمام "أهل السنة" في بغداد، في القرن الخامس، هبة الله ابن الحسن بن منصور اللالكائي: اجتمع ابن أبي ليلى والحسن بن صالح وسفيان بن سعيد الثوري وشريك بن عبد الله فأرسلوا الى أبي حنيفة فجاءهم فقالوا: ما تقول فيمن نكح أمه وقتل أباه وشرب في قحفه الخمر، فقال: مؤمن.

فقال ابن أبي ليلى: لا أقبل لك شهادة أبدا.

وقال الحسن بن صالح: وجهي من وجهك حرام أن انظر اليك أبدا.

وقال شريك: لو كان لي من الأمر شيء لضربت عنقك.

وقال له الثوري: كلامك علي حرام أبدا. [٢٧٩]

ويقول اللالكائي بعد ذلك:"**اذا رأيت الرجل يحب أبا حنيفة ورأيه والنظر فيه**، فلا تطمئن اليه والى من يذهب مذهبه ممن يغلو في أمره ويتخذه إماما".[٢٨٠]

---

[٢٧٧] – المصدر، ص ٣٢٤

[٢٧٨] – المصدر، ص٣٠٦ و ص ٢٠٣ مجلد ١

[٢٧٩] – اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم:١٨٣٣ (رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٤٧٤)

[٢٨٠] – اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم:٣١٨ ويضيف:" في سنة ثمان وأربعمائة استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع وتبرءوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للاسلام... وان أبا القاسم محمود بن سبكتكين قام بقتل المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم **وأمر بلعنهم على منابر المسلمين**، وإبعاد كل طائفة من أهل البدع وطردهم عن ديار الاسلام، **وصار ذلك سنة في الاسلام**". اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، ج١ ص ١٧ – ١٩ ولا يزال (الحنابلة) حتى اليوم يرفضون اعتبار أبي حنيفة واحدا من "أهل السنة" كما يقول مفتي السعودية السابق عبد العزيز بن باز. انظر: موقع ابن باز: http://www.binbaz.org.sa/Display.asp?f=Bz00357.htm

وقد قال الحافظ ابن عبد البر في (جامع بيان العلم):" أفرط اصحاب الحديث في ذم أبي حنيفة وتجاوزوا الحد في ذلك، **والسبب الموجب لذلك عندهم إدخاله الرأي والقياس على الآثار واعتبارهما،** وأكثر أهل العلم يقولون: اذا صح الأثر بطل القياس والنظر، وكان رده لما ورد من أخبار الآحاد بتأويل محتمل، وكثيرا منه قد تقدمه غيره، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأي، وجل ما يوجد له من ذلك ما كان اتباعا لأهل بلده كابراهيم النخعي وأصحاب ابن مسعود، **الا انه أغرق وأفرط في تنزيل النوازل هو واصحابه، والجواب فيها برأيهم واستحسانهم فأتى منه من ذلك خلاف كبير للسلف** وشِنعٌ هي عند مخالفيهم بدع...".[٢٨١]

ويقول الدكتور مصطفى السباعي:"النزاع بين أهل الحديث وأهل الرأي مشهور معروف أدى الى أن يطعن بعض أهل الحديث في بعض أئمة أهل الرأي وأن يعدوهم من الضعفاء لا لشيء إلا لنزعتهم الاجتهادية التي لا تتفق مع نزعة أهل الحديث، وحسبك دليلا على هذا أن إماما جليلا من كبار أئمة التشريع في تاريخ الاسلام وهو أبو حنيفة رحمه الله تحامل عليه كثير من المحدثين وجرحه بعض علماء الجرح والتعديل مع زهده وورعه وتقواه وجلالة قدره، ونجد ذلك واضحا في ما نقله أبو بكر الخطيب في (تاريخ بغداد) في ترجمة أبي حنيفة.[٢٨٢] ... وقد أدى تعصب العامة من أهل الحديث الى أن يتهموا أبا حنيفة بما يقطع التاريخ بكذبه".[٢٨٣]

وقد ترسخ هذا الانقسام بين "أهل السنة" (أي الحنابلة) وغيرهم من عامة المسلمين، خصوصا بعد مجيء شخصيات متطرفة مثل إمام أهل السُنَّة في بداية القرن الرابع الهجري، الامام البربهاري، الذي اعتبر آراءه الخاصة العقدية والفكرية والتاريخية والفقهية، تجسيداً للسنة، ومن يخالفه في نقطة واحدة خارجاً من "أهل السنة" وداخلاً في "أهل البدعة" حيث قال في كتاب (شرح السنة):"جميع ما وصفت لك في هذا الكتاب فهو عن الله تعالى وعن رسول الله (ص) وعن أصحابه وعن التابعين وعن القرن الثالث الى القرن

---

[٢٨١] – السباعي، مصطفى (١٩٦٤)، السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي، ص ٤٦٦

[٢٨٢] – الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (٤٦٢هـ) تاريخ بغداد ،ج١٣ ص ٣٢٣ –٤٢٣

[٢٨٣] – السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي، ص ١٣١

الرابع، فاتق الله يا عبد الله، وعليك بالتصديق والتسليم والتفويض والرضى لما في هذا الكتاب، ولا تكتم هذا الكتاب أحدا من أهل القبلة... **فانه من استحل شيئا خلاف ما في هذا الكتاب فانه ليس يدين بدين،** وقد ردَّ كله، كما لو ان عبداً آمن بجميع ما قال الله تبارك وتعالى، **الا انه شك في حرف فقد رد جميع ما قال الله تعالى وهو كافر... ومن ترك من السُنَّة شيئا فقد رد السُنَّة كلها".**[٢٨٤] وأضاف:"اعلموا رحمكم الله أن أصول البدع أربعة أبواب: انشعب من هذه الأربعة اثنان وسبعون هوى، ثم يصير كل واحد من البدع يتشعب، حتى تصير كلها الى ألفين وثمانمائة، وكلها ضلالة، وكلها في النار الا واحدة، وهو من آمن بما في هذا الكتاب (شرح السنة)، واعتقد من غير ريبة في قلبه ولا شكوك، فهو صاحب سنة، وهو الناجي ان شاء الله".[٢٨٥] وقال:" من أقرَّ بما في هذا الكتاب، وآمن به، واتخذه إماما، ولم يشك في حرف منه، ولم يجحد حرفا مما في هذا الكتاب، أو شك في حرف منه أو شك فيه أو وقف فهو صاحب هوى، ومن جحد أو شك في حرف من القرآن أو في شيء جاء عن رسول الله (ص) لقي الله تعالى مكذبا".[٢٨٦]

وقام البربهاري بخطوة هامة على طريق الفرز الطائفي، وفصل "أهل السنة" عن عامة المسلمين، فقال:"إذا رأيت الرجل من أهل السُنَّة رديء الطريق والمذهب، فاسقا فاجرا صاحب معاصي ضالاً وهو على السُنَّة فاصحبه، واجلس معه، فانه ليس يضرك معصيته، واذا رأيت الرجل مجتهدا في العبادة متقشفا محترقا بالعبادة صاحب هوى فلا تقعد معه، ولا تسمع كلامه، ولا تمش معه في طريق، فاني لا آمن أن تستحلي طريقته فتهلك معه .. واذا رأيت الرجل جالسا مع رجل من أهل الأهواء فحذّره وعرّفه، فان جلس معه بعد ما علم فاتقه، فانه صاحب هوى".[٢٨٧]

---

[٢٨٤] – الإمام البربهاري، شرح السنة، ص٣٨

[٢٨٥] – المصدر، ص ٣٨

[٢٨٦] – المصدر، ص ٤٩

[٢٨٧] – المصدر، ص ٤٥

وروى البربهاري عن طعمة بن عمرو، وسفيان بن عيينة أنهما قالا: من وقف عند عثمان وعلي فهو شيعي، لا يعدّل، ولا يكلم، ولا يجالس. ومن قدم عليا على عثمان فهو رافضي، فقد رفض آثار اصحاب رسول الله (ص) . [٢٨٨]

وأكد ذلك ابن أبي زمنين الأندلسي (٣٢٤-٣٩٩هـ) الذي قال:" لم يزل (أهل السنة) يعيبون أهل الأهواء المضلة، وينهون عن مجالستهم، ويخوفون فتنتهم، ويخبرون بخلاقهم، ولا يرون ذلك غيبة لهم ولا طعنا عليهم".[٢٨٩] و روى الخطيب البغدادي في كتابه (شرف أصحاب الحديث) رقم ١٥٣ عن قتيبة بن سعيد أنه قال: إذا رأيت الرجل يحب أهل الحديث مثل يحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه – وذكر عدة أئمة آخرين – فإنه على السنة، ومن خالف هذا فاعلم أنه مبتدع.

كما أدت نظريات "أهل السُنَّة" (أي الحنابلة) حول التجسيم، الى توتر وفتنة بين الحنابلة والعامة في بغداد، سنة ٣١٧ هـ، وذلك بعدما اختلفوا حول تفسير قوله تعالى:"عسى ربك أن يبعثك مقاما محموداً" (الإسراء: ٧٩). فقالت الحنابلة: يجلسه معه على العرش. وقال الآخرون: المراد بذلك الشفاعة العظمى. فاقتتلوا بسبب ذلك وسقط بينهم قتلى.[٢٩٠]

---

[٢٨٨] – المصدر، ص ٤٩

[٢٨٩] – ابن أبي زمنين الاندلسي، أصول السنة، ص ٢٩٣

[٢٩٠] – ابن كثير، البداية والنهاية سنة ٣١٧ وقد ذكر ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) انه لما قدم الطبري الى بغداد من طبرستان تعصب عليه قوم وسأله الحنابلة عن حديث الجلوس على العرش فقال: أما حديث الجلوس على العرش فمحال، ثم أنشد: (سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس) وكتبه على باب داره، فلما سمع ذلك الحنابلة وأصحاب الحديث وثبوا ورموه بمحابرهم فدخل داره، فرموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتل العظيم، فركب صاحب الشرطة في عشرات ألوف من الجند يمنع عنه العامة ووقف على بابه يوماً الى الليل، وأمر برفع الحجارة، وأمر صاحب الشرطة بمحو بيت الشعر من على الباب، وكتب مكانه بعض أصحاب الحديث هذه الأبيات:

لأحمد منزل لا شك عالٍ اذا وافى الى الرحمن وافد

فيدنيه ويقعده كريما على رغم لهم في أنف حاسد

على عرش يغلفه بطيب على الأكباد من باغ وعاند

الفصل الرابع

صراع المذاهب المختلفة حول "الهوية السنية"

المبحث الأول: التشكيك بسنية الأشاعرة (المالكية والأشاعرة)

ينسب المذهب "الأشعري" الى الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٣٢٤-٢٦٠)، وهو مذهب كلامي عقدي يتداخل مع المذاهب الفقهية السُنيَّة الأخرى، ويتوسط المذاهب الكلامية العقدية الأخرى، حيث يقف على يمينه المذهب السلفي، بينما يقف على يساره الماتريدية والمعتزلة، وبينما يعتنق الحنابلة المذهب السلفي، يتبنى المالكية والشافعية المذهب الأشعري، في حين يعتنق الأحناف المذهب الماتريدي، وهو مذهب مخفف من الاعتزال.

وقد ولد المذهب "الأشعري" في بداية القرن الرابع الهجري، عندما ضعفت مقاومة المعتزلة، في ظل الصعود الحنبلي "السُنّي".

فقام أحد أبرز رجالهم وهو أبو الحسن الأشعري، بإعلان تخليه عن الاعتزال والانتقال الى مذهب "أهل الحديث" أمام حشد كبير في جامع البصرة، فزعم أنه رأى رسول الله في المنام، يأمره بترك الاعتزال والانتقال الى مذهب "أهل السنة".

له هذا المقام الفرد حقا   كذاك رواه ليث عن مجاهد.

وعندما توفي الطبري اجتمع العامة ومنعوا دفنه بالنهار وادعوا عليه الرفض ثم ادعوا عليه الالحاد. كما يقول ابن الجوزي الحنبلي.

أبو رية، محمود، أضواء على السنة المحمدية، ص ١٩٠ عن معجم الأدباء (ص ٥٧ – ٥٩ ج ١٨)

يقول ابن عساكر في تاريخه: إن الأشعري تحير في المسائل التي لم يجد لها جوابا شافيا عند المعتزلة، فسأل الله أن يهديه الى الصراط المستقيم، ثم نام فرأى الرسول في المنام عدة مرات وهو يقول له: "عليك بسنتي"، وانه قال: "...فاستيقضت وأنا شديد الأسف والحزن، فأجمعت على ترك الكلام واتبعت الحديث وتلاوة القرآن".[٢٩١]

وقد حاول الأشعري إدخال بعض التعديلات على فرقة "أهل الحديث" وخاصة لجهة تنزيه الله عن التجسيم، واحترام العقل، واستخدامه في البرهان والإثبات، ونفي القول بالجبر، وذلك بالاعتراف بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لفعل الانسان ولكن الانسان هو المكتسب له. واتخذ طريقا وسطا في مسألة خلق القرآن فقال: "الكلام كلامان نفسي قديم وكلام لفظي وهو حادث".

إلا أنه وبالرغم من تبنيه لبعض عقائد أهل الحديث "أهل السنة" (الحنابلة) ونصرته لهم، لم يلق منهم ترحيبا كافياً ولم يفتحوا له باب "السنة" على مصراعيها، حيث ظلوا يتهمونه بالتأثر بمذهب الاعتزال، أو مذهب سعيد بن عبد الله بن كلاب، لمحاولته إقحام العقل في مسائل العقيدة.

ويقال: إن أبا الحسن الأشعري لما دخل بغداد جاء اليه البربهاري، فجعل يقول:رددت على الجبائي وعلى أبي هاشم، ونقضت عليهم وعلى اليهود والنصارى والمجوس، وقلت لهم، وقالوا. وأكثر الكلام في ذلك. فلما سكت؛ قال له البربهاري: ما أدري مما قلت قليلا ولا كثيرا، ولا نعرف الا ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل. فخرج الأشعري من عنده وصنف كتاب "الإبانة عن أصول الديانة". وقد تخلى فيه عن اصلاحاته وتطابق مع عقائد "أهل الحديث" وقال: "قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسُنَّة نبينا عليه السلام، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل – نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته – قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ورفع

---

[٢٩١] – أبو الحسن الأشعري، مقالات الاسلاميين، تحقيق الدكتور الأهواني. عن موقع وزارة الاوقاف المغربية، مقال بعنوان ابو الحسن الاشعري .

به ضلال الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم وكبير مفخم ". وشرح ذلك قائلاً:" إنا نقرّ بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء به من عند الله، وما رواه الثقاة عن رسول الله (ص) لا نرد من ذلك شيئا. وأن له سبحانه وجها بلا كيف ...وأن له يدين بلا كيف، كما قال سبحانه: "خلقت بيدي" (سورة ص، ٧٥) ... وأن له عينا بلا كيف، كما قال سبحانه "تجري بأعيننا". (القمر، ١٤)...ونَدين بأن الله تعالى يرى في الآخرة بالأبصار، كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله (ص). ونصدق جميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول الى السماء الدنيا، وأن الرب عز وجل يقول:"هل من سائل، هل من مستغفر" وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافا لما قاله أهل الزيغ والتضليل".[٢٩٢]

وقال في موضوع خلق القرآن:"في (باب الكلام على من وقف في القرآن وقال: لا أقول انه مخلوق ولا أقول انه غير مخلوق):

فان قالوا: قلنا ذلك لأن الله لم يقل في كتابه: إنه مخلوق، ولا قاله رسول الله (ص) ولا أجمع عليه المسلمون، ولم يقل في كتابه إنه غير مخلوق، ولا قال ذلك رسول الله (ص) ولا أجمع عليه المسلمون، فوقفنا لذلك ولم نقل إنه مخلوق ولا إنه غير مخلوق. يقال لهم: فهل قال الله عز وجل لكم في كتابه قفوا فيه ولا تقولوا إنه غير مخلوق؟.[٢٩٣]

وبناء على هذا الكتاب، قال "أهل الحديث": بأن الأشعري قد انحاز اليهم تماماً في آخر عمره، بعد انشقاقه عن المعتزلة بفترة، بينما ينفي الأشاعرة صحة كتاب (الإبانة)، ويرفضون تلك الأقوال التي جاءت فيه، ويقولون إنها من اختلاق أهل الحديث (الحنابلة). ويطلق "أهل الحديث" على مرحلته الأولى بعد تخليه عن الاعتزال، صفةَ "الكلابية" نسبة الى المتكلم عبد الله بن سعيد بن كلاب، ويقولون إن المذهب

[٢٩٢] – الأشعري، الإبانة عن اصول الديانة،ص ١٤ و ١٦و ١٨

[٢٩٣] – المصدر، ص٤٦

الأشعري تطور بعد وفاة مؤسسه، واتخذ على يد أئمة المذهب اللاحقين أكثر من طور، وأنهم عادوا، أو اقتربوا أكثر من أهل الكلام والاعتزال، ودخلوا في التصوف والفلسفة، كما هم عليه الأشاعرة اليوم.[٢٩٤]

وتركزت الخلافات بين الأشاعرة وأهل الحديث، حول موضوع العقل والنقل، حيث كان الأشاعرة يعتبرون العقل مصدراً من مصادر التشريع، ويقدمونه على النقل إذا كان خبر آحاد، أو تعارض مع العقل. على العكس من أهل الحديث الذين كانوا يقدمون النقل على "العقل البشري القاصر" بصورة مطلقة.

وفي حين لم يكن الأشاعرة يأخذون بأحاديث الآحاد في باب العقائد، ولو كان في الصحيحين، وكانوا يأولون "المتواتر" إذا ما خالف العقل، فان أهل الحديث كانوا يأخذون بالحديث في باب العقائد أو الأحكام بلا فرق، حتى لو كان خبر آحاد، وذلك – حسبما يقولون– خوفا من تضييع الدين لأن المتواتر من الأحاديث قليل جدا، بالنسبة لآحادها.

يقول الشيخ الحنبلي سفر بن عبد الرحمن الحوالي:"إن مذهب الأشاعرة هو رد خبر الآحاد جملة، وأنها مهما صحَّت لا يبنى عليها عقيدة، بل المتواتر منها يجب تأويله، وآحادها لا يجب الاشتغال بها حتى على سبيل التأويل، حتى إن إمامهم الرازي قطع بأن رواية الصحابة كلهم مظنونة بالنسبة لعدالتهم وحفظهم سواء، وأنه في الصحيحين أحاديث وضعها الزنادقة... وأن مصدر التلقي عند الأشاعرة هو العقل وقد صرح الجويني والرازي والبغدادي والغزالي والآمدي والإيجي وابن فورك والسنوسي وشُرَّاح الجوهرة وسائر أئمتهم بتقديم العقل على النقل عند التعارض، بل العقل هو الأصل، والنقل إن وافقه قُبل وإن خالفه رُدَّ أو أُوّل. وعلى هذا يرى المعاصرون منهم .

---

[٢٩٤] – يقول الدكتور عبد الله الفقيه، في (الشبكة الاسلامية): أما الأشاعرة فهي: فرقة تنتسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله، وقد مر الأشعري بثلاث مراحل –كما ذكر ذلك ابن كثير والزبيدي وغيرهما– مرحلة الاعتزال، ثم متابعة ابن كلاب، ثم موافقة أهل السنة، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، وقد صرح الأشعري بهذا الموقف الأخير في كتبه الثلاثة: رسالة إلى أهل الثغر، ومقالات الإسلامين، والإبانة، فمن تابع الأشعري على هذه المرحلة، فهو موافق لأهل السنة والجماعة في أكثر المقالات، ومن لزم طريقته في المرحلة الثانية، فقد خالف الأشعري نفسه، وخالف أهل السنة في العديد من مقالاتهم.

http://www.islamweb.net/ver2/istisharat/showfatwa.php?Option=FatwaId&lang=A&Id=10400

ومن هؤلاء السابقين من صرح بأن الأخذ بظواهر الكتاب والسُنَّة أصل من أصول الكفر، وبعضهم خفّفها فقال: هو أصل الضلالة!!".[٢٩٥]

كما اختلف الطرفان في تعريف الإيمان، فقال أهل الحديث: بأنه اعتقاد وقول وعمل، بينما تبنى الأشاعرة قولاً أقرب الى المرجئة، حيث قالوا بأن الإيمان هو التصديق القلبي فقط، أو التصديق بالقلب واللسان، ولم يجعلوا العمل شرطا من شروط الإيمان.

واختلف الأشاعرة مع أهل الحديث في موضوع القدر، فقال هؤلاء بأن مشيئة العبد خاضعة لمشيئة الله وإرادته (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) بينما قال الأشاعرة بنظرية الكسب، في محاولة للجمع بين منهجي الجبرية والقدرية.

واختلفوا أيضا في مسألة الأسماء والصفات، حيث أثبتها أهل الحديث، بينما أثبت الأشاعرة لله تعالى سبع صفات فقط عن طريق العقل، وهي الصفات المعنوية: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، أما الصفات الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق فتأولوها، ونفوها.

واتفق الطرفان في باب الصحابة والإمامة. وربما كان هذا الموضوع هو الموضوع الوحيد الذي يلتقي فيه الطرفان، كما يقول الشيخ سفر الحوالي.

وظل الحنابلة الى اليوم يسمون الأشاعرة (كلابية) ويعتبرونهم من "أهل البدعة". فقد قال الشيخ عبد العزيز بن باز، مفتي المملكة العربية السعودية الراحل:" لا شك أنه ضل بسبب الخلاف في العقيدة فرق كثيرة كالمعتزلة والجهمية والرافضة والقدرية وغيرهم، وأيضا الأشاعرة ضلوا فيما خالفوا فيه الكتاب والسُنَّة وما عليه خيار هذه الأمة من أئمة الهدى من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان والأئمة المهتدين فيما تأولوه من أسماء الله وصفاته على غير تأويله، وأبو الحسن الأشعري رحمه الله ليس من الأشاعرة . وإن انتسبوا

[٢٩٥] – http://www.almeshkat.net/books/open.php?cat=21&book=548

إليه؛ لكونه رجع عن مذهبهم واعتنق مذهب أهل السُنَّة، فمدح الأئمة له ليس مدحا لمذهب الأشاعرة ".[٢٩٦]

وقال الشيخ محمد صالح العثيمين (٢٠٠١م): "الأشاعرة مثلا والماتريدية لا يعتبرون من "أهل السُنَّة والجماعة" في هذا الباب، لأنهم مخالفون لما كان عليه النبي (ص) وأصحابه في إجراء صفات الله سبحانه وتعالى، ولهذا يخطئ من يقول: إن أهل السُنَّة والجماعة ثلاثة: سلفيون وأشعريون وما تريديون. فهذا خطأ. فنحن نقول: السلف هم أهل السُنَّة والجماعة، ولا يصدق الوصف على غيرهم أبدا، والكلمات تعتبر بمعانيها فلننظر كيف نسمي من خالف السُنَّة "أهل سُنَّة"؟ لا يمكن".[٢٩٧]

وقال الدكتور محمد بن سعيد القحطاني (محقق كتاب السُنَّة لعبد الله بن أحمد بن حنبل): إن أهل الحديث والسُنَّة المحضة، لا يدخل في مصطلحهم "أهل السُنَّة" إلا من يثبت الصفات لله تعالى، ويقول إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يرى في الآخرة ويثبت القدر، وغير ذلك من الأمور المعروفة عند أهل الحديث والسُنَّة. لذا دأب كثير من المصنفين في العصور الأولى على تسمية كتبهم بالسُنَّة، أو شرح السُنَّة، أو أصول السُنَّة، حتى يخرج بذلك الطوائف المبتدعة التي تخالفنا في الأمور التي ذكرها...". [٢٩٨]

وقال الشيخ سفر الحوالي:" إن مصطلح أهل السُنَّة والجماعة يطلق ويراد به معنيان:

أ ــ المعنى الأعم: وهو ما يقابل الشيعة فيقال: "المنتسبون للإسلام قسمان: أهل السُنَّة والشيعة"، مثلما عنون شيخ الإسلام كتابه في الرد على الرافضي "منهاج السُنَّة" وفيه بيّن هذين المعنيين، وصرح أن ما ذهبت إليه الطوائف المبتدعة من أهل السُنَّة بالمعنى الأخص. وهذا المعنى يدخل فيه كل من سوى الشيعة كالأشاعرة، لاسيما و الأشاعرة فيما يتعلق بموضوع الصحابة والخلفاء متفقون مع أهل السُنَّة وهى نقطة الاتفاق المنهجية الوحيدة كما سيأتي.

---

[٢٩٦] – http://www.binbaz.org.sa/Display.asp?f=Bz00357.htm

[٢٩٧] – العثيمين، محمد صالح، شرح العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية.

[٢٩٨] – القحطاني، محمد بن سعيد (محقق كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل) ص ٥٧ مجلد ١

ب ــ المعنى الأخص: وهو ما يقابل المبتدعة وأهل الأهواء وهو الأكثر استعمالا وعليه كتب الجرح والتعديل فإذا قالوا عن الرجل أنه صاحب سُنَّة أو كان سُنِّياً أو من أهل السُنَّة ونحوها فالمراد أنه ليس من إحدى الطوائف البدعية كالخوارج والمعتزلة والشيعة وليس صاحب كلام وهوى. وهذا المعنى لا يدخل فيه الأشاعرة أبداً بل هم خارجون عنه، وقد نص الإمام أحمد وابن المديني على أن من خاض في شيء من علم الكلام لا يعتبر من أهل السُنَّة وإن أصاب بكلامه السُنَّة حتى يدع الجدل ويسلم للنصوص، فلم يشترطوا موافقة السُنَّة فحسب بل التلقي والاستمداد منها، فمن تلقى من السُنَّة فهو من أهلها وإن أخطأ، ومن تلقى من غيرها فقد أخطأ وإن وافقها في النتيجة.

والأشاعرة- كما سترى - تلقوا واستمدوا من غير السُنَّة ولم يوافقوها في النتائج فكيف يكونوا من أهلها؟.

فالحكم الصحيح في الأشاعرة أنهم من أهل القبلة لاشك في ذلك، **أما أنهم من "أهل السُنَّة" فلا**.

وليكن معلوما أن ابتداء أمر "الأشاعرة" أنهم توسلوا إلى "أهل السُنَّة" أن يكفوا عن هجرهم وتبديعهم وتضليلهم وقالوا: "نحن معكم ندافع عن الدين وننازل الملحدين"، فاغتر بهذا بعض علماء أهل السُنَّة وسكتوا عنهم فتمكّن الأشاعرة في الأمة ثم في النهاية استطالوا على أولئك واستأثروا بهذا الإسم دون أهله، وأصبحوا هم يضللون أهل السُنَّة ويضطهدونهم ويلقبونهم بأشنع الألقاب.

موقف الحنابلة من الأشاعرة أشهر من أن يذكر فمنذ بَدّع الإمام أحمد (ابن كلاب) وأمر بهجره - وهو المؤسس الحقيقي للمذهب الأشعري - لم يزل الحنابَلة معهم في معركة طويلة، وحتى في أيام دولة نظام الملك - التي استطالوا فيها - وبعدها كان الحنابلة يخرجون من بغداد كل واعظ يخلّط قصصه بشيء من مذهب الأشاعرة، ولم يكن ابن القشيري إلا واحداً ممن تعرض لذلك.[٢٩٩]

---

[٢٩٩] - http://www.almeshkat.net/books/open.php?cat=21&book=548

ويقول أيضا: إن الأشاعرة فرقة من الثنتين وسبعين فرقة وإن حكم هذه الفرقة الثنتين وسبعين هو:١ - الضلالة والبدعة. ٢- الوعيد بالنار وعدم النجاة. وهذا مثار جدل كبير ولغط كثير مما يجعلون مذهب أهل السنة والجماعة في الوعد والوعيد

وقال الشيخ علي خضير الخضير (وهو عالم حنبلي سعودي): إن الأشعرية قسمان:

١- اشعرية قبورية وثنيون؛ فهؤلاء مشركون.

٢- أشعرية محضة؛ ليس عندهم شيء من باب الشرك الأكبر، فهؤلاء حكمهم حكم الأشاعرة السابقين لهم.

والاشاعرة السابقين على قسمين:

١- الاشعرية الأولى؛ فهؤلاء كلابية، وهم طائفة مبتدعة ولا تكفر.

٢- الاشعرية الثانية؛ وهؤلاء جمهور العلماء على عدم تكفيرهم للتأويل، وذهب قليل من أهل العلم إلى كفرهم – منهم ابن حزم، وابن الجوزي، والدستي، وبعض الحنابلة.

والراجح أنه يختلف باعتبار الزمان والمكان: فان كان الزمن زمن انتشار للسُنَّة وظهورها، أو المكان مكان سُنَّة ظاهرة – كما في زمن الإمام مالك وأحمد والشافعي – ثم تبنى الاشعرية فهذا كافر.

وإن كان الزمن زمن غلبة جهل وانتشار للبدعة وخفاء في السُنَّة – كزمن ابن تيمية وزمن محمد بن عبد الوهاب – فلا تكفير حتى تزول الشبهة ويعاند، والله أعلم .[٣٠٠]

وقال الشيخ عثمان الخميس (وهو حنبلي كويتي) في موقعه الرسمي على الانترنت: "الأشاعرة ليسوا من أهل السُنَّة بل هم مبتدعة ولكنهم أقرب إلى أهل السُنَّة من غيرهم وهم من الأثنتين والسبعين فرقة فهم مسلمون منحرفون".[٣٠١]

المبحث الثاني: التشكيك بسنية الماتريدية (الأحناف)

إذ ما يكادون يسمعون هذا حتى يرفعوا عقيرتهم بأننا ندخل الأشاعرة النار ونحكم عليهم بالخروج من الملة، عياذاً بالله ...والحاصل أن قولنا أن الأشاعرة فرقة ضالة يعني أنها منحرفة عن طريق الحق ومنهج السنة ولا يعني مطلقا خروجها عن الملة وأهل القبلة. http://www.tawhed.ws/r?i=2408&c=1963

[٣٠٠] – جواب سؤال طرح على الشيخ ضمن اسئلة منتدى (السلفيون):http://www.tawhed.ws/r?i=1667

[٣٠١] – http://www.almanhaj.com/fatwaa/article.php?ID=627

واذا كان الأشعري قد انتقد المعتزلة وحاول الاقتراب من أهل الحديث، فان رجلا معاصراً له، هو أبو منصور محمد الماتريدي السمرقندي (-٣٣٢) قد مشى معه الى نصف الطريق وظل أقرب الى المعتزلة منه الى الأشاعرة فضلا عن الحنابلة.

وأسس المذهب الموازي (الماتريدي) الذي انتشر أكثر شيء بين الأحناف الذين كانوا تاريخيا يميلون الى المعتزلة أكثر من غيرهم، بينما انتشر المذهب الأشعري بين المالكية والشافعية.

واختلف الماتريدي بصورة رئيسية مع الأشاعرة في قوله بالحسن والقبح العقليين، وأن أفعال الله تكون على مقتضى الحكمة، وأن أفعال العباد مخلوقة ولا عقاب ولا ثواب إلاّ وللعبد اختيار فيما يستحق عليه الثواب وما يستحق عليه العقاب.

وفي هذا الوقت كان أحد علماء المذهب الحنفي وهو أبو جعفر الطحاوي (٣٢١-٢٣٩) يقوم بالتقارب مع الحنابلة "أهل السُنَّة" من خلال كتابه (العقيدة الطحاوية) الذي شكل حلاً وسطا بين أهل الاعتزال وأهل الحديث، مما مهد لدخول الأحناف بعد ذلك في الإطار العام لأهل السُنَّة، على أساس اشتراكهم جميعا في الموقف من الصحابة والشيخين والإيمان بصحة الخلافة عبر الشورى، في مقابل الشيعة أو الامامية الذين كانوا يقولون بنظرية النص والتعيين.، لا سيما وانه كان يعيش في ظل الدولة الفاطمية (الشيعية الاسماعيلية) في مصر.

وفي الحقيقة، إذا اعتبرنا جوهر مذهب "أهل الُسَّنة" يقوم على مبدأي الإجماع والحديث، فان كلاً من "الأشاعرة" و"أهل الحديث" يدخلون في إطار مذهب واحد هو المذهب السُنّي، لأنهم جميعا يلتزمون بذينك المبدأين، ويبنون نظرياتهم السياسية على ضوئهما، وسوف نشرح ذلك في الفصل القادم.

المبحث الثالث: التشكيك بسنيَّة البخاري ومسلم

ورغم أن البخاري ومسلم كانا يُعتبران إمامين من أئمة الحديث والسنة، إلا أنهما وبسبب عدم تطابقهما مع الامام أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن، حيث كانا يقولان:"لفظ القرآن مخلوق" فقد تعرضا للإتهام بالبدعة، وواجها مقاطعة من قبل بعض المتطرفين من "أهل السنة".

يقول الحاكم أبو عبد الله في تاريخه: قدم البخاري نيسابور في سنة ٢٥٠هـ فأقبل عليه الناس ليسمعوا منه، وفي أحد الأيام سأله رجل عن "اللفظ بالقرآن" فقال: أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا. فوقع بذلك خلاف ولم يلبث أن حرض الناس عليه محمد بن يحيى الذهلي، وقال: من قال ذلك فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم، ومن ذهب بعد ذلك الى البخاري فاتهموه، فانه لا يحضر مجلسه الا من كان على مذهبه. فانقطع الناس عن البخاري الا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة، فقال الذهلي: ألا من قال باللفظ، فلا يحل له أن يحضر مجلسنا. فأخذ مسلم رداءه فوق عمامته وقام على رؤوس الناس، وبعث جميع ما كان قد كتبه عنه، وقد خشي البخاري على نفسه فسافر من نيسابور.[٣٠٢]

وقال الخطيب البغدادي: كان الذهلي وأكثر المتكلمين يرون في كلام الله أنه قديم، وقد قالوا بكفر وارتداد مخالفيهم الذين يرون بأن كلام الله حديث. وقالوا: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، وخرج عن الإيمان، وبانت عنه امرأته، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وجعل ماله فيئا بين المسلمين، ولم يدفن في قبور المسلمين، ومن وقف وقال: لا أقول مخلوق أو غير مخلوق، فقد ضاهى الكفر، ومن زعم أن لفظ القرآن مخلوق فهذا مبتدع لا يجالس ولا يكلم .

وأضاف الخطيب قائلا: وكان البخاري خلافا لأكثر متكلمي عصره يقول بأن لفظ القرآن مخلوق، ولما ورد مدينة نيسابور أفتى الذهلي – الذي تقلد منصب الأفتاء والإمامة بنيسابور – قائلا: ومن ذهب بعد مجلسنا هذا إلى محمد بن إسماعيل البخاري فاتهموه فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مثل مذهبه.

وقد حاول إمام "أهل السنة" في القرن الرابع الهجري، ابو محمد حسن بن علي البربهاري (٣٢٩هـ) تبرير ذلك الموقف المتطرف بأنه كان رد فعل على تطرف المعتزلة (الجهمية) وقال: "قال بعض العلماء –

---

[٣٠٢] – أبو رية، محمود، أضواء على السنة المحمدية، ص ٣٠٧ عن (هدي الساري، ص ٢٠٣ و٢٠٤ ج٢).

منهم أحمد بن حنبل -: الجهمي كافر، ليس من أهل القبلة، حلال الدم، لا يرث ولا يورث، لأنه قال:... من لم يقل القرآن مخلوق فهو كافر، واستحلوا السيف على أمة محمد (ص) وخالفوا من كان قبلهم، وامتحنوا الناس بشيء لم يتكلم فيه رسول الله (ص) ولا أحد من اصحابه... فشككوا الناس في آرائهم وأديانهم، واختصموا في ربهم... فاستحل من استحل تكفيرهم ودماءهم من هذا الوجه، لأنه **من رد آية من كتاب الله فقد رد الكتاب كله، ومن رد أثرا عن رسول الله فقد رد الأثر كله، وهو كافر بالله العظيم**، فدامت لهم المدة ووجدوا من السلطة معونة على ذلك، ووضعوا السيف والسوط دون ذلك، فدرس علم السُنَّة والجماعة، وأوهنوهما، وصارتا مكتومتين لإظهار البدع والكلام فيها ولكثرتهم، فاتخذوا المجالس، وأظهروا رأيهم، ووضعوا فيه الكتب، وأطمعوا الناس، وطلبوا لهم الرئاسة، فكانت فتنة عظيمة لم ينج منها إلا من عصم الله، فأدنى ما كان يصيب الرجل من مجالستهم: أن يشك في دينه، أو يتابعهم، أو يرى رأيهم على الحق، ولا يدري أنه على الحق، أو على الباطل، فصار شاكا، فهلك الخلق..".[٣٠٣]

المبحث الرابع:التشكيك بسنية الحنابلة

وبالرغم من محاولات "الحنابلة" احتكار لقب "أهل السُنَّة" وإخراج أبناء المذاهب السُنّية الأخرى من أشاعرة (مالكية وشافعية) وماتريدية ومعتزلة (أحناف) من إطار (المذهب السُنّي) في القرون (الثالث والرابع والخامس) فانهم فشلوا تماما، واستطاع الأشاعرة تاريخيا أن يكسروا احتكار الحنابلة لاسم "أهل السُنَّة" بل نجحوا في أن يكونوا في طليعتهم، بحيث لما توفي الأشعري سنة ٣٢٤ نودي على جنازته: "اليوم مات ناصر السُنَّة".

وذهب بعض الأشاعرة إلى إخراج الحنابلة (السُنَّة الأصليين) من دائرة "أهل السُنَّة" وتسميتهم "بالكرامية".

---

[٣٠٣] - الإمام البربهاري، شرح السنة، ص ٣٤ – ٣٥

واعتبر الأشاعرة القول بالتجسيم وبجلوس الله على العرش كما يجلس الواحد منا على الكرسي، وهو ما يقول به الحنابلة أهل الحديث، وخصوصا الكرامية، مخالفاً لعقائد أهل السُنَّة والجماعة، وسقوطاً في البدعة. وأخرجوا من يقول بذلك من "أهل السُنَّة والجماعة".

فقد قال الإمام تاج الدين السبكي، في كتابه (معيد النعم ومبيد النقم): "هؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة – ولله الحمد – في العقائد يد واحدة كلهم على رأي أهل السُنَّة والجماعة، يدينون الله تعالى بطريقة شيخ السُنَّة أبي الحسن الأشعري رحمه الله، لا يحيد عنها إلا رعاع من الحنفية والشافعية، لحقوا بأهل الاعتزال، ورعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية فلم نرَ مالكيا إلا أشعريا عقيدة. وبالجملة عقيدة الأشعري هي ما تضمنته عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها علماء المذاهب بالقبول، ورضوها عقيدة ".

وقال الحافظ الزبيدي:"إذا أطلق أهل السُنَّة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية".[٣٠٤]

وقال الفقيه الحنفي ابن عابدين في (حاشيته):"أهل السُنَّة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية". وقال الخيالي في شرحه على العقائد :"الأشاعرة هم أهل السُنَّة والجماعة، هذا هو المشهور في ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار. وفي ديار ما وراء النهر يطلق ذلك على الماتريدية أصحاب الإمام أبي منصور الماتريدي". وقال الكستلي في حاشيته عليه: "المشهور من أهل السُنَّة في ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار هم الأشاعرة أصحاب أبي الحسن الأشعري... وفي ديار ما وراء النهر الماتريدية أصحاب أبي منصور الماتريدي". وكتبت دار الفتوى في الإمارات العربية المتحدة، ردا على سؤال:"من هم أهل السُنَّة والجماعة؟" ما يلي:"هو دين الله الذي كان عليه السلف الصالح وتلقاه عنهم الخلف الصالح، وطريقة الأشعري والماتريدي في أصول العقائد. فالمذهب الحق الذي كان عليه السلف الصالح هو ما عليه الأشعرية والماتريدية، وهم مئات الملايين من المسلمين، فكيف يكون هؤلاء السواد الأعظم على ضلال، وتكون شرذمة هي نحو ثلاثة ملايين

---

[٣٠٤] – الزبيدي، محمد بن محمد الحسيني، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ج ١ ص ٧،

(يعني الحنابلة) على الحق؟...فالعقيدة الحقة التي كان عليها السلف الصالح هو ما عليه الأشعرية والماتريدية وهم مئات الملايين من المسلمين السواد الأعظم الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة".[٣٠٥]

الباب الثالث

علاقة المذاهب السنية بالأنظمة السياسية

الفصل الأول

المذهب السني والثقافة السلطانية الأموية

[٣٠٥] - باب-الإيمان-والعقيدة-الاسلامية/من-هم-أهل-السنة-والجماعة-؟/www.darulfatwa.org.au/ar

اختلفت علاقة المذاهب السُنّية بالأنظمة السياسية التي حكمت العالم الاسلامي باسم الخلافة قرونا طويلة من الزمن، سواء كانت أموية أو عباسية أو عثمانية، وإذا نظرنا الى تاريخ تلك العلاقة فسنجد اختلافا بين مذهب وآخر، وبين مؤسس المذهب وأتباعه، بحيث لا يمكننا إطلاق القول بصورة عامة بأن المذاهب السُنّية كانت تابعة للسلطان في كل زمان ومكان، وبأن علاقة جميع المذاهب مع الحكام كانت واحدة دائما وأبدا، فهي تختلف من مذهب الى آخر، ومن جيل الى جيل، ومن شخص الى شخص، ولكن يمكن القول بأن المذهب السُنّي (أو المذاهب السُنّية) كانت صدى لثقافة الأنظمة الحاكمة، منذ تأسيس النظام القرشي العربي الاسلامي، بعد وفاة رسول الله (ص) مباشرة، وإلى اليوم، وذلك في مقابل ثقافة المذهب الشيعي التي كانت تمثل المعارضة والثورة، بصورة عامة، مع وجود بعض الاستثناءات عند بلوغ المعارضة سدة الحكم، وتساويها مع الأنظمة السُنّية، واستخدامها لثقافة السلطة في مواجهة المعارضة.

والسبب في ذلك يعود – في نظري – الى أصول المذهب السُنّي، أو بالأحرى الى الأصلين الرئيسيين اللذين يتميز بهما وهما: (الحديث) و (الإجماع) اللذين حملا الثقافة السلطانية عبر التاريخ.

وقد بحثت ذلك مفصلا في كتابي (تطور الفكر السياسي السُنّي نحو خلافة ديمقراطية) الصادر عام ٢٠٠٧، وسوف أقوم هنا باستعراض موجز لملامح الفكر السياسي السُنّي، وملاحظة تطابقه مع فكر وثقافة الأنظمة السياسية التي حكمت العالم الاسلامي، وشكل صدى لها، حتى لو كان ابناء مذهب سُنّي معين يقفون موقف المعارضة من نظام معين.

إن أساس "المذهب السُنّي" الذي تطور في أحضان العباسيين في القرن الثالث الهجري، هم "أهل الحديث" الذين ولدوا في أحضان النظام الأموي، واعتمدوا كثيرا على الأحاديث التي كان يروجها ذلك النظام.

وهذه الاحاديث (السياسية خصوصا) تمثل منطق الحكم الاستبدادي المطلق، في مواجهة الثورات الشعبية التي كانت تطالب بالحرية والعدل والمشاركة السياسية.

وإذا ألقينا نظرة على رسالة "أصول السُنَّة" لمؤسس "المذهب السُنّي" الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) وكتبه الأخرى، وكذلك كتب وفتاوى أشهر علماء "أهل السُنّة" عبر التاريخ، فسوف نجد أنها تعبر عن الفكر "السلطاني" السياسي والثقافي الذي تبلور في العهد الأموي، كالمواقف والآراء التالية:

١- جواز الاستيلاء على السلطة بالقوة.

وهو موقف ينبع من قيام أبي بكر بفرض نظامه القرشي على العرب، تحت ما يسمى بحروب "الردة" رغم تمتعه بقدر من الشورى في سقيفة بني ساعدة، ومبايعة المهاجرين والأنصار.

وقد تكرس بقيام معاوية بن أبي سفيان باستيلائه على السلطة بالقوة، بعد انهيار جيش الإمام الحسن بن علي، عام ٤١ للهجرة، وإعلانه بصراحة لأهل المدينة: "إني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة".[٣٠٦] وقوله لأهل الكوفة:"إنما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم وعلى رقابكم، **وقد آتاني الله ذلك** وأنتم كارهون".[٣٠٧]

وتعزز هذا الموقف المؤمن بالقوة، بمن جاء بعد معاوية من الحكام الأمويين الذين سيطروا بالقوة على المسلمين.[٣٠٨] فانعكس ذلك الموقف في فتوى إمام "أهل السُنَّة" أحمد بن حنبل: "من ولي الخلافة، واجتمع الناس عليه، ورضوا به، ومن استولى عليهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمي (أميرالمؤمنين) فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً، براً كان أو فاجراً".[٣٠٩]

---

[٣٠٦] – ابن كثير،اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٤١ موقع مكتبة المشكاة، بتاريخ ٢٠٠٩/١١/١٥

http://www.almeshkat.com/books/open.php?cat=13&book=366

[٣٠٧] – المصدر، ج ٨ ص ١٣١ و ص ١٤٠

[٣٠٨]– انظر كنموذج: كتاب البيعة للوليد بن يزيد وابنيه الحكم وعثمان، سنة ٧٤٢، الطبري، ج٤ ص ٢٢٨ – ٢٢٩

[٣٠٩] – حسب رواية عبدوس ابن مالك العطار . الفراء، الأحكام السلطانية، ص ٢٨

وفتوى أبي حامد الغزالي بجواز تعيين الإمام بواسطة شخص واحد إذا حصلت له الشوكة.[٣١٠] واعتبار السلطة القهرية، إحدى طرق الحكم الثلاثة، إضافة إلى النص والتفويض من رجل ذي شوكة.[٣١١] وقوله:"إن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له".[٣١٢]

وانعكس القبول بالأنظمة القائمة على القوة، كذلك، في تصريح الحافظ ابن حجر في "فتح الباري": " أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه، لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلاَّ إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها".[٣١٣]

وهكذا أوجب ابن تيمية الطاعة للحكام الذين يأخذون البيعة كرها وقسراً، وحذر من النكث باليمين بها "لأن ما كان واجباً بدون اليمين فاليمين تقويه، لا تضعفه، ولو قد أن صاحبها أكره عليها".[٣١٤]

٢- احتكار قريش للسلطة والخلافة.

وقد اشتهر عن "أهل السُنَّة" إيمانهم بحصر الخلافة في قريش، بناء على قول أبي بكر في "السقيفة":"إن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش". أو قول عمر:"من ينازعنا سلطان محمد وميراثه؟ ونحن أولياؤه وعشيرته".[٣١٥]

---

[٣١٠] – الغزالي، فضائح الباطنية، ص ١٧٨ – ١٧٩

[٣١١] – الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧

[٣١٢] –الغزالي، إحياء علوم الدين الجزء ٢ ص١٤٠

[٣١٣] – ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق

[٣١٤] – ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٣٥ باب الخلافة والملك،، ص ١٠ و ص ١١ وص ١٢

وورووا بعد ذلك أحاديث نسبوها الى النبي تؤكد حق قريش في السلطة في الدولة الاسلامية. فقد حاول معاوية بن أبي سفيان تكريس سيطرة قريش برواية حديث موضوع عن رسول الله أنه قال:"إن هذا الأمر في قريش".[٣١٦]

وهذا يختلف عن قول أبي بكر وعمر في السقيفة، إذ أنهما لم ينسبا القول لرسول الله، وإنما عبرا عن رأيهما الشخصي بناء على تحليلهما السياسي، وقال معاوية: "بنى الله هذا الملك على قريش وجعل هذه الخلافة عليهم، ولا يصح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله، أ فتراه لا يحوطهم وهم على دينه؟".[٣١٧] وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر أن النبي (ص) قال:"لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان".[٣١٨]

وهكذا جعل "أهل السُنَّة" من هذا الأمر قضية عقدية دينية، وقال أحمد بن حنبل: "الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم ولا يخرج عليهم، ولا نقرُّ لغيرهم بها إلى قيام الساعة".[٣١٩]

وروى في مسنده: أن النبي قال:"الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا، ووعدوا فوفوا، واسترحموا فرحموا".[٣٢٠]

---

[٣١٥] – ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤ ص ١٠٧٤– ١٠٧٥ والطبري، ج٢ ص ٤٤٥

[٣١٦] – البخاري، ج٥ ص١٣
الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك ج٢ ص ٦٣٥

[٣١٧] – الطبري، ج٢ ص ٦٣٥

[٣١٨] – البخاري، ج٥ ص١٣ و مسلم – كتاب الإمارة – باب الناس تبع لقريش، ص ٤٨٠

[٣١٩] – انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢٦/١

[٣٢٠] – أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلي في مسنديهما والطبراني. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٠

وروى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله "الملك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة". وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم:"إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم" كما روى عن أبي هريرة أن النبي قال:" الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم". (متفق عليه)

وعقب النووي على ذلك بقوله:"هذا الحديث وأشباهه دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش، لا يجوز عقدها لأحد غيرهم، وعلى هذا انعقد الاجماع في زمن الصحابة، فكذلك من بعدهم".

٣- المحافظة على الجماعة.

كما في حديث أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله (ص) يقول:"تفرقت بنو إسرائيل على سبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسايرها في النار. فقلت ولتزيد هذه الأمة عليهم واحدة، فواحدة في الجنة وسايرها في النار، فقلت: فما تأمرني؟ قال: عليك بالسواد الأعظم، قال فقلت: في السواد الأعظم ما قد ترى، قال:السمع والطاعة خير من الفرقة والمعصية".[٣٢١]

٤- منع محاسبة الحكام ومراقبتهم ونقدهم وتغييرهم

كما قال أحمد بن حنبل في (أصول السُنَّة): "قسمة الفيء ... إلى الأئمة ماضٍ، ليس لأحد أن يطعن عليهم، ولا ينازعهم". وذلك بناء على مجموعة من الأحاديث مثل حديث عبادة بن الصامت، قال:"بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله". وحديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (ص): "ستكون بعدي أثرة

---

[٣٢١] - ابن أبي زمنين الأندلسي، أصول السنة ص ٢٩٤ - ٢٩٥

وأمور تنكرونها، قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم". [٣٢٢]

وحديث حذيفة اليمان، قال:" قلت: يا رسول الله، إنا كنا بشرٍ فجاء الله بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر؟قال: نعم، قلت: هل من وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم، قلت: هل وراء ذلك الخير شر؟ قال نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسُنَّتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان انس. قلت: كيف اصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع".[٣٢٣]

وحديث وائل بن حجر قال:" سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله فقال: يا رسول الله إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم، ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض، ثم سأله في الثانية أو الثالثة، فقال:"اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم".[٣٢٤]

٥- جواز الظلم والفسق والانحراف للحكام

حسبما يقول الامام أحمد: بوجوب السمع والطاعة لـ"أمير المؤمنين البر والفاجر.[٣٢٥] و"الغزو ماض مع الأمير إلى يوم القيامه البَرّ والفاجر لا يُترَك". (أصول السنة).

---

[٣٢٢] – مسلم، وغير واحد من اصحاب الصحاح والسنن.

[٣٢٣] – مسلم، كتاب الامارة، ج ٤ ص ٥١٥

[٣٢٤] – ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ٣٥ باب الخلافة والملك، ص ٨ – ٩

[٣٢٥] – حسب رواية عبدوس ابن مالك العطار . الفراء، الأحكام السلطانية، ص ٢٨

بناء على حديث أبي هريرة عن النبي (ص) أنه قال:"إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء وكلما هلك نبي خلفه نبي، وانه لا نبي بعدي، وانه سيكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوا لهم ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم، فان الله سائلهم عما استرعاهم".[٣٢٦]

٦- تحريم الثورة على الظالمين

كما يقول أحمد بن حنبل: "من خرج على إمام من أئمة المسلمين – وقد كانوا اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة، بأي وجه كان، بالرضا أو بالغلبة – فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية . ولا يحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السُنَّة والطريق ".[٣٢٧]

بناء على أحاديث مثل حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: سمعت النبي (ص) يقول:" خياركم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم، قال: قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله تعالى ولا ينزعن يدا من طاعة". أو "إنه سيكون عليكم أئمة تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد بريء، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع، فقيل: يا رسول الله أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا".

وقد روى هذه الأحاديث البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل والترمذي وابن ماجة وأبو داود. ورغم تأييد الإمام مالك بن أنس لثورة النفس الزكية وإفتائه بأنه "ليس على مستكره طلاق". إلا أنه لم يكن يرى

---

[٣٢٦] – رواه أحمد في أول كتاب المسند حول (ما يبتدأ به من طاعة الإمام وترك الخروج عليه وغير ذلك). وقد قال أبو عبد الله: ما أحسن هذا الحديث. كأنه أعجبه. الخلال أبو بكر، السنة، ج ١، ص ٧٨

[٣٢٧] – أحمد بن حنبل، أصول السنة، الأصل ٢٨ و٣٣ و٣٤

الخروج على الحاكم وإن كان ظالما، ويحرم ذلك الخروج لما يسوقه من الفتن وإباحة الدماء فيكون القاعد خيراً من القائم، والقائم خيراً من السائر".[٣٢٨]

ومن هنا اتخذ ابن تيمية موقفا سلبيا من ثورة أهل المدينة ضد يزيد بن معاوية، والتي اعتبرها خروجا عن طاعة ولي الأمر، ونقضا لبيعته، ولم يتوقف عند فسق يزيد ولا الدماء الزاكية التي أسالها في كربلاء أو في واقعة الحرة.[٣٢٩]

وقد استمر ذلك الموقف السُنّي السلبي من الثورة ضد الحاكم الجائر الفاسق إلى هذا اليوم. حيث ورد في كتاب (التوحيد) الذي يدرس في كلية أصول الدين في جامعة الأزهر: أنه "لا يجوز عزل الإمام بسبب الفسق والجور.. لأنه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين وكان السلف ينقادون لهم ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم".[٣٣٠]

وقال الشيخ محمد أبو زهرة (١٩٧٤م):"المشهور عن مذهب أهل السُنَّة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي (ص) لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى".[٣٣١] ولذلك"لم ينظر جمهور الفقهاء إلى الثورات التي تقوم، ولو كان الحكام ظالمين، نظرة راضية". [٣٣٢]

٧- الإيمان بالقدر الجبري

---

[٣٢٨] - الأنصاري، فاضل، قصة الطوائف.. الاسلام بين المذهبية والطائفية (٢٠٠٠) ص ١٠٩ دار الكنوز الأدبية بيروت لبنان، ط١

[٣٢٩] - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٣٥ باب الخلافة والملك،، ص ١٠ و ص ١١ وص ١٢

[٣٣٠] - المصدر، ص ١٥١

[٣٣١] - محمد أبو زهرة، الوحدة الإسلامية، ص ١٥٨

[٣٣٢] - المصدر، ص ١٥٦

كما يقول الإمام أحمد في (أصول السنة): "الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يُقال لِمَ ولا كيف، إنما هو التصديق والإيمان بها".

وقد عززت عقيدة "الجبر" (أو القدر) فكرة الخضوع للحاكم الظالم، بناء على مجموعة من الأحاديث التي انتشرت في العهد الأموي، مثل: حديث عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله يقول:" كتب الله مقادير الخلايق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين الف سنة، وقال: وعرشه على الماء". وسمعت رسول الله يقول: "ان قلوب بني آدم كلها بين اصبعين من اصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، ثم قال النبي: الله مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك". وحديث عائشة، قالت: قال رسول الله: "ان الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها و هم في أصلاب آبائهم".[٣٣٣]

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه العقيدة هي إلغاء الحرية والقدرة والمسئولية والاختيار عن أية جريمة، وتبرير ما يفعل الطغاة، واعتبار سيطرة الحكام الظالمين على الناس قدرا مكتوبا من الله، كما كان يحاول الحكام الأمويون الإيحاء بأن حكمهم قضاء وقدر مثبت في الزبر.[٣٣٤]

وهو ما دفع الإمام الحسن البصري (١١٠هـ) الى استنكار ذلك.[٣٣٥] فقد سئل يوما: إن هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون: انما تجري أعمالنا على قدر الله تعالى، فقال: كذب أعداء الله.[٣٣٦] مما أثار غضب الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عليه، ودفعه لاتهامه بإحداث القول في (القدر) فأرسل له رسالة يؤنبه فيها على قوله بالقدر، جاء فيها: "قد بلغ أمير المؤمنين عنك قول في وصف القدر، لم يبلغه مثله عن أحد ممن مضى، ولا نعلم أحدا تكلم به ممن أدركنا من الصحابة رضي الله عنهم،

---

[٣٣٣] – مسلم، القدر، ج ٥ ص ٥٠٩ و ٥١٠ و ٥١٧

[٣٣٤] – الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢ ص ٣٢ والطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص ٢١٦ و، ج٧ ص٢٢١

[٣٣٥] – هو مولى ابن عبدين من سبي ميسان، ولد في المدينة. الخيون، رشيد، معتزلة البصرة وبغداد، ص ٢٩

[٣٣٦] – المعارف ص ٤٤١ شذرات الذهب، وفيات ١١٠

كان بلغ أمير المؤمنين عنك، وقد كان أمير المؤمنين يعلم منك صلاح حالك وفضلا في دينك ودراية في الفقه وطلبا له وحرصا عليه، ثم أنكر أمير المؤمنين هذا من قولك، فاكتب لأمير المؤمنين بمذهبك، والذي به تأخذ عن اصحاب رسول الله (ص) أم عن رأي رأيته؟ أم عن أمر يعرف تصديقه في القرآن، فاننا لم نسمع في هذا الكلام مجادلا ولا ناطقا قبلك".[٣٣٧]

فرد عليه الحسن البصري قائلاً: "إعلم يا أمير المؤمنين، أن الله لم يجعل الأمور حتماً على العباد، ولكن قال إن فعلتم كذا فعلت بكم كذا، وإنما يجازيهم بالأعلام". وضمن الحسن رسالته عددا كبيرا من الآيات القرآنية الكريمة التي تؤكد مسئولية الإنسان عن أفعاله.[٣٣٨]

وأكد البصري لعبد الملك: "إنما أحدثنا الكلام فيه من حيث أحدث الناس النكرة له، فلما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوه أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات ويحذرون به من المهلكات.. فافهم أيها الأمير ما أقوله فإن ما نهى الله فليس منه، لأنه لا يرضى ما يسخط من العباد، فانه تعالى يقول:"ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم". (الزمر ٧)، فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضي ممن عمله".[٣٣٩]

---

[٣٣٧] – الهمداني، القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال، ص ٢٥١ – ٢٢٣، الخيون، رشيد، ص ٣٨

[٣٣٨] – منها " لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر". المدثر، ٣٧ و "كل نفس بما كسبت رهينة". المدثر، ٣٨ و " قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون". الأعراف، ٢٨ و " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون". الأعراف، ٩٦. الخيون، رشيد، معتزلة البصرة وبغداد، ص ٣٩

[٣٣٩] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٤ ص ٢٢٧–٢٣٠ الخيون، معتزلة البصرة وبغداد، ص ٣٩، نقلا عن ابن المرتضى المعتزلي، ويقول الخيون: إن الشهرستاني في (الملل والنحل) حاول أن ينفي هذه الرسالة الجوابية عن إمام اهل السنة، وقال: انها لواصل بن عطاء. المصدر، ص ٤١

ومع ذلك فقد آمن مؤسس "المذهب السُنّي" أحمد بن حنبل وأهل الحديث بصورة عامة (والحشويون بصورة خاصة) بنظرية الجبر، من خلال إيمانهم وتصديقهم بالأحاديث التي انتشرت في العهد الأموي، والتي تتحدث عن القدر بصورة تعني الجبر. واعتبروا ذلك ركنا من أركان السُنَّة، سالبين بذلك من الإنسان الحرية والمسؤولية عن فعل أي شيء أو اختيار أي شيء، سواء كان طاعة أو معصية.

وقد اعتبر الإمام أحمد "الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها" أصلا من (أصول السُّنة) ونهى عن أن يقال:" لمَ؟ و كيف؟، إنما هو التصديق والإيمان بها. ومن لم يعرف تفسير الحديث، ويبلغه عقله؛ فقد كفي ذلك وأحكم له؛ فعليه الإيمان به والتسليم له".[٣٤٠]

ويقول البربهاري، إمام أهل السُنَّة في القرن الرابع:"إعلم أنه لا يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله، ولا يعذب الله أحدا بذنوبه، ولو عذب الله أهل السماوات وأهل الأرضين بَرَّهم وفاجرَهم عذبهم غير ظالم لهم. ولا يجوز أن يقال لله تبارك وتعالى إنه ظالم، وإنما يظلم من يأخذ ما ليس له، والله (جل ثناؤه) له الخلق والأمر، والخلق خلقه، والدار داره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولا يقال: لم؟ وكيف؟ لا يدخل أحد بين الله وخلقه". [٣٤١]

وذهب القدري البربهاري إلى إنكار فكرة الابتلاء في الدنيا، وزعم أن الله فضل المؤمنين على الكافرين بهدايتهم للإيمان، ومع ذلك فانه قد يعذبهم في الآخرة، ويدخلهم النار. ومن يقول عكس ذلك فهو صاحب بدعة.[٣٤٢]

وقد روى إمام أهل السُنَّة في القرن الخامس، هبة الله ابن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، عن سفيان الثوري أنه قال:" لا ينفعك الذي كتبت حتى تؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره كل من عند الله عز وجل". ونقل عن سفيان بن عيينة:" أن السُنَّة عشرة، فمن كن فيه فقد استكمل السُنَّة، ومن ترك منها شيئا فقد ترك السُنَّة، وأولها: إثبات القدر".[٣٤٣]

---

[٣٤٠] – ابن حنبل، أصول السنة، الأصل ١٢

[٣٤١] – البربهاري، شرح السنة، ص٢٧ و٢٨

[٣٤٢] – المصدر، ص ٢٩

[٣٤٣] – الإمام اللالكائي، هبة الله بن الحسن، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم ٣١٤ وفقرة رقم ٣١٦

وحسب الكتاب المنسوب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري "الإبانة عن أصول الديانة"[٣٤٤] فإن الأشعري يستعين فيه بعدد من الروايات التي تؤكد القدر المكتوب على الإنسان، وتنفي قدرته على الاختيار.[٣٤٥] ويذهب إلى أن الله خلق المؤمنين للجنة وخلق الكافرين للنار.[٣٤٦] وينقل حديثا عن رسول الله (ص) أنه قال:"ما منكم من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة" فقال رجل من القوم: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان من أهل السعادة يصير إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فيصير إلى الشقاوة. فقال (ص) اعملوا فكل ميسَّر، أما أهل الشقاوة فميسَّرون لعمل الشقاوة وأما أهل السعادة فميسَّرون لعمل السعادة".[٣٤٧]

وقد روى البخاري و مسلم عن أبي هريرة، حديث احتجاج آدم وموسى، قال: قال رسول الله (ص): "احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالته وبكلامه، واعطاك الألواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما. قال آدم: فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى)؟

---

[٣٤٤] – وهو كتاب يدعي الحنابلة أنه آخر ما كتبه الأشعري بعد ما مال إليهم تماما، بينما ينفي صحته الأشاعرة.

[٣٤٥] – فيقول:" روى معاوية بن عمرو، قال حدثنا زائدة، قال: حدثنا سليمان الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود، قال: أخبرنا رسول الله (ص) وهو الصادق المصدوق:"إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله الملك، قال فيؤمر بأربع كلمات، يقال: اكتب أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، قال: فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها". المصدر، ص ٩٧ (البخاري: ٣٢٠٨ مسلم: ٢٦٤٣)

[٣٤٦] – المصدر، ص ٨٢ – ٨٣

[٣٤٧] – المصدر، ص ٩٨ – ٩٩ (البخاري: ١٣٦٢ مسلم: ٢٦٤٧)

قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله، قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله (ص) فحج آدم موسى". [٣٤٨]

وقد حكى إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (٤٤٩هـ) بسنده أن أبا معاوية الضرير حدث الرشيد بحديث أبي هريرة حول القدر واحتجاج آدم وموسى.. فاعترض أحد الحاضرين قائلا: كيف هذا وبين آدم وموسى ما بينهما؟ فوثب به هارون وقال: يحدثك عن رسول الله (ص) وتعارضه بكيف؟[٣٤٩]

ويكمل ابن كثير القصة قائلاً: ان الرشيد غضب من ذلك غضبا شديدا، وقال: أتعترض على الحديث؟ علي بالنطع والسيف، فاحضر ذلك، فقام الناس اليه، يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة، ثم أمر بسجنه، وأقسم ألا يخرج حتى يخبره من ألقى اليه هذا، فأقسم ذلك الرجل بالأيمان المغلظة ما قال هذا له أحد، وانما كانت هذه الكلمة بادرة منه وانه يستغفر الله ويتوب اليها منه فأطلقه.[٣٥٠]

وعلق الصابوني بعد إيراده تلك القصة: هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله (ص) ويقابله بالقبول والتسليم والتصديق، وينكر أشد الانكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد – رحمه الله – مع من اعترض على الخبر الصحيح الذي سمعه بكيف؟ على طريق الانكار له والابتعاد عنه، ولم يتلقفه بالقبول. [٣٥١]

٨- التفضيل بين الصحابة

---

[٣٤٨] – البخاري ومسلم، كتاب القدر، ج ٥ ص ٥٠٧

[٣٤٩] – الصابوني ، عقيدة السلف، ص ٣٢٠

[٣٥٠] – ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/ ٢١٥

[٣٥١] – الصابوني، عقيدة السلف وأصحاب الحديث، ص ٣٢١، عبد العزيز آل عبد اللطيف، الاعتقاد القادري، دراسة وتعليق، مجلة جامعة أم القرى، ج١٨، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ عدد ٣٩ سنة ١٤٢٧

ومن أبرز ملامح المذهب السُنّي، تفضيل الصحابة حسب تسلسل تبوؤ الخلفاء الأربعة لمنصب الخلافة، ثم أعضاء الشورى العمرية (الستة) حيث يقول الامام أحمد:"خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، نُقدّم هؤلاء الثلاثة كما قدمهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يختلفوا في ذلك، ثم بعد هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى الخمسة: علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد، كلهم يصلح للخلافة، وكلهم إمام، ونذهب في ذلك إلى حديث ابن عمر: "كنا نعُدُّ ورسول الله حي وأصحابه متوافرون: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نسكت " ... ثم من بعد أصحاب الشورى أهل بدر من المهاجرين، ثم أهل بدر من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدر الهجرة والسابقة، أولاً فأولاً ".[٣٥٢]

وهذا استنباط من أحداث التاريخ، ولا علاقة له بأعمالهم وجهادهم وسبق اسلامهم. وهو أمر شخصي لم ينزل فيه قرآن ولا سُنَّة. اضافة الى أنه ليس مسألة دينية وانما شخصية، اعتمادا على قول عبد الله بن عمر. ولكن أحمد يرفعها الى درجة العقيدة السُنّية، وإن اختلف مع المتطرفين السُنَّة الأمويين الذين كانوا يبغضون الامام علي، فعده أحمد "رابع الخلفاء الراشدين".

٩- تفسير النفاق بالكفر الباطني، فقط

وذلك من أجل الالتفاف على أحاديث الرسول التي تشرح صفات المنافقين ببعض أعمالهم، في محاولة لتبييض صفحة بعض المنافقين من الصحابة، الذين انقلبوا على الشورى والأمة، حيث يقول الإمام أحمد: "النفاق هو: الكفر، أن يكفر بالله ويعبد غيره، ويُظهِر الإسلام في العلانية، مثل المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه فهو منافق " هذا على التغليظ، نرويها كما جاءت، ولا نفسرها ... ونحو هذه الأحاديث مما قد صح وحُفِظ، فإنا نُسَلم له، وإن لم نعلم تفسيرها، ولا نتكلم فيها، ولا نجادل فيها، ولا نفسّر هذه الأحاديث إلا مثل ما جاءت، لا

---

[٣٥٢] - قال شارح الطحاوية: "روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على علي، وعلى هذا عامة أهل السنّة". (شرح الطحاوية: ص ٤٨٦)، وقال ابن تيمية: "وهذه المسألة - مسألة عثمان وعلي - ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها". (الفتاوى: ١٥٣/٣) . القفاري، مسألةُ التّقريب ج١ ص ٣٠

نردها إلا بأحق منها ".[٣٥٣]

١٠- الخلط بين الصحابة، (المهاجرين والأنصار والطلقاء) والغض عن مساوئ المنافقين وجرائم بعضهم

حيث يقول الإمام أحمد: "من انتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أبغضه بحدث كان منه، أو ذكر مساوئه، كان مبتدعا، حتى يترحم عليهم جميعا، ويكون قلبه لهم سليما"، ويفسر الصحبة برؤية النبي ولو ساعة من الزمن: " أفضل الناس بعد هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، القرن الذي بعث فيهم. وكل من صحبه سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة، أو رآه فهو من أصحابه، له من الصحبة على قدر ما صحبه، وكانت سابقته معه، وسمع منه، ونظر إليه نظرة".[٣٥٤] وذلك ليدخل معاوية والطلقاء في جماعة الصحابة من المهاجرين والأنصار، ويمنع انتقاده.[٣٥٥]

١١- نصب العداء لأهل البيت

وكان تأثير العهد الأموي واضحا في موقف بعض "أهل الحديث" النواصب السلبي من الامام علي بن أبي طالب، حيث كانوا يعتبرون مجرد حب آل محمد نوعاً من الرفض، ولذلك كانوا يتهمون الامام الشافعي

---

[٣٥٣] – ابن حنبل، أحمد، أصول السنة.

[٣٥٤] – المصدر

[٣٥٥] – القاسم، ص ٢٥٣ الصحابة / معاوية. يقول ابن عرفة المعروف بنفطويه: إن أكثر الاحاديث في فضائل الصحابة قد افتعلت في أيام بني أمية تقربا اليهم بما يظنون انهم يرغمون أنوف بني هاشم، وقد صيغت باسلوب يجعل من كل صحابي قدوة صالحة لأهل الارض، وتصب على كل من سب أحدا منهم أو اتهمه بسوء، كما جاء فيما رووه عن أنس بن مالك (من سب أحدا من أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ومن عابهم أو انتقصهم فلا تواكلوه ولا تشاربوه ولا تصلوا عليه). ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ص ١٣ – ١٥ – ٦١ وفي الوقت الذي كان فيه الامام أحمد ينظر للكف عما فعل الصحابة والسكوت عما شجر بينهم، فان الخليفة العباسي المتوكل، الذي اعتبره الحنابلة "ناصر السنة" كان يقوم بالاستهزاء بالامام علي والسخرية منه، وإعلان البغض له. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٠٨

بالرفض، فضلاً عن غيره من الشيعة "المحبين" لأهل البيت. فقد قال له يحيى بن معين، يوماً: إن فيك بعض التشيع لأنك تظهر حب آل محمد، فقال: يا قوم ألم يقل رسول الله (ص):" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين"؟ أليس من الدين أن أحب قرابتي وذوي رحمي إذا كانوا من المتقين؟[٣٥٦] وعبر الامام الشافعي عن معاناته من هؤلاء المتطرفين (النواصب) في أبياته المعروفة:

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائضِ

إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي[٣٥٧]

وقد وجد الامام أحمد بن حنبل مشقة كبيرة في إقناع بعض أهل الحديث (ولا سيما النواصب) بخلافة الامام علي واعتباره رابع الخلفاء الراشدين. فقد دخل عليه رجل، حين أظهر التربيع بعلي، فقال: يا أبا عبد الله إن هذه اللفظة توجب الطعن على طلحة والزبير، فقال له: بين ما قلت وما نحن وحرب القوم نذكرها؟ فقال: أصلحك الله، انما ذكرناها حين ربعت وأوجبت له الخلافة، وما يجب للأئمة قبله، قال: وما يمنعني من ذلك؟ قال: حديث ابن عمر، فقال له: إن عمر حين طعن قد رضي عليا للخلافة على المسلمين وأدخله في الشورى، وعلي بن أبي طالب قد سمى نفسه أمير المؤمنين فأقول أنا ليس للمؤمنين بأمير؟ فانصرف عنه.[٣٥٨]

وفي الوقت الذي كان فيه بعض "أهل السُنَّة" يتردد في الاعتراف بخلافة الامام علي، كان بعضهم يثبت خلافة معاوية، كالقاضي أبو بكر بن العربي (٥٤٣ هـ)، الذي يقول: "معاوية خليفة وليس بملك، وقد نفذ الميعاد وصحت البيعة لمعاوية... فان قيل، فقد روي عن سفينة: أن النبي (ص) قال:"الخلافة ثلاثون سنة ثم يعود ملكا" فإذا عددنا من ولاية أبي بكر الى تسليم الحسن كانت ثلاثين لا تزيد ولا تنقص يوما، قلنا: هذا الحديث في ذكر الحسن بالبشارة "إبني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"

---

[٣٥٦] – الجندي، عبد الحليم، الامام الشافعي، ص ٢٠

[٣٥٧] **-** وكان أحمد بن حنبل يعتبر من يقدم عليا على عثمان "**رجل سوء**". الخلال، أبو بكر، السنة، ج ٢ ص ٣٨٢

[٣٥٨] – اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم:٢٦٧٠

والثناء عليه لجريان الصلح على يديه، أو تسليمه الأمر لمعاوية، عقد منه له، وهذا (الخلافة ثلاثون) حديث لا يصح، ولو صح فهو معارض بهذا الصلح المتفق عليه، فوجب الرجوع اليه". [٣٥٩]

ويضيف:" فلا تلفتوا الى أحاديث ضعف سندها ومعناها. ولو اقتضت الحال النظر في الأمور لكان – والله أعلم – رأي آخر للجمهور، ولكن انعقدت البيعة لمعاوية بالصفة التي شاءها الله، على الوجه الذي وعد به رسول الله مادحا له راضيا عنه". [٣٦٠]

ويدافع ابن العربي عن توريث معاوية الخلافة لابنه يزيد بالاستبداد، فيقول:"إن معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى، ولا يخص بها أحدا من قرابته... وانعقدت له البيعة شرعا، لأنها تنعقد بواحد، وقيل باثنين، فان قيل: لمن فيه شروط الامامة. قلنا: ليس السن من شروطها، ولم يثبت أنه يقصر يزيد عنها، فان قيل: كان منها العدالة والعلم، ولم يكن يزيد عدلا ولا عالما. قلنا: وبأي شئ نعلم عدم علمه، أو عدم عدالته؟". [٣٦١]

ورغم اعترافه بقتل معاوية لحجر بن عدي، الا ان ابن العربي يبرئه ويلقي باللوم على حجر فيقول: "قد علمنا قتل حجر كلنا، واختلفنا، فقائل يقول: قتله ظلما، وقائل يقول: قتله حقا. فإن قيل: الأصل قتله ظلما، إلا أن يثبت عليه ما يوجب قتله. قلنا: الأصل أن قتل الامام بالحق، فمن ادعى بالظلم فعليه الدليل". [٣٦٢]

كما كان تأثير العهد الأموي واضحاً أو أوضح، في موقف "أهل السُنَّة" من يزيد بن معاوية، قاتل الإمام الحسين بن علي، الذي نسجوا له حديثا عن الرسول يستغفر له ضمن من شارك في غزوة في بلاد الروم. والتردد في لعنه.

---

[٣٥٩] – ابن العربي، أبو بكر (٥٤٣ هـ) العواصم من القواصم، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ تحقيق الدكتور عمار طالبي ١٩٧٤، مكتبة دار التراث، القاهرة

[٣٦٠] – المصدر، ص ٣٢٥

[٣٦١] – المصدر، ص ٣٣٢

[٣٦٢] – المصدر، ص ٣٢٦

حيث يروى عن الإمام أحمد، روايتان يرفض في إحداهما لعن يزيد.[٣٦٣] ويقول في الأخرى: أن لا بأس بلعن يزيد بن معاوية. قال ابن كثير: "وهو رواية عن أحمد بن حنبل اختارها الخلال وأبو بكر بن عبد العزيز والقاضي أبو يعلى وابنه القاضي أبو الحسن. وانتصر لذلك أبو الفرج بن الجوزي في مصنف مفرد وجوز لعنته".[٣٦٤]

وقد بلغ التعصب لبني أمية لدى ابن العربي، الى درجة الدفاع عن يزيد والقاء اللوم على الامام الحسين في مقتله بكربلاء، بقوله: "ما خرج اليه أحد إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل... "إنها ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان" فما خرج الناس إلا بهذا وأمثاله".[٣٦٥]

١٢- صيام عاشوراء، والفرح بمقتل الإمام الحسين

على عكس الشيعة الذين يحتفلون بيوم عاشوراء حزنا على مقتل الامام الحسين، يقوم "أهل السُنَّة" بصيام يوم العاشر من مُحرّم من كل عام، بناء على حديث يروونه عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:"قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ مَا هَذَا قَالُوا هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى قَالَ فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ".

وبغض النظر عن صحة هذه الرواية، فان بعض "أهل السُنَّة" يتجاوزون موضوع الصوم، ليحتفلوا بيوم عاشوراء كيوم فرح ويعدونه عيدا سنويا، يوزعون فيه الحلوى، ويوصون بالتوسعة على العيال، بناء على رواية يروونها: "من وسع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته".

---

[٣٦٣] - قال صالح بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إن قوما يقولون إنهم يحبون يزيد، فقال: يا بني، وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ فقلت: يا أبت، فلماذا لا تلعنه؟ فقال: يا بني، ومتى رأيت أباك يلعن أحدا؟ ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٤٨٣/٤ وانظر نفس المعنى في منهاج السنة ٥٧٣/٤

[٣٦٤] - ابن كثير: البداية والنهاية 8/223 ولكن ابن تيمية يرى أن هذه الرواية لم تصح عن الإمام أحمد. منهاج السنة ٥٧٤/٤

[٣٦٥] - ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٣٣٨

وقد أنكر المحدث الألباني في كتابه.."تمام المنة" صحة هذا الحديث، وقال:" طرق الحديث مدارها على متروكين أو مجهولين ومن الممكن أن يكونوا من أعداء الحسين رضي الله عنه الذين وضعوا الأحاديث في فضل الإطعام والاكتحال وغير ذلك يوم عاشوراء معارضة منهم للشيعة الذين جعلوا هذا اليوم يوم حزن على الحسين رضي الله عنه لأن قتله كان فيه". ونقل قول المناوي عن المجد اللغوي أنه قال: "ما يروى في فضل صوم يوم عاشوراء والصلاة فيه والإنفاق والخضاب والإدهان والاكتحال بدعة ابتدعها قتلة الحسين رضي الله عنه".

وشرح المقريزي ذلك قائلاً:"لما زالت الدولة (الفاطمية) اتّخذ الملوك من بني أيّوب يوم عاشوراء يوم سرور ويوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم ويصنعون الحلاوات ويتّخذون الأواني الجديدة ويكتحلون ويدخلون الحمام، جرياً على عادة أهل الشام، التي سنّها الحجّاج في أيّام عبد الملك بن مروان، ليرغموا به آناف شيعة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي، لأنه قتل فيه وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيّوب، من اتّخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسّط ...".[٣٦٦]

ولا تزال حتى اليوم تُعقد في بعض البلاد السنية في يوم عاشوراء، الاحتفالات، وتوزع الأطعمة ويتبرك الناس فيه بالصلاه والصوم. وهذا من آثار الأمويين.

الفصل الثاني

العباسيون واستغلال المذاهب السنية

بالرغم من أن العباسيين كانوا يشكلون، في بداية حركتهم، فصيلا من الحركة الشيعية المعارضة للأمويين، إلا أنهم ساروا بعد انتصارهم على خطى الأمويين في إقامة نظام سياسي يقوم على القوة وتهميش الأمة والانفراد بالسلطة، وهو ما دفعهم الى استلهام الثقافة السياسية الأموية "السلطانية" وتطويرها بما يخدم

[٣٦٦] – المقريزي، الخطط المقريزيّة، ج١، ص ٤٩٠

مصالحهم، فبدأوا بالانقلاب على شعاراتهم وأهدافهم السياسية، وقاموا بعد حوالي مائة عام بدعم "المذهب السُنّي" على يد الامام أحمد بن حنبل. واستمرت رعايتهم له خلال القرون التالية حتى أصبحوا يشكلون العمود الفقري لذلك المذهب.

الأصول الرافضية للعباسيين

لم يكن العباسيون، لدى نشأتهم الأولى في القرن الثاني الهجري، فصيلا من الحركة الشيعية فقط، وإنما كانوا من المتطرفين "الرافضة" ولذلك لم تكن تربطهم بالمذهب السُنّي الوليد أية رابطة. فقد بايع مؤسس الدولة العباسية أبو جعفر المنصور، إمام الشيعة محمد بن عبد الله بن الحسن "النفس الزكية" في اجتماع "الأبواء" الذي ضم فروع بني هاشم المختلفة، ممثلا لفرع بني العباس مع أخيه ابراهيم الامام وعمهما صالح بن علي. ذلك الاجتماع التاريخي الذي مهد للثورة على الأمويين، بعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد سنة ١٢٥، وتحمس المنصور للنفس الزكية، حتى أنه بايعه مرة أخرى بالمسجد الحرام، وأمسك بركابه وراح ينادي: "هذا مهدينا أهل البيت".[٣٦٧] و"يا لثارات الحسين".

ونظراً لطموحات العباسيين بالسلطة، فقد كانوا يحاولون اكتساب الشرعية الدينية بالادعاء أنهم جزء من "العترة" التي يقولون أن النبي أوصى بالتمسك بها الى جانب القرآن، عندما قال: "إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي".[٣٦٨] حيث كان العباسيون يعتقدون بأنهم مع العلويين أبناء عم الرسول، وأنهم جميعا ينضوون تحت عنوان "العترة" لأنها حسب اللغة: تعني أقرباء الرجل، وتطلق على الأبناء وأبناء العم.

وكانوا يعتقدون أن أبا بكر وعمر وعثمان قد اغتصبوا الخلافة من الامام علي، أو من العباس، ويتبرأون منهم.

وعندما اعلن داود بن علي الدولة العباسية قال: "يا أهل الكوفة لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله إلا علي بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم، يعني أبا العباس السفاح (١٣٢ – ١٣٦هـ) ".[٣٦٩]

---

[٣٦٧] – الاصفهاني، أبو الفرج، مقاتل الطالبيين، ج١ ص ٦٥ موقع الوراق، www.alwarraq.com

[٣٦٨] – مسلم، باب فضائل علي بن أبي طالب، كتاب فضائل الصّحابة وسنن الترمذي ٣ | ٢٦

[٣٦٩] – تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤٣ و ٨٣، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص ٣١٨ و المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٢٥٢

ومن هنا اعتبر أبو الحسن الأشعري، شيعة العباسيين "الراوندية" الفرقة التاسعة من الرافضة. وقال: "زعموا أن النبي نص على العباس بن عبد المطلب، ونصبه إماما ثم نص العباس على إمامة ابنه عبد الله ونص عبد الله على امامة ابنه علي. ثم ساقوا الامامة الى ان انتهوا بها الى ابي جعفر المنصور، وهؤلاء هم الراوندية".[٣٧٠]

وعندما استلم العباسيون السلطة، وانفردوا بها؛ طالب محمد بن عبد الله النفس الزكية، المنصور (١٣٦ – ١٥٨هـ) بالوفاء له ببيعته، ورفض الاعتراف بشرعية الحكم العباسي.[٣٧١] فأعاد العباسيون تشكيل أيديولوجيتهم السياسية، وقالوا: إن رسول الله قبض، وإن أحق الناس بالامامة بعده العباس ابن عبد المطلب، لأنه عمه ووارثه وعصمته لقول الله عز وجل: "وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله" وإن الناس اغتصبوه حقه، وظلموه أمره، الى أن رده الله اليهم.[٣٧٢]

المنصور والمعتزلة

وهنا حاول المنصور أن يوثق العلاقة مع زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد (١٤٤هـ) فطلب منه مناصرة الدولة العباسية، ولكن عمرواً رفض الاستجابة له أو التعاون معه.[٣٧٣] وقال له: "إن أصحابي لا يأتونك، وهؤلاء الشياطين على بابك، فان أطاعوهم أغضبوا الله، وإن عصوهم أغروك وألّبوك عليهم".[٣٧٤]

---

[٣٧٠] – الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٢١

[٣٧١] – المصدر، ص ٦٧

[٣٧٢] – تاريخ الطبري، ج٦، ص ٤٣ و ٨٣، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص ٣١٨ و المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٢٥٢ وسعد بن عبد الله الاشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٦٧

[٣٧٣] – عيون الاخبار ١ ص ٢٠٩ تاريخ بغداد، ١٢ ص ١٦٨ العقد الفريد ٤ ص ٢٢٢

[٣٧٤] – فضل الاعتزال، ص ٢٤٩

واعترض عمرو بن عبيد على إسناد المنصور ولاية العهد لابنه محمد المهدي.[٣٧٥] فاتهمه المنصور بعلاقة ما مع محمد بن عبد الله النفس الزكية، الذي بدأ يعد العدة للثورة على المنصور. واستقطب المعتزلة برئاسة بشير الرحال.[٣٧٦]

وحاول المنصور، بعد افتراقه عن أبناء عمه العلويين وفشله في كسب المعتزلة، التقرب من الامام مالك، فطلب منه أن يكتب "الموطأ" ليكون بمثابة قانون للدولة العباسية. كما حاول في نفس الوقت التقرب من الإمام أبي حنيفة النعمان، وتوليته القضاء، لكنه رفض التعاون معه، وأيد ثورة إبراهيم بن عبد الله في البصرة، مما زاد من غضبه عليه، فألقى به في السجن .

ونتيجة لهذا الانشقاق الذي تعمد بالدم، ابتعد خليفة المنصور، محمد المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ) عن العلويين أكثر من أبيه، واتخذ موقفا سلبيا شديدا من الامام علي وبدأ يصفه بالجور، واعتبره واحدا من "الخلفاء المغتصبين للخلافة". وقال: "كان العباس عمه ووارثه وأولى الناس به، وان أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وكل من دخل في الخلافة وادعى الامامة بعد رسول الله غاصبون متوثبون بغير حق". ودعا شيعة بني العباس "الراوندية" الى هذه النظرية واخذ بيعتهم عليها.[٣٧٧]

ثم تدهورت علاقات العباسيين بالعلويين أكثر.. فأكثر.. بعد خروج الحسين بن علي (شهيد فخ) على الخليفة العباسي موسى الهادي سنة ١٦٩ في المدينة المنورة.[٣٧٨] ثم خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن في بلاد الديلم، على الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) مما أدى الى حدوث تحول لدى العباسيين نحو الاعتدال ونبذ التطرف "الرافضي" والتحرر من نظرياتهم الخاصة بشأن الإمامة والوصية، باتجاه أهل الحديث، وما سيعرف لاحقا "بالمذهب السني".

ونجح المهدي العباسي، باقناع تلميذ أبي حنيفة، أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري (١٨٢هـ) بتولى منصب القضاء، وتولية القضاة في جميع ولايات الدولة، وهو ما فتح أول علاقة بين النظام العباسي والمذهب الحنفي، حيث سمح ذلك لأبي يوسف بنشر المذهب الحنفي على نطاق واسع، وتولية القضاة الأحناف.

---

[٣٧٥] – مروج الذهب، ص ٢٨٦

[٣٧٦] – ابن قتيبة، عيون الاخبار ١ ص ٢٠٩

[٣٧٧] – المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٢٥٢

[٣٧٨] – تاريخ الطبري ج٤ ص ٥٩٧ و تاريخ ابن خلدون، سنة ٦٦

واستمر أبو يوسف في منصبه الى عهد الخليفة هارون الرشيد، الذي كتب له كتاب (الخراج) الشهير.[٣٧٩]

واضطر أبو يوسف وتلامذته اللاحقون الى التنازل عن الفكر السياسي الذي كان يؤمن به الإمام أبو حنيفة، والقائم على الشورى والبيعة بالرضا، والاعتراف بدلا من ذلك بشرعية المتغلب، والوراثة في الخلافة.[٣٨٠]

وكان لحاجة العباسيين الى قاعدة شعبية عريضة، دور كبير في تحول العباسيين من التطرف "الرافضي" باتجاه أهل الحديث واحترام الخلفاء الثلاثة، والتحرر من نظرياتهم الخاصة بشأن الإمامة والوصية.[٣٨١]

العباسيون و"أهل الحديث"

وكانت علاقة الخلفاء العباسيين الأوائل (السفاح والمنصور والمهدي والهادي) مع "أهل الحديث" ضعيفة في البداية، في حين لم يكن هؤلاء (المحدثون) قد تطوروا بعد الى مذهب واضح المعالم باسم "أهل السنة". ولكن العباسيين وجدوا في أحاديثهم مصلحة كبرى في تدعيم نظامهم، كالحديث الذي يقول إن رسول الله (ص) دعا للعباس بدعاء قال فيه: "واجعل الخلافة باقية في عقبه". (رواه الترمذي) أو أنه قال:" يخرج رجل من اهل بيتي عند انقطاع الزمان وظهور الفتن، يقال له السفاح". (رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري).[٣٨٢]

---

[٣٧٩] – وكتب في مقدمته:" ان أمير المؤمنين – هارون الرشيد- سألني أن أضع له كتابا شاملا يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات، وغير ذلك مما يجب العمل به". الأنصاري، فاضل، قصة الطوائف.. الاسلام بين المذهبية والطائفية (٢٠٠٠) ص ١٠٢ دار الكنوز الأدبية بيروت لبنان، ط١

[٣٨٠] – الأنصاري، فاضل، قصة الطوائف.. الاسلام بين المذهبية والطائفية (٢٠٠٠) ص ١٧١

[٣٨١] – يقول ابن كثير في وصفه للرشيد:" لقد كان الرشيد – رحمه الله – على طريقة أهل السنة من التعظيم والتسليم لسنة رسول الله" . آل عبد اللطيف، الاعتقاد القادري، مجلة أم القرى، ص ٢٢٩

[٣٨٢] – وكذلك مثل الأحاديث المضادة للجنود الأتراك:"ان الترك أول من يسلب أمتي ما خولوا". أو "ليكونن الملك او الخلافة في ولدي، حتى يغلبهم على عزهم الحمر الوجوه، الذين كأن وجوههم المجان المطرقة". أو " لا تقوم الساعة حتى

وكما يقول الدكتور فاضل الأنصاري (٢٠٠٠م):" وجد العباسيون في علوم "الحديث" آفاقا رحبة أتاحت لهم الوراثة الأيديولوجية للحكم بما نسب للرسول من أحاديث في تسويغ خلافتهم وإثبات حقوقهم فيها دون الآخرين. وبذلك جهدوا في تقريب عدد من الفقهاء".[٣٨٣]

وقام الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) بتشجيع رواية الأحاديث في مقابل المعتزلة وأهل الرأي، وتقديم مكافآت مالية لمن يأتي بحديث، فكان أن حصلت موجة عارمة من رواية الأحاديث ونشط الناس في اختلاق الروايات والأحاديث، ونسبتها الى النبي الأكرم، وقد أوصل معظم جامعي الأحاديث عدد التي جمعوها الى مئات الألوف، قبل اختيارهم لبضعة آلاف منها. [٣٨٤]

وكان هارون الرشيد، قد قام بحملة اعتقالات ضد المعتزلة وغيرهم، من المتكلمين القائلين بالكلام الدقيق (الفلسفة) بالترافق مع انقلابه سنة ١٨٧هـ على البرامكة.[٣٨٥] الذين كانوا يفتحون مجالسهم للمناظرات الكلامية. [٣٨٦] وذلك بتأثير من أهل الحديث أو السُنَّة، الذين كانوا يكفرون المعتزلة والقدرية والقائلين بخلق القرآن.[٣٨٧] واتفق الرشيد مع الإمام أحمد في إطلاق صفة (الزندقة) على من يقول بخلق القرآن.

يجيء قوم عراض الوجوه صغار الأعين، فطس الأنوف، حتى يربطوا خيولهم بشاطيء دجلة". أبو رية، محمود، أضواء على السنة المحمدية، ص ١٣٥ – ١٣٦

[٣٨٣] – الأنصاري، قصة الطوائف.. ، ص ٥٩

[٣٨٤] – وقد جمع الامام أحمد بن حنبل في مسنده حوالي اربعين ألفا، وقام البخاري بجمع ستمائة ألف حديث من أفواه الرجال، الا انه لم يختر منها سوى أربعة آلاف، وكذلك فعل مسلم الذي جمع كمية هائلة من الأحاديث مشابهة، واختار قسما ضئيلا منها.

[٣٨٥] – تاريخ الطبري ج٤ ص٦٢٠ و ص ٦٦٤

[٣٨٦] – الخيون، معتزلة البصرة وبغداد، ص ١٨٨

[٣٨٧] – البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق، ص ٣٢٠ وابن الجوزي، مناقب احمد بن حنبل، ص ٢٠٧،

يقول اللالكائي: بلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن فقال: لئن ظفرت به لأضربن عنقه، أو إلا قتلته قتلة ما قتلتها أحدا قط.[٣٨٨] وحسبما يقول ابن كثير: فان الرشيد تتبع في سنة ١٧٠ خلقا من الزنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة.[٣٨٩]

ولم يكتف الرشيد بدعم أهل الحديث، وإنما أطلق لهم حرية واسعة في رواية الأحاديث، واعتبر من يرد أي حديث أو يشكك به، أو يتساءل عن صحته، زنديقا يحل قتله. [٣٩٠]

انقلاب المأمون على أهل السنة، واقترابه من الشيعة والمعتزلة

وما أن توفي الرشيد، واستولى ابنه عبد الله المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ) على السلطة، حتى انقلب على سياسة التقارب مع أهل الحديث، وقام بالاقتراب من الشيعة، فعين الامام علي بن موسى الرضا (٢٠٢هـ) ولياً لعهده، إلا انه توفي بعد سنتين في ظروف غامضة. وتبنى المأمون موقفا تاريخيا شيعيا من الصراع بين الامام علي ومعاوية، إذ أمر سنة ٢١١، أن يُنادى:" برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير، وإن أفضل الخلق بعد النبي عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب".[٣٩١] ويقال إنه عزم على شتم معاوية على المنابر، قبل أن يتراجع خوفا من ثورة العامة.[٣٩٢]

---

[٣٨٨] – اللالكائي، اعتقاد أهل السنة، ١، ص ١٢٧ و السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٤ موقع الكتاب الاسلامي www.Islamicbook.ws

[٣٨٩] – ابن كثير، ج ١٣ ص ٥٦٢

[٣٩٠] – تنقل المصادر التاريخية عن رجل يقال له (أبو معاوية الضرير) أنه حدث يوما في مجلس الرشيد حديث (احتجاج آدم وموسى) وعنده رجل من وجوه قريش (عمه) فقال القريشي: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد، وقال: النطع والسيف.. زنديق يطعن في حديث النبي (ص) .(السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٥) وعندما اعتذر القرشي قال الرشيد:انما توهمت أنه طرح اليه بعض الملحدين هذا الكلام الذي خرج منه، فيدلني عليه فأستبيحهم، والا فأنا على يقين أن القرشي لا يتزندق.(الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٢٥)

[٣٩١] – السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٦

[٣٩٢] – ابن طيفور، كتاب بغداد ص ٥٤/ عن الخيون، رشيد، معتزلة البصرة وبغداد، ص ١٨٤

ومن جهة أخرى، أعلن المأمون "الاعتزال" مذهبا رسميا للدولة العباسية عام ٢١٢ وانحاز الى جانب المعتزلة في قولهم بخلق القرآن، ضد أهل الحديث، أو أهل السُنَّة بزعامة أحمد بن حنبل.

وقام بتعميم الرسائل الى نوابه وولاته يحثهم فيها على امتحان القضاة بمسألة "خلق القرآن" ومنها رسالته الى نائبه في بغداد إسحاق بن ابراهيم الخزاعي، عام ٢١٨، التي جاء فيها: " إجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم بما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه... وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه، وذلك انهم ساووا بين الله وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على انه قديم لم يخلقه الله ويخترعه... **ثم انتسبوا الى السُنَّة، وأظهروا أنهم اهل الحق والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر**، فاستطالوا بذلك وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله الى موافقتهم فتركوا الحق الى باطلهم... فمن لم يجب أنه مخلوق فامنعه من الفتوى والرواية.. فان تاب فاشهر أمره، **وان أصرَّ على شركه**، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وابعث الينا برأسه".[٣٩٣]

وقد اتهم القاضي المعتزلي ابن أبي دؤاد، المحدثَ أحمدَ بن نصر الخزاعي، أمام الخليفة الواثق بالله (٢٢٧ – ٢٣٢هـ) بأنه كافر يستتاب.[٣٩٤] واتهم بالإعداد للخروج على السلطان لبدعته ودعوته الى القول بخلق القرآن. فقتل وصلب وعلق في أذنه رقعة كتب فيها:"هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك، ممن قتله الله على يد عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة فأبى الا المعاندة، فعجل الله به الى ناره وأليم عذابه".[٣٩٥]

---

[٣٩٣] – الطبري ج ٨ ص ٦٤٧ – ٦٤٨ والسيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٧

[٣٩٤] – تاريخ ابن خلدون، سنة ٢٣٠

[٣٩٥] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠ سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

المتوكل وأهل السُنَّة (الحنابلة)

وما أن توفي الواثق، وجاء بعده المتوكل بن المعتصم (٢٣٢ – ٢٤٧هـ) حتى قام بانقلاب فكري كبير آخر، فحارب المعتزلة ونصر "أهل السُنَّة" (الحنابلة) ورفع المحنة عنهم، وأطلق سراح الامام أحمد بن حنبل. وأمر عام ٢٣٤ بإبطال القول بخلق القرآن، وتوجيه ولاة الأمصار بمنع الجدل كليا في أي شأن يتعلق بالله، واشهار أقسى العقوبات بحق المخالفين.

يقول ابن كثير: لما ولي المتوكل على الله الخلافة، استبشر الناس بولايته، فانه كان محبا للسُنَّة وأهلها، ورفع المحنة عن الناس، وكتب الى الآفاق، لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن.[٣٩٦]

وكتب بالمنع من الكلام في مسألة الكلام، والكف عن القول بخلق القرآن، وان من تعلم علم الكلام لو تكلم فيها فالمطبق مأواه الى أن يموت، وأمر الناس الا يشتغل أحد الا بالكتاب والسُنَّة لا غير.

ثم أظهر إكرام الامام احمد بن حنبل، وارتفعت السُنَّة جدا في أيام المتوكل، عفا الله عنه، وكان لا يولي أحدا الا بعد مشورة الامام احمد.[٣٩٧]

وكما يقول السيوطي:" ان المتوكل أظهر الميل الى السُنَّة ونصر أهلها ورفع المحنة، وكتب بذلك الى الآفاق، وذلك في سنة اربع وثلاثين، واستقدم المحدثين الى سامراء وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرصافة، فاجتمع اليه نحو من الثلاثين ألف نفس (؟)، وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور، فاجتمع اليه ايضا نحو من ثلاثين الف نفس (؟) وتوفر دعاء الخلق للمتوكل، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له، حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: ابو بكر

---

[٣٩٦] – المصدر، ٣٣٧/١٠

[٣٩٧] – المصدر، ٣١٦/١٠،

الصديق رضي الله عنه في قتال أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السُنَّة وإماتة التجهم".[398]

وبالرغم من أن معركة "أهل السُنَّة" الرئيسية لم تكن ضد الشيعة، وانما ضد أهل البدعة والتجهم والاعتزال، إلا أن الانقلاب الذي قاده المتوكل ضد الثقافة الاعتزالية، اتسم – أيضا – بطابع معاد للشيعة ولأهل البيت، فقام بهدم قبر الحسين سنة ٢٣٦هـ وأصدر أمرا بمنع زيارته، وهدم ما حوله من منازل وأن يحرث ويبذر ويمنع الناس من إتيانه، ونادى صاحب الشرطة في الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به الى المطبق (السجن).[399]

تخلي العباسيين عن الحنابلة

ولكن خلفاء المتوكل لم يظهروا التزاما قويا ودائما بالنظرية التاريخية السُنّية، ولم يشعروا بحاجة كبيرة للتحالف مع أهل السُنَّة (أو الحنابلة) وخاصة بعد أن فقدوا السلطة الحقيقة في مواجهة الموالي والعساكر الأتراك، الذين قتلوا عددا من الخلفاء كالمعتز (٢٥٥هـ) والمهتدي (٢٥٦هـ) والمقتدر (٣٢٠هـ) وخلعوا عددا آخر منهم، وسملوا أعينهم، وهيمنوا على شؤون الخلافة.[400] وكذلك في مواجهة الثورات المختلفة في الأطراف. ونتيجة لذلك، فقد تخلى بعض الخلفاء العباسيين كالمعتضد (٢٧٩– ٢٨٩هـ) عن التحالف مع

---

[398] – وقال ابو بكر ابن الخبازة في ذلك:وبعد، فان السنَّة اليوم أصبحت معززة حتى كأن لم تذلل، تصول وتسطو اذ أقيم منارها وحط منار الإفك والزور من عل، وولى أخو الابداع في الدين هاربا الى النار يهوي مدبرا غير مقبل، شفى الله منهم بالخليفة جعفر خليفته ذي السنة المتوكل". السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ٣٢٠

[399] – الطبري ج٧ ص ٣٦٥ و قام المتوكل في سنة اربع واربعين بقتل يعقوب بن السكيت، الامام في العربية، بعدما ندبه الى تعليم أولاده، وذلك عندما نظر المتوكل يوما الى ولديه المعتز والمؤيد فقال لابن السكيت: من أحب اليك هما أو الحسن والحسين؟ فقال: قنبر – يعني مولى علي – خير منهما، فأمر الأتراك فداسوا بطنه حتى مات، وقيل: أمر بسل لسانه فمات. السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص٣٢١– ٣٢٢

[400] – قام قائدا الأتراك (وصيف) و(بغا) بقتل (باغر) الذي قتل المتوكل، وجاءا بالمستعين الى سدة الخلافة، والسيطرة عليه، بحيث لم يكن له من الأمر شيء غير الاسم، حتى قال بعض الشعراء فيه:" خليفة في قفص بين وصيف وبغا، يقول ما قالا له كما يقول الببغا". المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٠ – ٦١

"أهل السُنَّة". ومال إلى الشيعة كثيرا، وقرب إليه آل أبي طالب، وعزم في سنة ٢٨٤ على لعن معاوية على المنابر، كما يقول السيوطي، فخوفه عبيد الله الوزير اضطرابَ العامة، فلم يلتفت، وكتب كتابا في ذلك، ذكر فيه كثيرا من مناقب علي، ومثالب معاوية، ثم تراجع عنه في النهاية خوفا من استغلال العلويين المعارضين له.[٤٠١]

وقد قام الخليفتان القاهر (٣٢٠ – ٣٢٢هـ) والراضي (٣٢٢ – ٣٢٩هـ) بالضغط على إمام أهل السُنَّة في القرن الرابع، الحسن بن علي البربهاري، وحاولا اعتقاله فهرب واختفى وتوفي في الاستتار سنة ٣٢٩.[٤٠٢]

ثم ابتعد الخلفاء العباسيون عن دعم المذهب السُنّي، أكثر، بعدما سيطر البويهيون (الشيعة) على مقاليد السلطة في عاصمة الخلافة العباسية بغداد سنة ٣٣٤، حيث أخذوا ينصبون الخلفاء ويعزلونهم.[٤٠٣] كما كان يفعل الأتراك السُنَّة.

وفي خضم هذا الصراع على السلطة عمد البويهيون إلى دعم الدعوة الشيعية في مواجهة العباسيين، وتجريدهم من شرعيتهم الدستورية التي كانوا يدعونها بحق جدهم العباس ووصية النبي له بالخلافة، وذلك بالاحتفال بيوم الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة، وهو اليوم الذي يقول الشيعة أن النبي الأكرم قد عيَّن فيه الامام علي خليفة من بعده، وكذلك الاحتفال بيوم عاشوراء. مما كان له أثر كبير في عودة الخلفاء

---

[٤٠١] – السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٤٤

[٤٠٢] – أمر الخليفة القاهر وزيره ابن مقلة في سنة ٣٢١ بالقبض على البربهاري وأصحابه، فاستتر، وقبض على جماعة من كبار اصحابه. ثم تقدم الخليفة الراضي سنة ٣٢٩ الى بدر الحرسي بالركوب والنداء ببغداد: أن لا يجتمع من اصحاب البربهاري نفسان، فاستتر وتوفي في الاستتار. البربهاري، شرح السنة، ص ١٣ – ١٤

[٤٠٣] – دخل احمد بن بويه (معز الدولة) بغداد بتواطؤ من الخليفة المستكفي للخلاص من الاتراك.. واصبح الجيش متكونا من الديالمة والجيلان والترك معا. ولم تمض بضعة شهور على دخولهم بغداد حتى خلعوه بعد ان سملوا عينية وسحبوه وعمته في رقبته الى المعتقل ليبايعوا عام ٣٣٤ ابن عمه المطيع الذي اجبروه على خلع نفسه، بعد ذلك، عام ٣٦٣، كما قاموا أيضا باحتجاز الخليفة الطائع عبد الكريم سنة ٣٨١ وإرغامه على الاستقالة. المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٧٧

العباسيين لتبني المذهب السُنّي وتطويره في مواجهة البويهيين والفاطميين الذين حكموا شمال افريقا والشام والحجاز، وبدأوا يهددون عرش العباسيين في بغداد.

وسوف نتحدث بالتفصيل عن هذه المرحلة في الفصل التالي.

الفصل الثالث

القادر بالله العباسي: توحيد المذاهب السنية في مواجهة الشيعة

هذا الفصل امتداد للفصل السابق (العباسيون واستغلال المذهب السُنّي) وقد أفردناه لأنه يشكل محطة رئيسية مهمة وتاريخية في تطور المذاهب السُنّية واندماجها في إطار واحد، وتوجهها للصراع ضد عدو مشترك هم الشيعة، بعدما كان الصراع سابقا داخل ما سمي بالمذاهب السُنّية، ولا سيما بين الأحناف والحنابلة، وبعدما كانت الجماهير المسلمة (السُنّية والشيعية) تخوض متحدة صراعات حيوية ضد الأنظمة الظالمة بغض النظر عن أسمائها وهوياتها الطائفية، كما حدث في ثورة الامام محمد بن عبد الله "النفس الزكية" في منتصف القرن الثاني الهجري.

رأينا في الفصل السابق: أن علاقة الخلفاء العباسيين "بأهل السُنَّة" كانت متذبذبة، فبعد أن كان الخلفاء العباسيون الأوائل (السفاح والمنصور والمهدي والهادي) يتبنون الفكر "الرافضي" إقترب بعضهم (كالمهدي والرشيد) من أهل الحديث، بينما أيد بعض آخر (كالمأمون والمعتصم والواثق) المعتزلة، في حين تبنى (المتوكل) مذهب "أهل السُنَّة" (الذي كان يعني في ذلك الحين "الحنابلة" فقط) وظل العباسيون مذبذبين بين أهل السُنَّة والشيعة، خلال القرن الثالث والرابع، خصوصا بعد هيمنة البويهيين الشيعة عليهم.

ولكن الصورة تغيرت مع إجبار البويهيين للخليفة المطيع على الاستقالة، سنة ٣٨١ وتعيين القادر بالله، الذي وجد نفسه يواجه خطرين جديين هما البويهيون في الداخل، بعد تصعيدهم للخطاب الشيعي المعادي

للعباسيين، والفاطميين في الخارج، بعد اقترابهم من بغداد، وتهديدهم الكبير لوجود الدولة العباسية. وهذا ما دفع الخليفة القادر الى اتباع استراتيجية جديدة في مقاومة الخطرين، وتأليف جبهة سُنّية عريضة تضم (الأحناف والحنابلة والشافعية والمالكية) وتذويب الخلافات الداخلية بين المذاهب السُنّية، وتوحيدها في مواجهة الشيعة (الزيدية والاسماعيلية بصورة رئيسية، والاثني عشرية، بدرجة أقل) وهذا ما سنبحثه في هذا الفصل.

قام النظام العباسي منذ نشوئه على أكتاف الفرس، عسكريا وإداريا، الى أن قرر المتوكل الاستعانة بالأتراك، والاستغناء عن الفرس، فوقع النظام العباسي تحت رحمة الجنود (والسلاطين) الأتراك في القرن الثالث الهجري، ثم عاد الفرس (البويهيون) للسيطرة على النظام العباسي من عام ٣٣٤ الى منتصف القرن الخامس، حيث عاد الأتراك (السلاجقة) للتحكم بالخلفاء العباسيين والهيمنة عليهم قرنا آخر من الزمن. ولكن سيطرة "البويهيين" خلال القرنين الرابع والخامس، كانت تختلف عن سيطرة أسلافهم الفرس في العهد العباسي الأول، كما كانت تختلف عن سيطرة الأتراك في القرن الثالث والخامس والسادس، وذلك لأن الفرس السابقين والأتراك كانوا يهيمنون على الدولة العباسية وعلى الخلفاء العباسيين، ولكن بدون مشروع فكري سياسي، ولا عقيدة مخالفة لعقيدة العباسيين، بينما اقتحم "البويهيون" بغداد وهم يحملون مشروع القضاء على النظام العباسي، وإذا كانوا قد تنازلوا عن مشروعهم قليلا بالمحافظة على الخلفاء كمجرد ديكور، وأداة طيعة في أيديهم، فإنهم عملوا بجد لتقويض أسس النظام العباسي فكريا وثقافيا، بالعقيدة الشيعية، ولذلك فقد كانت ردة فعل بعض الخلفاء العباسيين ضد البويهيين شاملة وقوية.

وقد زاد المعركة اشتعالا قيام النظام الفاطمي في شمال أفريقيا (في نهاية القرن الثالث) وامتداده الى الجزيرة العربية والشام، واقترابه من العراق (في أواسط القرن الخامس) وتهديده بالسيطرة على بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

وسنقوم في الصفحات التالية بإلقاء بعض الضوء على دور "البويهيين" و"الفاطميين" في تحدي النظام العباسي جذريا، ورد فعل هذا النظام ضدهم.

١- البويهيون

"بنو بويه" هم ثلاثة إخوة (علي والحسن وأحمد) أبناء (أبي شجاع بويه) أسسوا (الدولة البويهية) في ظل الخلافة العباسية، عام ٣٢١هـ في فارس، ثم امتدوا إلى العراق عام ٣٣٤هـ حتى سقوطهم على أيدي السلاجقة عام ٤٤٧ هـ. سيطروا في البداية على جنوب فارس، وكان علي (عماد الدولة) أمير الأمراء، وحكم شيراز من سنة ٣٢٢ الى ٣٣٨، فيما سيطر أخوه الحسن (٣٦٦هـ) على الري واصفهان، ثم أصبح أمير الأمراء بعد وفاة أخيه علي.

وقام أحمد (٣٥٦هـ) بفتح بغداد، في الحادي عشر من جمادى الثاني ٣٣٤هـ/٩٤٥م دون مقاومة تذكر، حيث لقي الخليفة العباسي المستكفي وتبايعا، ولقبه الخليفة بـ (معز الدولة) ولقب أخاه الأكبر علي بـ (عماد الدولة) وأخاه الثاني الحسن بـ (ركن الدولة)، وسيطرت هذه الأسرة (البويهية) على الخلافة العباسية لمدة تزيد على مائة عام .[٤٠٤]

ويذكر المؤرخون إن (بني بويه) كانوا في البداية شيعة زيدية يعتقدون بأن العباسيين مغتصبون للخلافة من مستحقيها "أهل البيت" بصورة عامة، وإن أحمد بن بويه أراد بعد احتلاله بغداد، نقل الخلافة الى الإمام أبي الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي، لكنه عدل عن ذلك. وفضل التعايش مع العباسيين، بالرغم من هيمنته عليهم. كما يذكرون سببين رئيسيين للإحجام عن إسقاط عرش بني العباس:

---

[٤٠٤] - وقد حكم من "آل بويه" بغداد أحد عشر حاكما، (ما عدا الحسن ركن الدولة) هم:

١- معز الدولة أحمد بن بويه – **٣٥٦هـ /٩٥٦م**

٢- عز الدولة أبو منصور بختيار بن أحمد – **٣٥٧هـ /٩٦٧م**

٣- عضد الدولة أبو شجاع فنا خسرو بن ركن الدولة – **٣٦٨هـ /٩٧٨م**

٤- صمصام الدولة مرزبان بن عضد الدولة – **٣٧٣هـ/ ٣٨٣م**

٥- شرف الدولة شرزيل بن عضد الدولة – **٣٧٧هـ/٩٨٧م**

٦- بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة – **٣٨٠هـ /٩٩٠م**

٧- شرف الدولة أبو شجاع فنا خسرو بن بهاء الدولة – **٤٠٤هـ /١٠١٣م**

٨- جلال الدولة أبو طاهر فيروزجرد بن بهاء الدولة – **٤١٦هـ/١٠٢٥م**

٩- العزيز أبو منصور شيرزيل بن جلال الدولة – **٤٣٦هـ /١٠٤٤م**

١٠- أبو كاليجار مرزبان بن شرف الدولة – **٤٣٧هـ/٢٠٤٥م**

١١- الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن أبي كاليجار- **٤٤١هـ /١٠٤٩م**

أولهما: الخوف من ردة فعل المسلمين "السُنَّة" كما يقول البيروني بأن"زعماء الأمصار قد اعتادوا الدولة العباسية، ودانوا بدولتهم وأطاعوهم طاعة الله ورسوله وأرادوهم أولي الأمر".[٤٠٥]

الثاني: الخوف من هيمنة الإمام الزيدي على السلطة، والقضاء على البويهيين، كما يقول ابن الأثير "انصبت نصائح الخاصة لأحمد بن بويه بالامتناع عن تغيير الخلافة العباسية، فاليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس أهلا للخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه، مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة، كان معك من يعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا، فأعرض عن ذلك".[٤٠٦] وأن الوزير أبا جعفر الصيمري نصح الأمير البويهي بعدم تنفيذ تلك الفكرة قائلا له:"اذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان وأطاعه الديلم، ورفضوك وقبلوا أمره فيك".[٤٠٧]

وهكذا فضل البويهيون التعايش مع الدولة العباسية الضعيفة، حيث كانوا يفرضون سيطرتهم على الخلفاء فيعزلون منهم من يشاءون ويعينون من يشاءون. وعندما استولى البويهيون على الدولة العباسية، قام معز الدولة بالحجر على الخليفة المستكفي بالله (٣٣٣- ٣٣٤) الذي استدعاه الى بغداد لينقذه من الاتراك، ثم خلعه من الخلافة، وألقى به في السجن حتى الموت، وبايع المطيع (٣٣٤ – ٣٦٣) بدلاً منه.[٤٠٨] ولم يحضَ هذا (الخليفة) من أمر الخلافة سوى بالخطبة يوم الجمعة.[٤٠٩] وظل المطيع خليفة بالاسم فقط، إلى أن أجبر على الاستقالة لصالح ابنه الطائع عبد الكريم (٣٦٣ – ٣٨١).[٤١٠]

---

[٤٠٥] - البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٢٣

[٤٠٦] - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢ ص ٣١٥، طبعة ١٣٥٣هـ وج ٦ ص ٤٢٥

[٤٠٧] - مسكويه، ابو علي أحمد بن يعقوب (-٤٥١)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج٢ ص ٨٧ عن الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ٢٤٥

[٤٠٨] – السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٦٧ – ٣٦٨ و القلقشندي، مآثر الانافة، ج١ ص ٢٩٩-٣٠١

[٤٠٩] – السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٧٢

[٤١٠] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج١ ص ٣٠٣

وقام الطائع بتتويج عضد الدولة البويهي فنا خسرو، وفوض إليه السلطة كاملة، قائلا:" قد رأيت أن أفوض إليك ما وكل الله إليَّ من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها، وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي، فتولَّ ذلك".[٤١١]

وبعد وفاة عضد الدولة قام الطائع بتفويض فخر الدولة البويهي (علي بن ركن الدولة) الذي كان يحكم بلاد فارس، تفويضا كاملا، وجاء في عهده ما يلي:" هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة... فقلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي وسائر وجه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والغيار في دور الضرب والطرز والحسبة".[٤١٢]

وفي الحقيقة لم يكن الطائع يملك من أسباب السلطة شيئا، وإنما كان يقوم بتفويض السلطنة بصورة رسمية إلى من يمتلكها فعلا، ولذلك فلم يكن يسلم على نفسه ومنصبه الذي يعين فيه تعيينا من قبل البويهيين، حيث قام بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة (٤٠٣-٣٧٩)، بإلقاء القبض عليه وأجبره على الاستقالة.[٤١٣]

وعين مكانه القادر بالله (٣٨١ – ٤٢٢) بعد أن حلف له بالوفاء والاخلاص.[٤١٤] ليقوم هذا بتقليد بهاء الدولة كل الأمور السياسية فيما وراء بابه.[٤١٥] ثم تقليد خلفه شرف الدولة أبي شجاع فنا خسرو، ثم جلال الدولة أبي طاهر فيروز.

ولما توفي القادر، وتولى ابنه القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ) الخلافة، كانت السلطة بيد جلال الدولة أبي طاهر فيروز بن بهاء الدولة، فقام القائم بتفويض الأمر إليه.[٤١٦]

---

[٤١١] – السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٧٧

[٤١٢] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج٣ ص ١٢

[٤١٣] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج١ ص٣١١ – ٣١٤ و السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٧٩

[٤١٤] – ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ص ٦٤

[٤١٥] – السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٨٠

[٤١٦] – القلقشندي، مآثر الانافة ، ج١ ص ٣٣٤ والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٨٠

٢- الفاطميون

وفي الوقت الذي كان فيه البويهيون الشيعة (الزيدية أو الامامية) يسيطرون على دولة الخلافة العباسية في العراق وفارس، في القرن الرابع الهجري، كان جناح شيعي آخر هو الجناح الإمامي الاسماعيلي، الذي ينحدر من اسماعيل بن جعفر الصادق، يسيطر على اليمن منذ سنة ٢٦٦ هـ بزعامة (الحسين بن حوشب) الذي استطاع ان يؤسس أول دولة إسماعيلية في التاريخ، ويجمع حوله عددا كبيرا من قبائل اليمن، ويظهر بينهم الدعوة لـ (المهدي الإسماعيلي) الذي كان يعيش مستترا في مدينة سلمية في سوريا.

ثم أرسل ابن حوشب: الداعي (أبا عبد الله الشيعي) الى شمال أفريقيا للدعوة الى الإمام الإسماعيلي المستتر (عبيد الله المهدي) .

واستطاع أبو عبد الله في ظل ضعف الدولة العباسية، أن يكسب تأييد قبيلة كتامة، ويسيطر على المغرب ويكتسح نفوذ بني الأغلب، ويقضي على دولتهم في القيروان في تونس عاصمة أفريقية، ويؤسس الدولة الفاطمية، في سنة ٢٩٦، ليمتد بعدها الى مصر عام ٣٥٩ هـ، وبعد أربع سنوات أي في عام ٣٦٣ هـ دخل الفاطميون دمشق، وخُطب لهم على منابر الحرمين في الحجاز .

وفي الرابع من محرم ٤٠١ أعلن أمير الموصل حسام الدين قرواش العقيلي الولاء للفاطميين وخطب للحاكم بأمر الله الفاطمي، في الأعمال التابعة له كالموصل والأنبار والمدائن والكوفة.[٤١٧] مما هدد الدولة العباسية بصورة جدية وخطيرة.

وبينما كان البويهيون يشددون قبضتهم على السلطة في بغداد، والفاطميون يزحفون للقضاء على الدولة العباسية من الخارج، قام الطرفان بمحاولة لسحب الشرعية الدستورية من العباسيين بالتركيز على يوم الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة (وهو يوم تعيين النبي للامام علي خليفة له من بعده، في حجة الوداع، حسب الرواية الشيعية) والاحتفال به كعيد اسلامي ثالث الى جانب عيدي الفطر والأضحى، وكذلك الاحتفال الحزين بيوم عاشوراء ذكرى مقتل الامام الحسين بن علي في كربلاء في ١٠ محرم ٦١ للهجرة، كمناسبة للتعاطف مع أهل البيت والثأر من أعدائهم.

[٤١٧] - فلما بلغ الخبر الخليفة القادر كتب يعاتب قرواش، وعزم على محاربته فرجع وأعاد الخطبة للقادر.

فقد أمر (معز الدولة) في سنة ٣٥٢هـ الناس بغلق الأسواق في بغداد، وإقامة المآتم حزنا على مقتل الامام الحسين. وكذلك فعل الفاطميون في مصر، ثم قام (بهاء الدولة) (٣٧٩-٤٠٣) بدعم نشاطات الدعوة الشيعية، وأسس الوزير سابور بن اردشير في عام ٣٨٣ داراً للعلم في محلة الكرخ الشيعية، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، وضم اليها أساتذة من علماء الامامية المشهورين، في محاولة لنشر وترسيخ الفكر الإمامي.[٤١٨]

وفي الوقت الذي كان البويهيون يسلمون بالخلافة العباسية كأمر واقع، فإن الفاطميين كانوا يحملون أيديولوجية سياسية فكرية مناقضة تماما، تتمثل في عقيدة الإمامة الإلهية والنص على الامام علي بالخلافة، وحقهم بتوارث السلطة، حسب نظرية الامامة الشيعية، بينما كان العباسيون يترددون في تحديد مصدر شرعيتهم السياسية، منذ سيطروا على الخلافة عام (١٣٢) فمرة كانوا يقولون بأن مصدر الشرعية هو النص على الإمام علي، ومرة كانوا يدعون بأن مصدر شرعيتهم كونهم أبناء عم الرسول وعترته، ومرة كانوا يقولون بالشورى والإختيار، ومرة أخرى كانوا يقولون أو يدعمون من يقول بأن مصدر الشرعية هي القوة والغلبة (كما كان يقول أحمد بن حنبل، وأبو الحسن الأشعري).

وبالرغم من أن العباسيين كانوا يدعمون أحيانا أحد المذاهب السُنّية كالحنبلي أو الشافعي أو الحنفي، إلا أن هذه المذاهب كانت أقرب الى المذاهب الفقهية والقانونية، ولم تكن تمتلك تصورا سياسيا واحدا وداعما بقوة للعباسيين، فبعضها كالمذهب الحنفي (والمعتزلي) كان يقول بالشورى والاختيار، وبعضها كالمذهب الحنبلي كان يقول بحكومة المتغلب. ولم يكن "أهل السُنَّة" حتى ذلك الوقت (أي القرن الرابع) يحملون نظرة قدسية خاصة إلى الدولة العباسية، إذ أنهم كانوا يعتقدون بخلافة الخلفاء الراشدين فقط،

---

[٤١٨] - السيد، رضوان، مقدمة قوانين الوزارة للماوردي، ص ٤١ (انظر الكامل لابن الأثير ٣١٥/٦ عن تشجيع البويهيين للفكر الشيعي)، يقول المقريزي: وفي أيامه (أي القادر) عظمت الباطنية واشتهر مذهب الاعتزال والرافضة. (السلوك لمعرفة دروب الملوك ١٢٥/١)

ويؤمنون بالخضوع لأي شخص متغلب يتسمى بأمير المؤمنين، ولم تكن الدعوة "السُنّية" قد تبلورت بعد، ولا أصبحت أيديولوجية الخلافة العباسية.[٤١٩]

وهذا ما كان يسمح بتقبل أتباع المذاهب "السُنّية" كالحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وغيرها، بأي حاكم يستولي على السلطة، حتى لو كان فاطميا، كما كانوا يتعاونون فعلا مع البويهيين بصورة طبيعية. ولو استطاع البويهيون والفاطميون نشر الفكر الشيعي الامامي الذي يقول بالنص على الامام علي، فان ذلك كان سيزلزل عرش الخلافة العباسية، وهو ما بدأ بالقيام به كلا الطرفين الفاطميين والبويهيين في القرن الرابع الهجري، عندما بدأوا بالاحتفال بيوم الغدير وتحويله الى عيد كبير.

القادر، واستراتيجية مواجهة البويهيين والفاطميين

إن الشعور بالخطر على وجود العباسيين، دفع الخليفة القادر بالله أحمد بن اسحاق بن المتوكل (٣٣٦ – ٤٢٢) الذي ولي الخلافة من ٣٨١ الى ٤٢٢، الى محاولة استعادة السلطة بأية وسيلة، ووضع استراتيجية عامة: فكرية وثقافية واعلامية وأمنية وسياسية واجتماعية، طويلة المدى لاستعادة السلطة الحقيقية من البويهيين وخصومه الآخرين.

وكانت استراتيجيته تعتمد على ما يلي:

١- التصدي لاحتفالات الشيعة يومي (الغدير وعاشوراء)

[٤١٩] - حيث كان الامامان أحمد بن حنبل وأبو الحسن الأشعري مع جماعة من أئمة السلف يرفضون اطلاق إسم الخليفة على من جاء بعد الحسن بن علي محتجين بحديث "الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك" – كما يذكر القلقشندي- كما خصص بعض السلف هذا اللفظ للامام الذي يسير على منهاج العدل دون غيره، فالخليفة هو الذي يعدل في الرعية ويقسم بينهم بالسوية ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله والوالد على ولده، ويقضي بينهم بكتاب الله تعالى). حلمي، مصطفى، نظام الخلافة في الفكر الاسلامي، ص ٣٨٨ دار الكتب العالمية (منشورات محمد علي بيضون) بيروت، ٢٠٠٤

وذلك بالاحتفال عام ٣٨٩ بيومين آخرين هما: يوم الغار، في السادس والعشرين من ذي الحجة، أي مصاحبة أبي بكر للنبي في غار ثور أثناء الهجرة من مكة الى المدينة، ويوم زيارة قبر مصعب بن الزبير، في الثامن عشر من المحرم.[٤٢٠] والاشتباك مع الشيعة في بغداد، في معارك طائفية (ذات بعد سياسي) استمرت سنوات طويلة بين الطرفين.[٤٢١] والكتابة على أبواب مساجد بغداد: (خير الناس بعد رسول الله أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم معاوية خال المؤمنين، رضي الله عنهم) ردا على كتابة الشيعة (علي خير البشر، ومن أبى فقد كفر).[٤٢٢]

٢- إزالة الخلافات الداخلية بين المذاهب السنية

فقد مال القادر في البداية الى تبني المذهب الشافعي.[٤٢٣] حتى عده ابن الصلاح في (طبقاته) من فقهاء الشافعية، وعين قاضيا شافعيا لبغداد، مما أدى الى معارضة قوية من الأحناف الذين كانوا يحتكرون هذا المنصب منذ قرون، فتراجع عن قراره، وقرب أبا حامد الاسفرائيني (-٤٠٦) إمام الشافعية الأكبر في القرن الرابع الهجري، وأوكل اليه منصب التدريس في المدرسة الشافعية التي أنشأها في بغداد، وحاول التخفيف من

---

[٤٢٠] - ابن العربي،العواصم من القواصم.

[٤٢١] - يتحدث ابن كثير في البداية والنهاية ج ١٢ ص ٦٢ عما وقع من فتن بين أرباب المذاهب والعقائد في بغداد، فيذكر في سنة ٤١٤ حصل بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة فتن لا تحصى. وفي عام ٤٢٢ أغلق الشيعة الاسواق وعلقوا المسوح وخرجوا يبكون في الأزقة فأقبل عليهم أهل السنة في الحديد واقتتلوا قتالا، وقوي عليهم أهل السنة فقتلوا منهم خلقا كثيرا.

[٤٢٢] - قال الخطيب البغدادي: أخبرنا الحسن بن أبي طالب: حدثنا محمد بن اسحاق بن محمد القطيعي: حدثني أبو محمد العلوي الحسن بن محمد بن يحيى (٣٥٨هـ)، صاحب كتاب (النسب) حدثنا اسحاق بن إبراهيم الصنعاني: حدثنا عبد الرزاق بن همام: أخبرنا سفيان الثوري، عن محمد بن المنكدر عن جابر، قال:قال رسول الله (ص)" علي خير البشر فمن امترى فقد كفر". وقال البغدادي: هذا حديث منكر. البغدادي، تاريخ بغداد، ص ٢٥٠٩ و ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٦٢

[٤٢٣] - ابن الصلاح، طبقات الشافعية ٣٢٤/١

صراع الاسفرائيني مع المالكية والأحناف، وهو ما يتضح من كتاب تلميذ الاسفرائيني، عبد القاهر البغدادي (- ٤٢٩): (الفرق بين الفرق) الذي **اعتبر**: **فريقي الرأي والحديث جزءا من أهل السُنَّة والجماعة** والفرقة الناجية، في مقابل أهل الأهواء الضالة من القدرية والمعتزلة والخوارج والروافض والنجارية والجهمية والمجسمة والمشبهة (أي الحنابلة) ومن جرى مجراهم من فرق الضلال.[٤٢٤] وصنف البغدادي "أهلَ السُنَّة والجماعة" الى ثمانية أصناف، فأدخل في تعريف "السُنَّة" جمهور الأمة وسوادها الأعظم من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة والأوزاعي والثوري وأهل الظاهر.[٤٢٥] ولكنه أخرج الحنابلة أصل "أهل السُنَّة" من الاطار السُنّي الجديد الذي كان يعمل القادر على إنشائه في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، فقد اعتبرهم من أهل الضلال وسماهم بالمجسمة والمشبهة.

وليس من الواضح أنه كان يعبر في ذلك عن موقف القادر ذاته من الحنابلة في هذه الفترة. حيث سنرى بعد حين ميل القادر الى نظريات الحنابلة في (البيان القادري).

٣- تأليف الكتب في الرد على الفرق

وذلك بالقيام بحملة فكرية لتأليف الكتب دعما لفكرة (الاختيار) كأساس لشرعية الخلافة، في مقابل الشيعة الذين يقولون بنظرية النص، ككتاب البغدادي الآنف (الفرق بين الفرق) الذي حاول أن يجمع "أهل السُنَّة" على القول بأن طريق عقد الامامة هو (**الاختيار**) بالاجتهاد (كما حدث في السقيفة).

وذكر خمسة عشر أصلاً قال إنهم قد اجتمعوا عليها، وضللوا من خالفهم فيها، وإن النبي (ص) لم ينص على إمامة واحد بعينه، خلاف قول من زعم من الرافضة أنه نص على إمامة علي رضي الله عنه نصا مقطوعا بصحته.[٤٢٦]

---

[٤٢٤] - البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق، ص٦-٧

[٤٢٥] - المصدر، ص ١٩-٢٠

[٤٢٦] - المصدر، ص ٣٠٠ -٣٠١ و ٣٠٩ و ٣٤٠ ولم يشر بالطبع الى نظرية العباسيين القديمة بارتكاز شرعيتهم على حق العباس في وراثة النبي باعتباره عمه أو من أهل البيت والعترة النبوية. (كما كان يقول "الراوندية" وأوائل الخلفاء العباسيين كالمنصور والمهدي والهادي).

ونظراً لتحالف البويهيين الشيعة مع المعتزلة والزيدية، وصراع القادر معهم، فقد أخرجهم البغدادي من الاسلام، بصورة نسبية، واعتبرهم من أهل البدعة، وأطلق عليهم لأول مرة إسم "الرافضة" مع أن الكثير منهم، كالبترية والسليمانية، كانوا يقولون بالشورى والاختيار.[٤٢٧] وحرم الصلاة عليهم أو خلفهم، وكذلك ذبائحهم والتزاوج معهم .[٤٢٨]

واتهم البغدادي المعتزلة بالزندقة، وألف كتابا خاصا ضدهم هو (فضائح المعتزلة). كما شن حملة شعواء ضد الإسماعيلية (الفاطميين) الذين سماهم بالباطنية، وأخرجهم عن جميع فرق الاسلام، وقال:"إعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان".[٤٢٩]

وطلب القادر بالله كذلك من أبي سعيد الاصطخري (٤٠٤هـ) أحد شيوخ المعتزلة أن يكتب رداً مستفيضا على الباطنية، فكتب (الرد على الباطنية) أي الإسماعيلية الفاطمية.

كما كتب القاضي المعتزلي عبد الجبار الهمداني (٤١٥هـ) (الذي عينه الوزير البويهي الصاحب بن عباد قاضياً في الري) كتابا ضد الشيعة الامامية والاسماعيلية، وهو (المغني في التوحيد والإمامة) ودافع في جزء (الإمامة) بحرارة عن نظرية الاختيار في الخلافة، متصديا للامامية والاسماعيلية، ومبطلاً نظريتهم في النص على الامام علي بن أبي طالب.

---

[٤٢٧] - يعترف البغدادي بأن السليمانية والبترية كانوا يقولون:"بأن الامامة شورى وانها تنعقد بعقد رجلين من خيار الأمة، وأجازوا امامة المفضول، وأثبتوا امامة ابي بكر وعمر، وان الأمة تركت الأصلح في البيعة لهما، لأن عليا كان أولى بالامامة منهما، إلا أن الخطأ في بيعتهما لم يوجب كفرا ولا فسقا". البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق، ص ٢٣

[٤٢٨] - المصدر، ص١١ و١٦

[٤٢٩] - المصدر، ص ٢٦٥

وبينما كان القاضي الهمداني مشغولا بتأليف كتابه ضد الشيعة، كان القادر يخطط لمواجهة المعتزلة وتكفيرهم، ومن ورائهم حلفائهم البويهيين، فطلب من أبي بكر الباقلاني (٤٠٣هـ) المالكي الأشعري، مهاجمة الشيعة والمعتزلة والباطنية، ونصرة الخلافة العباسية، فألف كتابه المشهور (التمهيد) الذي دافع فيه عن الشورى وخلافة الراشدين، وتصدى للنظرية الشيعية في النص والتعيين، وكتابه الآخر في الرد على الباطنية (كشف الأسرار وهتك الأستار) والذي قال فيه: "إنهم قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض".[٤٣٠]

وقام القادر بعد ذلك في سنة ٤٠٨، باستتابة فقهاء المعتزلة، "فأظهروا الرجوع وتبرأوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للاسلام، وانهم متى ما خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم".[٤٣١]

كما طلب القادر من الأحناف، الذين كانوا يومها يترددون بين أهل الحديث والاعتزال، إعلان توبتهم عن الاعتزال، أو طردهم من وظائفهم ومناصبهم في الإدارة والقضاء. فاستجاب بعضهم وأعلن أبو عبد الله الصيمري أمام القاضي ابن أبي الشوارب عام ٤١٧ توبته عن الآراء الاعتزالية التي كان يعتقدها.[٤٣٢]

وكما يقول اللالكائي فإن القادر بالله "استتاب فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع وتبرءوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للاسلام...".[٤٣٣]

---

[٤٣٠] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٤٦، والصفدية لابن تيمية ٢/ ١٦٢

[٤٣١] – ابن تيمية، نقض المنطق ص ١٣ و نقض التأسيس ٢/ ٣٣١. وقال الحافظ الذهبي: فيها استتاب القادر بالله، طائفة من المعتزلة والرافضة واخذ خطوطهم بالتوبة. (العبر ٣/ ٩٨) وقال ابن القيم: قد استتاب من خرج عن السنة من المعتزلة والرافضة ونحوهم (الأحناف؟)، فتحرك ولاة الأمور لاظهار السنة. (الصواعق المرسلة ١٢٨٦/٤)

[٤٣٢] – السيد، مقدمة قوانين الوزارة للماوردي، ص ٧١-٧٢

[٤٣٣] – اللالكائي، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، ج١ ص ١٧ – ١٩ كما قام القادر بعزل خطباء الشيعة من جامع براثا في بغداد، وولى مكانهم خطباء سنة، وأهان الشيعة وأذلهم. (ابن الأثير، الكامل ٣٩٣/٩، وابن كثير، البداية والنهاية ١٢/ ٢٦، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ١/ ٨٣ – ٩١) يقول: آل عبد اللطيف: عمد القادر الى مدافعة انتشار التشيع فعزل خطباء الشيعة وولى خطباء من أهل السنة من أجل نشر المذهب السني وإيقاف المد الشيعي. ص ٢٤٠ مجلة جامعة أم القرى، ج ١٨ عدد ٣٩ سنة ١٤٢٧

٤- تعزيز التحالف مع البويهيين في مواجهة الفاطميين

وكان القادر قد أقسم على الولاء للبويهيين، بعد أن جاء الى منصب الخلافة عن طريقهم، فعزز من تحالفه معهم مؤقتا، تحالفا سياسيا تكتيكيا، واقترب من الشيعة الاثني عشرية، الذين ولدوا في هذه الفترة، كمذهب ديني شيعي مضاد للإسماعيليين (الفاطميين) مع وجود احتمال مساهمته في تأسيس (المذهب الاثني عشري) في مواجهة الفاطميين، في ذلك الوقت. وذلك قبل أن يتحالف مع الغزنويين السنة، بعد ضعف البويهيين وصراعاتهم الداخلية.

٥- التشكيك بنسب الفاطميين

وبما أن الفاطميين كانوا يشكلون خطرا جديا كبيرا على العباسيين، لأنهم كانوا حسب الفكر السياسي السني السائد قرشيين، وهذا أهم شرط كان يشترطه الفقهاء السُنَّة في الخلافة، في ذلك الوقت، إضافة الى كونهم علويين يدعون الأحقية بالخلافة من العباسيين، بحجة النص على الامام علي، وحق ذريته في وراثته، بخلاف العباسيين الذين لم يكونوا يمتلكون أية شرعية دينية تاريخية خاصة، سوى الاشتراك بالقرابة "العترة" .

فقد قام الخليفة القادر بقطع الطريق على الفاطميين إلى الخلافة، وذلك بتجريدهم من سلاح "النسب" والقرابة للنبي، والتشكيك بصحة انتمائهم للبيت العلوي، واتفق مع بهاء الدولة البويهي، في سنة ٣٨٢، على جمع الطالبيين من آفاق العراق وسؤالهم عن قرابتهم من "العبيديين الفاطميين"، فأنكروا كلهم معرفتهم، ونفوهم وتبرأوا منهم، فأخذ خطوطهم بأن هؤلاء أدعياء وأن انتماءهم للامام علي باطل وزور وأنهم كفار وفساق وزنادقة.

ثم قام القادر سنة ٤٠٢هـ بكتابة محضر يطعن في نسب الفاطميين ويجردهم من شرف الانتساب للعترة النبوية. وقد جاء فيه: "إن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم – حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال– ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد – لا أسعده الله – فإنه [أي سعيد] لما سار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدي وهو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس – عليه وعليهم اللعنة – أدعياء الخوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وإن ذلك باطل وزور، وإنهم لا يعلمون

أن أحداً من الطالبيين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء، وقد كان شائعاً بالحرمين في أول أمرهم بالمغرب، منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم، أو يذهب وهم إلى تصديقهم، وإن هذا الناجم بمصر هم وسلفه كفار وفساق فجار زنادقة، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف وادّعوا الربوبية".[٤٣٤]

وقد وقع على المحضر، بالاضافة الى أئمة السُنَّة وقضاتهم، كبار العلويين وفقهاء الشيعة الامامية (الاثني عشرية) مثل جامع نهج البلاغة ونقيب الطالبيين الشريف الرضي (٣٥٩ – ٤٠٦) [٤٣٥] وأخيه الشريف المرتضى (٣٥٥ – ٤٣٦) وابن الأزرق الموسوي، ومحمد بن محمد بن عمر بن أبي يعلى، وشيخ الشيعة الاثني عشرية، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد (٣٦٦ – ٤١٣). [٤٣٦]

٦- تعزيز العلاقة السياسية مع أمراء الأطراف (السُنَّة)

لقد جرى تعزيز العلاقة السياسية مع أمراء السُنّة وذلك بمنحهم الشرعية ودفعهم للضغط على البويهيين، فقد أرسل القادر سنة ٤٠٨ إلى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، سلطان خراسان، وفداً يحمل اقتراحا بشن كفاح مشترك ضد الباطنية والمعتزلة. وكان السلطان الغزنوي قد استولى على بلاد خراسان

---

[٤٣٤] – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثاني، احداث سنة ٤٠٢

[٤٣٥] – ينفي ابن أبي الحديد في "شرح نهج البلاغة" في ترجمة الرضي (مجلد ١ ص ١٢) أن يكون الرضي قد وقع على المحضر المكتوب في إبطال نسب الفاطميين، وان والد الرضي وأخاه المرتضى قد حاولاه على أن يمضي، فما أجابهما، فحلفا على أن لا يكلماه تقية من القادر وتسكينا له، ولكنه أجابهما على إنكار الأبيات المنسوبة له والتي يمدح فيها الفاطميين ويشيد بخلافتهم العلوية، والتي أولها (ما مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وأنف حمي).

[٤٣٦] – ثم كتب ببغداد محضر آخر بمثل ذلك سنة أربع وأربعين واربعمائة، في زمن القاهر، وزيد فيه اتهامهم بانتسابهم إلى الديصانية من المجوس وبني القداح من اليهود. وكتب فيه العلوية والعباسية والفقهاء والقضاة وعملت به نسخ وبعث بها إلى البلاد. وقد جاء فيه " ان الفاطميين ملوك مصر، منسوبون الى ديصان بن سعيد الخرمي، فليسوا من اهل البيت، ولا نسب لهم في ولد علي بن ابي طالب، ولا يتعلقون منه بسبب، وان الذي ادعوه باطل وزور، وانهم لا يعلمون أحدا من اهل بيوتات علي بن ابي طالب (ع) توقف عن اطلاق القول في أنهم كذبة، وقد كان هذا الانكار لباطلهم شائعا أول أمرهم... وان هذا الحاكم بمصر هو وسلفه كفار فساق فجار ملحدون زنادقة معطلون وللاسلام جاحدون، ولمذهب المجوسية والثنوية معتقدون، قد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية". ابن كثير (البداية ٣٤٥/١١ – ٣٤٦، النجوم الزاهرة ٢٢٩/٤ و المنتظم ٨٢/١٥)

وغزنين سنة ٣٨٧ وأعلن نفسه مدافعاً عن المذهب السُنّي وقدم ولاءه للخليفة العباسي. وقد استجاب السلطان لطلب الخليفة وبالغ فيه، وكما يقول الذهبي "فانه قتل جماعة، ونفى خلقا كثيرا من المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والجهمية والمشبهة، وأمر بلعنهم على المنابر".

ثم قام سنة ٤٢٠ بمهاجمة البويهيين في الري وقتل ورجم وصلب كثيرا من الشيعة والمعتزلة في شوارع المدينة، ونهب أموالهم، وأحرق كتبهم[٤٣٧]، حتى "خلت هذه البقعة من دعاة الباطنية وأعيان المعتزلة والروافض، وانتصرت السُنَّة" كما يقول في رسالة له الى الخليفة القادر.[٤٣٨]

فأغدق عليه الخليفة ألقاب التعظيم مثل "نظام الدين و يمين الدولة" و أمين الملة وكهف الاسلام والمسلمين". وأقره سلطانا على ما تحته من بلاد خراسان، والجبال، والهند، وطبرستان.[٤٣٩]

٧- إعلان "الاعتقاد القادري" وتفتيش العقائد

[٤٣٧] – كانت مكتبة الصاحب بن عباد الخاصة وحدها تحتوي على ١٧٠٠٠٠ كتاب، بينما كانت فهارس "بيت الكتب" عشر مجلدات، وقد أحرقها السلطان محمود عندما احتل الري.

[٤٣٨] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٦ و٢٦ ويقال:"إنه قد تتبع الذين كان ظاهر دعوتهم الرفض، وفي الباطن الكفر المحض، وأرسل الجواسيس الى كل البلدان، وبعد أن جمع قوائم بأسمائهم، ألقى القبض عليهم، وبعد أن جمعوا من الأماكن والمساكن المتفرقة في كل البلدان، وأحضروا الى بلاطه، عذب جمعا منهم بأنواع العذاب، بينما شنق آخرين على الأشجار، ورجم بالأحجار جمعا آخر منهم، وقد وافق السلطان على ذلك الاستاذ أبو بكر محمشاد الذي كان شيخ أهل السنة... حيث قام بالتمثيل بكل من كان منتميا لهذه الفرقة الغالية، وأهل البدعة الجافية". ص ٣٧٠

[٤٣٩] – وكان مفهوم الغزنوي عن "السنة" هو المذهب الحنبلي فقط، حيث "أمر بلعنة أهل البدع على المنابر، فلعنت الجهمية والرافضة والحرورية والمعتزلة والقدرية، ولعنت أيضا الأشعرية، حتى جرى بسبب ذلك نزاع وفتنة بين الشافعية والحنفية وغيرهم، قوم يقولون: هم من أهل البدع فيلعنون، وقوم يقولون: ليسوا من أهل البدع فلا يلعنون". (ابن تيمية، تلبيس الجهمية، ج ٢ ص ٣٣١)، وقتل من الشافعية في أصفهان حوالي خمسة آلاف إنسان، وذلك انه "خلف عليها واليا، فلما رحل عنها ثار عليه أهل اصفهان وقتلوه، فرجع محمود اليها، وأعطى لهم الأمان حتى اطمأنوا، وانتظر الى أن صار يوم الجمعة، واجتمع أهل اصفهان للصلاة في الجامع، فهاجمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة". السبكي، طبقات الشافعية، ج ٤ ص ٢١

وقد بلغت الحملة القادرية ذروتها سنة ٤٠٩ بإعلان الخليفة القادر "العقيدة القادرية" التي تطابقت مع عقيدة أشد الحنابلة تطرفا كعبد الله بن أحمد بن حنبل (- ٢٤٠) وأبي بكر الخلال (-٣١١) والبربهاري (-٣٢٩).

وحسبما يقول ابن تيمية فإن كتاب "العقيدة القادرية" من جمع الشيخ أبي أحمد محمد بن علي بن محمد الكرجي الغزي (توفي حوالي ٣٦٠) المعروف بالقصاب. وانما نسبت العقيدة الى القادر لأنه من فرضها على المسلمين.[٤٤٠]

ويتبنى "الاعتقاد القادري" مواقف "الحنابلة - أهل السنَّة" من القضايا الخلافية مع كافة الفرق والمذاهب الأخرى، فهو يرد على المعتزلة في الصفات، ويرد على الاشاعرة في خلق كلام الله، ويرد على المرجئة في أن الايمان قول وعمل، ويرد على الروافض والنواصب في حب الصحابة. وكان أهم ما فيه نقطتان:

أ- خلق القرآن

حيث يؤكد البيان القادري: "أن كلام الله تعالى غير مخلوق، تكلم به تكليما، وأنزله على رسوله (ص) على لسان جبريل بعدما سمعه جبريل منه فتلاه جبريل على محمد (ص) وتلاه محمد على اصحابه، وتلاه اصحابه على الأمة، ولم يصر بتلاوة المخلوقين مخلوقا، لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلم الله به فهو غير مخلوق بكل حال، متلوا ومحفوظا ومكتوبا ومسموعا".

ولا يكتفي بذلك بل يهدد من يقول "انه مخلوق على حال من الاحوال" بأنه كافر حلال الدم، بعد الاستتابة منه. وكان الامام احمد غلظ على الواقفة، وجعلهم جهمية، لأنهم لم يقولوا: ان القرآن كلام الله غير

---

[٤٤٠] - وكذلك يقول تلامذته ابن القيم والحافظ الذهبي، وعبد العزيز آل عبد اللطيف ص ٢٤٥ مجلة أم القرى، دراسة حول الاعتقاد القادري. انظر سير أعلام النبلاء ٢١٣/١٦ وتذكرة الحفاظ ٩٣٨/٣ والوافي بالوفيات ١١٤/٤،

مخلوق، ففي هذه العبارة "غير مخلوق" توضيح وبيان ورد على من زعم أنه مخلوق، أو شك في القطع أنه غير مخلوق. [٤٤١]

وهنا كان "الاعتقاد القادري" يوجه سهامه بصورة عنيفة ضد الأشاعرة (المالكية والشافعية، وبالطبع الأحناف والمعتزلة) فالاشاعرة كما هو معلوم يقولون: "إن القرآن هو الكلام النفساني، وهو معنى قائم بذات الله، واما المتلو او المكتوب أو المسموع أو المحفوظ فانما هو عبارة تدل على كلام الله تعالى وليس كلام الله". [٤٤٢]

ب – الموقف من الصحابة

وقد تبنى "البيان القادري" موقفا إيجابيا مغاليا ومتطرفا أيضا من الصحابة ينسجم مع موقف "أهل السُنَّة" الحنابلة، نكاية بالشيعة الإمامية الذين كانوا يقولون بحق الامام علي بالخلافة، ويهاجمون الصحابة الذين يقولون أنهم اغتصبوا الخلافة منه، أو خرجوا عليه مثل طلحة والزبير وعائشة ومعاوية، فأكد:"يجب أن يحب الصحابة من أصحاب النبي (ص) كلهم. ونعلم أنهم خير الخلق بعد رسول الله (ص) وأن خيرهم كلهم وأفضلهم بعد رسول الله (ص) أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ويشهد للعشرة بالجنة، ويترحم على أزواج رسول الله (ص) ومن سب عائشة فلا حظ له في الاسلام، ولا يقول في معاوية إلا خيرا، ولا يدخل في شئ شجر بينهم، ويترحم على جماعتهم".

وكما يقول الدكتور رضوان السيد، فان العقيدة القادرية كانت:" تجعل الحب والولاء للصحابة فرضا دينيا، وتجعل ترتيب الصحابة الأربعة الأول في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

[٤٤١] – المسائل والرسائل المروية عن الامام أحمد بن حنبل ٢٥٢/١

[٤٤٢] – انظر التسعينية لابن تيمية ٣ /٨٤٦ ومجموع الفتاوى ١٢/ ١٢١ وشرح الطحاوية لابن أبي العز ٢٠٢/١

وفيما يتصل بمعاوية ينتصر الموقف الحنبلي على الحذر العباسي المفهوم تجاهه وتجاه الأمويين عامة فيجري الترضي على معاوية وتوليه باعتباره صحابيا ومن كتاب الوحي، ثم تذكر فضيلة أهل السُنَّة والجماعة على الفرق كلها".[٤٤٣]

وبما أن المذاهب السُنّية المختلفة لم تكن تعترف بعدُ بالخلافة العباسية، كخلافة شرعية، فان "العقيدة القادرية" لم تذكر الخلافة العباسية مباشرة بقدر ما كانت تهاجم آراء الشيعة والخوارج في الخلافة، لتصب بصورة غير مباشرة في مصلحتها.

إلا أن القادر العباسي الذي كان يعيش تحت ظل البويهيين، أكد حق الخليفة الثابت في بضعة أمور لا يمكن التنازل عنها، منها ذكر اسمه في الخطبة، وحقه في تقليد حكام الولايات والسلاطين البويهيين، وفي تعبير آخر حق الخلافة الأعلى في تمثيل الامة شكليا ورسميا على الأقل في النواحي السياسية والدينية .[٤٤٤]

ومع اشتداد الصراع بين العباسيين والبويهيين في عام ٤٢٠، دعا الخليفة القادر كبار العلماء الى القصر مرارا حيث قرأ عليهم ثلاث رسائل له في الرد على الشيعة والمعتزلة...

وفي الرسالة الأولى نصر الخليفة ما أسماه مذهب "أهل السُنَّة والجماعة" واعتبره المذهب الحق، وأنحى باللائمة على المعتزلة، وفي الرسالة الثانية هاجم القادر القائلين بخلق القرآن، وبالخصوص بشر المريسي (الحنفي المعتزلي)... وكانت الرسالة الثالثة تركز بوضوح على مهاجمة الشيعة.[٤٤٥]

وقد جرى نشر وصايا الخليفة ورسائله وإرسالها الى الخطباء والقضاة والفقهاء والمتكلمين والوعاظ والزهاد وحكام الولايات ومجامع العامة من اهل السُنَّة، لتُقرأ ويُعمل بها، في محاولة من أجل استحداث "دعوة" سُنّية رسمية تواجه الدعوات الأخرى، وتقف مع الخلافة في صراعها مع البويهيين والفاطميين.[٤٤٦]

---

[٤٤٣] – السيد، رضوان، مقدمة قوانين الوزارة للماوردي، ص ٧١-٧٢

[٤٤٤] – المصدر، ص ٧٥

[٤٤٥] – المصدر، ص ٧٥

ويمكن القول أنَّ "المذهب السُنّي" شهد على يدي القادر بالله ولادة جديدة، فبعد أن كانت قضية المذهب الأولى، لدى ولادته في القرن الثاني الهجري: (الحديث والسُنَّة) في مقابل "أهل الرأي" الأحناف، ثم كانت قضيته الأولى في القرن الثالث، في زمن الامام أحمد بن حنبل: (مسألة عدم خلق القرآن) في مواجهة المعتزلة، أضحت قضيته الأولى في عهد القادر: (مكافحة الشيعة والتشيع).

وذلك لما كان يشكله الفاطميون (الإسماعيليون) والبويهيون (الإماميون أو الزيدية)، من خطر محدق من الخارج والداخل ضد الوجود السياسي العباسي. **ومع أن العباسيين لم يكونوا يشكلون بالخصوص العمود الفقري للفكر السياسي السُنّي**، الا أن تبني الخليفة القادر بالله لنظريات أهل السُنَّة في مجال العقيدة والقرآن والتاريخ السياسي (الصحابة والخلفاء الراشدين) سمح له باستقطاب طوائف السُنَّة وجماهيرها الى جانبه في صراعه المحتدم مع الشيعة في تلك الأيام، وفي تكوين فكر سياسي سُنّي جديد يتمحور حول نظام الخلافة العباسية.

٨ – إضفاء الشرعية الدينية على الخلافة العباسية

وقد أنتج ذلك التحالف العباسي – السُنّي كتابين رائدين في الفكر السياسي السُنّي، هما الكتابان اللذان يحملان عنوانا متشابهاً هو: "الأحكام السلطانية" ويتشابهان في المضمون إلى حد كبير، واللذان كتب أحدهما أبو يعلى الفراء (٤٥٨هـ) إمام الحنابلة في بغداد في القرن الخامس. وكتب الآخر معاصره أبو الحسن الماوردي (٤٥٠هـ) أحد أهم علماء الشافعية في بغداد.

ولعل أهم نقطة وردت في الكتابين المذكورين هي تحويل الخلافة التي فقدت شرعيتها وسلطتها في الواقع، إلى **خلافة دينية رمزية، وضرورة استمراريتها كحقيقة دينية خالدة** منذ خلافة الراشدين ومروراً بالأمويين وانتهاء بالعباسيين وإلى يوم القيامة. وذلك من أجل تجريد الفاطميين من أية شرعية دينية سياسية،

---

[٤٤٦] – وقد انتهج الخليفة العباسي القائم بالله سياسة أبيه القادر، وأمر بقراءة "الاعتقاد القادري"، حيث أخرجه سنة ٤٣٣، فقرئ في ديوان الخلافة، وحضر العلماء وكتبوا "ان هذا اعتقاد المسلمين، ومن خالفه فقد فسق وكفر". ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/ ٤٩

وتكوين خط نظري روحي بديل ومنافس لهم ولما كانوا يدعون ويضفون على أنفسهم من هالة روحية مقدسة باعتبارهم ورثة الحق الالهي في الإمامة.

وقد ابتدأ هذا التطور على يد عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) الذي **اعتبر "معرفة الخلافة والامامة وشروط الزعامة، ركناً من أركان الدين والأصول التي اجتمع عليها أهل السُنَّة والجماعة على قول واحد، وضللوا من خالفهم فيها"**.[٤٤٧]

وجاء الماوردي ليعتبر الخلافة:"مؤسسة ضرورية لا معدى عنها للدين والدنيا" كما يقول الدكتور رضوان السيد. [٤٤٨]

ولكي يبني الماوردي نظريته في الخلافة المستمرة المتواصلة، اضطر إلى الاعتراف بشرعية خلفاء عباسيين "رافضة" مثل المنصور والمهدي، وخلفاء آخرين كانوا ينتمون الى مذهب المعتزلة (المبدَّع من قبل أهل السُنَّة) كالمأمون والمعتصم والواثق، الذين اضطهدوا أهل الحديث.[٤٤٩]

واضطر الماوردي إلى اختيار الرأي القائل بوجوب الخلافة عن طريق الشرع، وليس العقل وذلك ليضفي عليها هالة قدسية ويحولها الى منصب ديني. وقال: إن "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا".[٤٥٠] و"إن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيما خلف به النبوة، وحاط به الملة، وفوض اليه السياسة، ليصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع فكانت الامامة أصلا عليه

---

[٤٤٧] - البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق، ص ٣٠٩

[٤٤٨] - السيد، مقدمة قوانين الوزارة للماوردي، ص ١٣

[٤٤٩] - خلافا لرأي أئمة أهل السنة السابقين كالامام أحمد بن حنبل والأشعري الذين كانوا يروون حديث سفينة ويقولون: بأن مدة الخلافة ثلاثون سنة فقط، وأنها انتهت بتنازل الامام الحسن بن علي لمعاوية، الذي بدأ معه عصر الملك. مسند أحمد، ٢٢١/٥، ٢٢٠ والاشعري: الابانة عن اصول الديانة، ج١ ص ٢٦٠

[٤٥٠] - الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٥

استقرت قواعد الملة، وانتظمت به مصالح الأمة حتى استثبتت بها الأمور العامة وصدرت عنها الولايات الخاصة".[٤٥١]

ومع ذلك فان الماوردي والفراء، لم ينظِّرا، في كتابيهما لإعادة السلطة للخلفاء العباسيين، وانما قاما بإضفاء الشرعية على كل ألوان الحكم وجميع أنماط العلاقات السياسية بين الخلفاء والوزراء والولاة والسلاطين، وخاصة علاقة الهيمنة التي كانت قائمة بين البويهيين والخلفاء العباسيين.[٤٥٢]

انهيار الخطة القادرية بعد سبعين عاما

لم تؤتِ الخطة الاستراتيجية القادرية الشاملة (الفكرية والثقافية والسياسية والعسكرية والاجتماعية) ثمارها المرجوة، في تدعيم مركز الخلافة العباسية، خلال السبعين عاما، من تجربتها (٣٨١- ٤٥٠). واذا كانت الدولة البويهية قد انهارت سنة ٤٤٧ بسبب خلافاتها الداخلية، فان خطر الدولة الفاطمية بدأ يلوح في بغداد، حيث ظهر شخص يسمى (أبو الحارث أرسلان البساسيري التركي) فقام بتحدي الخليفة القاهر بالله ونهب قصره، وحاول السيطرة عليه، وكاد يستدعي الحكام الفاطميين الى بغداد، مما دفع الوزير العباسي (ابن المسلمة) بتجديد الحملة ضد الفاطميين وقراءة المناشير ضدهم واتهامهم بالزندقة والدهرية والكيد للاسلام والمسلمين.[٤٥٣]

وعندما لم تفلح هذه الحملة في مقاومة الخطر الفاطمي قام الخليفة العباسي القاهر بالاستغاثة بالسلطان السلجوقي طغرل بك، الذي لبى النداء ووصل الى بغداد في رمضان ٤٤٧ ولكنه اضطر الى مغادرتها بعد قليل، مما سمح للبساسيري بالعودة الى بغداد في أول ذي الحجة من سنة ٤٥٠ بالتنسيق مع الخليفة الفاطمي

---

[٤٥١] - المصدر، ص ٣

[٤٥٢] - وقد استمرت هذه الازدواجية في الفكر السياسي السني بين الخلافة والسلطنة، في العهد السلجوقي، عندما جمع الامام ابو حامد الغزالي (٤٥٠- ٥٠٥) بين الدعوة للخلافة العباسية والاعتراف بسلطات الاحتلال السلجوقي، حيث قال في (الإحياء): ان الخلافة منعقدة للمتكفل بها من بني العباس، وان الولاية نافذة للسلاطين من اقطار البلاد والمبايعين للخليفة " بل ان الولاية الآن لا تتبع الا الشوكة، فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة". الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، كتاب الحلال والحرام، الباب الخامس.

[٤٥٣] - السيد، مقدمة قوانين الوزارة للماوردي، ص ٨٨

المستنصر، واعتقال الخليفة القاهر واعدام وزيره ابن المسلمة. وإعلان الخطبة باسم الخليفة الفاطمي في مساجد بغداد لمدة عام تقريبا.

وكاد البساسيري يمهد الطريق أمام الفاطميين لاحتلال بغداد، لولا عودة السلطان السلجوقي عام ٤٥١ الى بغداد وتحرير الخليفة العباسي القاهر المعتقل، وإعادته الى مركز خلافته. ولكن لم يتغير من المعادلة السياسية والعسكرية شيئ، رغم إعلان السلاجقة نصرة المذهب السني، ولعن الشيعة والبويهيين، حيث قام السلاجقة بالاحتفاظ بالقوة لأنفسهم وتجريد الخليفة من كل سلطة، وإبقائه مجرد رمز لتغطية حكمهم العسكري الجديد.

العباسيون والتشيع بعد انهيار الدولة الفاطمية

لقد تبنى العباسيون المذهب السُنّي، وحاول الخليفة القادر أن يجمع بين المذاهب السُنّية المختلفة في إطار واحد، في مواجهة البويهيين والفاطميين الذين كانوا يشكلون خطرا على الخلافة العباسية في الداخل والخارج، في القرنين الهجريين الرابع والخامس، ولكن عندما انهارت الدولة البويهية في منتصف القرن الخامس، وابتعد الخطر الفاطمي، وسيطر السلاجقة على العباسيين، لم يعد هؤلاء (العباسيون) متحمسين لجمع شمل "أهل السنة" فدبت الخلافات الشديدة بينهم.

وبعد أن انهارت الدولة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧ لم يجد خليفة عباسي هو الناصر لدين الله (٥٧٦ — ٦٢٢) حرجا من إعلان التشيع على الطريقة الإمامية الاثني عشرية[٤٥٤]، والمجاهرة بتفضيل الامام علي على

[٤٥٤] – وبنى سرداب الغيبة في سامراء (وهو المحل الذي يزعم الشيعة: ان الامام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري قد غاب فيه) كما يقول السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤١٥ وقد نص على تشيعه معظم المؤرخين أمثال ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢ ص ٤٦٩ و(ابن الطقطقي) في كتابه (الآداب السلطانية)، وعلي بن أنجب البغدادي المعروف بابن الساعي في كتابه (مختصر أخبار الخلفاء) وابن واصل وغيرهم. الأمين، حسن، الاسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص ٦٧، دار الغدير، بيروت ١٩٩٧ و الزين محمد حسين، الشيعة في التاريخ (١٩٣٨)، مكتبة النجاح، الطبعة الثانية، مطبعة العرفان صيدا لبنان

سائر الصحابة.[٤٥٥] إذ لم يكن يوجد إمام من أبناء علي والحسين، لكي ينافسه على الخلافة.[٤٥٦] وهو ما يكشف عن الدوافع السياسية وراء تبني بعض الخلفاء العباسيين مثل القادر والقائم للنظرية السنية في مواجهة البويهيين والفاطميين، تماما كوجود دوافع مشابهة لتبني بعضهم الفكر الشيعي عندما لا يشكل تهديدا لعروشهم، أو على العكس يساعد في تثبيتها وترسيخها.[٤٥٧]

العثمانيون يتبنون المذهب الحنفي

بعد قرون طويلة من إقصاء المذهب الحنفي عن الصدارة، في العهد العباسي، إلى حد استتابة قضاته وعلمائه، في أيام الخليفة القادر بالله، واستلحاقه على مضض في الإطار "السُنّي" العام، صعدت أسهمه في بورصة السياسة عندما تبنى السلاطين العثمانيون الأتراك هذا المذهب، في غياب الخلافة العباسية التي كانت تميل إلى المذاهب السنية الأخرى وبالخصوص الى المذهب الحنبلي الذي كان يؤكد على شرط القرشية في الخليفة كأهم وأول شرط فيها، بينما لم يكن المذهب الحنفي، يعتبر ذلك شرطا، بل كان يميل الى جواز الخلافة في العرب والعجم، تبعا للامام أبي حنيفة الذي لم يكن يعترف بحديث "الخلافة في قريش" (كالمعتزلة والخوارج) ولم يكن يوافق الأمويين والعباسيين والعلويين في حصر الخلافة في قريش.

---

[٤٥٥] - راجع: القلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ج١ص ٢١٣ وتاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٣٣٠ و ص ٣٦٧ – ٣٦٨ و ص ٣٧٩

[٤٥٦] - ولم يستطع عالم سني هو ابن الجوزي من التصريح بعقيدته بحضرته، عندما سأله: من أفضل الناس بعد رسول الله؟ فأجاب: أفضلهم من كانت ابنته تحته. ولم يقدر أن يصرح بتفضيل أبي بكر. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤١٥

[٤٥٧] - كما كان الاختلاف السياسي مع العباسيين، دافعا لبعض أمراء الأطراف لتبني التشيع، فقد طلب خوارزم شاه ذكر اسمه في الخطبة بدلا عن السلطان السلجوقي. وعندما رفض الخليفة تلبية طلبه، أعلن تشيعه، وأمر بحذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة في المناطق الخاضعة للسلطة الخوارزمية سنة ٦١٤ وتسمية أحد الأشراف من أبناء الامام علي خليفة بدلا عن العباسيين. الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ٢٨٩

وبعد أن كان شرط القرشية، يعتبر أهم ركائز الفكر السياسي السُنّي المجمع عليها، بناء على الأحاديث التي كان يرويها أئمة المذهب من الفقهاء والمحدثين.[٤٥٨] اعتمادا على أحاديث مثل: "إن هذا الأمر في قريش" و"لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان" و"الأئمة من قريش".[٤٥٩] تجرأ الفقهاء الأحناف على تبني رأي إمامهم أبي حنيفة، بعد سقوط الخلافة العباسية وانحلال العصبية القرشية، فظهر في الشام نجم الدين إبراهيم بن علي الطرسوسي (٧٢٠ – ٧٥٨هـ) ليتجاوز تلك الأحاديث من دون ضرورة، اعتمادا على فتوى أبي حنيفة.[٤٦٠] ويدعو بصراحة إلى الإقرار بشرعية الحكام غير العرب، ولما كان العثمانيون يطمحون للخلافة

.

فقد حاول الطرسوسي إقناعهم بتبني المذهب الحنفي لأنه لا يشترط القرشية في الخلافة.[٤٦١] ولو كان الخلفاء العباسيون موجودين لأعلنوا حربا شعواء على العثمانيين ومؤيديهم من الأحناف، أقسى وأعنف من حربهم على الشيعة الفاطميين والبويهيين.

الباب الرابع

ولادة المذهب الشيعي

الفصل الأول

---

[٤٥٨] – البخاري ج٥ ص١٣ و مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش، ص ٤٨٠

[٤٥٩] – بحيث اعتبر الشهرستاني القول بنفي القرشية "بدعة لا يقربها السلف". الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ص ١٦ وقال عبد القاهر البغدادي:"إن الشرع قد ورد بتخصيص قريش بالإمامة، ودلت على أن قريشا لا يخلو ممن يصلح للإمامة، فلا يجوز إقامة الإمام للكافة من غيرهم". انظر: أحكام الإمامة وشروط الزعامة، من كتاب أصول الدين، ص ٤٤ تراث الفكر السياسي الإسلامي. والقاضي أبو بكر الباقلاني، التمهيد، ص ١٦

[٤٦٠] – الطرسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، ص ٢٨

[٤٦١] – المصدر، ص ٢٠

من هم الشيعة؟.. وهل هم حزب سياسي؟ أم طائفة دينية؟

المبحث الأول:من هم الشيعة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال: (من هم الشيعة؟) تختلف تبعا لموقف المجيب النظري، وما إذا كان سُنّيا أو شيعيا؟ وإماميا أو زيديا؟ وجاروديا أو سليمانيا؟ كما تختلف أيضا حسب تعريف التشيع وفيما إذا كان روحيا عاطفيا؟ أو سياسيا؟ أو عقديا؟ أو فقهيا؟[٤٦٢]

يعدد المتكلم الشيعي الحسن بن موسى النوبختي (٣١٠هـ) في كتابه (فرق الشيعة) حوالي سبعين فرقة شيعية تفرعت خلال القرون الثلاثة الأولى، ويجمعها، بصورة عامة، عنوان واحد هو "التشيع لعلي بن أبي طالب"، بحيث يشمل من كان يعتقد أن عليا هو أفضل الناس بعد رسول الله، وأولاهم بالإمامة (كالبترية والسليمانية من الزيدية) [٤٦٣] ومن قال بتفضيل علي والإشارة اليه من النبي بالوصف لا النص ثم هي شورى في أولاد الحسن والحسين (كالجارودية من الزيدية). [٤٦٤] ومن كان يعتقد بأن عليا إمام مفترض الطاعة بعد

---

[٤٦٢] - الجاحظ، عمرو بن محبوب (-٢٥٥)، مجموعة رسائل، مطبعة التقدم مصر ط ١، ١٣٢٤ هـ، مكتبة المصطفى الالكترونية، الرسالة العاشرة، في بيان مذاهب الشيعة: إعلم يرحمنا الله تعالى وإياك: أن شيعة علي رضي الله تعالى عنه زيدي ورافضي، وبقيتهم بدد لا نظام لهم. ص ١٨٧

[٤٦٣] - "السليمانية" و "البترية" و "الصالحية" ينسبون الى مجموعة من كبار الفقهاء في الكوفة في القرن الثاني الهجري (سليمان بن جرير الرقي، وكثير النواء الأبتر بن إسماعيل، و الحسن بن صالح بن حي الهمذاني) وفيهم سالم بن أبي حفصة والحكم بن عتيبة (عيينة) وسلمة بن كهيل وأبي المقدام ثابت الحداد، وقد ذهبوا إلى أن عليا أفضل الناس بعد الرسول (ص) وأولاهم بالإمامة، وأن بيعة أبي بكر وعمر ليست بخطأ؛ لأن عليا ترك ذلك لهما، وسلم لهما الأمر راضياً، وفوّض الأمر طائعاً، وترك حقه راغباً، فنحن راضون، مسلمون لما سلم، لا يحل لنا غير ذلك، كما أنهم لا يرون لعلي إمامة إلا حين بويع. ويرون أنّ الإمامة تنعقد بالشورى بين الناس من غير نسل الحسنين وأنها تصح في المفضول مع وجود الفاضل. النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢١ و٢٢ و ص ٦٣ – ٦٦، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١٨ و ص ٦٨ والشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٥٩ و الكشي، الرجال، ص ١٥٢

[٤٦٤] – نسبة الى أبي الجارود زياد بن أبي زياد الهمذاني الكوفي، وهو زعيم فرقة "الجارودية" من الزيدية، وقد كان من شيعة الإمام محمد الباقر، ثم انتقل الى الزيدية. ثم غلبت نظريته على عموم الزيدية في القرون التالية، حتى أصبحت هي النظرية الرئيسية للهادوية في اليمن. كان يقول بالوصف دون التسمية، ويبني نظريته في الإمامة على أساس التصدي والخروج (الثورة) وليس على أساس النص، ويؤمن باشتراك ولد الحسن والحسين في الإمامة، ويرفض تخصيص الحق بالإمامة في أبناء الحسين

رسول الله، وأن النبي نص عليه وأشار إليه باسمه ونسبه وعينه وقلد الأمة إمامته ونصبه لهم علما وعقد له عليهم إمرة المؤمنين. وأنه لا بد من أن يقوم مقامه بعده رجل من ولده من ولد فاطمة بنت محمد عليهم السلام معصوم منصوص عليه من الإمام الذي قبله مشار إليه بعينه واسمه، وأن الإمامة جارية في عقبه ما اتصلت أمور الله وأمره ونهيه (كالإمامية).

وحسب النوبختي يعتبر شيعيا كل من المعتدل، والمغالي، والرافضي، وكذلك من كان يؤمن ويعترف بخلافة الشيخين أبي بكر وعمر.

فيعتبر "السبئية" فريقا انشق ممن كان يقول بإمامة علي، بعد وفاته. وأن "عبد الله بن سبأ" كان أول من شهر القول بفرض إمامة علي وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه.

وهكذا يعد الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٣٣٠هـ) – المعاصر للنوبختي – في كتابه (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) مختلف أصناف الشيعة (من الغلاة والرافضة والزيدية) شيعة بالمعنى العام، ويقول: "انما قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا عليا رضوان الله عليه، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله (ص)".[٤٦٥]

ولكن شيخ الطائفة الإمامية الإثني عشرية، التي تكونت في القرن الرابع الهجري، محمد بن محمد بن النعمان المفيد (٤١٣هـ) يقوم بتعريف الشيعة تعريفا ضيقا جدا، فيقول بأنهم: "أتباع أمير المؤمنين علي (ع) على سبيل الولاء والإعتقاد لإمامته بعد الرسول (ص) بلا فصل، ونفي الامامة عمن تقدمه في مقام الخلافة، وجعله في الاعتقاد متبوعا لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاقتداء".[٤٦٦]

فقط، وينكر وجود أية نصوص حول ذلك . وكان يقول:"ان عليا هو افضل الناس بعد الرسول وأولاهم بالإمامة، ولكنه سلم الى الخلفاء الأوائل الأمر لهم راضيا، وترك حقه راغبا، فنحن راضون بما رضي، مسلمون بما سلم" . واثبت إمامة أبي بكر وعمر، باختيار الأمة حقا اجتهاديا، وإن الأمة أخطأت في البيعة لهما مع وجود علي خطأً لا يبلغ درجة الفسق وذلك الخطأ خطأ اجتهادي. الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ١٥٣ و ١٦٠ و الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٢٧٧ و المفيد، المسائل الجارودية في تعيين الخلافة والإمامة في ولد الحسين بن علي، ص ٢، والمفيد، الثقلان، ص ١٠

[٤٦٥] - الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل (-٣٣٠)، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، **ص ٦٥** تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٩٩٠

[٤٦٦] - المفيد، أوائل المقالات في المذاهب، ص ٣٥
http://www.al-shia.org/html/ara/books/lib-aqaed/avael-maqalat/a01.htm

ويحصر المفيد عنوان التشيع في خط واحد من الإمامية، وقسم من الزيدية هم (الجارودية) فقط، ويخرج كثيراً من الفرق الشيعية التي كانت معاصرة للامام علي ولكنها لم تكن تؤمن بإمامته بالنص، وإنما تفضله على سائر الصحابة فقط، ويقول: "إذا ثبت ما بيناه بالسمة بالتشيع كما وصفناه وجبت للإمامية والزيدية الجارودية من بين سائر فرق الأمة لانتظامهم بمعناها وحصولهم على موجبها ولم يخرجوا عنها".[٤٦٧]

وبالرغم من أن وصف "الإمامية" كان يشمل أيضا كثيراً من الفرق الشيعية كالاسماعيلية والفطحية والناووسية، وغيرها، إلا أن المفيد يحصر إسم الإمامية بخط واحد منها فقط، وهم "الموسوية القطعية" فيقول:"أما السمة للمذهب بالإمامة و وصف الفريق من الشيعة بالإمامية فهو علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان وأوجب النص الجلي والعصمة والكمال لكل إمام ثم حصر الإمامة في ولد الحسين بن علي (عليه السلام) وساقها إلى الرضا علي بن موسى (عليه السلام) لأنه وإن كان في الأصل علما على من دان من الأصول بما ذكرناه دون التخصيص لمن قال في الأعيان بما وصفناه فإنه قد انتقل عن أصله لاستحقاق فرق من معتقديه ألقابا بأحاديث لهم بأقاويل أحدثوها فغلبت عليهم في الاستعمال دون الوصف بالإمامية وصار هذا الاسم في عرف المتكلمين وغيرهم من الفقهاء والعامة علما على من ذكرناه".[٤٦٨]

ويمزج المفيد، بين "التشيع" و"الإمامية" فيشرح معنى نسبة الإمامية، بقوله: "الإمامية هم القائلون بوجوب الإمامة والعصمة ووجوب النص" ويعتبر الفرق الشيعية الأولى التي لم تكن تقول بنظرية الإمامة، كالكيسانية والزيدية فرقا شاذة عن الحق، أي عن "الإمامية" .[٤٦٩]

ثم يحصر المفيد "الشيعة الإمامية" بـ "الأثني عشرية"، ويقول:"ليس من هؤلاء الفرق التي ذكرناها فرقة موجودة في زماننا هذا وهو من سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة إلا الإمامية الإثنا عشرية" .[٤٧٠]

علما بأن "الإثني عشرية" كانت حديثة الولادة في زمنه، وكان الشيخ محمد بن علي بن بابويه الصدوق

---

[٤٦٧] – المصدر، ص ٣٧ و المفيد، التبصير في الدين، ص ١٦ – ١٧

[٤٦٨] – المفيد، أوائل المقالات، ص ٣٩

[٤٦٩] – المفيد، الفصول المختارة، ص ٢٩٧

[٤٧٠] – المصدر، ص ٣٠٦

(٣٨١هـ) هو أول من يذكرها في كتابه "الاعتقادات". حيث روى حديثا عن النبي أنه قال" الأئمة بعدي إثنا عشر أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وآخرهم القائم، طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي، ومن أنكر واحدا منهم فقد أنكرني".[٤٧١]

وذكرها المفيد في كتابه هذا (الفصول المختارة) في حين لم يأت على ذكرها النوبختي في بداية القرن الرابع الهجري. ولم يذكر أي شئ عن "الاثني عشرية".

ولا يشير المفيد الى "الاسماعيلية" التي كانت تحكم الدولة الفاطمية في ذلك العصر، وهي "إمامية" قائمة وليست منقرضة، كما يزعم.

وإذا كان المفيد قد ضيق تعريف "الشيعة" بالإثني عشرية، فان تلميذه الشيخ الطوسي (٤٥١هـ) عاد ليوسعه قليلا بحيث يشمل عامة "الإمامية" فيقول:"إنه الاعتقاد بكون علي إماماً للمسلمين بوصية من الرسول، وبإرادة من الله".[٤٧٢]

وهو ما يكرره الشهرستاني (٥٤٨هـ) في كتابه (الملل والنحل) فيعرِّف الشيعة بأنهم: "الذين شايعوا عليا عليه السلام على الخصوص، وقالوا بامامته نصا ووصية، إما جليا أو خفيا، واعتقدوا أن الامامة لا تخرج من أولاده...ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر". [٤٧٣]

ويضيف:"هم القائلون بامامة علي عليه السلام بعد النبي (ص) نصا ظاهرا وتعيينا صادقا من غير تعريض بالوصف، بل اشارة اليه بالعين".[٤٧٤]

---

[٤٧١] – فقد قال في الباب ٣٥ باب الاعتقاد في عدد الأنبياء والأوصياء:" اعتقادنا أن حجج الله تعالى على خلقه بعد نبيه محمد (ص) الأثنا عشر، أولهم أمير المؤمنين... ثم محمد بن الحسن الحجة القائم صاحب الزمان خليفة الله في أرضه، صلوات الله عليهم أجمعين". الصدوق، الاعتقادات، ص ٩٣ وباب ٣٧ الاعتقاد في الظالمين، ص ١٠٤ وذلك حسب أقدم نسخة وصلتنا مخطوطة عام ٨١٧ هـ، محفوظة في مكتبة المرعشي في قم تحت رقم ١٩٤٥ ولا يمكننا التأكد فيما إذا كان الصدوق قد سبق المفيد في تبني "الاثني عشرية".وقد رد المفيد على كتاب الصدوق "الاعتقادات" بكتاب تحت عنوان "تصحيح الاعتقادات بصواب الانتقاد" ولم يرد في العنوانين ذكر للأثني عشرية.

[٤٧٢] – الطوسي، تلخيص الشافي، ج٢ ص ٥٦

[٤٧٣] – الشهرستاني، الملل والنحل، ج١ ص ١٤٤

وهذا ما يذهب اليه أيضا الشيخ أحمد الوائلي (٢٠٠٣م) بقوله:"إن جوهر التشيع هو الالتزام بإمامة علي وولده وتقديمه على غيره لوجود نصوص عندهم في ذلك".[٤٧٥]

المبحث الثاني: متى ولد التشيع؟

كما قلنا في الباب الثاني عند تعريف مذهب "أهل السنة" وتاريخ ميلاده، كذلك نقول هنا في مبحث "التشيع": لا يمكن تحديد ساعة زمنية لولادة "المذهب الشيعي" في التاريخ، وذلك لأنه عبارة عن تراكم مجموعة أفكار ونظريات ومواقف ومحطات سياسية عبر فترة طويلة من التاريخ، وليس وليد يوم معين أو حادثة معينة، وإن مضمون "التشيع" ظل عرضة للتغير والتطور والإبدال والتناقض بين التيارات المختلفة، التي فسرت المذهب كما تريد، أو قامت بقراءة التاريخ السابق على ولادتها قراءة جديدة، وأرخت لنفسها من بعض الأحداث أو المواقف السياسية والفكرية السابقة.

وكما اختلفت الإجابة عن مفهوم التشيع، بناء على هوية المجيب، فان الجواب عن تاريخ ولادة التشيع تختلف كذلك بين الفرق الشيعية المختلفة.

ومن المعروف أن الشيعة عبر التاريخ انقسموا بصورة رئيسية الى كيسانية، وزيدية (جارودية وسليمانية وبترية)، وإمامية (اسماعيلية وفطحية وموسوية). وفيما انقرضت الكيسانية مع وفاة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية سنة ٩٥ للهجرة، و تضاءلت الاسماعيلية بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ لم يبق سوى الزيدية الذين ظلوا يحكمون اليمن طوال ألف عام، والامامية الاثنا عشرية الذين يشكلون اليوم غالبية الشيعة العظمى.

فبينما يذهب الإمامية الذين يؤمنون بالنص على الامام علي، إلى أن ميلاد التشيع كان في عهد النبي وفي يوم الغدير بالخصوص، يقول بقية الشيعة الذين لا يرون في حديث الغدير نصا صريحا بالخلافة، الى

---

[٤٧٤] – المصدر، ج١ ص ١٦٣

[٤٧٥] – الوائلي، أحمد، هوية التشيع، ص ١٣

تطور التشيع خلال الأحداث السياسية اللاحقة. ومن هنا نشأت عدة نظريات حول تاريخ ولادة المذهب الشيعي، وهي حسبما يرتبها أسعد القاسم، كما يلي:

١- في زمن النبي الأكرم (ص).

٢- بعد السقيفة واعتراض علي وتأخره في بيعة أبي بكر.

٣- أيام الثورة على عثمان.

٤- في حرب الجمل وصفين.

٥- بعد كربلاء. [٤٧٦]

٨- في زمن النبي الأكرم:

اعتاد شيوخ المذهب الإمامي أن يضعوا بداية لمولد التشيع في أيام الرسول الأعظم (ص) وخصوصا في يوم الغدير (١٨ ذي الحجة، بعد العودة من حجة الوداع في السنة الأخيرة من حياة الرسول) والإيمان باقتران المذهب الشيعي مع الاسلام، وأنه الممثل الحقيقي والرئيسي للاسلام، ووصف المذاهب الأخرى بالخروج والابتداع والانشقاق عن الخط الرئيسي للاسلام والمسلمين. كما فعل أنصار المذهب "السُنّي" حسبما رأينا في الباب الثاني الماضي.

وحسب هذه النظرية فإن الشيعة يعتبرون أنفسهم طائفة دينية قبل أن تكون حزبا سياسيا، فضلاً عن أن تكون حزبا سياسيا تقنَّع بالدين.

يقول الشيعة "الإمامية": إن التشيع كان موجودا في زمان رسول الله (ص) وأنه نشأ على يديه، وأن النبي الأكرم قد نص على الإمام علي في غدير خم بالإمامة والولاية، حيث ورد أن النبي قال فيه:"من كنت مولاه فهذا علي مولاه". وأوصى له بعد وفاته.[٤٧٧]

[٤٧٦] – القاسم، اسعد، أزمة الخلافة والإمامة، ص ٢٧١

وكما يقول المتكلم الشيعي الإمامي الحسن بن موسى النوبختي (٣١٠هـ): إن "شيعة علي" سموا بهذا الاسم في زمن النبي (ص) وبعده، وإنهم كانوا معروفين بانقطاعهم إليه والقول بإمامته. وإن الشيعة افترقت بعد وفاة النبي (ص) ثلاث فرق، وإن فرقة منهم قالت:" أن عليا إمام مفترض الطاعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله... وإن النبي (ص) نص عليه وأشار إليه باسمه ونسبه وعينه، وقلد الأمة إمامته ونصبه لهم علما وعقد له عليهم إمرة المؤمنين وجعله أولى الناس منهم بأنفسهم في مواطن كثيرة مثل غدير خم...".[٤٧٨]

ويقول الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (١٣٧٣هـ): "إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية، يعني أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى

[٤٧٧] - الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من سلاح رسول الله، ح رقم ٩ و ج ١ ص ٢٣٦ والمفيد، الأمالي، ص٢٢٠، المجلس رقم٢١، والإرشاد، ص ١٨٨ ويبين محمد بن علي بن بابويه الصدوق في "الاعتقادات" عقيدة الشيعة بأهل البيت فيقول:"ان الله تعالى خلق جميع ما خلق له (لمحمد) ولأهل بيته عليهم السلام، وأنه لولاهم لما خلق الله السماء والأرض ولا الجنة ولا لانار، ولا أدم ولا حواء، ولا الملائكة ولا شيئا مما خلق، صلوات الله عليهم أجمعين. واعتقادنا أن حجج الله تعالى على خلقه بعد نبيه محمد (ص) الأئمة الاثنا عشر...واعتقادنا فيهم: أنهم أولوا الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ... وأن أمرهم أمر الله تعالى، ونهيهم نهي الله تعالى، وطاعتهم طاعة الله تعالى، ووليهم ولي الله، وعدوهم عدو الله تعالى، ومعصيتهم معصية الله تعالى". الصدوق، ٣٨١ هـ، الاعتقادات، ص ٩٤، تحقيق عصام عبد السيد، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ط ١، قم ايران، ١٤١٣

[٤٧٨] - النوبختي، فرق الشيعة، ص ١٨ – ٢٠ ويعترف بعض أهل السنة كالسيوطي وابن حجر المكي بالرواية الشيعية حول استعمال النبي لكلمة "الشيعة"، وإشارته لعلي وقوله: " والذي نفسي بيده ان هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة، أولئك هم خير البرية" (البينة ٧). السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، ج٦ ص ٣٧٩ ولكن ابن حجر يقول معقبا: "وشيعته هم أهل السنة، ولا تتوهم الشيعة قبحهم الله". ابن حجر المكي، الصواعق المحرقة، ص ١٥٢ واذا صح هذا الحديث فربما كان النبي يشير الى فضائل علي واخلاقه وشيعته المتابعين له في اخلاقه، وليس الشيعة بالمعنى السياسي أو العقدي. كما ينقل النوبختي عن الفرقتين الأخريين اللتين قالتا: "بأن عليا كان أولى الناس بعد رسول الله (ص) بالناس لفضله وسابقته وقرابته وعلمه، وهو أفضل الناس كلهم بعده...". ص ١٨ – ٢٠

جنب، وسواء بسواء، ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والرعي حتى نمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته".[٤٧٩]

وهكذا يقول الشيخ محمد جواد مغنية (١٩٧٩م): "إن النبي هو الذي بعث عقيدة التشيع وأوجدها، ودعا الى حب علي وولائه، وأول من أطلق لفظ الشيعة على أتباعه ومريديه، ولولاه لم يكن للشيعة والتشيع عين ولا أثر".[٤٨٠]

ويورد الشيخ أحمد الوائلي في كتابه "هوية التشيع" عدداً من النصوص التي يقول إنها تدل على تكوّن التشيع في أيام النبي. ويستنتج منها أن الإمامة لا تتم بالانتخاب والاختيار وإنما بالتعيين من الله تعالى فهو الذي ينص على الإمام عن طريق النبي.[٤٨١]

ويؤكد ذلك السيد محمد باقر الصدر (١٩٨٠م)، فيقول:"نرى أن الشيعة ولدوا منذ وفاة النبي مباشرة متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عمليا لأطروحة زعامة الإمام وقيادته التي فرض النبي الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة".[٤٨٢]

وينتقد الصدر، طريقة بعض الباحثين في دراسة التشيع بوصفه ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي، والنظر إلى القطاع الشيعي من جسم الأمة الاسلامية بصفته قطاعا تكون على مر الزمن، نتيجة لاحداث وتطورات اجتماعية معينة، أدت إلى تكوين فكري ومذهبي خاص لجزء من ذلك الجسم الكبير.[٤٨٣]

ويرفض الصدر النظريات العديدة التي تفترض نشوء التشيع على يد عبد الله بن سبأ، أو في عهد خلافة الامام علي، أو في أحداث متأخرة عن ذلك في التاريخ الاسلامي. ويقول: إن "الذي دعا – فيما

---

[٤٧٩] – كاشف الغطاء، محمد حسين، أصل الشيعة وأصولها، ص ٤٣

[٤٨٠] – مغنية، محمد جواد، الشيعة في الميزان، ص ٩ شبكة الإمامين الحسنين، قسم اللجنة العلمية

[٤٨١] – الوائلي، أحمد، هوية التشيع، الفصل الثاني ص ١٣و ٢٩

[٤٨٢] – الصدر، محمد باقر، في مقدمته لكتاب "تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة" للدكتور عبد الله فياض. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٦

[٤٨٣] – الصدر، محمد باقر، نشأة التشيع والشيعة، ص ١٣

أظن – كثيرا من هؤلاء الباحثين إلى هذا الافتراض والاعتقاد، بأن "التشيع " ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي، هو أن الشيعة لم يكونوا يمثلون في صدر الاسلام إلا جزءا ضئيلا من مجموع الأمة الاسلامية". [٤٨٤]

وفي الوقت الذي ينفي فيه الصدر بأن " اللاتشيع" (أي التسنن) كان يشكل القاعدة في المجتمع الاسلامي، و أن "التشيع" كان يشكل الاستثناء والظاهرة الطارئة. [٤٨٥] فانه يرفض "اتخاذ الكثرة العددية والضآلة النسبية أساساً لتمييز القاعدة والاستثناء، أو الأصل والانشقاق"، كما يرفض أيضا الربط بين ولادة الاطروحة الشيعية، وولادة كلمة "الشيعة "أو "التشيع" كمصطلح واسم خاص لفرقة محددة من المسلمين "لأن ولادة الأسماء والمصطلحات شئ ونشوء المحتوى وواقع الاتجاه والاطروحة شئ آخر .

فإذا كنا لا نجد كلمة " الشيعة " في اللغة السائدة في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو بعد وفاته، فلا يعني هذا أن الاطروحة والاتجاه الشيعي لم يكن موجودا".[٤٨٦]

بيد أن الصدر لم يميز بين معاني التشيع المختلفة الروحية والعاطفية والسياسية والعقدية، ولم يذكر أو يثبت وجود النوع الأخير من التشيع "العقدي" في زمن الرسول الأكرم.

وإذا عدنا الى النوبختي لوجدناه يتحدث عن افتراق الشيعة بعد وفاة رسول الله (ص) الى ثلاث فرق، وأن الفرقتين الأخريين كانتا تذهبان إلى أولوية الامام علي بالخلافة، أي أنهما لم تكونا تعتقدان بالنص عليه من النبي، وبالتالي فانهما لم تكونا تريان في حديث الغدير أو الوصية دليلا على الإمامة، وأن معنى التشيع لعلي في زمن النبي أو بعد وفاته كان مجرد حب أو ولاء عاطفي. ولم يكن يحمل المعاني السياسية والدينية التي ألحقت به فيما بعد.

وأما الفرقة الأولى التي يتحدث عنها النوبختي، فهو مجرد إدعاء منه، ولا يوجد دليل على وجودها في زمن النبي. ولذلك لم يفهم الامام علي من تلك النصوص معنى الوصية السياسية، و "لم يدعُ إلى نفسه وأقر

---

[٤٨٤] – المصدر، ص ١٥

[٤٨٥] – المصدر

[٤٨٦] – المصدر، ص ١٦

القوم على ما صنعوا وكتم أمره" حسبما يقول مؤسس المذهب الإمامي الإمام محمد بن علي الباقر (١١٤هـ). [٤٨٧]

وقد قيل للحسن بن الحسن بن علي (٣٧ -٩٧هـ)، الذي كان كبير الطالبيين في عهده: ألم يقل رسول الله "من كنت مولاه فعلي مولاه"؟ فقال: بلى، ولكن - والله - لم يعنِ رسول الله بذلك الإمامة والسلطان، ولو أراد ذلك لأفصح لهم به.[٤٨٨]

وكان ابنه عبد الله يقول:" ليس لنا في هذا الأمر ما ليس لغيرنا، و ليس في أحد من أهل البيت إمام مفترض الطاعة من الله" وكان ينفي إمامة أمير المؤمنين أنها من الله .[٤٨٩] مما يعني أن نظرية النص أو "الإمامة الإلهية" في أهل البيت، لم يكن لها رصيد كبير لدى الجيل الأول من الشيعة. وأن التشيع لهم كان تشيعا سياسيا، وليس دينيا.

ومن هنا فقد كانت نظرة الشيعة الى الشيخين أبي بكر وعمر نظرة إيجابية، إذ لم يكونوا يعتبرونهما "غاصبين" للخلافة التي تركها رسول الله شورى بين المسلمين، ولم ينص على أحد بالخصوص.

٩- بعد السقيفة

وإذ يَضعُف القول بولادة التشيع "الديني" في حياة النبي، يترجح القول بولادة التشيع بالمعنى "السياسي" بعد اجتماع سقيفة بني ساعدة وانتخاب أبي بكر كخليفة أول للرسول، حيث أمسك الإمام علي يده عن بيعة أبي بكر لفترة من الوقت (حوالي ستة أشهر) لأنه كان يشعر بأنه أولى منه بالخلافة، وقد عبر عن ذلك بقوله:"إنهم احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة".[٤٩٠] وقوله:"إن النبي (ص) قبض وما أرى أحدا

---

[٤٨٧] - الكليني، روضة الكافي، ص ٢٤٦ وقد بحثت ذلك مفصلا في كتابي "التشيع السياسي والتشيع الديني"، الفصل التاسع والعاشر: تنزيه الباقر والصادق عن القول بنظرية الإمامة، ص ٢٣٧ – ٢٨٨، دار الانتشار العربي، بيروت ط ١، ٢٠٠٨

[٤٨٨] - ابن عساكر، التهذيب، ج ٤، ص ١٦٢

[٤٨٩] - الصفار، بصائر الدرجات، ص ١٥٣، و١٥٦

[٤٩٠] - الإمام علي، نهج البلاغة، ص ٩٨ وهناك روايات أخرى يذكرها الشريف الرضي في "نهج البلاغة" توحي بشعور الإمام علي بالأولوية بالخلافة، مثل الخطبة الشقشقية (خطبة رقم ٣) وبغض النظر عن المناقشة في سند نهج البلاغة، أو

أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس أبا بكر، فبايعت كما بايعوا، ثم إن أبا بكر رضي الله عنه هلك وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس عمر بن الخطاب. فبايعت كما بايعوا، ثم إن عمر رضي الله عنه هلك وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر مني، فجعلني سهما من ستة أسهم، فبايع الناس عثمان فبايعت كما بايعوا، ثم سار الناس الى عثمان رضي الله عنه فقتلوه، ثم أتوني فبايعوني طائعين غير مكرهين، فأنا أقاتل من خالفني بمن اتبعني حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين". [٤٩١]

ولم يكن الشيعة في عهدهم الأول سوى فريق من المسلمين يؤمن بأفضلية الامام علي وأحقيته بالخلافة، ويقال إن ثلة من الصحابة كعمار بن ياسر، وأبي ذر، وسلمان الفارسي، والمقداد، والزبير بن العوام، والعباس عم النبي (ص) كانوا يعتقدون بأحقية الامام علي بالخلافة مباشرة بعد الرسول.

وهذا ما يقوله ابن خلدون بأن:" الشيعة ظهرت لما توفي الرسول وكان أهله يرون أنفسهم أحق بالأمر وأن الخلافة لرجالهم دون سواهم من قريش، ولما كان جماعة من الصحابة يتشيعون لعلي ويرون إستحقاقه على غيره، ولما عدل به إلى سواه تأففوا من ذلك".[٤٩٢]

وهو أيضا ما يذهب اليه المستشرق جولدتسيهر من أن التشيع نشأ بعد وفاة النبي، وبالضبط بعد حادثة السقيفة، حيث يقول:"توفي النبي ولم يعرف المسلمون، معرفة صحيحة لا يتطرق اليها الشك، رأيه في ولاية الحكم في الجماعة الاسلامية، فأصبحت المسالة المهمة الشاغلة لأذهان المسلمين هي الفصل في مسألة الخلافة...غير أنه نشأ بين كبار الصحابة، منذ بدأت مشكلة الخلافة، حزب نقم على الطريقة التي انتخب

سند هذه الخطبة، فانها تشير إلى شعور الإمام علي بأولويته بالخلافة وأحقيته بها دون أن يذكر نصا صريحا عليه من النبي بالخلافة.

[٤٩١] - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثالث، ص ١٢

[٤٩٢] – تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٣٦٤ اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٠٤ وأحمد أمين في فجر الاسلام، ص ٢٦٦

بها الخلفاء الثلاثة الأول، وهم أبو بكر وعمر وعثمان... ولم يجد هذا الحزب فرصة مواتية، يسمع بها صوته عاليا، إلا حينما كان على رأس الدولة الاسلامية الخليفة الثالث عثمان" [٤٩٣]

وكذلك المستشرق فلهاوزن، الذي يقول إن المسلمين انقسموا بعد مقتل عثمان الى فئتين: حزب علي وحزب معاوية، والحزب يطلق عليه في العربية اسم "الشيعة" فكانت شيعة علي في مقابل شيعة معاوية، وينفي تشكيل الشيعة في العراق في الأصل فرقة دينية، وأن إسم الشيعة كان "تعبيرا عن الرأي السياسي في هذا الإقليم كله، فكان جميع سكان العراق، خصوصا أهل الكوفة، شيعة علي، على تفاوت فيما بينهم". [٤٩٤]

وهو ما يذهب اليه الدكتور عبد الله فياض، الذي يقول:"ظهرت بوادر التشيع السياسي أو الولاء لعلي دون الالتزام بقضية الاعتراف بإمامته الدينية، في سقيفة بني ساعدة، حين أسند حق علي بالخلافة عدد من المسلمين أمثال الزبير والعباس وغيرهما". [٤٩٥]

وفي الحقيقة لا يمكن إطلاق صفة "شيعة" بالمعنى السياسي الدائم والثابت، في ذلك الزمن المبكر على الأشخاص الذين كانوا يفضلون الامام عليا أو يتمنون أن يكون هو الخليفة بعد الرسول، وذلك لأن الإمام نفسه عاد فبايع أبا بكر وعمر وعثمان، وانخرط في النظام السياسي الجديد، كما تولى جميع أنصار الامام (أو الشيعة الأوائل) مناصب سياسية في دولة عمر، وأصبحوا ولاة له هنا وهناك. [٤٩٦]

---

[٤٩٣] – جولدتسيهر، اجنتس (١٩٢١)، العقيدة والشريعة (١٩١٠)، ص ١٨٩ الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد

[٤٩٤] – فلهاوزن، يوليوس (–١٩١٨) الخوارج والشيعة، ص ١٤٦– ١٤٨ ترجمة عبد الرحمن بدوي ط القاهرة

[٤٩٥] – وبلغ التشيع السياسي أقصى مداه حين بويع علي بالخلافة بعد مقتل عثمان. فياض، عبد الله، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، ص ٤٤،

[٤٩٦] – مثل عمار بن ياسر الذي أصبح واليا على الكوفة، وسلمان الفارسي الذي أصبح واليا على المدائن، والبراء بن عازب (من قادة الفتوح وواليا على الري سنة ٢٤)، وحذيفة بن اليمان (واليا من قبل عمر على المدائن)، وعثمان بن حنيف (ولاية العراق)، وهاشم المرقال (شارك في حرب القادسية وفتح المدائن)، ومالك الأشتر (شارك في فتوح الشام)، وعندما سافر عمر الى الشام ولَّى عليا مكانه في المدينة.

١٠- بعد مقتل عثمان، في الفتنة الكبرى

ويمكننا أيضا أن نؤشر بوضوح الى نشوء التشيع السياسي في التاريخ الاسلامي بنشوء المعارضة ضد عثمان، على يدي أبي ذر الذي أخذ يعارض إسراف والي الشام معاوية بن أبي سفيان وبذخه، ثم عمار بن ياسر ومجموعة من المهاجرين والأنصار الذين احتجوا على الفساد والمحاباة والظلم الذي بدأ يقترفه ولاة عثمان، وقيام عمار بحمل رسالة منهم الى عثمان، وتعرضه للضرب، وهو ما سنبحثه في الفصل التالي.

ثم تطور تلك المعارضة الى حركة ثورية سياسية أدت في النهاية الى مقتل عثمان، وانتخاب الامام علي. ثم تطور ذلك الاتجاه الى ولاء أشد، مع تولي الامام للخلافة، وقيام المعارضة ضده من قبل طلحة والزبير ومعاوية والخوارج.

ولا شك بظهور إسم "شيعة علي" في الفتنة الكبرى، وأن ذلك الاسم كان يحمل معنى التشيع السياسي للامام علي في مواجهة خصومه. وقد استعمل التشيع بمعناه اللغوي (المشايعة والمناصرة) في صحيفة التحكيم التي نصت على شيعة لعلي وشيعة لمعاوية.

وما يؤكد نشوء التشيع كظاهرة سياسية عامة، في عهد عثمان والفتنة الكبرى، أن الشيعة في القرن الأول لم يكونوا يوجهون أي نقد للشيخين أبي بكر وعمر، أو يتخذون أي موقف سلبي منهما، وإنما كان جل نقدهم موجهاً لعثمان ومعاوية ويزيد والأمويين.

حسبما يقول إمام أهل السُنَّة في القرن الخامس، هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، نقلا عن حريث بن أبي مطر قال سمعت سلمة يقول: جالست المسيب بن نجية الفزاري في هذا المسجد عشرين سنة وناسا من الشيعة كثيرا فما سمعت أحدا منهم تكلم في أحد من اصحاب رسول الله إلا بخير، وما كان الكلام إلا في علي وعثمان.[٤٩٧]

---

[٤٩٧] - اللالكائي، هبة الله (٤١٨)، شرح اصول اعتقاد أهل السنة، فقرة رقم ٢٦١٣ تحقيق أحمد بن سعيد الغامدي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثامنة ٢٠٠٣

وهذا ما يؤكده القاضي المعتزلي عبد الجبار الهمداني، بقوله "أن الشيعي في ذلك الزمان من يقدم عليا على عثمان".[٤٩٨] كما لم تكن سُنَّة الشيخين أبي بكر وعمر مطروحة كأساس للتمييز بين المسلمين.[٤٩٩] أو تشكل مادة في برنامج الامام علي الذي كان يمثل الكتلة الرئيسية في الأمة الاسلامية، وقد كان الامام علي وابنه الحسن يأخذان البيعة من شيعتهما على كتاب الله وسُنَّة نبيه.[٥٠٠]

١١- بعد كربلاء

واذا كان التشيع السياسي قد خفَتَ قليلا بعد تنازل الامام الحسن عن الخلافة وصلحه مع معاوية، وما أعقبه من اندماج الشيعة في جيش معاوية، في عام الجماعة، سنة ٤١،[٥٠١] فان قيام معاوية باستخلاف ابنه

---

[٤٩٨] - وذلك لدى حديث الهمداني عن واصل بن عطاء وتفضيله لعلي على عثمان، ونسبته بسبب ذلك الى التشيع. الخيون، رشيد، معتزلة البصرة وبغداد، ص ٧٤

[٤٩٩] - يقول الطبري:" لما خرجت الخوارج من الكوفة أتى عليا أصحابه وشيعته فبايعوه وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت، فشرط لهم فيه سنة رسول الله (ص)، فجاءه ربيعة بن أبي شداد الخثعمي فقال له: بايع على كتاب الله وسنة رسوله (ص) فقال ربيعة: على سنة أبي بكر وعمر، قال له علي: ويلك! لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسول الله (ص) لم يكونا على شيء من الحق، فبايعه...". الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثالث، ص ١١٦

[٥٠٠] - يقول الطبري:في هذه السنة – اعني سنة اربعين — بويع للحسن بن علي عليه السلام بالخلافة، وقيل: أن أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك ابايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلين، فقال الحسن رضي الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه، فان ذلك يأتي من وراء كل شرط. فبايعه وسكت وبايعه الناس... الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثالث، ص ١٦٤

[٥٠١] – كتب الحسن الى قيس بن سعد وهو على مقدمته في اثني عشر ألفا يأمره بالدخول في طاعة معاوية، فقام قيس بن سعد في الناس فقال: يا أيها الناس، اختاروا الدخول في طاعة امام ضلالة، او القتال مع غير امام، قالوا: لا، بل نختار ان ندخل في طاعة امام ضلالة. فبايعوا لمعاوية... الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثالث، ص ١٦٥

يزيد فجر معارضة كبيرة في صفوف المسلمين وخاصة الشيعة في الكوفة، الذين سارعوا بعد وفاة معاوية سنة ٦٠، الى رفض بيعة يزيد، واستدعاء الحسين ليكون إماما عليهم .[٥٠٢]

وقد هز مقتل الحسين وأهل بيته، في كربلاء في العاشر من محرم سنة ٦١ للهجرة، بتلك الصورة الوحشية، مشاعر المسلمين، وسخطهم، وولد "حركة التوابين" التي انطلقت من الكوفة بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي للثأر لمقتل الحسين، سنة ٦٥ للهجرة.

ثم ولد حركة المختار بن عبيدة الثقفي، الذي ظهر في الكوفة سنة ٦٧ هـ، ونجح في السيطرة عليها لبعض الوقت والانتقام من قتلة الحسين. وهو ما يمكن أن نسميه بالتشيع العاطفي والسياسي. والذي شكل منطلقا لظهور الشيعة كحركة سياسية معارضة، والانفصال التام عن النظام الأموي.[٥٠٣]

إذن فان تحديد تاريخ ولادة التشيع، يتوقف على تحديد مضمون التشيع فيما إذا كان روحيا أو سياسيا أو عقديا. وإذا قلنا بأن بدايته كانت سياسية فانه ولد وتطور بعد وفاة رسول الله (ص).

الفصل الثاني

التشيع السياسي: جوهر المذهب الشيعي

[٥٠٢] – المفيد، الإرشاد، ص ٢٠٤

[٥٠٣] – يقول الدكتور كامل مصطفى الشيبي (٢٠٠٦): " ويتضح بعد ذلك أن التشيع قد عاصر بدء الإسلام باعتباره جوهرا له، وأنه ظهر كحركة سياسية بعد أن نازع معاوية عليا على الإمارة وتدبير شؤون المسلمين، ويتبين بعد ذلك أن تبلور الحركة السياسية تحت اسم الشيعة كان بعد قتل الحسين عليه السلام مباشرة وإن كانت الحركة سبقت الاصطلاح وبذلك يمكننا أن نلخص هذا الفصل في كلمة بيانها: أن التشيع كان تكتلا إسلاميا ظهرت نزعته أيام النبي، وتبلور اتجاهه السياسي بعد قتل عثمان، واستقل الاصطلاح الدال عليه بعد قتل الحسين (الصلة بين التصوف والتشيع ص ٢٣).

قلنا في الباب الثاني: إن المذهب السُنّي كان صدى لثقافة الأنظمة السياسية (القرشية والأموية والعباسية وغيرها) وسنحاول في هذا الباب التعرف على جوهر المذهب الشيعي، وعلى السر الذي يكمن وراء التفاف قطاع كبير من الأمة الإسلامية حول الإمام علي بن أبي طالب، وأهل بيته الى اليوم، وفيما إذا كان المذهب الشيعي يمثل المعارضة الشعبية للأنظمة الديكتاتورية عبر التاريخ؟.

المبحث الأول: لماذا التشيع للإمام علي؟

بغضِّ النظر عن فضائل الإمام علي بن أبي طالب الشخصية، وجهاده في سبيل الاسلام، ووجود النص عليه من النبي الأكرم بالخلافة، أو عدم وجود ذلك، لا بد من البحث عن السر وراء حدوث التشيع له في حياته وبعد وفاته، والنظر في سياسته وقراراته وأفكاره ومواقفه خلال فترة حكمه القصيرة التي لم تتجاوز خمس سنوات.

فقد كان الإمام علي نموذجا فاصلا بين مرحلتين عرفتهما الأمة الاسلامية، وهما مرحلة الخلافة الراشدة، ومرحلة الملك العضوض والانقلاب على الأمة، والإمام، وإن كان ينتمي الى مرحلة الخلافة الراشدة، إلا أنه كان يتفوق على الخلفاء السابقين – فضلا عن الحكام اللاحقين – ببعض النقاط الإيجابية، مما جعله رمزاً متلألئاً للعدل والشورى في العصور اللاحقة، ولا سيما بعد انقلاب الخلافة الى ملك عضوض، وتفشي الظلم والتمييز والطغيان.

١– إتباع الكتاب والسُنَّة والاجتهاد.

وقد عبر الإمام علي عن منهجه هذا يوم الشورى، عندما عرض عليه عبد الرحمن بن عوف الخلافة على شرط اتباع الكتاب والسُنَّة وسيرة الشيخين، فوافق على الشرطين الأولين، ورفض الشرط الأخير واستبدله بالاجتهاد.

وهذا ما فعله لاحقا عندما تولى الخلافة بعد عثمان، وكان يعلن عنه بين آونة وأخرى، ويقول:"نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استن النبي (ص) فاقتديته". [٥٠٤] و"إنه ليس على الإمام إلا ما حمِّل من أمر ربه: الابلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسُنَّة".[٥٠٥]

٢- الموقف من الشورى

على العكس مما يعتقد أصحاب نظرية "النص" يشكل الامام علي – في نظري – امتداداً لخط الشورى[٥٠٦]، الذي تبلور في سقيفة بني ساعدة، حيث تم انتخاب أبي بكر كأول خليفة للمسلمين بعد النبي، من قبل زعماء المهاجرين والأنصار، ثم مبايعته طوعا في المسجد النبوي الجامع من قبل بقية المسلمين. بالرغم من عدم مشاركة الإمام علي في تلك الشورى في البداية، والملاحظات الجزئية التي شابت عملية الانتخاب، والتي دفعت أحد أركانها وهو عمر بن الخطاب، لانتقادها لاحقاً.[٥٠٧] وذلك لأن البيعة كانت تعني أن السلطة للأمة تخولها بإرادتها لمن تشاء، ولمن تفوضه لتطبيق الشريعة الإسلامية والحفاظ على مصالحها.

---

[٥٠٤] – الإمام علي، نهج البلاغة، من كلام له رقم ٢٠٥، ص ٣٢٢ والتزم سنة النبي بعدم الوصية أو العهد الى أحد من بعده بالخلافة، فقال:"إنا دخلنا على رسول الله فقلنا استخلف، فقال: لا .. أخاف ان تفرقوا عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون، ولكن إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يختر لكم ". ابن كثير، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥

[٥٠٥] – الامام علي، نهج البلاغة، من خطبة له رقم ١٠٥ ص ١٥٢

[٥٠٦] – سوف نبحث موضوع "التشيع الديني" الذي يعتقد بوجود النص على الإمام علي بالخلافة، في الفصل القادم، ونبين موقف الامام وبقية أئمة أهل البيت من ذلك.

[٥٠٧] – بقوله:" ألا ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، فأيما رجل بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فانه لا يؤمر واحد منهما تغرة أن يقتلا ". الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ص ١٦ القاضي عبد الجبار الهمداني، المغني ج٢٠ القسم الأول ص ٣٤٠

وقد بايع الإمام علي أبابكر ورفض استقالته قبيل وفاته، عندما قال:" أقيلوني، إن الله ردَّ عليكم أمركم فأمِّروا عليكم من أحببتم". فقام إليه علي فقال:" يا أبا بكر، لا نقيلك ولا نستقيلك".[٥٠٨]

ويتفق الإمام علي مع عمر بن الخطاب في آرائه حول الشورى والبيعة وحق الأمة في انتخاب أئمتها، والمتمثلة في قول عمر:"لا خلافة إلا عن مشورة".[٥٠٩] و"من دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه. (أو) فلا يحل لكم أن لا تقتلوه".[٥١٠] "من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يُتابَع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا".[٥١١] و"إن هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثم في أهل أحد ما بقي منهم أحد، وفي كذا وكذا، وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفتح شيء".[٥١٢]

فقد قال الإمام علي للثوار الذين اتجهوا صوبه، وطوقوا منزله ثلاثة أيام مطالبين إياه بتولي الخلافة:" لا تعجلوا فإن عمر كان رجلا مباركا، وقد أوصى بها شورى، فأمهلوا يجتمع الناس ويتشاورون".[٥١٣] وأمسك يده قائلا: "ليس ذلك إليكم وإنما هو لأهل الشورى وأهل بدر". وفي رواية أخرى قال:" إنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضى".[٥١٤]

٣- الزهد في الدنيا، والخلافة وسيلة وليست غاية

---

[٥٠٨] - المصدر، ج٢٠ قسم ٢ ص ١٤٦

[٥٠٩] - المتقي الهندي،كنز العمال، ج٥ ح٢٣٥٤

[٥١٠] - سيرة ابن هشام ج٤ ص ٢٢٦ والسيرة الحلبية ج٢ ص ٤٨٦ والبخاري مع الفتح ١٤٥/١٢ ح ٦٨٣٠. المتقي الهندي،كنز العمال، ج٥ ح٢٣٥٤

[٥١١] - وقد قال ذلك عندما بلغه وهو بمنى في آخر حجة له: أن رجلا قال:"لو مات عمر بايعت فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت". فقال عمر:"إني – ان شاء الله – لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم". ولما وصل المدينة قام في أول جمعة فخطب خطبته المشهورة في شأن خلافة أبي بكر، ثم قال:"...لقد كانت فلتة...". سيرة ابن هشام ج٤ ص ٢٢٦ والسيرة الحلبية ج٢ ص ٤٨٦ والبخاري مع الفتح ١٤٥/١٢ ح ٦٨٣٠.

[٥١٢] - السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٥

[٥١٣] - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص ١٥

[٥١٤] - الإمام علي، نهج البلاغة، من كتاب له، رقم ٦

وفي الوقت الذي كان فيه بعض الصحابة يعمل بجد من أجل الوصول الى السلطة بأية وسيلة، كان الإمام علي بن أبي طالب يزهد فيها ويهرب منها، ويرفض العرض المقدم له من قبل الثوار بتولي الخلافة، ويقول لهم:" دعوني والتمسوا غيري ... واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغِ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً".[٥١٥]

وعندما قبل الثوار شروطه، وأصروا على اختيارهم له، قال الإمام علي:" فان أبيتم ..فان بيعتي لا تكون سراً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين..ولكن اخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني فليبايعني. وإن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر".[٥١٦]

ولم يجبر أحدا على بيعته، وقد قاطعها سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة.[٥١٧]

وأعرب عن هدفه من قبول الخلافة قائلا: "أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كضة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز". [٥١٨]

وعندما خرج عليه طلحة والزبير قال: "والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها، فلما أفضت إلي نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استن النبي (ص) فاقتديته".[٥١٩] "وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى!". [٥٢٠]

٤– رفض توريث الخلافة، أو العهد بها الى أحد

---

[٥١٥] – المصدر، خطبة رقم ٩٢

[٥١٦] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣ ص ٤٥٠

[٥١٧] – حيث قال لطلحة في البصرة:" ألم تعلم أني ما أكرهت أحداً على البيعة؟، ولو كنت مكرها أحدا لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد بن مسلمة، أبو البيعة واعتزلوا، فتركتهم". الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١ ص ٧٠

[٥١٨] – الإمام علي، نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية، ص ٥٠

[٥١٩] – المصدر، من كلام له رقم ٢٠٥، ص ٣٢٢

[٥٢٠] – المصدر، فقرة رقم ٢٢٤ من كلام له، ص ٢٤٦ — ٢٤٧

وقد اختلف الإمام علي مع أبي بكر وعمر في أنه لم يعتمد طريقة العهد الى أحد من بعده، كما فعل أبو بكر بالنسبة لعمر، أو كما فعل عمر بالنسبة للشورى القرشية (الستة). وعندما طلب منه المسلمون أن يستخلف إبنه الحسن، قال:" لا، إنا دخلنا على رسول الله فقلنا استخلف، فقال: لا .. أخاف أن تفرقوا عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون، ولكن إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يختر لكم".[٥٢١]

وسألوه أن يشير عليهم بأحد، فرفض، فقالوا له: إن فقدناك فلا نفقد أن نبايع الحسن، فقال لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر".[٥٢٢]

ولم يحصر الخلافة في قريش كما فعل عمر بالوصية الى ستة من زعماء قريش واختيار أحدهم من بعده، وإنما ترك الأمرَ من بعده لعامة المسلمين وقال: "أيها الناس.. إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه". ولم يقيده في قريش أو المهاجرين والأنصار. وأوصى بنيه وأهله وخاصة شيعته قائلاً:" دعوا الناس وما رضوا لأنفسهم وألزموا أنفسكم السكوت".[٥٢٣]

٥- إعلان الحرب على الظلم والظالمين

وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها الإمام علي بعد توليه الخلافة، والمهمة الرئيسية التي عمل من أجلها، هي محاربة الظلم والظالمين، فخطب قائلا:"أيها الناس، أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها". [٥٢٤]

وقال:"أقدموا على الله مظلومين، ولا تقدموا عليه ظالمين، واتقوا مدارج الشيطان، ومهابط العدوان". [٥٢٥]

---

[٥٢١] – ابن كثير، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥

[٥٢٢] – القاضي الهمداني، عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة ج١ ص ٢١٢ والشريف المرتضى، الشافي ج٣ ص ٢٩٥ وأكد ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب (مقتل الإمام أمير المؤمنين) والسيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ٩

[٥٢٣] – الإمام علي، نهج البلاغة، خطبة رقم ١٧٣

[٥٢٤] – المصدر، من كلام له رقم ١٣٦، ص ١٩٤

وأعلن: "ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى:"ان الله لا يغفر أن يشرك به" وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات. وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا". [٥٢٦]

و"إن من أحب عباد الله اليه عبدا أعانه الله على نفسه...قد أخلص لله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، وأوتاد أرضه، قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به..". [٥٢٧]

وحذر أصحابه قائلاً: "لا يحضرن أحدكم رجلا يضربه سلطان جائر ظلما وعدوانا، ولا مقتولا ولا مظلوما إذا لم ينصره، لأن نصرة المؤمن عليه فريضة واجبة. لئن أمهل (الله) الظالم فلن يفوت أخذه، وهو له بالمرصاد". [٥٢٨]

وأوصى واليه على مصر مالك الأشتر قائلا:"إن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية". [٥٢٩] و"إن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرا من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فانه ليس في الجور عوض من العدل". [٥٣٠]

وكتب الى ابنه الحسن يوصيه:" يا بني إجعل من نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم". [٥٣١] وأوصى الحسن والحسين قائلا:" كونا للظالم خصما وللمظلوم عونا". [٥٣٢]

---

[٥٢٥] – المصدر، من خطبة له رقم ١٥١، ص ٢١١

[٥٢٦] – المصدر، من خطبة له رقم ١٧٦، ص ٢٥٥

[٥٢٧] – المصدر، من خطبة له رقم ٨٧، ص ١١٨ – ١١٩

[٥٢٨] – المصدر، خطبة رقم ٩٧

[٥٢٩] – المصدر، من كتاب له الى مالك الاشتر، لما ولاه على مصر، ص ٤٣٣

[٥٣٠] – المصدر، من كتاب له رقم ٥٩، ص ٤٤٩

[٥٣١] – المصدر، من وصيته لابنه الحسن، ص ٣٩٧

[٥٣٢] – المصدر، من وصية له رقم ٤٧، ص ٤٢١

ونظراً لحرص الإمام علي على إقامة العدل بدقة، فقد ساد الناس في عهده، جو من الاطمئنان الى حد التجرؤ على مخالفته والاعتراض عليه، حتى قال: "لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي". [٥٣٣]

٦- حق الأمة في المعارضة والإصلاح

كان الإمام علي يؤمن، كأخيه عمر بن الخطاب، بحق الأمة في مراقبة الحاكم ومحاسبته ونقده انطلاقا من واجبها في أداء الشهادة وممارسة الخلافة التي أوكلها الله لها. وكما قال عمر:"أيها الناس إذا وجدتم فيَّ إعوجاجاً فقوموني". ورحب بمن قال له:" اتق الله يا عمر!". وعقب على ذلك قائلا:" نعمَ ما قال.. لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نقبلها منكم".[٥٣٤]

فقد خاطب الإمام علي أصحابه قائلا: "... لا تكلموني بما تُكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حقٍ قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي لما لا يصلح لي، فانه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه .. فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني . فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره يملك منا ما لا نملك من أنفسنا...".[٥٣٥]

وطالب الأمة بممارسة حق المعارضة المشروعة في وجهه فيما لو تجاوز القوانين الإسلامية أو اعتدى على حق مواطن فقتله أو اعتقله دون ذنب، فقال في خطبة له تحدث فيها عن الخارجي "الخريت بن ناجية"

---

[٥٣٣] – المصدر، خطبة رقم ٩٧

[٥٣٤] – المصدر، ص١٩ عن مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، ص ١٥٥

[٥٣٥] – المصدر، خطبة رقم ٢١٦

ومحاولاته السابقة لدفع الإمام لقتل واعتقال عدد من زعماء المعارضة، وقول الإمام له ولعموم الناس إن من واجبهم الوقوف أمامه ومنعه إذا أراد هو أن يفعل ذلك، والقول له:"اتق الله!".[٥٣٦]

وحين انشق عليه الخوارج وكفروه لأنه قبل بالتحكيم مع معاوية، لم يتخذ الإمام علي بحقهم أي إجراء عنيف، وأعلن في المسجد:" إن لهم علينا ثلاثة حقوق: أن لا نمنعهم مساجد الله، ولا نقطع عنهم الفيء ما دامت أيديهم مع أيدينا، ولا نقاتلهم حتى يقاتلونا".[٥٣٧]

وإذا ما قارنّا سياسة الإمام علي بسياسة عثمان من المعارضة، فسوف نجد فارقا كبيرا، فان عثمان كان يرفض النقد والنصح ويطالب الناس بالسكوت والطاعة، وعندما بدأ المسلمون ينتقدونه ويعارضونه، صعد المنبر وقال:" أما بعد فإن لكل شيء آفة ولكل أمر عاهة وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسترون عنكم ما تكرهون يقولون لكم ويقولون... ألا فقد والله عبتم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطأكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ولنتُ لكم وأوطأتكم كتفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي. أما والله لأنا أعز نفرًا وأقرب

---

[٥٣٦] – جاء، في كتاب الغارات، للثقفي، ص ٣٧٢، إن عبد الرحمن بن جندب نقل عن أبيه انه عندما وصل إلى الإمام علي خبر مقتل الخريت بن أرشد رئيس فرقة أو قبيلة بني ناجية الذين كانوا من الخوارج قال: "هوت أمه، ما كان انقص عقله وأجرأه على ربه، فانه جاءني مرة فقال لي: إن في أصحابك رجالا قد خشيت أن يفارقوك فما ترى فيهم؟ فقلت له: إني لا آخذ على التهمة، ولا أعاقب على الظن، ولا أقاتل إلا من خالفني وناصبني وأظهر لي العداوة، ثم لست مقاتله حتى أدعوه وأعذر إليه، فان تاب ورجع الينا قبلنا منه وهو أخونا، وان أبى إلا الاعتزام على حربنا استعنا بالله عليه وناجزناه، فكف عني ما شاء الله، ثم جاءني مرة أخرى فقال لي: إني خشيت أن يفسد عليك عبدالله بن وهب، وزيد بن حصين الطائي، إني سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتها لم تفارقهما عليها حتى تقتلهما أو توثقهما، فلا يفارقان محبسك أبدا، فقلت: إني مستشيرك فيهما، فماذا تأمرني به؟ قال: إني آمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابهما، فعلمت أنه لا ورع له ولا عقل، فقلت: والله ما أظن أن لك ورعا ولا عقلا نافعا، والله كان ينبغي لك أن تعلم أني لا أقتل من لم يقاتلني ولم يظهر لي عداوته، ولم يناصبني بالذي كنت أعلمتكه من رأيي حيث جئتني في المرة الأولى ووصفت أصحابك عندي، ولقد كان ينبغي لك لو أردت قتلهم ان تقول لي: اتق الله، لم تستحل قتلهم ولم يقتلوا أحدا ولم ينابذوك ولم يخرجوا من طاعتك؟" . راجع موقع: http://www.yasoob.com/books/htm1/m013/11/no1119.html

[٥٣٧] – ابن زنجويه، الأموال، حديث رقم ٦٣٠ موقع جامع الحديث http://www.alsunnah.com

المتقي الهندي علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، حديث رقم ٣١٥٦٩

ناصرًا وأكثر عددًا ... فكفوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم .. ألا فما تفقدون من حقكم والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبل ولم تكونوا تختلفون عليه".[٥٣٨]

وقد ضرب عثمان عمار بن ياسر لأنه قدم له كتابا ينتقد فيه بعض أعماله، حتى أغشي عليه وفتق بطنه.[٥٣٩] وعندما اشتكى عبد الله بن مسعود (خازن بيت المال في الكوفة) من الوالي الوليد بن عقبة (أخي عثمان لأمه) الذي كان يستدين من بيت المال ولا يرجعه، رفض عثمان الاستماع الى شكواه، وقال له:"انما أنت خازن لنا".[٥٤٠] وضرب عبد الله ابن مسعود حتى كسرت اضلاعه ومات.[٥٤١]

٧- المال العام أمانة بيد الإمام، وتوزيعه يتم بالسوية

وبالنسبة لتوزيع المال العام، فقد سار الإمام علي على نهج أبي بكر في توزيع المال على المسلمين بالسوية كأسنان المشط دون تفضيل أحد على أحد، سواء كان من أهل البيت أو من المهاجرين والأنصار أو

---

[٥٣٨] – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢ ص ٤٠

[٥٣٩] – يقول المؤرخون:"اجتمع ناس من أصحاب النبي، فكتبوا كتابا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنّة رسول الله وسنّة صاحبيه، وما كان من هبته خمس أفريقيا لمروان، وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين...ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان... فمضى حتى جاء دار عثمان، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية، فدفع إليه الكتاب فقرأه، فقال له: أنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: نعم... فقال مروان: يا أمير المؤمنين ان هذا العبد الأسود (يعني عمارا) قد جرّأ عليك الناس، وإنك ان قتلته نكلت به من وراءه، فقال عثمان: اضربوه، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه، فغشي عليه فجروه فطرحوه على باب الدار". الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢ ص ٤٨٥ والإمامة والسياسة ج١ ص ٣٥ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢ ص ٤٠ وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٦٦

[٥٤٠] – تاريخ الطبري ج٥ ص ١٣٤

[٥٤١] – الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١ ص ٥٠

من سائر العرب والمسلمين. ولكنه اختلف مع عمر الذي ارتأى أن يوزعه حسب سلم للرواتب يبتدأ من نساء النبي وأهل البيت ويمر بالمهاجرين والأنصار ثم العرب وينتهي بالموالي.[٥٤٢]

ومع ذلك فقد اتفق الامام مع عمر في نظرته إلى المال العام على أنه مال الله ومال الناس، و"أنه فيؤهم الذي أفاء الله عليهم، ليس هو لعمر ولا لآل عمر".[٥٤٣] وأنه لم يكن يأخذ لنفسه إلا كسائر المسلمين.[٥٤٤] وكان إذا احتاج أتى صاحب بيت المال، فاستقرضه، فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه، فيحتال له عمر، وربما خرج عطاؤه فقضاه.[٥٤٥]

واختلف الإمام علي اختلافا كبيرا مع عثمان بن عفان في نظرته الى المال العام وفي طريقة توزيعه، حيث كان عثمان يولي أقاربه على الأمصار، ويؤثرهم على غيرهم، ويغدق عليهم من أموال المسلمين بدون استحقاق، حتى أنه أعطى خمس أفريقيا كله لمروان بن الحكم.[٥٤٦] وعندما اعترض عليه الصحابة خطب فيهم قائلا:"مالي لا أفعل في الفضل ما أريد؟ فلِمَ كنت إماماً إذاً؟".[٥٤٧]

بينما كان الإمام علي بن أبي طالب شديدا في الحفاظ على المال العام واعتباره مال الله وأنه أمين عليه، كما يتضح من رسالة بعثها إلى عامله على أذربيجان، الأشعث بن قيس، قال فيها: "إن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه أمانة في عنقك، والمال مال الله، وأنت من خزاني عليه حتى تسلمه إليَّ إن شاء الله، وعلّي لا

---

[٥٤٢] – السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ١٠٠

[٥٤٣] – المصدر، ص ١٣٥

[٥٤٤] – المصدر، ص ١١٩

[٥٤٥] – وقال:"إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة والي اليتيم من ماله: إن أيسرت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإن أيسرت قضيت". المصدر، ص ١٣٠

[٥٤٦] – ويقال إنه في غزوة أخرى أعطى أيضا خمس أفريقية لعبد الله بن سعد ابن أبي سرح. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢ ص ٣٨ وبرر عثمان ذلك بقوله: "ان أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما، واني أخذته فقسمته في أقربائي". السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٦

[٥٤٧] – الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١ ص ٣١-٣٢

أكون شر ولاتك".[٥٤٨] أو قوله لعبد الله بن زمعة:" إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم، فان شركتهم في حربهم، كان لك مثل حظهم، وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم".[٥٤٩]

وقد التزم الإمام بالأمانة على المال العام وسياسة التوزيع العادلة، بالرغم من الضغوط التي تعرض إليها في أيام الصراع مع معاوية، من أجل استغلال منصبه القيادي للتصرف بالأموال العامة في خدمة أغراضه السياسية الخاصة كشراء الذمم والولاء ورشوة المعارضة.

وذلك عندما أخذ بعض زعماء القبائل يتململون من سياسة العدل والمساواة التي اتبعها، وبدءوا يتمردون عليه ويميلون إلى معاوية الذي كان يوزع المال كيفما يشاء، فقام رجال من أصحابه فقالوا:" يا أمير المؤمنين، أعطِ هؤلاء هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي، ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه.. هذا الذي كان معاوية يصنعه بمن أتاه، وإنما عامة الناس همهم الدنيا، ولها يسعون وفيها يكدحون، فأعطِ هؤلاء الأشراف، فإذا استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن ما كنت عليه من القسم". فقال علي:"أتأمروني أن أطلبَ النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام؟ فو الله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم.. والله لو كان المال مالي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟!".[٥٥٠]

وسأله أخوه عقيل بن أبي طالب، ذات مرة، فقال: إني محتاج وإني فقير فأعطني، فقال: إصبر حتى يخرج عطائي مع المسلمين فأعطيك معهم، فألحَّ عليه، فقال لرجل: خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق فقل: دقّ هذه الأقفال، وخذ ما في هذه الحوانيت، قال: تريد أن تتخذني سارقاً، قال: وأنت تريد أن تتخذني سارقاً؟ أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم؟.[٥٥١]

وخطب الإمام بعد ذلك قائلا:"والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أُجرَّ في الأغلال مصفداً، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد، وغاصبا لشئ من الحطام، وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع الى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها؟ والله لقد رأيت عقيلا وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعا، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غبر الألوان من فقرهم، كأنما سودت وجوههم

[٥٤٨] – الإمام علي، نهج البلاغة، كتاب رقم ٥، ص ٣٦٦

[٥٤٩] – المصدر، كلام رقم ٢٣٢

[٥٥٠] – المصدر، خطبة رقم ١٢٦

[٥٥١] – السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ١٩٠

بالعظلم، وعاودني مؤكداً، وكرر علي القول مردداً، فأصغيت اليه سمعي، فظن أني أبيعه ديني، واتبع قياده مفارقا طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر لها (وكان عقيل أعمى) فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل! أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه! أتئن من الأذى ولا أئن من لظى؟ ... والله لو اعطيت الأقليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته. وان دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى! [٥٥٢]

٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقول الإمام علي:"إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لخَلقان من خُلُق الله سبحانه، وانهما لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق".[٥٥٣] "فان الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي".[٥٥٤] "انهوا عن المنكر وتناهوا عنه، فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي".[٥٥٥] "لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به".[٥٥٦]

المبحث الثاني: تلامذة الإمام علي من الشيعة الأوائل:

١- أبو ذر، نصير الفقراء والمساكين

---

[٥٥٢] – الإمام علي، نهج البلاغة، فقرة رقم ٢٢٤ من كلام له، ص ٢٤٦ – ٢٤٧

[٥٥٣] – المصدر، من كلام له، رقم١٥٦، ص ٢١٩

[٥٥٤] – المصدر، من خطبة له تسمى القاصعة، ص ٢٩٩

[٥٥٥] – المصدر، من خطبة له رقم ١٠٥، ص ١٥٢

[٥٥٦] – المصدر، من خطبة له رقم ١٢٩ ص ١٨٨

لم يكن الإمام علي بن أبي طالب شخصا فريدا في المجتمع الاسلامي الأول، وانما كان يتزعم خطاً أو جناحا من الصحابة الذين يشايعونه، ويتبعون خطه، وهم الشيعة الأوائل، الذين كان على رأسهم الصحابي الجليل أبو ذر (جندب بن جنادة) الذي كان خامس من دخل في الإسلام، وأحد الذين جهروا بالإسلام في مكة قبل الهجرة. وقد تشبع أبو ذر بروح الحق والعدل والزهد والاشفاق على الفقراء والمساكين، ولذلك فقد ضاق صدره ببعض الصحابة الذين كانوا يجمعون الثروات الطائلة بالملايين، وخاصة بعد الفتوحات الواسعة في الشام والعراق وفارس، ولا ينفقونها على الفقراء والمساكين، حتى أخذ بعضهم يكدس الذهب والفضة ويكسرها بالفؤوس.[٥٥٧]

وعندما رأى أبو ذر ذلك، وقف أمامهم منددا ومستنكرا، وأخذ يحذرهم ويعظهم: بشر الكنازين برضف يحمى عليهم في نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم، حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتجلجل. ويرفع صوته قائلا:إن خليلي أبا القاسم (ص) دعاني فقال: يا أبا ذر، فأجبته . فقال: ترى أُحُدا؟ فقلت: أراه، فقال: ما يسرني أن لي مثله ذهبا، أنفقه كله، إلا ثلاثة دنانير. ويقول: أوصاني خليلي (ص) بسبع: أمرني بحب المساكين والدُّنُوِّ منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، وأن لا أسأل أحدا شيئا، وأن أصل الرحم وإن أدبرتْ، وأن أقول الحق وإن كان مرًّا، وألا أخاف في الله لومة لائم...[٥٥٨]

وكان أبو ذر يدخل المسجد فيصلي ويقرأ: "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ". وعندما يجتمع الناس عليه، يقول: سمعت حبيبي رسول الله (ص) يقول: في الإبل صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البر صدقته . من جمع دينارا، أو تبرا، أو فضة، لا يعده لغريم، ولا ينفقه في سبيل الله، كوي به . ويتلو قول الله تعالى " وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ". وكان يقول مخاطبا الصحابة: سمعت رسول الله (ص) يقول: إنَّ أحبكم إليَّ وأقربكم منِّي الذي يلحق بي على العهد الذي عاهدته عليه وكلكم قد

[٥٥٧] – لمزيد من التفصيل، راجع: ابن سعد في (الطبقات الكبرى) والمسعودي في (مروج الذهب) والطبري .

[٥٥٨] – راجع أخبار أبي ذر في كل من المصادر التالية: محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٤، الصفحة ٢٢٤ و مسند الإمام أحمد بن حنبل كتاب الزهد، رقم الحديث :١٢١٩، و ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٢٤٧/١ و ج٤/٦٢ و ج٧/١٢٥، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢١٣/١ و ج٤/٦١ و البلاذري، الانساب ٥ / ٥٢ – ٥٤

أصاب من الدنيا، وأنا على ما عاهدته عليه، وعلى الله تمام النعمة .[٥٥٩]

وقد تعرض أبو ذر، نتيجة لموقفه المعارض من الإثراء الفاحش، الى مقاطعة وعزل من السلطة في أيام عثمان، ومنع من الدخول عليه، حتى توسط له أحدهم فدخل عندما كان عثمان يقسم ميراث عبد الرحمن بن عوف (وكان فيما ترك ذهب يقطع بالفؤوس) فقال عثمان لكعب الأحبار: أرأيت المال إذا أدي زكاته، هل يخشى على صاحبه فيه تبعة ؟ قال: لا . فقام أبو ذر فضربه بعصا بين أذنيه، ثم قال: يا ابن اليهودية، تزعم أن ليس عليه حق في ماله، إذا آتى زكاته؟، والله يقول: وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولو كان بهم خصاصة . ويقول: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مسكينا ويتيما وأسيرا. فجعل يذكر نحو هذا من القرآن . وقال: وما تدري يا ابن اليهودية، لَيَوَدَّنَّ صاحب هذا المال لو كان عقارب في الدنيا تلسع السويداء من قلبه. فقال عثمان للقرشي الذي توسط له: إنما نكره أن نأذن لأبي ذر من أجل ما ترى[٥٦٠].

ولم تقتصر مقاطعة أبي ذر على منعه من ارتياد مجالس الخليفة، وانما صدر الأمر بمنعه من التحدث مع الناس، ولكنه لم يمتثل لذلك، وتقول إحدى الروايات إنه كان يتحدث في الحج عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل، فوقف عليه، فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا ؟ فرفع رأسه، ثم قال: أرقيب أنت علي؟، لو وضعتم الصمصامة على هذه – وأشار بيده إلى قفاه – ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله (ص) قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها.

وسمع أبو ذر يوما عثمان بن عفان وهو يستفتي كعب الأحبار قائلا: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال، فإذا أيسر قضى؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذر: يا ابن اليهودية، أتعلمننا ديننا؟ فقال عثمان: قد كثر أذاك لي، وتولعك بأصحابي، إلحق بالشام. [٥٦١]

---

[٥٥٩] – البلاذري، الانساب ٥ / ٥٢ – ٥٤ وابن سعد، الطبقات ٤ / ١٦٨ و اليعقوبي ٢ / ١٥٠

[٥٦٠] – راجع: اليعقوبي، ج١ ص ١٦٢، والمسعودي، مروج الذهب، ج ٢ص ٢٤٠ وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٤٢ وج٢ ص ٣٥٦

[٥٦١] – المصادر

وعندما ضاق عثمان بأبي ذر، حاول إبعاده عنه، فأمره أن يرتحل إلى الشام فيلحق بمعاوية . ولكنه لم تغره الدنيا هناك فواصل مسيرته النقدية، وكان يحدث بالشام، ويقول: لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم، ولا تبر ولا فضة، إلا شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لغريم.

وازداد نقده لمعاوية لما يرى من مظاهر البذخ عليه، فكان يتلو هذه الآية: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ".

فقال معاوية: "إنما نَزَلَتْ في أهل الكتاب"، بتأويل الذين يكنزون الذهب والفضة، صفة للأحبار والرهبان، ويقال إن بعض الأمويين حاول حذف حرف (الواو) من الآية لتصبح الجملة الثانية من الآية ملحقة بالجملة الأولى. [٥٦٢] ولكن أبا ذر أصر قائلا: إنما "نَزَلَتْ فينا وفيهم".

فاستهوى أبو ذر قلوب الرجال وكاد يشعلها ثورة في الشام ضد معاوية. فكتب هذا إلى عثمان: أما بعد، إنّ أبا ذرّ قد أفسد الناس بالشام ، فإن كان لك بالشام حاجة، أو بأهله، فابعث إلى أبي ذر، فإنه قد وغل صدور الناس .

فكتب عثمان إلى أبي ذر يستقدمه الى المدينة. فلما دخل على عثمان، قال له: إنما أرسلنا إليك لتجاوِرَنا بالمدينة. قال: لا حاجة لي في ذلك، ائذن لي إلى الربذة. قال: نعم، ونأمر لك بنَعَمٍ من نَعَمِ الصدقة، تغدو عليك وتروح . قال: لا حاجة لي في ذلك، يكفي أبا ذر صُرَيْمَتُه . فلما خرج من المدينة قال: دونكم معاشر قريش، دنياكم فاعذموها ودعونا وربنا .[٥٦٣]

ولمّا بلغ خبر نفي أبي ذر إلى الربذة، إلى عبدالله بن مسعود، وهو إذ ذاك بالكوفة، قال في خطبة

---

[٥٦٢] – يقول السيوطي: إنّ عثمان حينما كتب المصاحف، أراد حذف حرف (الواو) من "والَّذِينَ" فقال أُبيّ: لتلحقنّها أو لأضعنّ سيفي على عاتقي، فألحقوها. السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، ٤: ١٧٩

[٥٦٣] – http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=1584

بمحفل من أهلها: هل سمعتم قول الله تعالى: "ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم"؟.. يعرض بذلك بعثمان، فكتب الوليد بذلك لعثمان فأشخصه من الكوفة، فلما دخل مسجد النبي (ص) أمر عثمان غلاماً له أسود فدفع ابن مسعود وأخرجه من المسجد ورمى به الأرض، وأمر بإحراق مصحفه، وجعل منزله حبسه، وحبس عنه عطاءه أربع سنين إلى أن مات.[٥٦٤]

مكث أبو ذر بالربذة (على مسافة ٢٠٠ كم شرقي المدينة المنورة) حتى مات سنة ٣٢ ه، وصادف وفاته مرور جماعة من الحجاج، منهم محمد بن علقمة بن الأسود النخعي، و مالك بن الحارث الأشتر، وعبدالله بن الفضل التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي فصلى عليه مالك الأشتر، وقام على قبره ثم قال:"اللهم هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ص) عَبَدك في العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغيِّر ولم يبدّل لكنّه رأى منكراً فغيّره بلسانه وقلبه حتى جُفي ونُفي وحُرم واحتقر ثم مات وحيداً غريباً... اللهم فاقصم من حرمه ونفاه من مهاجره، حرم الله وحرم رسول الله...[٥٦٥]

٢- عمار بن ياسر

وعقب وفاة أبو ذر وحيدا منفيا في الربذة، إنطلقت حركة الثورة ، وتحرك كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، كالمقداد بن عمرو، وعمار بن ياسر، وطلحة، والزبير وآخرين، من أجل إصلاح الأمور والوقوف في وجه عثمان، فقاموا -كما يقول البلاذري - "بكتابة كتاب عددوا فيه أحداث عثمان وخوفوه ربه وأعلموه أنهم مواثبوه إن لم يقلع، فأخذ عمار الكتاب وأتاه به فقرأ صدرا منه فقال له عثمان: أعلي تقدم من بينهم ؟ فقال عمار: لأني أنصحهم لك . فقال: كذبت يا ابن سمية ! فقال: أنا والله ابن سمية وابن ياسر، فأمر غلمانه فمدوا بيديه ورجليه ثم ضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق، وكان ضعيفا كبيرا فغشي عليه.

---

[٥٦٤] - الصدوق، محمد بن علي، عيون اخبار الرضا ١ الأخبار الطوال / ١٦٦ والأمين، أعيان الشيعة ٢٢٥/٤

[٥٦٥] - المصدر.

وبلغ عائشة ما صنع بعمار فغضبت وأخرجت شعرا من شعر رسول الله (ص) وثوبا من ثيابه ونعلا من نعاله ثم قالت: ما أسرع ما تركتم سُنَّة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبلَ بعد، فغضب عثمان غضبا شديدا حتى ما درى ما يقول، فالتج المسجد وقال الناس: سبحان الله، سبحان الله".[٥٦٦]

وهذا ما أشعل نيران الغضب والثورة في مصر والكوفة والبصرة والحجاز.

يقول الطبري: لما رأى الناس ما صنع عثمان كتب من في المدينة من أصحاب النبي (ص) إلى من بالآفاق منهم وكانوا قد تفرقوا في الثغور: إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل تطلبون دين محمد فان دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك فهلموا، فأقيموا دين محمد (ص).[٥٦٧]

وفي رواية ابن الاثير: "فان دين محمد قد أفسده خليفتكم".[٥٦٨] وفي شرح ابن أبي الحديد: "فاخلعوه، فأقبلوا من كل افق حتى قتلوه".[٥٦٩]

وروى المؤرخون: لما كانت سنة ٣٤ هـ كتب بعض أصحاب رسول الله إلى بعض يتشاكون سيرة عثمان وتغييره وتبديله وما الناس فيه من عماله، ويكثرون عليه، ويسأل بعضهم بعضا أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد.[٥٧٠]

وقالوا: إلتقى أهل الأمصار الثلاثة الكوفة والبصرة ومصر في المسجد الحرام قبل مقتل عثمان بعام، وكان رئيس أهل الكوفة كعب ابن عبدة النهدي، ورئيس أهل البصرة المثنى بن مخربة العبدي، ورئيس أهل مصر كنانة بن بشر بن عتاب بن عوف السكوني ثم التجيبي، فتذاكروا سيرة عثمان وتبديله وتركه الوفاء بما أعطى

---

[٥٦٦] – البلاذري، أحمد بن يحي، أنساب الأشراف، ج٦ ص ١٦٢ دار الفكر، بيروت، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي

[٥٦٧] – الطبري ٥ / ١١٤و ١١٥

[٥٦٨] – ابن الاثير ٥ / ٧٠

[٥٦٩] – ابن أبي الحديد، شرح النهج، ١ / ٣٠٣

[٥٧٠] – البلاذري، أنساب الاشراف ٥ / ٦٠ و الطبري ٥ / ٩٦ ٩٧ وابن الاثير ٣ / ٦٣ وابن أبي الحديد ١ / ٣٠٣ وابن كثير ٧

من نفسه، وعاهد الله عليه، وقالوا لا يسعنا الرضا بهذا فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى مصر فيكون رسول من شهد مكة من أهل الخلاف على عثمان إلى من كان على رأيهم من أهل بلده، وأن يوافوا عثمان في العام المقبل في داره ويستعتبوه، فان أعتب وإلا رأوا رأيهم فيه، ففعلوا ذلك .

وقام محمد بن أبي بكر ومحمد ابن أبي حذيفة بالثورة في مصر ضد عامل عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح (من سنة ٢٥ الى سنة ٣٤) وجعل ابن أبي حذيفة يقول: يا أهل مصر إنا خلفنا الغزو وراءنا يعني غزو عثمان . . الحديث . [٥٧١] فلما بلغ محمدا حصر عثمان غلب على مصر فاستجابوا له.

وبالرغم من أن الإمام علي لم يشارك، بصورة مباشرة، في الثورة على عثمان، كطلحة والزبير وعائشة، وحاول أن يلعب دور الوسيط بين الثوار وعثمان، إلا أن هوى غالبية الثوار كان يميل الى جهة الامام علي، وكان بعض قادة الثورة كمالك الأشتر، وعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، من أقرب المقربين له، ولذلك طلب عامة الثوار منه، أن يتولى الخلافة، بعد مقتل عثمان، وهو ما يضفي على هذه الثورة التي تعتبر أول ثورة في الاسلام، طابعا شيعيا، وتمهد لخط ثوري سيمتد في عمق التاريخ.

٣- الامام الحسين بن علي

ورغم سقوط نظام الإمام علي بمقتله وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة، إلا أن روح الثورة الشيعية لم تخمد تماما، فما أن توفي معاوية سنة ٦٠ هـ حتى تحرك الشيعة في الكوفة التي كانت معقلا كبيرا لهم، وعاصمة للشرق الاسلامي، فرفضوا بيعة يزيد بن معاوية، وطالبوا الامام الحسين بن علي أن يقدم عليهم، فأرسل لهم سفيره مسلم بن عقيل، وأخذ البيعة منهم، وتحرك باتجاه الكوفة.

ويبدو الهدف من الثورة، وهو العدل، واضحا في رسالة زعماء الشيعة في الكوفة (سليمان بن صرد، والمسيب بن نجيبة، ورفاعة بن شداد البجلي، وحبيب بن مظاهر) الى الامام الحسين: "سلام عليك فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.. أما بعد: فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فيئها وتأمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعدا له كما بعدت ثمود. انه ليس علينا إمام، فاقبل لعل الله أن يجمعنا

---

[٥٧١] - الطبري ٥ / ١١٨، وابن الاثير ٣ / ٥٩ - ٧٠

بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد، ولو بلغنا أنك قد أقبلت الينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله". فكتب إليهم: "من الحسين بن علي الى الملأ من المؤمنين والمسلمين .. أما بعد فان هانيا وسعيدا قدما علي بكتبكم، وكان آخر من قدم علي من رسلكم، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلكم: أنه ليس علينا إمام فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والهدى... فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الداين بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله، والسلام" . [٥٧٢]

ويتضح هدف الثورة أيضا من خطاب الحسين في كربلاء:"إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي".[٥٧٣] مما يعبر بوضوح عن طبيعة الحركة الشيعية في العصر الأول باعتبارها حركة سياسية معارضة ذات أهداف اصلاحية من أجل الأمة الاسلامية بصورة عامة. وان الالتفاف حول أئمة أهل البيت (الامام علي أو الامام الحسين) لم يكن التفافا شخصيا يستند الى عقيدة دينية خاصة، وانما باعتبارهم قادة ورموزا للحق والعدل والثورة، وربما أيضا باعتبارهم الأقدر على معارضة الحكام الأمويين وتعبئة الشارع ضدهم.

ولئن قتل الامام الحسين في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ وفشل الشيعة في تحركهم هذا الذي كلفهم مجزرة عظمى في كربلاء، فانهم لم يهدأوا بعد ذلك، وواصلوا طريق الثورة والتحدي، فخرج التوابون سنة ٦٤ هـ بعد موت يزيد، لينتقموا من قتلة الحسين، ثم أعلن المختار بن عبيدة الثقفي سيطرته على الكوفة سنة ٦٦ هـ وعندما انهارت دولته، واصل الشيعة المعارضة السرية بقيادة محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم عبد الله (-٩٥) فيما يعرف بالحركة الكيسانية.

٤- الثورات العديدة ضد الأمويين والعباسيين

ولم تكن المعارضة الشعبية أو الروح الثورية تقتصر على الشيعة، حيث إنهم لم يكونوا حزبا بالمعنى الضيق، وإنما كانوا تيارا عاما يبحث عن الحق والعدل والحرية، ومن هنا يمكن اعتبار ثورة أهل المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري ضد يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ نموذجا على تلك الروح الثورية،

---

[٥٧٢] - المفيد، الارشاد، ص ٢٠٤

[٥٧٣] - المصدر، ص ٢٠٤

فأرسل يزيد إليهم مسلم بن عقبة، فاشتبك معهم في حادثة شهيرة تسمى "واقعة الحرة" ودخل بعدها المدينة وأعمل في أهلها السيف، ودعا الناسَ للبيعة على أنهم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية، يحكم في دمائهم وأموالهم و أهليهم ما شاء، فمن امتنع من ذلك قتله.[٥٧٤] كما يمكن اعتبار حركة عبدالله ابن الزبير في مكة ضد الأمويين، في نفس الوقت مثالا آخر.

ثورة ابن الأشعث سنة ٨١

ولعل أبرز مثل على اتساع روح الثورة في نفوس المسلمين، قبل تحجر البعض في إطار القوالب الطائفية، ولا سيما المذهب السُنّي، هي ثورة عامة أهل العراق بقيادة عبد الرحمن ابن الأشعث ضد الحجاج بن يوسف الثقفي وأميره عبد الملك بن مروان، سنة ٨١ هـ والتي شارك فيها ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل، وجميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب[٥٧٥].

وكان من بينهم سلف أهل السُنَّة: مسلم بن يسار، وأبو الجوزاء، وأبو المنهال الرياحي، ومالك بن دينار، والحسن البصري، وابن أبي ليلى الفقيه، وطلحة بن مصرف، وعطاء بن السائب، وأبو البختري، والإمام الفقيه عامر الشعبي الذي خطب الناس قائلا: "أيها الناس قاتلوهم، ولا يأخذكم حرج من قتالهم، والله ما أعلم على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أعمل بجور منهم، قاتلوهم على جورهم، واستغلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة".[٥٧٦]

---

[٥٧٤] – حتى أن يزيد بن معاوية سأل علي بن الحسين أن يكون عبدا له، فقال له:"قد أقررت لك بما سألت، أنا عبد مكره، فان شئت فأمسك وان شئت فبع". الكليني، الكافي، الروضة، ص ١٩٦ راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ ص ٢٤٣ والطبري، تاريخ الرسل والملوك، المجلد الثالث، ص ٣٥٣ وص ٣٥٩ والدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ج١ ص ١٨٤ و ص ١٨٨ و السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ص ١٩٤ – ١٩٥

[٥٧٥] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩ السنة ٨١

[٥٧٦] – وبعد معارك استمرت أكثر من ثلاثة أشهر، هزم ابن الأشعث، ثم أسر وقتل، فشرع الحجاج في تتبع أصحابه، فقتلهم مثنى وفرادى، حتى قيل إنه قتل منهم بين يديه مائة ألف وثلاثين ألفا، منهم محمد بن سعد بن أبي وقاص، وجماعات من السادات، حتى كان آخرهم الفقيه الكبير سعيد بن جبير. وذكر ابن الأثير في تاريخه: أن الحجاج لما غلب جيش ابن

ثورة الإمام زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٢

ولئن سحق الحجاج بن يوسف الثقفي تلك الثورة الشعبية الاسلامية العارمة، ضد النظام الأموي، فقد تفجرت بعد أربعين عاما ثورة أخرى كبرى في الكوفة (عاصمة الأمة الاسلامية) بقيادة الإمام زيد بن علي، ضد هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢[٥٧٧]هـ ويدل التعاطف الشعبي الكبير حول الإمام زيد على مدى الظلم والفساد الأموي من جهة، وعدم اقتصار الولاء له على الشيعة، كما يقول الأصفهاني في "مقاتل الطالبيين": بأن "الشيعة وغيرهم أقبلوا يختلفون اليه ويبايعون حتى احصى ديوانه خمسة عشر الف رجل من أهل الكوفة خاصة، سوى أهل المدائن، والبصرة، وواسط، والموصل، وخراسان، والري، وجرجان".

ويعزو الأصفهاني فشل حركة زيد الى استعجال الخروج قبل الأجل الذي بينه وبين أهل الأمصار، بسبب اعتقال وقتل بعض أنصاره في الكوفة.[٥٧٨]

كما يذكر بعض المؤرخين سببا آخر هو انشقاق "الرافضة" عنه، بعد تشكيكهم بشرعية قيادته الدينية،[٥٧٩] وسؤالهم عن موقفه من الشيخين أبي بكر وعمر، فلما أجابهم بالإيجاب "رفضوه" وانسحبوا من

الأشعث أخذ يبايع الناس، وكان ظالما، وكان لا يبايع أحدا إلا قال له: اشهد على نفسك أنك كفرت، يعني بنقضك البيعة وحملك السلاح، فإن قال نعم بايعه، وإلا قتله. شبكة الدفاع عن السنة، بتاريخ ٢٠١٤/١١/٣

http://www.dd-sunnah.net/forum/showthread.php?t=98063

٥٧٧ – أعلن زيد الثورة ضد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك اعتمادا على مبدأ (أولي الأرحام) قائلا:" إنا أرحام رسول الله أولى بالملك والإمرة " و دعا إلى نصرة (أهل البيت)، بصورة عامة، وقال:"إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله سواء ورد المظالم وإقفال المجمر ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا".

٥٧٨ – أبو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٨٦ – ٩٠

٥٧٩ – وكان زيد قد طلب في فترة الاعداد للثورة من أحد الزعماء الشيعة وهو المتكلم محمد بن علي النعمان، الملقب بـ "مؤمن الطاق" أن يدعمه في حركته فرفض قائلا بأن زيد ليس هو الامام المفترض الطاعة من الله، حسب نظرية "الإمامة

جيشه مما أثر على سير المعركة.[580]

وتدل الأحداث التالية خلال السنوات القليلة التي أعقبت مقتل زيد، أنه قد استعجل فعلا القيام بالثورة في عز قوة الدولة الأموية أيام هشام بن عبد الملك، عدة سنوات، وليس بضعة أشهر، فقد تصدع النظام الأموي بعد تولي الوليد بن يزيد للسلطة ومجاهرته بالفسق والفجور، ومقتله على أيدي أبناء عمه، سنة ١٢٥ وهو ما شجع الكثير من المعارضة الشيعية (العلوية والطالبية والعباسية) وحتى القرشية والمعتزلة على التحرك من أجل إسقاط النظام الأموي، فقد اجتمع بالأبواء (قرب المدينة) جماعة من بني هاشم، وبايعوا محمد بن عبد الله (النفس الزكية) الذي كان يقول:إنه المهدي.[581]

وفي هذا الوقت خرج يحيى بن زيد، في الجوزجان من أراضي خراسان سنة ١٢٥هـ، ثم خرج عبد الله بن معاوية بن جعفر الطيار في بلاد فارس سنة ١٢٧هـ ، حيث حكم حوالي خمس سنوات، قبل أن ينهار أمام جيش مروان بن محمد، المعروف (بالحمار) ويهرب الى خراسان سنة ١٣١.

ثورة محمد بن عبد الله "النفس الزكية" سنة ١٤٥ هـ

ولكن النصر النهائي كان من نصيب العباسيين، الذين قضوا نهائيا على الدولة الأموية، سنة ١٣٢ هـ، إلا أنهم لم يستطيعوا خلال عشرة أعوام من الحكم أن يقدموا نموذجا عادلا يختلف عن الأمويين، فألبوا عليهم شرائح واسعة من المجتمع الاسلامي، مما دفع (النفس الزكية) للخروج مع أخيه إبراهيم في المدينة والبصرة سنة ١٤٥، ضد المنصور العباسي، وكاد يقضي على الحكم العباسي، لما كان يتمتع به من دعم واسع من الجماهير والعلماء كأبي حنيفة ومالك بن أنس وغيرهما من الأئمة كابن عجلان وابن هرمز و عبد

الإلهية" فأنكر زيد ذلك، ونفى علمه بها. الكليني، الكافي، ج ١، ص ١٧٤، والكشي في رجاله، والطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ١٤١

[580] - يقول الشهرستاني:"ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه، وعرفوا انه لا يتبرأ عن الشيخين رفضوه، فسميت الرافضة". الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٥٤ و١٥٥

[581] - أبو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ١٦٠

الله بن عمر بن العمري وجماعة من أهل البصرة من المعتزلة منهم واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد.[٥٨٢]

وتدل المشاركة الشعبية الواسعة أيضا، في ثورة الإمام محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم، على المعنى الجماهيري الواسع للتشيع، وعدم اقتصاره على طائفة معينة وصغيرة، وذلك طبعا قبل تشرذم الأمة الاسلامية الى طوائف وأحزاب ضيقة ومتصارعة، في القرن الثالث الهجري وما بعده.

وبالرغم من سحق ثورة النفس الزكية، فقد استمرت المعارضة الشيعية السرية طوال السنوات التالية، في عهد الخليفة العباسي المهدي، بقيادة عيسى بن زيد ودعم الحسن بن صالح، الى أن توفيا سنة ١٦٩هـ ، ثم فجر "صاحب فخ" الحسين بن علي بن الحسن ثورة في المدينة والحجاز، في أيام الخليفة موسى الهادي ١٦٩، وبعد القضاء عليها هرب أحد المشاركين فيها وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، في أيام هارون الرشيد الى بلاد البربر في المغرب (فاس وطنجة) فأقام هناك أول دولة علوية من ١٧٢هـ إلى ١٧٧هـ

وبعد مقتل الحسين "صاحب فخ" قرب مكة، حمل يحيى بن عبدالله ابن الحسن، راية الثورة على الخليفة العباسي هارون الرشيد، ولكنه توفي في ضواحي الكوفة، أثناء الإعداد لها في ظل الاستتار.

ثورة ابن طباطبا وأبي السرايا سنة ١٩٩

ولم يكد الرشيد يتوفى، ويقتتل الأمين والمأمون، حتى تفجرت ثورة علوية كبرى في الكوفة سنة ١٩٩هـ، في أيام المأمون، بقيادة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل (ابن طباطبا) وأبي السرايا السري بن منصور، وكادت أيضا أن تقضي على الحكم العباسي، لولا انهيارها بعد ذلك.. فقد توفي ابن طباطبا في بداية الثورة فبايعوا الغلام العلوي الحدث "محمد بن محمد بن زيد"، وفرق هذا عماله في البلاد، فولى إسماعيل بن على بن إسماعيل بن جعفر، على الكوفة .

---

[٥٨٢] – المصدر، ص ١٩٢ وقد استفتي مالك بن أنس في الخروج مع محمد بن عبد الله وقيل له: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر (المنصور) . فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين فأسرع الناس إلى محمد ابن عبد الله. وكان أبو حنيفة يحض الناس على الخروج مع إبراهيم ويأمرهم باتباعه. ص ١٩٨

وعقد لإبراهيم بن موسى بن جعفر على اليمن، وولى زيد بن موسى بن جعفر الأهواز، وولى العباس بن محمد بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر ابن ابي طالب البصرة، وولى الحسن بن الحسن الأفطس مكة، وعقد لجعفر بن محمد بن زيد بن علي، والحسين بن إبراهيم بن الحسن بن علي على واسط. فخرجوا إلى أعمالهم. وتتابعت الكتب وتواترت على محمد بن محمد بالفتوح من كل ناحية . وكتب إليه أهل الشام والجزيرة أنهم ينتظرون أن يوجه إليهم رسولا ليسمعوا له ويطيعوا. وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة، ونقش عليها "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص". كما يقول الاصفهاني في "مقاتل الطالبيين".

وبعد معارك قاسية بين جيش الثوار وجيش المأمون، استمرت عدة شهور، وذهب ضحيتها حوالي أكثر من مائتي ألف شخص، انهارت الثورة، ولم يحتفظ ببلاده الا إبراهيم بن موسى في اليمن.

ولم يمنع انهيارها محمد بن جعفر الصادق، من القيام في المدينة وإعلان نفسه أميرا للمؤمنين، سنة ٢٠٠ للهجرة، ولكنه لم يستطع الصمود طويلا أمام جيش الخليفة المأمون.

وبعد انهيار هذه الثورة، تظاهر المأمون بتقديم بعض التنازلات للعلويين، فاستدعى الامام علي بن موسى الرضا مع مجموعة من العلويين، وعرض عليه التنازل عن الخلافة لصالحه، وقال:"إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع (الأمين) وما أعلم أحدا أفضل من هذا الرجل". فرفض الرضا ذلك، فعرض المأمون عليه ولاية العهد، فرفضها أيضا، ولكنه أصر عليه وقال له قولا شبيها بالتهديد: "إن عمر جعل الشورى في ستة أحدهم جدك، وقال: من خالف فاضربوا عنقه، ولابد من قبول ذلك". فأجابه علي بن موسى إلى ما التمس.[٥٨٣] فأعلم المأمون الناس بأنه قد ولاه عهده، وسماه الرضا. وأمر القواد والجنود والقضاة ببيعته ولبس الخضرة (شعار العلويين) بدلا من السواد (شعار العباسيين)، وأمر المأمون فضربت له الدراهم وطبع عليها اسمه. وخطب للرضا في كل بلد بولاية العهد. ولكنه توفي بعد ثلاث

---

[٥٨٣] – المصدر، ص ٣٧٤

سنوات مسموما.[٥٨٤]

وقد حاول المأمون أن يستخلف علويا آخر مكان الرضا، فكتب الى زعيم علوي آخر كان مستترا، ويقود المعارضة، ويعد للثورة، وهو: عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن، يدعوه إلى الظهور ليجعله مكان الرضا ويبايع له، ووعده بالعفو، فأجابه عبد الله برسالة طويلة يقول فيها:" فبأي شئ تغرني ؟ ما فعلته بأبي الحسن (الرضا) بالعنب الذي أطعمته إياه فقتلته. والله ما يقعدني عن ذلك خوف من الموت ولا كراهة له ولكن لا أجد لي فسحة في تسليطك على نفسي، ولولا ذلك لأتيتك حتى تريحني من هذه الدنيا الكدرة. ويقول فيها: هبني لا ثأر لي عندك وعند آبائك المستحلين لدمائنا الآخذين حقنا، الذين جاهروا في أمرنا فحذرناهم، وكنت ألطف حيلة منهم بما استعملته من الرضى بنا والتستر لمحننا، تختل واحدا فواحدا منا، ولكني كنت امرأ حبب إلي الجهاد، كما حبب إلى كل امرئ بغيته، فشحذت سيفي، وركبت سناني على رمحي واستفرهت فرسى لم أدر أي العدو أشد ضررا على الاسلام، فعلمت أن كتاب الله يجمع كل شئ، فقرأته فإذا فيه "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة" . فما أدري من يلينا منهم، فأعدت النظر، فوجدته يقول: "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم " فعلمت أن علي أن أبدأ بما قرب مني . وتدبرت فإذا انت أضر على الاسلام والمسلمين من كل عدو لهم، لأن الكفار خرجوا منه وخالفوه فحذرهم الناس وقاتلوهم، وانت دخلت فيه ظاهرا فأمسك الناس وطفقت تنقض عراه عروة عروة، فأنت أشد اعداء الاسلام ضررا عليه. وأنت ختلت المسلمين بالاسلام، وأسررت الكفر، فقتلت بالظنة، وعاقبت بالتهمة، وأخذت المال من غير حله فأنفقته في غير محله، وشربت الخمر المحرمة صراحا، وأنفقت مال الله على الملهين وأعطيته المغنين، ومنعته من حقوق المسلمين، فغششت بالاسلام، وأحطت بأقطاره إحاطة أهله، وحكمت فيه للمشرك، وخالفت الله ورسوله في ذلك خلافة المضاد المعاند، فان يسعدني الدهر، ويعينني الله عليك بأنصار الحق، أبذل نفسي في جهادك بذلا يرضيه مني، وإن يمهلك ويؤخرك ليجزيك بما تستحقه في منقلبك، أو تخترمني الأيام قبل

---

[٥٨٤] - المصدر، ص ٣٧٩

ذلك فحسبي من سعيي ما يعلمه الله عزوجل من نيتي، والسلام" . [٥٨٥] ولم يزل عبد الله متواريا إلى أن مات في أيام المتوكل .

ومع ذلك ساد في عهد المأمون جو عام من الوفاق والسلام بين العلويين والعباسيين، حتى تولى المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) فخرج محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين، في الطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد، سنة ٢١٩ هـ، فأخذ وحبس، ولكنه استطاع الهرب من السجن، ومضى فاستتر مدة المعتصم والواثق، ثم وجد في أيام المتوكل فحمل إليه حتى مات في محبسه.

ولكن كثيرا من شيعته أنكروا خبر وفاته، وقالوا بغيبته ومهدويته وظلوا ينتظرون خروجه الى أكثر من مائة عام.[٥٨٦]

ومع ضعف الدولة العباسية في عهدها الثاني، خرج يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي، في الكوفة في سنة ٢٤٨ هـ، فدعا إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وأظهر العدل وحسن السيرة بها إلى أن قتل، في ايام المستعين سنة ٢٥٠ هـ.[٥٨٧] ثم خرج عدد من العلويين في طبرستان ونواحي الديلم، إلى أن سيطر المعروف بالداعي، وهو محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، سنة ٢٨٩

وترافق ذلك مع ظهور الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي في اليمن سنة ٢٨٤ ثم سيطر فريق آخر من الشيعة هم الإسماعيلية، على جزء من اليمن، في نهاية القرن الثالث الهجري، وانطلقوا منه الى

---

[٥٨٥] – المصدر، ص ٤١٥

[٥٨٦] – يقول المسعودي:" قد انقاد إلى إمامته خلق كثير من الزيدية إلى هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمدا لم يمت، وأنه حي يرزق، وأنه يخرج فيملؤها عدلا كما ملئت جورا، وأنه مهدي هذه الامة، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان ". مروج الذهب، ٢ / ٢٤٦

[٥٨٧] – أبو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٤٢١

شمال أفريقيا (تونس) لكي يؤسسوا الدولة الفاطمية.[588]

ولئن كان بعض الأحزاب الشيعية يصلُ الى السلطة هنا وهناك، فان بعضها الآخر كان ينتظر على أمل بخروج (إمام مهدي) يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملأت ظلما وجورا.. كما هو حال الشيعة الاثني عشرية، الذين اعتقدوا بولادة ابن للإمام الحسن العسكري (-٢٦٠) هو (محمد بن الحسن) وأنه ولد سرا، واختفى، وسيظهر في المستقبل.

نخلص من كل ذلك، الى أن جوهر التشيع للإمام علي وأهل بيته، في القرون الثلاثة الأولى، كان أقرب الى مفهوم "التشيع السياسي" القائم على فكرة "الأفضلية" و"الأولوية" في الحكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد من أجل العدل والإصلاح في الأمة الاسلامية. وكان الشيعة أقرب الى الحزب السياسي الثوري المناضل من أجل التغيير، الذي يضم شرائح واسعة من المسلمين بما فيهم أئمة عرفوا لاحقاً بانتمائهم لأهل السنة، كالامام أبي حنيفة النعمان، ولم يكونوا طائفة مغلقة أو جامدة، تتوارث اللقب "الشيعي" بالوراثة دون معنى.

الفصل الثالث

التشيع الديني (الإمامي)

المبحث الأول : محورية أئمة أهل البيت في الحركة الشيعية

[588] - وفي هذه الأثناء كان الحكم العباسي قد ضعف ضعفا شديدا ووقع تحت سيطرة الجنود الأتراك، وتولى جعفر المقتدر (٢٨٢ – ٣٢٠) الخلافة وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاختل النظام العام كثيرا في أيامه لصغره، وكان لوالدته (شغب) دور كبير في تسيير شئون البلاد وتولية الوزراء، الى أن قتل سنة ٣٢٠.

الحركة الشيعية واحدة من الحركات الثورية في التاريخ الإسلامي، وكأية حركة إجتماعية سياسية تشترك في ملامحها وفي تطورها، وفي أمراضها أيضا، مع الحركات الثورية الأخرى، ومن أبرز ملامح الحركة الشيعية تمحورها حول أئمة أهل البيت، بمختلف فروعهم (من العلويين، والفاطميين، والعباسيين، والزيدية، والجعفرية، والاسماعيلية، والموسوية). ولكن بعض الفروع يختلف عن بعض في طبيعة ودرجة التمحور، اعتدالا أو غلوا..

وقد كان ارتباط الشيعة بأئمة أهل البيت في البداية باعتبارهم رموزا للحق والعدل والمعارضة للأمويين، ولا سيما ارتباط الجيل الأول من الشيعة بشخص الإمام علي بن أبي طالب.

ومع أن الحركة الشيعية الأولى كانت تتمحور حول شعار العدل والثورة ضد الظالمين، إلا أنها كانت تلتف واقعيا وعملياً حول أئمة أهل البيت بصورة عامة، وتحاول إعادة الحكم اليهم كأقطاب مضادين للأمويين، كما نشاهد ذلك في خطاب زعيم حركة التوابين سليمان بن صرد الخزاعي، الذي خرج في الكوفة سنة ٦٤هـ، حيث قال لأصحابه:" قد مات هذا الطاغية (يزيد)، والأمر الآن ضعيف، فان شئتم وثبنا على (والي الكوفة) عمرو بن حريث فأخرجناه من القصر، ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين وتتبعنا قتلته، ودعونا الناس الى أهل هذا البيت المستأثر عليهم المدفوعين عن حقهم". وقول عبيد الله بن عبد الله المري له: "... فان قتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا، رددنا هذا الأمر الى أهل بيت نبينا".[٥٨٩]

وبالرغم من الدوافع الكثيرة التي حشدت الجماهير للثورة ضد الأمويين في أوائل القرن الثاني الهجري، إلا أنه يمكن أيضا ملاحظة تمحور الحركة الشيعية حول شعار "إلى الرضا من آل محمد". الذي رفعه الإمام زيد بن علي.[٥٩٠]

بيد أن نظرية "الإمامة الإلهية" لم تكن معروفة في الأجيال الشيعية الأولى، ولذلك كان كبير الطالبيين الحسن بن الحسن بن علي، يفسر "حديث الغدير" بمعنى لا يشمل الإمامة والسلطان، ويقسم على ذلك

---

[٥٨٩] – ابو مخنف، لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي، مقتل الحسين، ص ٢٥٧– ٢٥٨

[٥٩٠] – كما في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا، أنه قال للمأمون، وهو يحدثه عن زيد بن علي، أنه كان من علماء آل محمد، غضب لله فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر أنه سمع أباه جعفر بن محمد يقول: رحم الله عمي زيدا إنه دعا إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفر لوفى لله من ذلك، انه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد. العاملي، وسائل الشيعة، كتاب الجهاد.

ويقول:"لو أراد رسول الله ذلك لأفصح لهم به".[٥٩١] وكان ابنه عبد الله ينفي إمامة أمير المؤمنين أنها من الله، ويقول بصراحة: "ليس لنا في هذا الأمر ما ليس لغيرنا، و ليس في أحد من أهل البيت إمام مفترض الطاعة من الله".[٥٩٢]

وهكذا فإن الإمام زيد بن علي لم يدعُ إلى نفسه باعتباره "إماما منصوصا عليه من الله"، حيث لم يكن يعرف نظرية "الإمامة الإلهية لأهل البيت" ولا يعتقد أساسا بوجود النص على الامام علي بالخلافة.[٥٩٣] ويكتفي بالقول إن أهل البيت أولى من الأمويين بالملك والإمرة، ويدعو الى الرضا من آل محمد.[٥٩٤]

كما كان عامة الشيعة الزيدية، وبالخصوص "البترية" و"الصالحية" يعتقدون في ذلك الوقت. ولكن ذلك لم يمنع بعض الشيعة من التطرف في التمحور حول "أهل البيت" والغلو فيهم، واعتقاد وجود نص إلهي عليهم وعلى حقهم في الحكم والخلافة. وقد فوجئ زيد ببعض "الرافضة" الذين دعاهم لنصرته عند خروجه في الكوفة سنة ١٢٢ هـ، وهم يطرحون موضوع "الإمامة الإلهية".

وقد شكل "الرافضة" حلقة في سلسلة من الغلاة الذين أضفوا على خط من أهل البيت (الحسينيين) صفات مغالية وصلت عند "المفوضة" و"الخطابية" الى حد القول بالتفويض والحلول والألوهية.

وأسس ذلك الى ما يسمى بـ "التشيع الديني" الذي ينظر الى الأئمة الحسينيين نظرة تقديس باعتبارهم منصوبين ومعينين من قبل الله، كامتداد للنبوة.

---

[٥٩١] – ابن عساكر، التهذيب، ج ٤، ص ١٦٢

[٥٩٢] – الصفار، بصائر الدرجات، ص ١٥٣، و١٥٦ ج ٣، باب ١٤ في الأئمة أنهم أعطوا الجفر والجامعة ومصحف فاطمة، حديث رقم (١٥)

[٥٩٣] – وكان مذهبه جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، وأن علي بن ابي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت الى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها". الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٥٤ و١٥٥

[٥٩٤] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٦٧ وتفسير فرات ابن ابراهيم الكوفي، ص ١٤٩ والحر العاملي، وسائل الشيعة، كتاب الجهاد

المبحث الثاني: متى ظهر "التشيع الديني"؟

وهذا ما يطرح لدينا سؤالاً عن تاريخ ظهور "التشيع الديني"؟ وهل كان سابقا أو مرادفا للتشيع السياسي؟ أو لاحقا عليه؟ أي هل إنه كان نتيجة تطور فكري تاريخي؟ وهل كان لعبد الله بن سبأ دور في تأسيس ذلك التشيع؟ وهل كان هذا الشخص موجودا في التاريخ؟ أم كان مجرد أسطورة اختلقها أعداء التشيع للانتقاص منه، ونسبته الى أياد أجنبية (فارسية ومجوسية ويهودية ومسيحية)؟ وإذا كان موجودا حقا فما هو دوره بالضبط؟ وما هي علاقته بالغلاة؟ وما هي علاقة الغلاة بالتشيع العقدي "الإمامي"؟

لقد اعتاد مؤرخو الفرق والملل والنحل، عند الحديث عن الشيعة، ذكر أصناف الغلاة وفرقهم من الشيعة، بالرغم من أن أئمة أهل البيت كانوا يتبرأون من الغلو والغلاة، وإعتقادهم بخروج بعض الغلاة عن الدين الاسلامي بمقولاتهم الكافرة لضرورات الاسلام مثل نسبتهم الألوهية أو النبوة لبعض الأئمة (كالإمام جعفر الصادق)، ولكن المؤرخين كانوا يصنفونهم ضمن إطار الشيعة، لأن الغلاة أنفسهم كانوا يدعون التشيع ويدسون أنفسهم في صفوف الشيعة، وكانوا يمتزجون بهم أو يخرجون من بينهم.

وقد دأب كثير من المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ الشيعة،[٥٩٥] على الحديث عن دور الغلاة، وتأثير العناصر الخارجية التي دخلت في الاسلام من يهودية، ونصرانية، ومجوسية، وفارسية، في بناء التشيع في مراحل معينة، أو في تأليف بعض أفكاره المتطرفة، وخصوصا موضوع "الإمامة الإلهية" والإشارة الى دور شخص يدعى "عبد الله بن سبأ" في التشيع.

وقد نسب اليه الطبري في روايته عن سيف بن عمر، الدور الأكبر في التحريض على عثمان، فقال: " ...كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول إضلالهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم، فقال لهم:... إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي،

---

[٥٩٥] – كالطبري في (تاريخه) وأبي الحسن الاشعري (– ٣٣٠) في (مقالات الإسلاميين) والنوبختي (– ٣١٠) في (فرق الشيعة) والأشعري القمي (–٣٠٠) في (المقالات والفرق) وعبد القاهر البغدادي (– ٤١٩) في (الفرق بين الفرق) وابن حزم (– ٤٥٤) في (الفصل بين الملل) والشهرستاني (– ٥٤٨) في (الملل والنحل) وابن أبي الحديد (– ٦٥٥) في (شرح نهج البلاغة) وابن خلدون (– ٨٠٨) في تاريخه،

وكان علي وصي محمد . ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء. ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله (ص) ووثب على وصي رسول الله (ص) وتناول أمر الأمة . ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله (ص) فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر. فبث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون".[٥٩٦]

غير أن بعض الكتاب المعاصرين كطه حسين وعلي الوردي ومصطفى كامل الشيبي شككوا بوجود شخصية إبن سبأ، وكذلك فعل مرتضى العسكري في كتابه "عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى" حيث أكد "أن ابن سبأ أسطورة مفتعلة ورجل مختلق".

ولكن المشككين بوجود إبن سبأ في التاريخ، يبنون موقفهم هذا على أساسٍ من التشكيك برواية الطبري عن يوسف بن عمر، الضعيفة، ولم يلحظوا الروايات الشيعية القديمة والكثيرة التي تؤكد وجود إبن سبأ، وتنسب إليه القول بالغلو، وتلعنه على لسان الأئمة من أهل البيت . وليس في أحدها رواية عن سيف بن عمر. وقد تحدث عنه المتكلم الشيعي الإمامي الحسن بن موسى النوبختي (المتوفي ٣١٠) في كتابه (فرق الشيعة) وقال:" انه أول من شهر القول بفرض إمامة علي، وكان يقول في يهوديته بيوشع بن نون وصياً لموسى (ع) فقال كذلك في إسلامه في علي بعد رسول الله (ص) وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه وأظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة". [٥٩٧] كما تحدث عن وجوده سعد بن عبد الله الأشعري القمي (٣٠١هـ) في كتابه (المقالات والفرق). [٥٩٨] وأكد ذلك العالم الرجالي الشيعي الكبير أبو

[٥٩٦] - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤ ص ٢٨٣

[٥٩٧] – النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٢

[٥٩٨] – الاشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٢٠ و٢١

عمرو الكشي محمد بن عمر بن عبد العزيز (توفي حوالي ٣٤٠ هـ)، ومن بعده الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ) في (الرجال)، والعلامة الحلي (٧٢٦هـ) في (الخلاصة)، والخوئي (١٤١٣هـ)، في (معجم الرجال).

والسؤال الآن: هل إن "إبن سبأ" هو أول من أحدث القول بالإمامة والوصية؟ أو كان أول من شهر القول بذلك؟ وإن نظرية "الإمامة الإلهية" كانت ثابتة وموجودة منذ زمن رسول الله (ص)؟ ولكنها كانت سرية أو مخفية عن كثير من المسلمين وحتى الشيعة في ذلك العصر؟

لقد أجبنا عن هذا السؤال في الفصل الأول من هذا الباب، ونقلنا أقوال مؤرخي الشيعة كالنوبختي الذي صنف الشيعة بعد وفاة رسول الله الى ثلاثة أصناف، وقال إن صنفا واحدا منهم كان يعرف نظرية الإمامة، وإن الصنفين الآخرين لم يكونا يعتقدان بذلك، وإنما قالا: "بأن عليا كان أولى الناس بعد رسول الله (ص) بالناس لفضله وسابقته وقرابته وعلمه، وهو أفضل الناس كلهم بعده...".[٥٩٩] ومع اعتراف النوبختي بأن حوالي ثلثي الشيعة فضلا عن عامة المسلمين لم يكونوا يعرفون بنظرية النص، فإنه لم يقدم دليلا على وجود الصنف الثالث الذي يقول بذلك، مما يدل على عدم معرفة أحد بتلك النظرية من قبل.

المبحث الثالث :تطور التشيع عبر التاريخ

وهذا ما يفتح الباب أمام الحديث عن "تطور التشيع عبر التاريخ". فهل كانت رؤية الشيعة الأوائل للأئمة من أهل البيت هي نفس رؤية الشيعة في العصور التالية؟ وهل كانوا يفهمون من النصوص الواردة حول الإمام علي نفس المعنى الذي فهمه اللاحقون؟ وهل كانت تلك الرؤية عامة لدى جميع الشيعة؟ أم فقط لدى فريق منهم، وبصورة سرية؟ وبالتالي: هل تطورت نظرية الإمامة لأهل البيت من الدور الواقعي والريادي في تبني مبدأ الحق والعدل والدفاع عنه؟ الى الإيمان بأولويتهم وأحقيتهم السياسية؟ ثم الى الاعتقاد بحقهم في الخلافة بالنص من الله؟ واعتبار تلك العقيدة جزءا من الدين وركنا أساسيا ومهما من أركان الاسلام؟

يرفض الشيعة "الإمامية" من الأساس فكرة تطور التشيع، فضلا عن تأثير "إبن سبأ" في نظرية الإمامة، التي يعتقدون أنها قائمة على أحاديث النبي محمد (ص) ومؤسسة في عهده، كما يقول الشيخ أحمد الوائلي:

---

[٥٩٩] – النوبختي، فرق الشيعة، ص ١٨ – ٢٠

"إن هذه النظرية ولدت في حياة النبي ومن خلال أحاديثه الناصة عليها، ولم تنشأ من عوامل خارجية مع الزمن، أو من خلال دخول عناصر أجنبية في الاسلام" ويرفض فكرة تطور التشيع من روحي الى سياسي الى عاطفي ثم الى صورته الأخيرة: "التشيع العقدي" أو "نظرية الامامة".

ويناقش الوائلي الذين ذهبوا الى "تطور التشيع عبر التاريخ تطورا غير سليم أفسد مضمون هوية التشيع".[٦٠٠] ويقول:"إن هذه الزيادة ليست أكثر من المضمون الأصلي للتشيع وإنما هي تفصيل وبيان لمجمله، إنها ليست بإضافة أجزاء وإنما هي ظهور جزئيات انطبق عليها المفهوم الكلي للتشيع وقد ظهرت هذه الجزئيات بفعل تطور الزمن... وكل هذه الأمور داخلة في صلب موضوع الإمامة وليست هي بأمور زائدة على الموضوع بل اشتقاقات أولدها التطور الفكري وزيادة أعداد وأنواع معتنقي المذهب".[٦٠١] و"إن التشيع في بداياته ونهاياته واحد، وإن التطور المفترض فيه ما هو إلا تبرعم أفكار مستنبطة من الأصول حدثت عند الممارسة، وعناوين هي ثمرة لتفاعل بين أفكار، ولمقارعة حجج بعضها ببعض، مما يوجد عادة في التاريخ الثقافي لكل نحلة من النحل".[٦٠٢]

ويرفض الوائلي القول بابتداع "إبن سبأ" لنظرية الامامة، ويؤكد أن التشيع ولد أيام النبي (ص) وأن النبي نفسه هو الذي غرسه في النفوس عن طريق الأحاديث التي وردت على لسان النبي (ص) وكشفت عما لعلي (ع) من مكانة في مواقع متعددة".[٦٠٣]

وقد نقلنا أيضا في الفصل الأول رأي السيد محمد باقر الصدر (١٩٨٠) حول ولادة التشيع في زمان النبي .[٦٠٤] وانتقاده لنظرية تطور التشيع عبر التاريخ، أو اعتباره طارئا في المجتمع الاسلامي.[٦٠٥] أو أي دور لعبد الله بن سبأ" في نشوئه.[٦٠٦]

---

[٦٠٠] –كعبدالعزيز الدوري، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، وكامل مصطفى الشيبي.الوائلي، هوية التشيع، ص ١٣

[٦٠١] – الوائلي، هوية التشيع، ص ١٦

[٦٠٢] – المصدر، ص ٢٣

[٦٠٣] – المصدر، ص ٢٦ و٢٩

[٦٠٤] – الصدر، محمد باقر، في مقدمته لكتاب "تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة" للدكتور عبد الله فياض. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٦

[٦٠٥] – الصدر، محمد باقر، نشأة التشيع والشيعة، ص ١٣

وربما يَفصِل بعض الشيعة الذين يعترفون بوجود "إبن سبأ" كالأشعري القمي.[٦٠٧] والكشي.[٦٠٨] والطوسي.[٦٠٩] والحلي.[٦١٠] بين دوره الثابت في إحداث القول بالغلو في الإمام علي إلى حد "الألوهية"، ودوره المزعوم في نشوء نظرية "الإمامة"، ويعتبرون الغلو خروجا عن الاسلام فضلا عن التشيع، وأن لا علاقة بين الأثنين. ويحاول الشيخ جعفر السبحاني أن ينسف دعوى دور "إبن سبأ" في إحداث نظرية الوصية بالتشبيه بين النبي محمد والنبي موسى، فيقول "إن النبوة والوصاية من الأمور الوراثية في الشرائع السماوية، لا بمعنى أن الوراثة هي الملاك المعين بل بمعنى أنه سبحانه جعل نور النبوة والإمامة في بيوتات خاصة، فكان يتوارث نبي نبيا، ووصي وصيا، يقول سبحانه: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ". (الحديد: ٢٦) "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ".(البقرة، ١٢٤) "أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا".(النساء، ٥٤)[٦١١]

ولكن التوقف عند رواية النوبختي يفيد بأن غلو "إبن سبأ" مرَّ بمرحلتين:

الأولى: القول بفرض إمامة علي بالوصية.[٦١٢]

والثانية: نسبة الألوهية للامام علي.

---

[٦٠٦] – المصدر، ص ١٣

[٦٠٧] – الأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ٢١

[٦٠٨] – في روايات عديدة ينقلها عن الإمامين الباقر والصادق:" أن عبد الله بن سبأ كان يدعي النبوة ويزعم أن أمير المؤمنين (ع) هو الله ! ! تعالى عن ذلك علوا كبيرا، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين، فدعاه وسأله فأقر بذلك، وقال: نعم أنت هو وقد كان ألقي في روعي أنك أنت الله وأني نبي ! ! فقال له أمير المؤمنين: ويلك قد سخر منك الشيطان فارجع عن هذا ثكلتك أمك وتب، فأبى فحبسه واستتابه ثلاثة أيام فلم يتب فأحرقه بالنار".الخوئي، معجم الرجال، رقم ٦٨٨٩ عن الكشي.

[٦٠٩] – الذي يقول: إن عبد الله بن سبأ رجع إلى الكفر وأظهر الغلو . الطوسي، الرجال، ص ٥١

[٦١٠] – الذي يقول: "إن عبد الله بن سبأ غال ملعون حرّقه أمير المؤمنين عليه السلام بالنار، وكان يزعم أن علياً عليه السلام إله وأنه نبي، لعنه الله". الحلي، الخلاصة، القسم الثاني، ص ٢٣٧

[٦١١] – السبحاني، جعفر، أضواء على عقائد الشيعة الجعفرية، ص ٨٨

[٦١٢] – النوبختي، فرق الشيعة، ص ٢٢

وإذا تجاوزنا المرحلة الثانية، وتوقفنا عند المرحلة الأولى، فانها تكشف عن دور "إبن سبأ" في وضع اللبنة الأولى، أو إحداث نوع من التطور في الفكر "الإمامي" يتمثل في قراءة أو تأويل معنى "الوصية"، حيث كان الامام علي فعلا وصي النبي،[٦١٣] ولكن وصيته لم تكن تحمل معنى سياسيا أو دينيا، بمعنى الوصية على الدين، أو ممتدة في ذرية الامام، ولكن ابن سبأ أضفى عليها طابعا دينيا سياسيا وجديدا، بقوله "بعلي كما كان يقول في يهوديته بيوشع ابن نون". وقد انعكس هذا التطور (المغالي) في إحداث الطعن في الخلفاء الثلاثة الأوائل، وتبرؤه منهم باعتبارهم مغتصبين للخلافة.

التطور الكيساني

ولئن كان ذلك "التطور السبئي" محدودا ومعزولاً بالنسبة للحركة الشيعية العامة في زمن الإمام علي؛ فإن فكرة "الوصية الدينية السياسية" المتطورة التي جاء بها "إبن سبأ" شقت طريقها بعد حين الى الفرقة الشيعية "الكيسانية" التي ولدت بعد واقعة كربلاء، والتي كانت تقول: "إن الإمامة في إبن الحنفية وذريته".[٦١٤] حيث قام محمد بن الحنفية (٨٠هـ) بالوصية الى إبنه أبي هاشم عبدالله، وأمره بطلب الخلافة إن وجد إلى ذلك سبيلا، وعندما مات عبد الله بن محمد (سنة ٩٥) أوصى إلى أخيه علي بن محمد، (أو ابنه الحسن).[٦١٥] ولكن السلالة الحنفية "الكيسانية" تشرذمت وانقرضت، في مطلع القرن الثاني الهجري، وورثتها فصائل وحركات شيعية أخرى عديدة كـ "الجناحية" و"العباسية" و"الكربية".

---

[٦١٣] – يروي الكليني في (الكافي) عن الإمام جعفر الصادق: انه لما حضرت رسول الله (ص) الوفاة دعا العباس بن عبد المطلب وأمير المؤمنين فقال للعباس: يا عم محمد .. تأخذ تراث محمد وتقضى دينه وتنجز عداته ؟ ..فرد عليه فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أني شيخ كبير كثير العيال قليل المال من يطيقك وأنت تباري الريح . قال فأطرق هنيهة ثم قال: يا عباس أتأخذ تراث محمد وتنجز عداته وتقضي دينه ؟ ..فقال كَرَدِّ كلامه .. قال: أما أني سأعطيها من يأخذها بحقها، ثم قال: يا علي يا أخا محمد أتنجز عدات محمد وتقضي دينه وتقبض تراثه ؟ ..فقال: نعم بأبي أنت وأمي ذاك عليّ وليّ. الكليني، الكافي، ج١، ص ٢٣٦

[٦١٤] – المفيد، الفصول المختارة، ص ٢٤٠ و ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢، ص ١٣٠

[٦١٥] – النوبختي، فرق الشيعة، ص٣١

وقد قامت الحركة "الكيسانية" بتطوير نظرية "الوصية السياسية" الى الغلو بدور الامامة والإمام، وتفسير الدين بالرجال، وقالت: بأن "الدين طاعة رجل، ومن لا رجُلَ له (أي لا إمامَ له) فلا دين له" .[٦١٦] وادعت أن "الإمامة" أكثر من سياسية، وتنطوي على معان سامية، وقالت: بأن الإمام لديه أسرار العلوم ويعرف مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن، و"إن لكل ظاهر باطنا، ولكل شخص روحا، ولكل تنزيل تأويلا، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار يجتمع في الشخص الإنساني، وهو العلم الذي استأثر علي رضي الله عنه به ابنه محمد بن الحنفية وهو أفضى ذلك السر إلى ابنه أبي هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقا".[٦١٧]

التطور الإمامي

وبعد انهيار الحركة "الكيسانية" بوفاة الامام أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، سنة ٩٥ للهجرة، انتقلت هذه الأفكار الى فصيل شيعي آخر، هو الفصيل العلوي الفاطمي الحسيني.

إذ يمكن ملاحظة تأثير فكرة النص والوصية ومحورية الأئمة، في نشوء الفكر الإمامي الذي يقول: "إن الأئمة من أهل البيت مفروضون من الله ومعينون من قبله لإمامة المسلمين، وإنهم يشكلون امتدادا للنبوة، ولديهم علم خاص من الله لا يحتاجون معه إلى التعلم والاجتهاد، وإن الإمامة منحصرة في سلالة علي والحسين الى يوم القيامة".

وكان الإمام محمد بن علي الباقر (٥٧ – ١١٤) قد حاول من قبل، أن يجرد عمه إبن الحنفية من "الشرعية الدينية"، وينكر حقه وحق أبنائه بالامامة، ويثبتها للسلالة العلوية الفاطمية الحسينية، متمثلة في أبيه الامام زين العابدين، وذلك من خلال قصة "إعجازية" كان يرويها عن حدوث جدال بين الأثنين، ومطالبة إبن الحنفية في البداية، من إبن أخيه، بالتسليم له بالامامة وزعامة الشيعة، ورفض زين العابدين الاعتراف

---

[٦١٦] – أبو الفتح الشهرستاني، الملل والنحل، الإصدار ٢,٠٢، الجزء الأول، الباب الأول: المسلمون، الفصل السادس: الشيعة، ١– الكَيْسانِيَّة، والأشعري القمي، سعد بن عبد الله، المقالات والفرق، ص ٢٧

[٦١٧] – المصدر، ج ١ ص ١٥٠ – ١٥٢

بذلك، ودعوته عمه الى الاحتكام الى الحجر الأسود، الذي فصل بينهما – كما يقول – بالتسليم على زين العابدين بلسان عربي مبين، ومطالبة ابن الحنفية بتسليم الإمامة الى زين العابدين. [٦١٨]

إن هذه القصة "المعجزة" التي يرويها مشايخ المذهب الإمامي كالصفار والكليني وابن بابويه الصدوق، تشكل أساس ما سيعرف لاحقا بالمذهب الإمامي، أو "التشيع الديني". بعد تأويل آية التطهير "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا": بأن المقصود منها: "الأئمة" من نسل الرسول، الذين أوصى بهم وأمر باتباعهم.[٦١٩] وتأويل آية أولي الأرحام: " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله" (الأحزاب ٦) بأنها قد "نزلت في الإمرة، فنحن أولى بالأمر وبرسول الله (ص) من المؤمنين والمهاجرين والأنصار".[٦٢٠] وتطعيم "حديث الغدير" بالنص الصريح على إمامة علي بن أبي طالب .[٦٢١] و"الوصية بالخلافة من رسول الله". [٦٢٢] وحصر الإمامة في بني الحسين، دون بني الحسن.[٦٢٣]

وجاءت قصة "نطق الحجر الأسود" الإعجازية، التي رواها الباقر، لكي تحصر الإمامة في أبيه زين العابدين، تمهيدا لانتقالها اليه. وكانت دعوى حصر الإمامة في شخصه من بين إخوته، تقوم على ادعائه امتلاك كتب خاصة بخط علي، كان يعبر عنها أحيانا بكتاب علي أو الجفر أو الجامعة، والتي قال عنها: "إنها إملاء رسول الله (ص) وخط علي من فيه بيده". [٦٢٤]

وقد تطورت تلك الدعوى بالحق في الإمامة، فيما بعد، لتتركز على ذات "الأئمة" الذين قال الباقر إنهم يمتلكون علما خاصا من الله، ويقومون بدور "الحجة" على العباد، فقال:"والله ما ترك الله أرضا منذ قبض

---

[٦١٨] – الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب ما يضل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة، ح رقم ٥ والصفار، بصائر الدرجات، ج ١٠ ص ٥٠٢، وابن بابويه (٣٢٩)، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٦٠ والمسعودي، علي بن الحسين بن علي (٣٤٦ هـ) إثبات الوصية للامام علي بن ابي طالب، ص ١٨٣، ط ٢، ١٩٨٨ دار الاضواء بيروت

[٦١٩] – الكليني، الكافي، الروضة، ح رقم ٥٤٩٤ – ٦ و ح رقم، ٥٩٧ و الكافي، كتاب فضل القرآن، حديث رقم ٤

[٦٢٠] – الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب ما نص الله ورسوله على الأئمة واحدا بعد واحد، ح رقم ٢

[٦٢١] – المصدر، كتاب الحجة، باب ما نص الله ورسوله على الأئمة واحدا بعد واحد، ح رقم ٦

[٦٢٢] – المصدر، كتاب الروضة، خطبة الوسيلة

[٦٢٣] – المصدر، كتاب الحجة، باب ما نص الله ورسوله على الأئمة واحدا بعد واحد، ح رقم ٦ و، باب الإشارة والنص على الحسن بن علي، ح رقم ١ و ٥ و باب الإشارة والنص على الحسين بن علي، ح رقم ٢

[٦٢٤] – المصدر، كتاب الحجة، باب أن الأئمة قد أوتوا العلم وأثبت في صدورهم، ح رقم ٦ و ح رقم ١٠

آدم عليه السلام إلا وفيها إمام يهتدي به إلى الله وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده".[٦٢٥] و"إن الأرض لا تخلو من حجة وأنا والله ذلك الحجة".[٦٢٦] وروى عن رسول الله (ص) أنه قال:"الذكر أنا والأئمة أهل الذكر".[٦٢٧] ثم قال:"إن هذا العلم انتهى إليّ في القرآن".[٦٢٨]

ولما كانت نظرية "الإمامة" تقول بأن الأئمة معينون من قبل الله، وأن علمهم إلهيٌ، فلم تجد، في مرحلة أخرى من تطور نظرية "الإمامة"، مانعا من ادعاء تحديث الملائكة للأئمة مع تأكيدها على نفي كون الأئمة أنبياء تحاشيا للخروج عن ضروريات الدين الإسلامي.[٦٢٩]

وحسبما يروي الكليني فقد أطلق الباقر على "الأئمة" صفة "المحدَّثين" أي الذين تحدثهم الملائكة، وأنه قرأ هذه الآية هكذا: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي (ولا محدَّث)...".[٦٣٠] تأييدا لفكرة:"الوصي المحدَّث" وضرورة وجوده واستمراره إلى يوم القيامة.[٦٣١]

وبعد أن أصبحت نظرية "الإمامة لأهل البيت" دينية إلهية، كان لا بد أن يصبح الولاء للأئمة واجباً دينياً مقدساً، وأن يتضمن الفكر الإمامي بندا خاصا بوجوب الولاء للأئمة من أهل البيت، ورفع الأمر إلى مرتبة الأحكام الشرعية والأركان المهمة في الإسلام. وتأكيدا لذلك طالب الإمام الباقر الشيعة بتقديم الولاء له، والتصديق بإمامته الخاصة من الله، كما ورد في "الكافي" أنه قال:" قال رسول الله (ص): من أحب أن يحيى حياة تشبه حياة الأنبياء، ويموت ميتة تشبه ميتة الشهداء، ويسكن الجنان التي غرسها الرحمن؛ فليتولَّ

---

[٦٢٥] – المصدر، كتاب الحجة، باب أن الأرض لا تخلو من حجة، ح رقم ٨

[٦٢٦] – المصدر، كتاب الحجة، باب أن الأرض لا تخلو من حجة، ح رقم ٩

[٦٢٧] – المصدر، كتاب الحجة، باب أن أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم هم الأئمة، ح رقم ١ و٦ و ٧

[٦٢٨] – الوافي،[٣٣٥٨٧] ٥٦ بصائر الدرجات: ٢٢٦ | ١٤.

[٦٢٩] – الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب في شأن إنا أنزلناه، ح رقم ١

[٦٣٠] – المصدر، كتاب الحجة، باب في أن الأئمة محدثون مفهمون، ح رقم ٢ و ٤ وهذه الاضافة تشابه ما ينقله البخاري عن عمر بن الخطاب أنه محدث.

[٦٣١] – المصدر، كتاب الحجة، باب في شأن إنا أنزلناه، ح رقم ٧ و ٩

عليا وليوالِ وليَه وليقتد بالأئمة من بعده، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي.. وويل للمخالفين لهم من أمتي، اللهم لا تنلهم شفاعتي".[٦٣٢] وأنه قال: "بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم ينادَ بشيء كما نودي بالولاية".[٦٣٣] وإن "الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن". [٦٣٤]

وبناء على ذلك تم اعتبار "الإمام" ركنا عظيما من أركان الدين، ورفعه إلى درجة التوحيد والنبوة.[٦٣٥] واعتبار تولي غير "الأئمة" نوعا من الإلحاد في الدين.[٦٣٦] والتشبيه بين طاعة الله وطاعة الأئمة، وبين معصية إبليس لله ومعصية الإمام، فقد "افترض الله على أمة محمد (ص) خمس فرائض: الصلاة والزكاة والصيام الحج وولايتنا، فرخص لهم في أشياء من الفرائض الأربعة ولم يرخص لأحد من المسلمين في ترك ولايتنا لا والله ما فيها رخصة".[٦٣٧]

ونعثر في التراث الشيعي على روايات كثيرة تعظم منزلة الإمامة والولاء للأئمة اعتمادا على تأويل آيات كثيرة من القرآن الكريم، بالولاية للأئمة (الحسينيين) والتأكيد على موضوع الوصية في ذرية النبي محمد (ص) استمرارا لوصايا الأنبياء السابقين في ذرياتهم، بدءا من النبي موسى (ع) الذي أوصى إلى يوشع ابن نون (ع) وانتهاء بالوصية إلى العترة وأهل البيت. وهي تشابه مقولة "عبد الله بن سبأ" التي أطلقها حول الامام علي.[٦٣٨]

---

[٦٣٢] – المصدر، كتاب الحجة، باب ما فرض الله ورسوله من الكون مع الأئمة، ح رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٦

[٦٣٣] – المصدر، كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام، ح رقم ١

[٦٣٤] – المصدر، كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام، ح رقم ٥

[٦٣٥] – المصدر، كتاب الحجة، باب نادر في حالات الغيبة، ح رقم ٥

[٦٣٦] – المصدر، كتاب الروضة، ح رقم ٥٣٣ و كتاب الحجة، باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية، ح رقم ٣

[٦٣٧] – المصدر، كتاب الروضة، ح رقم ٣٩٩ وفسر أبو عبد الله الطاعة الواردة في قوله تعالى "ومن يطع الله والرسول..." بالطاعة في الولاية، وقال إن هذه الآية نزلت هكذا:" ومن يطع الله ورسوله (في ولاية علي وولاية الأئمة من بعده) فقد فاز فوزا عظيما". المصدر، كتاب الحجة، باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية، ح رقم ٨

[٦٣٨] – فان إحدى الروايات المنسوبة للصادق، تتحدث عن الوصية في بني إسرائيل وتقول: "أوصى موسى عليه السلام إلى يوشع ابن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى ولد هارون، ولم يوص إلى ولده ولا إلى ولد موسى". الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب ما يضل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة، ح رقم ١٥ وراجع أيضا: الكليني، الكافي، كتاب الروضة، خطبة الوسيلة.

ورغم كل ذلك التنظير الذي اعتمد عليه "التشيع الديني" حول وجود النص الصريح على الإمام علي بالخلافة والإمامة، فإنه افتقر إلى الأدلة الكافية للنزول إلى بقية الأئمة من ذرية علي والحسين.[٦٣٩] ولم يمتلك سوى "معجزة" تحدُث الحجر الأسود مع زين العابدين والفصل بينه وبين عمه محمد بن الحنفية في نزاعهما حول الإمامة.[٦٤٠] وهذه حكاية لم يستطع أحد أثباتها. كما عجز "التشيع الديني" عن إثبات "الإمامة الإلهية" لجعفر الصادق، وتطبيق النظرية على الواقع، حيث توفي الباقر ولم يوصِ إلى ابنه جعفر بالإمامة، وإنما كانت وصيته التي يرويها الإمامية أنفسهم مقتصرة على شؤون الغسل والتكفين والدفن فقط.[٦٤١]

المبحث الرابع :خط الإنزواء والمهادنة

ويلاحظ أن الغلو بالأئمة الحسينيين، والاعتقاد بمحوريتهم الدينية، قد تزامن مع انسحابهم من معترك السياسة والثورة، وانعزالهم اجتماعيا، وانفصالهم عن الحركة الشيعية الثورية، بدءا من الإمام زين العابدين علي بن الحسين وانتهاء بالحسن العسكري.

---

[٦٣٩] – المصدر، كتاب الحجة، باب ما نص الله ورسوله على الأئمة واحدا بعد واحد، ح رقم ٦

[٦٤٠] – المصدر، كتاب الحجة، باب ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة، ح رقم ٥ والصفار، بصائر الدرجات، ج ١٠ ص ٥٠٢، وابن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٦٠

[٦٤١] – ويحمل التراث الشيعي كذلك، رفضا صريحا لنظرية "الإمامة الإلهية" وتوابعها، من قبل الإمام الصادق نفسه فهو مثلا ينفي بصراحة نظرية "الإمامة الإلهية" وينفي علمه بالغيب، ويأمر شيعته بالولاء للشيخين أبي بكر وعمر (اللذين يتهمهما الإمامية باغتصاب الخلافة من علي) ولم يدَّعِ النص عليه من أبيه الباقر، كما لم ينص على أحد من ولده بالإمامة. فقد روى الكليني عن سعيد السمان أنه كان عند أبي عبدالله (الصادق) إذ دخل عليه رجلان من الزيدية فقالا له: أ فيكم إمام مفترض الطاعة؟ فقال: لا، فقالا له: قد أخبرنا عنك الثقاة أنك تفتي وتقر وتقول به ونسميهم لك، فلان وفلان، وهم أصحاب ورع وتشمير، وهم ممن لا يكذب. فغضب أبو عبدالله فقال: هم أعلم وما قالوا .. ما أمرتهم بهذا. فلما رأيا الغضب في وجهه خرجا. الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من سلاح رسول الله، ح رقم ١ وباب ما يجب على الناس عند مضي الإمام، ح رقم ٢ والكشي عن سعيد الأعرج عن الإمام الصادق. الخوئي، معجم الرجال، رقم ٥١٠٩ والصفار، بصائر الدرجات، ج ٤، باب (٤) ما عند الأئمة عليهم السلام من سلاح رسول الله ص وآيات الأنبياء، ح رقم (٤) ولكن الراوي يدعي أن ذلك النفي كان من أجل التقية، ويضيف إلى هذه الرواية: أن الإمام الصادق لعن السائلَين (الزيديين) بعدما خرجا، وأكد نظرية الإمامة، وادعى: "أن لديه سيف رسول الله (ص) ودرعه ولامته ومغفره، وأن عنده خاتم سليمان والطست الذي كان يقرب بها موسى القربان، وأن عنده التابوت التي جاءت بها الملائكة تحمله، والسلاح الذي من صار إليه أوتي الإمامة". الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة، ح رقم ٥

وقد حاول السيد محمد باقر الصدر الدفاع عن اعتزالهم، والإصرار على تمتعهم بالمكانة المحورية الدينية في التشيع، فقال:"إن بعض الباحثين يحاول التمييز بين نحوين من التشيع، أحدهما (التشيع الروحي) والآخر (التشيع السياسي)... وأن أئمة الشيعة الإمامية – من أبناء الحسين (عليه السلام) – قد اعتزلوا – بعد مذبحة كربلاء– السياسة، وانصرفوا إلى الإرشاد والعبادة، والانقطاع عن الدنيا.

والحقيقة أن "التشيع" لم يكن في يوم من الأيام منذ ولادته مجرد اتجاه روحي بحت، وإنما ولد التشيع في أحضان الإسلام بوصفه أطروحة مواصلة الامام علي (عليه السلام) للقيادة بعد النبي فكريا واجتماعيا وسياسيا".

ورفض الصدر فكرة تنازل الأئمة عن الجانب السياسي "إلا إذا تنازلوا عن التشيع" وفسر المواقف السلبية من المشاركة في السياسة والثورات المسلحة التي كان يشعلها الأئمة العلويون (الزيدية) بعدم وجود قواعد شعبية واعية تعي أهداف السلطة وتؤمن بنظريتها في الحكم، واختلاف الظروف الموضوعية، وليس تخليا عن الجانب السياسي في قيادتهم. [٦٤٢]

ولكن هذه الرؤية تنطلق فيما يبدو من موقف أيديولوجي مسبق، لأنها تخالف مواقف سلبية ثابتة تؤكد إنزواء بعض أئمة أهل البيت، وانطوائهم على النفس الى درجة الاستسلام للحكام الظالمين. كما ينقل عن علي بن الحسين الذي "انقبض عن الناس فلم يلق أحدا، ولا كان يلقاه الا الخواص، وكان في نهاية العبادة ولم يخرج عنه من العلم الا يسيرا" وأنه كان يوصي الشيعة بالخضوع للحاكم والطاعة له وعدم التعرض لسخطه، ويتهم الثائرين بالمسئولية عن الظلم الذي يلحق بهم من قبل السلطان.

كما يقول الشيخ محمد بن علي بن بابويه الصدوق. [٦٤٣] أو كما يروى عن ابنه محمد الباقر الذي فضل اللجوء الى الهدوء وإسدال الستار على باب بيته، في أيام الأمويين، مما دفع أخاه الامام زيد الذي كان

---

[٦٤٢] – الصدر، محمد باقر، نشأة التشيع والشيعة (نشر في بيروت سنة ١٩٧٧ تحت عنوان: بحث في الولاية) الفصل الثاني، المبحث الثالث: التشيع الروحي والتشيع السياسي، تحقيق عبدالجبار شرارة ١٤١٤ شبكة الإمامين الحسنين للتراث والفكر الاسلامي.

[٦٤٣] – الصدوق، إكمال الدين، ص ٩١ و الأمالي، المجلس ٥٩ ص ٣٩٦

يرفع راية الجهاد والثورة، وقام بثورة في الكوفة سنة ١٢٢ هـ، إلى توجيه النقد له قائلا: "ليس الإمام منا من جلس في بيته وأرخى ستره وثبط عن الجهاد، ولكن الإمام منا من منع حوزته وجاهد في سبيل الله حق جهاده ودفع عن رعيته وذب عن حريمه".[٦٤٤]

وفي الوقت الذي انتهج أبناء زيد طريق الثورة، فان الامام جعفر الصادق، فضل أيضا الابتعاد عن النشاط السياسي، ولم يشارك في ثورة محمد بن عبد الله (النفس الزكية) سنة ١٤٥. كما لم يستجب لنداءات الثورة من شيعته، ربما انطلاقا من شعوره بقلة الأنصار.

وبالرغم مما كان يشاع عن موسى الكاظم بأنه يعد للثورة على هارون الرشيد، وأنه المهدي المنتظر، مما دعا الخليفة العباسي لاعتقاله عدة مرات حتى توفي في السجن؛ فانه ذهب خطوة أبعد، في تحريم الثورة على العباسيين، وتفضيل الاعتزال والهدوء.[٦٤٥]

ولم يستجب لدعوة ابن عمه الحسين بن علي (شهيد فخ) الذي أعلن الثورة في المدينة (سنة ١٦٩) كما لم يستجب لدعوة ابن عمه الآخر: يحيى بن عبد الله بن الحسن في الثورة على هارون الرشيد ودعاه الى الالتزام بطاعة الخليفة وحذره من عصيانه والتمرد عليه.[٦٤٦] وأوصى شيعته قائلا: "لا تذلوا رقابكم بترك طاعة سلطانكم، فان كان عادلا فاسألوا الله بقاه، وان كان جائرا فاسألوا الله اصلاحه، فان صلاحكم في صلاح

---

[٦٤٤] - الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة، ح رقم ١٦

[٦٤٥] - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٦١ والأمالي، ص ٣٣٨ و الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل .. ح رقم ١٩

[٦٤٦] - الكليني، الكافي، الروضة، كتاب الحجة، باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل .. ح رقم ١٩

سلطانكم، وإن السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم، فأحبوا له ما تحبون لأنفسكم، واكرهوا له ما تكرهون لأنفسكم". [٦٤٧]

ومع أن عددا من أبناء الكاظم (كزيد وإبراهيم) انخرطوا في ثورات مسلحة ضد العباسيين، وانتقلوا الى الخط الزيدي الذي لم يهادن العباسيين، فإن علي بن موسى الرضا اتخذ موقفا سلبيا معارضا للحركات الشيعية العلوية الثائرة (كثورة ابن طباطبا وأبي السرايا في الكوفة عام ١٩٩) بالانتقال الى التحالف مع الخليفة المأمون، وأصبح وليا لعهده، بالرغم مما يقال بأن ذلك كان تحت الضغط أو تقية.

وهكذا استمر إبنه محمد الجواد، وأحفاده: علي الهادي، والحسن العسكري، في الالتزام بخط الموادعة والتعايش مع السلطات العباسية، خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري، في الوقت الذي كانت التيارات الشيعية الأخرى الزيدية والإسماعيلية تفجر الثورات المتتالية أو تعد لإعلان الثورة هنا وهناك، في الكوفة والحجاز واليمن والري وطبرستان.

وقد انعكس هذا الموقف الانعزالي السلبي على الشيعة الإمامية، وخاصة الموسوية (ما عدا بعض الحالات النادرة) مما خلق نموذجا شيعيا منفصلا عن روح "التشيع السياسي" ومكتفيا بالتعاطف الروحي مع أئمة هذه السلالة، ومستلهما العلم منها فقط.

المبحث الخامس :تطور الزيدية نحو "الإمامية"

كما قلنا في بداية هذا الفصل، فإن الحركة الزيدية كانت تتمحور حول أئمة أهل البيت، ولكن دون أن تنظر إليهم على أنهم معصومون أو معينون من قبل الله كالإمامية أو "الرافضة" ومع ذلك فقد مرت الزيدية بمراحل متعددة، فقد ابتدأت بمقولات بسيطة تتمحور حول الثورة وأهل البيت، مع الاحتفاظ بمبدأ الشورى وحق جميع المسلمين بالإمامة وعدم اقتصارها على العلويين، وهو ما نلاحظه لدى المعتزلة بقيادة

---

[٦٤٧] - الصدوق، إكمال الدين، ص ٣٦١ والأمالي، ص ٣٣٨ و العاملي، الحر، وسائل الشيعة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب ١٧ ويفترض بعض الكتاب الشيعة أن الكاظم كان يمارس قيادة سرية ويعد للثورة على هارون الرشيد الذي اعتقله، بتهمة جمع المال والسلاح، بناء على وشاية من ابن أخيه محمد بن إسماعيل.

عمرو بن عبيد أثناء مبايعتهم للنفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن، في مؤتمر "الأبواء" الذي عقد بعد مقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ .[٦٤٨]

ثم قامت الحركة الزيدية بحصر الإمامة في البطنين (بني الحسن والحسين). مع انتقال أبي الجارود زياد الهمذاني الكوفي، من أتباع الإمام الباقر، بعد وفاته، الى التيار الزيدي، وقوله بأن الإمامة شورى في ذرية الإمام علي الى يوم القيامة، فمن خرج منهم مستحقا للإمامة فهو الإمام .[٦٤٩]

ويمكن الاشارة هنا الى جماعات تعرف بـ "السليمانية" و"البترية" و"الصالحية" نسبة الى بعض الزعماء الذين انخرطوا في الحركة الزيدية العامة، خصوصا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري. وكان أحد هؤلاء وهو سليمان بن جرير الرقي، تابعا للامام جعفر الصادق، ويؤمن بنظرية "الإمامة" ولكنه تراجع عنها، بعدما توفي اسماعيل بن جعفر، (١٣٥هـ) في حياة أبيه الذي كان قد أشار اليه كخليفة من بعده، وترك القول بإمامة جعفر". وذهب الرقي إلى القول بأن الإمامة شورى، وجواز إمامة المفضول.[٦٥٠] وقد اثبت إمامة أبي بكر وعمر، باختيار الأمة حقا اجتهاديا، وان من شهر سيفه من أولاد الحسن والحسين وكان عالما زاهدا شجاعا فهو الإمام .[٦٥١]

وقد حدث نوع من التطور في الفكر السياسي الزيدي باتجاه التمحور حول "أهل البيت" وحقهم في الإمامة، مع مجيء الزعيم الجديد محمد بن عبد الله "النفس الزكية" الذي كان يؤمن بحق أهل البيت بالخلافة، وهو ما أدى به الى رفض الاعتراف بشرعية الخلفاء العباسيين، فكتب الى المنصور العباسي الذي بايعه في

---

[٦٤٨] – دخل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة، مع مجموعة منهم على الصادق، ودعوه للانخراط في حركتهم ومبايعة ابن عمه محمد بن عبد الله، وقالوا له: "قد قتل أهل الشام خليفتهم وضرب الله عز وجل بعضهم ببعض، وشتت الله أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلا له دين وعقل ومروة وموضع ومعدن للخلافة وهو محمد بن عبد الله بن الحسن فأردنا أن نجتمع عليه فنبايعه ثم نظهر معه فمن كان بايعنا فهو منا وكنا منه، ومن اعتزلنا كففنا عنه ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ورده إلى الحق وأهله، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك فتدخل معنا فانه لا غنى بنا عن مثلك لموضعك وكثرة شيعتك". فسأله الصادق عن رأيه بمن يستحق الخلافة، فقال انها شورى في عامة المسلمين. الكليني، الكافي، ح رقم ٨٢٤٧ – ١

[٦٤٩] – النوبختي، فرق الشيعة، ص ٤٨ – ٤٩ و٥٤، والأشعري القمي، المقالات والفرق، ص ١٩ و المفيد، المسائل الجارودية في تعيين الخلافة والإمامة في ولد الحسين بن علي، ص ٢، والمفيد، الثقلان، ص ١٠

[٦٥٠] – النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٣ – ٦٦ راجع أيضا: الملل والنحل، والفرق بين الفرق، والوافي للصفدي

[٦٥١] – الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٢٧٧

الأبواء ثم تمرد عليه، قائلا: "ان الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحضيتم بفضلنا، وان أبانا عليا كان الوصي وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟" .[٦٥٢]

وقد تعزز القول بحق ذرية الامام علي بالحكم والخلافة، فيما بعد، على يدي الإمام الرسي القاسم بن ابراهيم (١٦٩ – ٢٤٦) الذي أعلن دعوته بعد وفاة أخيه محمد بن إبراهيم بن طباطبا، قائد ثورة ابن أبي السرايا في الكوفة سنة ١٩٩ في عهد المأمون، وقاد حركة زيدية قوية وعريضة معارضة للعباسيين طيلة النصف الأول من القرن الثالث، حتى اعتبر مؤسس الفرقة الزيدية، واستطاع حفيده الحسين بن الحسن بن القاسم أن يستولي على اليمن. وقد كرس القاسم الرسي الحق في الإمامة بصورة عامة في ذرية الامام علي، في كتابه "تثبيت الإمامة" الذي تحدث فيه عن تفضيل الله لذرية النبي محمد (ص) على سائر الخلق.[٦٥٣] وهو ما تعزز أكثر فأكثر، بعد استيلاء الزيود على اليمن، وانتقالهم من الثورة الى الدولة، وامتد الى وقت قريب.

[٦٥٢] – الأشعري، المقالات والفرق، ص ٦٧

[٦٥٣] – وقد قال في كتابه "تثبيت الإمامة":"أحمد الله فاطر السماوات والأرض، ففضل بعض مفطوره على بعض علوا منه تعالى للمفضلين شكره، وإحسانا للمفضولين ما ازداد في ذلك من أمره ليزيد الشاكرين في الآخرة شكرهم من تفضيله، وليذيق المفضولين لسخط ان كان منهم في ذلك من تنكيله، ابتداء في ذلك للفاضلين بفضله، وفعلا فعله بالمفضولين عن عدله. يقول الله جلا ثناؤه وتباركت بقدسه اسماؤه "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون" (الأنبياء، ٢٣) وقال:" وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون". (القصص، ٦٨) ويقول تعالى "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات، ليبلوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم". (الأنعام ١٦٥) (ص ٣٧) واعتمد الرسي في بناء نظريته في الإمامة على عدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقال:"فأما وجوب الإمامة ودليله، فوحي كتاب الله عز وجل وتنزيله، فاسمع لسنته في الذين خلوا من قبلك وتفهم تتقدم لوائها عن الله تعلم..."سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا"... "ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه، وجعلناه هدى لبني اسرائيل، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون". (السجدة، ٢٣ – ٢٤) (ص ٣٨ – ٣٩) ... فبانت الرسل (صلوات الله عليها) من الأوصياء، ما جعل الله من هذه الدلائل لهم وفيهم وبانت للأوصياء من الأئمة ما خصها الله من التسمية، وعلما يعرف لها عند رسلها من المنزلة وما كانت الرسل تليها به اقوال التفضلة، كنحو ما جاء في علي عليه السلام عن الرسول (ص) كقوله:"من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" وكقوله:" أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي، وأنت قاضي ديني ومنجز وعدي. (ص

الفصل الرابع

التشيع الفقهي "الجعفري" [٦٥٤]

أدت نظرية "التشيع الديني" ودعوى امتلاك "الإمام" من أهل البيت، وحده لعلم الكتاب، والقدرة على تفسيره وتأويله، إلى تحويل أئمة أهل البيت إلى "مصدر تشريعي" جديد إلى جانب القرآن والسُنَّة النبوية.[٦٥٥]

وأصبح "الأئمة" يحتلون، في نظر الإمامية، موقعا لصيقا بالنبوة، فهم "خزانة علم الله".[٦٥٦] و"شجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وبيت الرحمة، ومعدن العلم".[٦٥٧] و" الأبواب التي أمر الله أن يؤتى

---

٥٥) واستشهد بآيات وراثة الأنبياء وذريتهم، وقال: "ثم قال تعالى **لأبناء ابراهيم خاصة من دون المؤمنين** "ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول عليكم شهيدا وتكونوا شهداء على الناس...". (ص ٦٢)

الإمام الرسي، القاسم بن ابراهيم (١٦٩ – ٢٤٦)، تثبيت الإمامة، تحقيق صالح الورداني، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨

[٦٥٤] – هذا الفصل مقتبس باختصار شديد من كتابي: "التشيع السياسي والتشيع الديني" الصادر عام ٢٠٠٨ عن دار الانتشار العربي، بيروت

[٦٥٥] – الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب أن الأئمة نور الله، ح رقم ١ و ٢ و ٣

[٦٥٦] – المصدر، كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه، ح رقم١ و ٥ و ٦

[٦٥٧] – المصدر، كتاب الحجة، باب أن الأئمة معدن العلم وشجرة النبوة ومختلف الملائكة، ح رقم ١ و٢

منها".[٦٥٨] ووجب القطع بصوابية آرائهم، والتسليم لهم، وعدم جواز تقليد غيرهم من العلماء أو تلقي الأحاديث النبوية عن غير طريقهم.. وهكذا ولد "التشيع الفقهي الجعفري".

أصول الفقه الجعفري

نشأ "التشيع الديني" في خضم جدل كان يدور، في بداية القرن الثاني، حول شمولية الشريعة الإسلامية لكل شيء في الحياة وتوفيرها لأحكام تفصيلية لكل شيء، أو محدوديتها في مسائل معينة وتركها لمسائل أخرى للعقل الإنساني، وهو ما يعرف بالمسائل المدنية العرفية كموضوع العلاقة بين الحكام والمحكومين وكيفية انتخاب الحاكم، وجواز الاجتهاد وقياس المسائل الحادثة على المسائل المشابهة المعلومة في الشريعة الإسلامية.

ذلك الجدل قسم المسلمين إلى مدرستين هما مدرسة "الرأي" ومدرسة "أهل الحديث". وحسب الروايات الواردة في التراث الإمامي فإن الامام محمد الباقر قد اتخذ موقفا مضادا لكلا المدرستين "أهل الرأي" و"أهل الحديث"، حيث أكد في البداية مبدأ شمولية الشريعة لكل شيء في الحياة، وقال:"إن الله تبارك وتعالى لم يدَع شيئا تحتاج إليه الأمة إلا أنزله في كتابه وبينه لرسوله (ص) وجعل لكل شئ حداً وجعل عليه دليلا يدل عليه، وجعل على من تعدى ذلك الحد حداً".[٦٥٩]

ولكن الباقر اتخذ موقفا سلبيا من استعمال القياس في استنباط أحكام جديدة في الحوادث الواقعة.[٦٦٠] وفي نفس الوقت خاض معركة حامية مع "أهل الحديث" ونادى بالعودة إلى القرآن والاحتجاج به، وحذر من التصديق "بالأحاديث الكاذبة على الله التي يكذبها القرآن ويتبرأ منها ومن حملتها ورواتها".[٦٦١]

---

[٦٥٨] – المصدر، كتاب الحجة، باب أن الأئمة خلفاء الله في أرضه ٢

[٦٥٩] – المصدر، كتاب العقل، كتاب فضل العلم، باب الرد إلى الكتاب والسنة، ح رقم ٢

[٦٦٠] – أمالي المفيد: ٥١ | ١٢.

[٦٦١] – الكليني، الكافي، كتاب الروضة، ح رقم ٨٢٤٠ – ١ و كتاب فضل القرآن، حديث رقم ٢ و ٦

وهكذا رفض الامام جعفر بن محمد الصادق (١٤٨هـ) مذهب أهل الرأي الذين كانوا يقولون بالقياس والاجتهاد.[٦٦٢] وذهب إلى وجود النصوص الشرعية في كل شيء. بناء على فكرة: تبيان كل شي في الكتاب والسنة، وعدم وجود منطقة فراغ تحتاج إلى الرأي والاجتهاد، حيث قال:"إن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شئ حتى والله ما ترك الله شيئا يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن؟ إلا وقد أنزله الله فيه".[٦٦٣] و" ما من شئ إلا وفيه كتاب أو سنة".[٦٦٤] و"ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله عز وجل ولكن لا تبلغه عقول الرجال".[٦٦٥] وكتب رسالة طويلة إلى شيعته، أكد فيها على أن الله قد أنزل القرآن، وجعل فيه تبيان كل شيء.[٦٦٦] وروى عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أنه قال:"أيها الناس إن الله تبارك وتعالى أرسل إليكم الرسول صلى الله عليه وآله وأنزل إليه الكتاب بالحق... إن فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة، وحكم ما بينكم وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتموني عنه لعلمتكم".[٦٦٧]

وبناء على الاعتقاد بتبيان الكتاب والسُنَّة لكل شيء، اتخذ الإمام الصادق موقفا سلبيا من استعمال القياس من أجل استنباط أحكام جديدة في الحوادث الواقعة، وقال:"إن أصحاب المقائيس طلبوا العلم بالمقائيس فلم تزدهم المقائيس من الحق إلا بعدا، وإن دين الله لا يصاب بالمقائيس".[٦٦٨] وقال لتلميذه أبان:

---

[٦٦٢] – كان الإمام أبو حنيفة النعمان يقود مدرسة الرأي والقياس والاجتهاد، ويرفض كثيرا من الأحاديث، بينما كان بعض أئمة أهل الحديث كالإمام مالك، يذهب إلى استعمال الرأي، بعد قول الصحابة والتابعين، وكان الإمام الشافعي يؤمن بالقياس، ويعتبره مصدرا من مصادر التشريع في غياب النصوص من الكتاب والسنة، على العكس من الإمام أحمد ابن حنبل (إمام أهل السنة) الذي كان يرفض القياس أشد الرفض ويعتبره بدعة مخالفة للسنة، ويصر على التمسك بالحديث كما هو. فقال في رسالته في "أصول السنة":" أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) والاقتداء بهم، وترك البدع... والسنة عندنا آثار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) **وليس في السنة قياس،** ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول والأهواء. إنما هو الاتباع وترك الهوى".

[٦٦٣] – المصدر، كتاب العقل، كتاب فضل العلم، باب الرد إلى الكتاب والسنة، ح رقم ١

[٦٦٤] – المصدر، ح رقم ٤

[٦٦٥] – المصدر، ح رقم ٦

[٦٦٦] – الوافي، ح رقم [٣٣١٥٢] و الكافي ٨: ٥. . الكليني، الكافي، كتاب العقل، كتاب فضل العلم، باب الرد إلى الكتاب والسنة، ح رقم ١٠ الوافي، ح رقم [٣٣١٥٣] ٣

[٦٦٧] – الكليني، الكافي، كتاب العقل، كتاب فضل العلم، باب الرد إلى الكتاب والسنة، ح رقم ٧

[٦٦٨] – المصدر، كتاب العقل، كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس، ح رقم ٧

"إن السُنَّة لا تقاس، ألا ترى أن المرأة تقضي صومها، ولا تقضي صلاتها، يا أبان إن السُنَّة إذا قيست محق الدين". [٦٦٩] وروى عن أبيه عن جده الإمام علي أنه قال:"من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس، ومن دان الله بالرأي لم يزل دهره في ارتماس".[٦٧٠] و " من عمل بالمقائيس فقد هلك وأهلك".[٦٧١]

وانتقد فقيه أهل العراق المعاصر له، عبد الله ابن شبرمة قائلا: "لو علم ابن شبرمة من أين هلك الناس ما دان بالمقاييس، ولا عمل بها". [٦٧٢] واشتهر عن الصادق قوله: "القياس ليس من ديني".[٦٧٣] ونقل حديثا عن رسول الله عن الله عز وجل أنه قال:"ما على ديني من استعمل القياس في ديني".[٦٧٤] واستدل على عدم جواز استعمال الرأي والقياس في الحوادث الواقعة، بحرمته في أيام الرسول.[٦٧٥] وعندما سأله أبو بصير، قائلا: ترد علينا أشياء ليس نعرفها في كتاب الله ولا سُنَّة فننظر فيها؟ قال:" لا، أما إنك إن أصبت لم تؤجر، وإن أخطأت كذبت على الله عز وجل".[٦٧٦]

ونظراً لمحدودية الأحكام الواردة في القرآن والسنة، في الواقع، قال الإمام جعفر الصادق أن لديه علما إلهيا خاصا مستمرا من الله، وسأل أبا حنيفة ذات مرة قائلا: "أنت فقيه العراق؟ قال: نعم، قال: فبَمَ تفتيهم ؟ قال: بكتاب الله وسُنَّة نبيه (ص) قال: يا أبا حنيفة! تعرف كتاب الله حق معرفته ؟ وتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ قال: نعم، قال: يا أبا حنيفة! لقد ادعيت علماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا محمد (ص)، وما ورثك الله من كتابه

---

[٦٦٩] – الوافي، ح رقم [٣٣١٦٠] ١٠ .

[٦٧٠] – الوافي، ح رقم [٣٣١٦١] ١١ .

[٦٧١] – الكليني، الكافي، كتاب العقل، كتاب فضل العلم، باب النهي عن القول بغير علم، ح رقم ٩

[٦٧٢] – الوافي، ح رقم [٣٣١٨٣] ٣٣ .

[٦٧٣] – رجال الكشي ٢: ١٨٨ | ٣٣١.

[٦٧٤] – آمالي الصدوق: ١٥ | ٣، والتوحيد: ٦٨ | ٢٣، وعيون أخبار الرضا ١: ١١٦ | ٤ .

[٦٧٥] – الوافي، ح رقم [٣٣١٥٢] و الكافي ٨: ٥. . عن أبي عبدالله، و الكليني، الكافي، كتاب الروضة، رسالة الإمام الصادق، حديث رقم ١

[٦٧٦] – الكليني، الكافي، كتاب العقل، كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس، ح رقم ١١

حرفا".[677] ثم حذره قائلا:" اتق الله، ولا تقس (في) الدين برأيك، فإن أول من قاس إبليس . وسأله .: ويحك أيهما أعظم ؟ قتل النفس، أو الزنا ؟ قال: قتل النفس، قال: فان الله عزّ وجلّ قد قبل في قتل النفس شاهدين، ولم يقبل في الزنا إلا أربعة، ثم أيهما أعظم ؟ الصلاة ؟ أم الصوم ؟ قال: الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي الصيام، ولا تقضي الصلاة؟ فكيف يقوم لك القياس ؟ فاتق الله، ولا تقس". [678]

وبما أن استعمال القياس أو الاجتهاد في الفقه، كان يشكل تحديا كبيرا لنظرية الإمامة الإلهية، واستغناءاً عن الأئمة، فقد اعتبر الصادق الاجتهاد بدعة: "وقد قال رسول الله (ص): كل بدعة ضلالة، فلو أنهم إذا سئلوا عن شيء من دين الله، فلم يكن عندهم فيه أثر عن رسول الله، ردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم من آل محمد (ص)".[679] وقال:"إن الله فرض طاعة الأئمة، الذين أنزل الله كتابه عليهم، على عباده، وأمر الأمة برد ما اشتبه عليهم من الأحكام إليهم ... وإن الله لم يكلف الناس اجتهادا، لأنه قد نصب لهم أدلة، وأقام لهم أعلاما، وأثبت عليهم الحجة، فمحال أن يضطرهم إلى ما لا يطيقون بعد إرساله إليهم الرسل بتفصيل الحلال والحرام، ولم يتركهم سدى، مهما عجزوا عنه ردوه إلى الرسول والأئمة صلوات الله عليهم".[680]

ومن هنا قال "الجعفرية": لا سُنَّة إلا عن طريق أهل البيت، وذلك انهم يشككون بالأحاديث الواردة عن طريق أهل الحديث، ولا يعترفون إلا بالأحاديث الواردة عن "الأئمة" لأنهم – حسب رأيهم – أعلم الناس بالأحاديث النبوية الصحيحة، التي ورثوها أباً عن جد عن رسول الله (ص) والتي تختلف عما في أيدي الناس.[681]

---

[677] – الوافي، ح رقم [٣٣١٧٧] ٢٧

[678] – الوافي، ح رقم [٣٣١٧٥] ٢٥ و [٣٣١٨٢] عن المحاسن: ٢٠٩ | ٧٦.

[679] – تفسير العياشي ٢: ٣٣١ | ٤٦.

[680] – الوافي، ح رقم [٣٣١٨٨] ٣٨

[681] – الكليني، الكافي، كتاب الروضة، ح رقم ٨٢٤٠ – ١

ويروون عن الصادق أنه كان يقول:" إن عندنا كتابا إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام، صحيفة فيها كل حلال وحرام".[٦٨٢] و"إن عندنا الجامعة.. صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله (ص) وإملائه من فلق فيه وخط علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام وكل شئ يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش" .[٦٨٣]

ونتيجة لإيمان "الإمامية" بعصمة "الأئمة" وبناء على امتلاكهم لتلك الكتب السرية، فقد كانوا يقبلون أية رواية ينسبها "الإمام" إلى رسول الله (ص) من دون حاجة لذكر السند، حتى لو كانت بينه وبين الرسول مائة عام، وكذلك الرواية عن الله تعالى مباشرة من دون سند. [٦٨٤]

وقال بعض "الإمامية": بأن الله تعالى قد فوَّض للأئمة التشريع، وزعموا أن الدين أو الحكم الشرعي هو ما يقوله الأئمة، وليس ما روي عن النبي الأكرم أو جاء في القرآن الكريم فقط. وهو ما فتح الباب واسعا أمام التأسيس لفقه جديد.[٦٨٥] واختلاق ونسبة فتاوى وأحاديث متناقضة أو غامضة أو قابلة للتأويل والتفسير، إلى الأئمة من أهل البيت.[٦٨٦] ويبدو من خلال بعض الروايات المنسوبة إلى الإمام الصادق، أن فكرة "التفويض" استخدمت لتأسيس مذهب متميز عما توارثه عامة المسلمين من أحاديث نبوية وأحكام شرعية، بغض النظر عن صحة تلك الأحاديث والأحكام أو عدم صحتها.

وقد انعكست تلك الأصول القائمة على نظرية "التشيع الديني" على الفقه "الجعفري" فأثرت بصورة مباشرة أو غير مباشرة على عدد من الأبواب، كالصلاة والصوم والإرث والقضاء والجهاد، والخمس والزكاة والأنفال. وقد استعرضتها بالتفصيل في كتابي "التشيع السياسي والتشيع الديني".

ولعل أبرز مسألة اختلف فيها الفقه الإمامي ويختلف فيها عن الفقه السني، هو زواج المتعة. حيث اتسم الموقف المؤيد له بشيء من التطرف خلافا لتحريم عمر بن الخطاب له في آخر سنة من حياته. وقال

---

[٦٨٢] – الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة، ح رقم ٦

[٦٨٣] – المصدر، كتاب الحجة، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة، ح رقم ١ و ٥

[٦٨٤] – الكشي، ترجمة الحسن بن صالح بن حي. عن سالم بن أبي حفصة .

[٦٨٥] – حيث نسبوا للإمام الصادق أنه قال:"فما فوض الله إلى رسوله (ص) فقد فوضه إلينا" وقال:" لا والله ما فوض الله إلى أحد من خلقه إلا إلى رسول الله (ص) وإلى الأئمة". الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب التفويض إلى رسول الله والأئمة أمر الدين، ح رقم١ و ٨ و ٩

[٦٨٦] – الوافي، [٣٣٣٥٥] عن عيون أخبار الرضا ١: ٢٩٠ | ٣٩.

الإمام جعفر الصادق:" إنما نزلت فما استمتعتم به منهن (إلى أجل مسمى) فآتوهن أجورهن فريضة".[٦٨٧] وأكد ذلك قائلا: "المتعة نزل بها القرآن وجرت بها السُنَّة من رسول (ص)". [٦٨٨] و"إن المتعة ديني ودين آبائي فمن عمل بها عمل بديننا، ومن أنكرها أنكر ديننا، واعتقد بغير ديننا".[٦٨٩] و"ليس منا من لم يؤمن بكَرَّتنا، ويستحل متعتنا". [٦٩٠]

واشتهر الفقه "الإمامي الجعفري" أيضا بتشريع وجوب الخمس (وهو إخراج عشرين بالمائة من الأرباح السنوية) وتسليمه للأئمة كحق من حقوقهم، باعتبار أنهم "ذوي القربى" الذين أمر الله بإعطاء الخمس لهم، وقد روى سليم بن قيس قال: سمعت أمير المؤمنين (ع) يقول: "نحن والله الذين عنى الله بذي القربى، الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه (ص) فقال: "ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين" منا خاصة ولم يجعل لنا سهما في الصدقة، أكرم الله نبيه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما في أيدي الناس". [٦٩١]

وبعد أن قام "الفقه الجعفري" بحصر الخمس بالأئمة الحسينيين، بادر إلى توسيع دائرة منابعه، فلم يقصره على مغانم الحرب، كما ورد في آية الخمس، وإنما قال بأنه يشمل موارد كثيرة وعلى رأسها أرباح المكاسب، والمعادن المختلفة.[٦٩٢] وما يخرج من البحر من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد. [٦٩٣] وأموال التجارة والزراعة. [٦٩٤]

---

[٦٨٧] – الكليني، الكافي، ح رقم ٩٩٤٤ – ٣ وهي قراءة تنسب الى عبد الله بن عباس وغيره من الصحابة.

[٦٨٨] – المصدر، ح رقم ٩٩٤٦ – ٥

[٦٨٩] – الصدوق، من لا يحضره الفقيه ٣٦٦/٣

[٦٩٠] – الكليني، الكافي، ح رقم ٤٥٨٣

[٦٩١] – المصدر، كتاب الحجة، باب الفيء والأنفال وتفسير الخمس وحدوده، ح رقم ١ و ٢ و باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية، ح رقم ١٢ وباب الفيء والأنفال وتفسير الخمس وحدوده، ح رقم ٧

[٦٩٢] – المصدر، كتاب الحجة، باب الفيء والأنفال وتفسير الخمس وحدوده، ح رقم ٨ و ١٩

[٦٩٣] – المصدر، ح رقم ٢١

[٦٩٤] – المصدر، ح رقم ١٢

الفصل الخامس

التشيع "الإثنا عشري"[٦٩٥]

المبحث الأول:ولادة الفرقة "الإثني عشرية" في القرن الرابع الهجري

تعرض خط "التشيع الديني" خلال العقود الأولى من نشأته في القرن الثاني الهجري، الى انشقاقات عديدة، أهمها: الانشقاق: (الاسماعيلي – الموسوي) نسبة الى أثنين من أبناء الامام جعفر الصادق، هم إسماعيل، وموسى.

فقد أشار الصادق إلى ابنه إسماعيل كخليفة مرتقب من بعده، ولكن توفاه الله تعالى في حياته سنة ١٣٣ هـ ما دفع بقسم من الشيعة الإمامية إلى إنكار وفاة إسماعيل، والزعم بأن عملية وفاته ودفنه لم تكن إلا مسرحية أعدها الصادق للتقية. وأصر هؤلاء على نقل الإمامة بعد الصادق إلى ذرية إسماعيل، وعرفوا بـ "الإسماعيلية". بينما عرف الجناح الآخر الذي ذهب بعد وفاة الصادق إلى ابنه موسى الكاظم (١٢٨ – ١٨٣) بـ "الموسوية".

وفيما تسلسل الأئمة "الاسماعيليون" واحدا بعد آخر، الى أن نجح أحدهم وهو "عبيد الله المهدي" في إقامة الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا سنة ٢٩٥، فان السلالة "الموسوية" وصلت إلى طريق مسدود مع وفاة الحفيد الخامس الحسن العسكري سنة ٢٦٠ للهجرة دون أن يخلف ولدا ظاهرا تستمر الإمامة فيه، ودون أن

---

[٦٩٥] – يعتقد كثير من الشيعة اليوم أن العقيدة "الاثني عشرية" ملازمة لنظرية الإمامة منذ نشوئها، وأنها كانت معروفة للشيعة في الأجيال الأولى، بناء على أحاديث تنتشر بينهم مروية عن رسول الله (ص)، وأن الجميع كان يعرف أسماء "الأئمة الاثني عشر" من قبل ولادتهم، ولا يعرف الكثير منهم بأن القائمة "الاثني عشرية" تم تأليفها وتكوينها في القرن الرابع الهجري، وأن الشيعة لم يكونوا يُعرفون بهذا الاسم وانما بأسماء أخرى كالإمامية، والترابية والجعفرية والموسوية والفطحية والقطعية. وان الاسم الجديد كان يعبر عن تطور جديد حدث في صفوف "الإمامية" فشكل منهم فرقة جديدة. وسوف نتابع في هذا الفصل أهم الملامح التي ميزت الفرقة "الاثني عشرية" عن الفرق الأخرى.

يشير أو يوصي إلى أحد من بعده. فسادَ أتباعَه جوٌ من الحيرة والغموض والارتباك والتشتت.[٦٩٦] وافترض فريق منهم وجود ولد مكتوم للعسكري. وأنه "الإمام" من بعده "لأن الأرض لا يمكن أن تخلو من حجة".[٦٩٧] وقالوا بأن الإمامة ستستمر في ذرية ذلك الولد المخفي إلى يوم القيامة. ولكن ذلك الولد لم يظهر منذ ذلك الحين، مما شكل خاتمة عملية لتلك السلالة الموسوية، وانهيار نظرية الإمامة الخاصة بها، في الخارج.

وبالرغم من وجود جدل حول ولادة "الإمام الثاني عشر" فان الذين قالوا بوجوده لم يكونوا يقولون في البداية، بأنه خاتم الأئمة، أو حصر الإمامة في عدد محدود (إثني عشر)، بل كانوا يعتقدون:" أن الإمامة ستستمر في أعقاب الإمام الثاني عشر الى يوم القيامة" كما يقول النوبختي في كتابه "فرق الشيعة".[٦٩٨]

وعندما نتصفح الكتب التي ألفها علماء الشيعة مطلع القرن الرابع الهجري ك "المقالات والفرق" لسعد بن عبد الله الاشعري القمي أو "الإمامة والتبصرة من الحيرة" لعلي بن بابويه الصدوق، أو "بصائر الدرجات" لمحمد بن فروخ القمي، لا نجد أي حديث عن "الإثني عشرية" وإنما نجد دعاء للإمام الرضا، يؤكد استمرار الإمامة بعد "صاحب الزمان" ويقول:"... اللهم صل على ولاة عهده والأئمة من بعده".[٦٩٩]

ولكن الشيعة وبعد عقود من انتظار الإمام الغائب، بدأوا يؤمنون تدريجيا بحصر الإمامة في "إثني عشر إماما"، فولدت الفرقة "الإثنا عشرية".

وكان أصل هذه النظرية، كما يقول المؤرخ الشيعي المسعودي (٣٤٥هـ) في كتابه: "التنبيه والاشراف": هو (كتاب سليم بن قيس الهلالي)[٧٠٠] الذي ظهر في بداية القرن الرابع الهجري، لمؤلف مجهول قيل إنه من

---

[٦٩٦] – علي بن بابويه الصدوق (– ٣٢٩هـ)، الإمامة والتبصرة من الحيرة . ومحمد بن علي الصدوق (–٣٨١ هـ)، إكمال الدين وإتمام النعمة، ص ٢ و ١٦) ومحمد بن إبراهيم أبي زينب النعماني (– ٣٤٠ هـ)، الغيبة، ص ٨٩، ٢٠٦، ٢٠٨، ١١٣، و ١٨٦ . والكليني، الكافي، ج١ ص ٣٦٦، ٣٣٨، ٣٤٠

[٦٩٧] – الطوسي: الغيبة، ص ١٣٢ . والصدوق: إكمال الدين ج١ص٤٤ . والمفيد: الإرشاد، ص ٣٤١

[٦٩٨] – النوبختي، فرق الشيعة، الفرقة التي قالت بوجود ولد للعسكري.

[٦٩٩] – القمي، مفاتيح الجنان، ص ٥٤٢ عن "مصباح" الكفعمي

[٧٠٠] – المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٩٨ والأميني، الغدير، ج ١، ص ١٩٥

أصحاب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفيه أحاديث تنسب الى رسول الله والأئمة من أهل البيت تشير الى تحديد أسماء الأئمة الاثني عشر. [٧٠١]

وقد أورد محمد بن يعقوب الكليني (٣٢٩هـ)، في كتابه "الكافي" سبع عشرة رواية تتحدث عن "الإثني عشرية" منها رواية جابر بن عبد الله الأنصاري عن "اللوح" المنزل من السماء بأسماء الأئمة الاثني عشر.[٧٠٢]

ثم روى محمد بن علي بن بابويه الصدوق (٣٨١هـ)، بعد ذلك بنصف قرن، خمساً وثلاثين رواية حول الموضوع في كتابيه "إكمال الدين" و"الاعتقادات".[٧٠٣]

وضاعفها علي بن محمد بن علي الخزاز القمي، الى مائتي رواية في "كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر" في أواخر القرن الرابع الهجري.

ومع ذلك فان النظرية "الاثني عشرية" لم تستقر في العقل الامامي حتى وقت متأخر. فقد روى الصدوق عدة روايات حول احتمال امتداد الإمامة بعد الثاني عشر، وعدم الاقتصار عليه، وكان منها رواية عن الإمام أمير المؤمنين (ع) حول غموض الأمر بعد القائم، وأن رسول الله (ص) قد عهد اليه:" أن لا يخبر أحدا بذلك إلا الحسن والحسين"، وأنه قال:" لا تسألوني عما يكون بعد هذا، فقد عهد اليّ حبيبي أن لا

---

[٧٠١] - كان عامة الشيعة في ذلك الزمان يشكون في وضع واختلاق كتاب سليم، وذلك لروايته عن طريق (محمد بن علي الصيرفي أبو سمينة) الكذاب المشهور، و (احمد بن هلال العبرتائي) الغالي الملعون، وقد ضعّف المفيد (كتاب سليم) وقال:" انه غير موثوق به ولا يجوز العمل على أكثره، وقد حصل فيه تخليط وتدليس". (المفيد، أوائل المقالات وشرح اعتقادات الصدوق، ص ٢٤٧) وقال ابن الغضائري:"كان أصحابنا يقولون: ان سليماً لا يُعرف ولا ذكر له... والكتاب موضوع لا مرية فيه، وعلى ذلك علامات تدل على ما ذكرنا " . (العلامة الحلي، الخلاصة، ص ٨٣)

[٧٠٢] - الكافي، كتاب الحجة، باب في الاثني عشر والنص عليهم، ح رقم ٣

[٧٠٣] - يقول ابن بابويه في (الاعتقادات) باب ٣٥:"اعتقادنا أن حجج الله تعالى على خلقه بعد نبيه محمد (ص) الأئمة الاثنا عشر، أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب... ثم محمد بن الحسن الحجة القائم صاحب الزمان خليفة الله في أرضه". وروى في الباب ٣٨ دون ذكر السند:"قال النبي: الأئمة من بعدي اثنا عشر أولهم أمير المؤمنين، وآخرهم القائم". ص ١٠٤، الصدوق، الاعتقادات، تحقيق عصام عبد السيد، نشر المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة الأولى قم ايران ١٤١٣

اخبر به غير عترتي".[٧٠٤] حتى أن الصدوق أبدى شكه بتحديد الأئمة في إثني عشر إماما فقط، وقال:"لسنا مستعبدين في ذلك إلا بالإقرار باثني عشر إماما، واعتقاد كون ما يذكره الثاني عشر بعده".[٧٠٥]

وكان التطور "الاثنا عشري" تطورا جديدا في النظرية "الامامية" حدث خاصة في صفوف الشيعة الموسوية من أتباع "التشيع الديني"، قام به الجناح المتشدد الذي كان يؤمن بقانون الوراثة العمودية، على العكس من "الفطحية" الذين لم يكونوا يمانعون من تولي أخوين للإمامة، ولذلك فقد جمعوا بين عبدالله الأفطح وموسى ابني جعفر الصادق، كما جمعوا بين علي الرضا وأخيه أحمد، والجواد وأخيه موسى المبرقع، والحسن العسكري وأخيه جعفر. ولم يكن أحد من عامة الشيعة يعرف "الإثني عشرية" من قبل.

ولكي ينسجم عدد الأئمة السابقين مع هذه القائمة، لجأ "الإثنا عشريون" إلى حذف أسماء عدد من الأئمة كالأفطح وأحمد والمبرقع، الذين قال بإمامتهم كثير من الشيعة الامامية الفطحية في السابق، كما رفضوا الاعتراف بإمامة جعفر بن علي الهادي، الذي ذهب إليه بعض الإمامية أيضا، وأضافوا إسم "الإمام محمد بن الحسن العسكري" الذي لم تثبت ولادته ولا وجوده، ونظموا قائمة جديدة بأسماء تسعة من أولاد الحسين واحدا بعد واحد، هم: (علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، وآخرهم الإمام الغائب محمد بن الحسن العسكري) .

وقالوا بأن هؤلاء الأئمة قد نص عليهم الرسول وأعلن أسماءهم من قبل، وجاءوا على ذلك ببعض الأحاديث التي نسبوها إلى رسول الله (ص) والأئمة السابقين. واستعانوا بأحاديث "سنية" ذكرها البخاري ومسلم حول حدوث الهرج والمرج بعد الخليفة أو الأمير الثاني عشر، كحديث سمرة بن جندب.[٧٠٦] فاعتبروها دليلا على صحة نظريتهم التي لم يكن يعرفها أئمة أهل البيت ولا الشيعة ولا حتى "الإمامية" من قبل.

---

[٧٠٤] – الصدوق، إكمال الدين، ص ٧٨

[٧٠٥] – المصدر، ص ٧٧

[٧٠٦] – المصدر، ص ٢٧٢ في الجزء الرابع من صحيح البخاري، في كتاب الأحكام، باب جعله قبل باب إخراج الخصوم، وأهل الريب من البيوت بعد المعرفة: حدَّثني محمد بن المثنى حدثنا غندر حدثنا شعبة عن عبد الملك سمعت جابر بن سمرة قال: سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: " يكون اثنا عشر أميراً فقال كلمة لم أسمعها فقال أبي: انه يقول:" كلهم من قريش ".

واضطروا من أجل ذلك الى إلغاء التاريخ الشيعي السابق، وإغماض أعينهم عن كثير من الأحداث والوقائع والأحاديث التي تتناقض مع حكاية "القائمة الاثني عشرية" المسبقة. كموضوع "البداء" في الإمامة. [٧٠٧]

المبحث الثاني:الفوارق الرئيسية بين "الاثني عشرية" و"الإمامية"

اختلفت النظرية "الاثنا عشرية" عن "الامامية" اختلافا كبيرا أدى بالشيعة في النهاية، وعبر سلسلة من التطورات، للتخلي عن نظرية "الإمامة الإلهية"، ويمكن تسجيل عدة ملاحظات ومفارقات بين النظريتين:

١- الانتظار للمهدي الغائب: انعدام الحيوية

فقد كانت نظرية "الإمامة" حتى وفاة الحسن العسكري (٢٦٠هـ) تدور حول أئمة من أهل البيت، موجودين في الحياة بشكل ظاهر، وتقول إن أولئك الأئمة معينون من قبل الله، وأنهم مصدر ديني للفقه وتفسير القرآن، بينما أخذت النظرية "الاثنا عشرية" تدور حول "إمام" لا وجود له، أو غائب لا أثر له في الحياة، هو "الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري" الذي ادعت أنه ولد في ظروف سرية واختفى وسوف يظهر في المستقبل.

وفي صحيح مسلم: في كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حسين عن جابر بن سمرة قال: قال: سمعت النبي يقول:- ح وحدثنا رفاعة بن الهيثم الواسطي، واللفظ له حدثنا خالد يعني ابن عبد الله الطحان عن حصين عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع النبي فسمعته يقول: " ان هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة، ثم تكلم بكلام خفي عليَّ فقلت لأبي: ما قال ؟ قال: كلهم من قريش .

[٧٠٧] - حدث "البداء" في تعيين هوية الإمام مرتين في التاريخ الشيعي، الأولى: عند تعيين الإمام جعفر الصادق لابنه اسماعيل كخليفة من بعده، وقوله عند وفاته في حياة الصادق: لقد بدا لله في اسماعيل: والثانية: عند تعيين الإمام علي الهادي لابنه محمد كخليفة له، ووفاته في حياة الهادي، وقوله: لقد بدا لله في محمد كما بدا في اسماعيل بعدما دل عليه أبو عبد الله ونصَّبه. الكليني، الكافي، ج ١، ص ٣٢٨، والمفيد، الإرشاد، ص ٣١٧، والطوسي، الغيبة، ص ٥٥ و١٣٠، والمجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٤١

لقد دخل الشيعة "الاثنا عشرية" بعد قولهم بوجود الإمام الثاني عشر "محمد بن الحسن العسكري" وغيبته، في مرحلة أسموها "الانتظار". واتسموا في تلك المرحلة بالسلبية السياسية المطلقة، حيث حرموا الثورة على الظالمين وإقامة الدولة إلا بعد ظهور "الإمام المعصوم المنصوص عليه من الله"، وعطلوا كل ما يتعلق بالدولة من أمور، كجباية الخمس والزكاة وإقامة الحدود، وصلاة الجمعة والجهاد.[٧٠٨]

فقد روى مشايخ الطائفة "الإثني عشرية" في القرنين الرابع والخامس، كالصدوق والنعماني والمفيد والطوسي، عدة روايات تبين فضائل الانتظار، وضرورة التقية، كالرواية التالية عن الامام الصادق:" من مات منكم على هذا الامر منتظرا كان كمن في فسطاط القائم" . و"إن من عرف بهذا الأمر ثم مات قبل أن يقوم القائم كان له أجر من قتل معه". و"إن تسعة اعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له".[٧٠٩] والرواية التالية عن الامام الرضا:"إن أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية، قيل:يا ابن رسول الله الى متى؟..قال: الى قيام القائم، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا".[٧١٠]

وكما يلاحظ فان تلك الروايات تحرم الثورة خارج إطار أئمة أهل البيت حسب النظرية الامامية، أي حتى مع الخارجين من أهل البيت بالمعنى العام الذي يشمل العلويين والهاشميين وأبناء الحسن والحسين من غير سلسلة الائمة الاثني عشر .

ومع أن كثيرا منها لا يحدد شخص القائم أو المهدي ويذكره بشكل غامض وعام، فإن الفرقة "الإثني عشرية" التي حددت هوية القائم المهدي المنتظر بمحمد بن الحسن العسكري، وقالت إنه حي وموجود، وإنه مستمر في الحياة الى أن يأذن الله له في الخروج، واعتقدت أن توقيت موعد الخروج من مهمات الامام المهدي الحي الحاضر الذي يراقب الامور عن كثب، ويتحمل وحده مسؤلية القيام بالثورة والخروج متى يشاء ومتى يرى ذلك ممكنا وصالحا، وليس على الشيعة سوى انتظار أمره والدعاء له بالفرج .

وبناء على ذلك المفهوم الخاص للانتظار أفتى عدد من العلماء عبر القرون المختلفة بعدم جواز

---

[٧٠٨] – لمزيد من التفصيل راجع: الفصل الأول من الجزء الثالث من كتابنا تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى الى ولاية الفقيه.

[٧٠٩] – الصدوق، اكمال الدين، ص ٣٥٧، والطوسي:الغيبة، ص ٢٧٧، والحر العاملي: وسائل الشيعة ج٦ ص ٤٦٠

[٧١٠] – الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٦ ص ٤٦٦ عن الطبرسي في (اعلام الورى) والصدوق، اكمال الدين، ص ٣٧١ . ٣٧٢، و العطاردي: مسند الرضا ٢٢٣ و النعماني في (الغيبة) والخزاز في:(الكفاية) والعاملي: اثبات الهداة ج٣ ص ٤٧٨

انتخاب أي امام آخر لم يعهد اليه من الله .

وقال إبن أبي زينب النعماني (٣٤٠هـ) في (الغيبة):"إن أمر الوصية والامامة بعهد من الله تعالى وباختياره لا من خلقه ولا باختيارهم . فمن اختار غير مختار الله وخالف أمر الله سبحانه وَرَدَ مورد الظالمين والمنافقين الحالّين في ناره ".[٧١١]

وقال محمد بن علي الصدوق في (الاعتقادات) الباب الخامس والثلاثين:"لا قائم غير المهدي. وإن طالت الغيبة بعمر الدنيا. لأن النبي أشار الى إسمه ونسبه وبشّر به " .[٧١٢] وأفتى بناء على هذه النظرية قائلا:" التقية واجبة. وتركها لا يجوز حتى خروج القائم...ومن يتركها قبل خروج القائم فانه خارج من دين الله ودين الامامية ومخالف لله والرسول والائمة (ع) ".[٧١٣]

وقال الصدوق في (إكمال الدين):"...علينا فعل ما نؤمر به. وقد دلت الدلائل على فرض طاعة هؤلاء الأئمة الأحد عشر الذين مضوا. ووجب القعود معهم إذا قعدوا والنهوض معهم إذا نهضوا . والاستماع منهم اذا نطقوا .. فعلينا أن نفعل في كل وقت ما دلت الدلائل على أن نفعله ". [٧١٤]

وكان المعتزلة والزيدية قد طرحوا نظرية (ولاية الفقيه) على الشيعة "الإثني عشرية"، خاصة في ظل (الغيبة الكبرى). ولكن الالتزام بنظرية (التقية والانتظار) منع الأجيال الاولى من قبول تلك النظرية . ودار نقاش حام بين الطرفين حول هذا الموضوع، نقله الصدوق في مقدمة (إكمال الدين). حيث أورد مقتطفات من كتاب (الاشهاد) لأبي زيد العلوي، وكتاب علي بن أحمد بن بشار حول الغيبة وولاية الفقيه. ورد عبد الرحمن بن قبة عليهما . [٧١٥]

وهكذا حرم الشريف المرتضى (٤٣٦هـ) السعي لتنصيب الإمام وتشكيل الحكومة الاسلامية في عصر الغيبة "لأن ذلك ليس بأيدينا وانما بيد الله. فلا بد من الانتظار ". وقال:" ليس إقامة الإمام واختياره من فروضنا فيلزمنا اقامته ". و"إن مهمة إقامة الائمة تقع على عاتق الله وليس على عاتق الأمة. وأن ذلك لا

---

[٧١١] – النعماني:الغيبة، ص ٥٧ و ٢٠١

[٧١٢] – الصدوق: الاعتقادات الباب ٣٥

[٧١٣] – المصدر . الباب ٣٩ كما افتى بنفس الحكم في كتاب:(الهداية). الجوامع الفقهية للخوانساري، ص ٤٧

[٧١٤] – الصدوق: اكمال الدين، ص ٨١ – ٨٢

[٧١٥] – الصدوق:اكمال الدين، ج١ ص ٩٤ – ٩٥

يسوغ لها". [٧١٦]

وقد رفض الحسن بن مطهر الحلي فكرة قيام الامة بنصب الإمام واختياره عبر الشورى . وقال: "إن نصب الإمام من فعل الله تعالى، لأن الإمام يجب أن يكون معصوما، فلا يمكن أن يكون نصبه من فعل غير الله، لأن غير المطلع على السرائر لا يكون مطلعا على السرائر فلا يقدر أن يميز الموصوف بامتناع وقوع المعصية عنه أو عن غيره حتى ينصبه إماما ".[٧١٧]

وقد أسهب الحلي في (الألفين) في استعراض الأدلة التي تنقض نظرية (الشورى) وضرورة تعيين الإمام (العالم المعصوم) من قبل الله تعالى، وحرمة الامامة لغير أئمة أهل البيت، بشكل مطلق. وألقى باللوم لعدم القدرة على تشكيل الحكومة في فترة (الغيبة) على الذين تسببوا في إخافة الامام المهدي واضطروه للغيبة. [٧١٨]

وهكذا أدت نظرية "الانتظار للإمام المهدي الغائب" إلى غيبة الشيعة الامامية أنفسهم عن مسرح الحياة السياسية، بتحريم العمل السياسي وإقامة الدولة في (عصر الغيبة).

٢- فتح باب الاجتهاد

كان الشيعة "الإمامية" يعتقدون بأن "الأئمة من أهل البيت مصدر للعلم الإلهي الغيبي بالإلهام أو النكت في القلوب أو تحديث الملائكة" ولذلك كانوا يحرمون الاجتهاد والقياس في زمن وجود الأئمة، وقد تسبب القول بغيبة "الإمام الثاني عشر" عمليا في انقطاع الشيعة "الاثني عشرية" عن ذلك "المصدر الإلهي للعلم" ولم يعودوا يملكون من تراثهم سوى أخبار آحاد ضعيفة وقليلة، لا تكفي لمواكبة الحوادث الواقعة. فاضطروا مع نشوء "الاثني عشرية" في القرن الرابع، الى فتح باب الاجتهاد.

---

[٧١٦] – المرتضى، الشافي ج١ ص ١١٠– ١١٢

[٧١٧] – الحلي، الحسن ابن المطهر: الالفين، ص ٣٢ – ٣٥

[٧١٨] – المصدر ٤٠٤ . ٤٠٥

وكان أول من قال بذلك هو الحسن بن عقيل العماني (المعاصر للكليني).[٧١٩] ومحمد بن أحمد الكاتب بن الجنيد الإسكافي (٣٧٧هـ) [٧٢٠] ولكن ذلك لقي مقاومة من عامة الشيعة الإمامية الذين كانوا أقرب الى المنهج "الأخباري" كما نلاحظ ذلك في مقدمة "الكافي" للكليني الذي يشن فيها حملة شعواء على الاجتهاد والقياس.

وقد استمرت المقاومة "الأخبارية" للاجتهاد حتى بداية القرن الخامس الهجري، حيث شن الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (٤١٣هـ) حملة عنيفة ضد المجتهدين.[٧٢١] وردّ على أستاذه ابن الجنيد في رسالة له، وأنكر في "المسائل الصاغانية" على العماني وابن جنيد "اشتغالهم عن حمل الآثار بالرأي والاستحسان، وهجرانهم مَن أمَر الله تعالى بصلته وأخذ معالم الدين عنه وعن عترة نبيه"، ولكن المفيد اضطر أخيرا الى ممارسة الاجتهاد في عملياته الفقهية، مما دفع "الأخباريين" إلى اعتباره من رواد مدرسة الاجتهاد .

ثم جاء تلميذه الشريف المرتضى (٤٤٠هـ) ليفتتح القول بجواز الاجتهاد رسميا، ثم جاء زميله وتلميذه الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ) فمارس الاجتهاد على أوسع أبوابه وكتب "المبسوط في فقه الامامية"، ثم تلتهما المدرسة الأصولية الحلية ومدرسة جبل عامل وكربلاء والنجف وقم الأصولية المستمرة حتى اليوم . وهكذا أصبح "الفقه الشيعي" يتألف من الفقه الموروث من "الأئمة" واجتهادات الفقهاء الشيعة عبر الزمان. وربما أصبح الفقه المنتج على يد الفقهاء أكثر وأوسع من الفقه الموروث من "الأئمة".

---

[٧١٩] – الذي يصفه عباس القمي في:(الكنى والألقاب) بأنه:" أول من هذب الفقه، واستعمل النظر وفتق البحث عن الأصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى" و "كان يرى القول بالقياس ويقول باجتهاد الرأي" كما يقول النجاشي في رجاله، و "أول من أبدع أساس الاجتهاد في أحكام الشريعة" كما يقول الخونساري في: (روضات الجنات) .

[٧٢٠] – الذي ألف كتابين حول ضرورة الاجتهاد هما "كشف التمويه والالباس على اغمار الشيعة في أمر القياس" و"اظهار ما سرّه أهل العناد من الرواية عن أئمّة العترة في أمر الاجتهاد" والذي يصفه الخونساري في:"روضات الجنات" بأنه "قد عمل صريحا بالقياسات الحنفية واعتمد على الاستنتاجات الظنية" .

[٧٢١] – يقول المفيد:"إن الاجتهاد والقياس في الحوادث لا يسوغان للمجتهد ولا للقائس، وإن كل حادثة ترد فعليها نص من الصادقين – عليهم السلام – يحكم به فيها ولا يتعدى إلى غيرها، بذلك جاءت الأخبار الصحيحة والآثار الواضحة عنهم – صلوات الله عليهم – وهذا مذهب الإمامية خاصة، ويخالف فيه جمهور المتكلمين وفقهاء الأمصار". المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (٤١٣) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، باب 156 القول في الاجتهاد والقياس، تحقيق إبراهيم الأنصاري الخوئيني، مركز الأبحاث العقائدية، المكتبة العقائدية

وقد أدى فتح باب الاجتهاد بالشيعة الاثني عشرية، الى تشكيل "الفقهاء" قيادة مرجعية دينية تتولى كثيرا من أعمال "الإمام"، واعتبار بعضهم "الفقهاء" نوابا عامين عن الإمام الثاني عشر الغائب، ومصدرا للشرعية الدينية والسياسية، ومهد ذلك بعد ألف عام الى ولادة نظرية "ولاية الفقيه" التي قام الامام روح الله الموسوي الخميني (١٩٨٩-١٩٠٠م) بتأسيس الجمهورية الاسلامية الإيرانية، على ضوئها.

٣- دور الأئمة: (الشفاعة) في الآخرة

وعندما انفصل الشيعة الإمامية عن "الإمام" في "عصر الغيبة" وتلاشت لديهم نظرية "الإمامة" حدث لديهم تحول كبير في مفهوم "الإمامة" من قيادة الأمة علميا وسياسيا، الى القيام بمهمات بديلة أخروية كالشفاعة يوم القيامة، وما الى ذلك. فقد قال الشيخ المفيد:"اتفقت الإمامية على أن رسول الله (ص) يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأن أمير المؤمنين (ع) يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأن أئمة آل محمد (ع) يشفعون كذلك وينجي الله بشفاعتهم كثيرا من الخاطئين".[٧٢٢]

ومن هنا أصبحت زيارة قبور الأئمة من أبرز طقوس الشيعة، حيث يتم التوسل بهم لحل مشاكلهم الدنيوية وقضاء حوائجهم وإنقاذهم من المواقف الأخروية العصيبة، كما ورد في "الزيارة الجامعة" [٧٢٣] التي دأب الشيعة على تلاوتها عند زيارة قبر أي إمام:"زائرٌ لكم لائذٌ عائذٌ بقبوركم مستشفعٌ إلى الله عز وجل

---

[٧٢٢] - المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (٤١٣) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، باب 12 و باب 57 القول في الشفاعة، تحقيق إبراهيم الأنصاري الخوئيني، مركز الأبحاث العقائدية، المكتبة العقائدية

[٧٢٣] - رواها محمد بن علي ابن بابويه الصّدوق (-٣٨١) في كتابه كتابيه "عيون أخبار الرضا" و "من لا يحضره الفقيه" قائلاً: حدثنا عليّ بن أحمد بن محمّد بن عمران الدقّاق رضي الله عنه، ومحمّد ابن أحمد السناني، وعليّ بن عبدالله الورّاق، والحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المكتّب، قالوا: حدّثنا محمّد بن أبي عبدالله الكوفي، وأبو الحسين الأسدي قالوا: حدّثنا محمّد بن إسماعيل المكي البرمكي قال: حدّثنا موسى بن عمران النخعي عن الامام علي الهادي (- ٢٥٥). عيون أخبار الرضا ج١ ص ٣٠٥ وكذلك محمد بن جعفر بن قولويه (-٣٨٦) في "كامل الزيارات" والشيخ الطوسي (-٤٥٨) في "تهذيب الأحكام".

بكم..ومتقربٌ بكم إليه ومقدمكم أمام طلبتي وحوائجي وإرادتي في كل أحوالي وأموري" و" يا ولي الله (يا أولياء الله) إن بيني وبين الله عز وجل ذنوباً لا يأتي عليها إلا رضاكم فبحق من ائتمنكم على سره واسترعاكم أمر خلقه وقرن طاعتكم بطاعته لما استوهبتم ذنوبي وكنتم شفعائي فإني لكم مطيعٌ .. اللهم إني لو وجدت شفعاء أقرب إليكم من محمدٍ وأهل بيته الأخيار الأئمة الأبرار لجعلتهم شفعائي فبحقهم الذي أوجبت لهم عليك أسألك أن تدخلني في جملة العارفين بهم وبحقهم وفي زمرة المرحومين بشفاعتهم".

وقام الإعلام الإمامي بشد الشيعة نحو "الأئمة" بعملية تعبوية كبرى هي "الشفاعة". التي نسبها الإمامية للأئمة كجائزة لشيعتهم يوم القيامة، ووعدٍ لهم في مقابل ما يقومون به من أعمال وتضحيات وزيارات ومواقف ولائية تجاههم.

وبغض النظر عن آثار عقيدة الشفاعة السلبية على التزام البعض بالأحكام الإسلامية، فإن العزف على وتر الذنوب والوعد بالشفاعة، شكل فقرة مهمة في النشاط الإعلامي الذي كان يقوم به الإمامية لتصوير "الأئمة" بأنهم ذوي مكانة دينية خاصة وعالية عند الله، تشبه مكانة الأنبياء والملائكة، بحيث يمتلكون القدرة على الشفاعة يوم القيامة، وإنقاذ العاصين من النار، كما يروون في حديث منسوب للإمام علي بن موسى الرضا يقول فيه:" إن لكل إمام عهدا في عنق أوليائه وشيعته وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقا بما رغبوا فيه كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة". [٧٢٤]

الدفن في "وادي السلام"

وإضافة إلى كل ما سبق، قام الإعلام الإمامي بالتحدث عن مصير أرواح المؤمنين (الشيعة) بعد الموت، واجتماعها في "وادي السلام" الكائن في ظهر الكوفة (النجف) واستخدام ذلك كوسيلة من وسائل الربط بين الشيعة و"الأئمة".[٧٢٥]

---

[٧٢٤] - الكليني، الكافي، ح رقم ٨١٧١ -٢

[٧٢٥] - المصدر، ح رقم ٤٧٣٤ - ١

ونقل الإمامية حديثا عن أبي عبد الله، أنه قال لرجل (أحمد بن عمر) اشتكى له خوفه من موت أخيه ببغداد، فقال له: ما تبالي حيثما مات، أما إنه لا يبقى مؤمن شرق الأرض وغربها إلا حشر الله روحه إلى وادي السلام، فقال: وأين وادي السلام؟ قال: ظهر الكوفة، أما إني كأني بهم حلق حلق قعود يتحدثون.[٧٢٦]

وتحاول الأحاديث التي ينقلها الإعلام الإمامي بهذا الشأن العزف على وتر الشفاعة والخوف من الموت وما بعد الموت، بهدف زرع الولاء لأئمة أهل البيت والتبرؤ من أعدائهم وخصومهم السياسيين، وشد الشيعة إليهم. ويبدو أن جهود ذلك الإعلام قد نجحت في ترك أثر كبير في نفوس الشيعة الذين حَرِصَ ويحرص الكثير منهم اليوم على الدفن في مقبرة "وادي السلام" في النجف، ونقل جثامين الموتى من مسافات بعيدة وبشق الأنفس إليها، أملا بالفوز بشفاعة "الأئمة" والنجاة من النار.

٤- التعاطف القلبي والروحي

وأملا بفوز الشيعة برضا الأئمة التاريخيين، وخصوصا الإمام الشهيد الحسين بن علي، والحصول على شفاعتهم في الآخرة، أصبح التعاطف القلبي والروحي معهم وزيارة قبورهم والبكاء على مصائبهم وإحياء ذكرياتهم مظهرا رئيسيا من مظاهر التشيع "الإثني عشري".

فقد روى الشّيخ أبو جعفر الطّوسي في "المصباح" عن الباقر : "من زار الحسين بن عليّ (ع) في يوم عاشوراء من المحرّم يظل عنده باكياً لقي الله عزّ وجل يوم يلقاه بثواب ألفي حجّة وألفي عُمرة وألفي غزوة، كثواب من حجّ واعتمر وغزا مع رسُول الله (ص) ومع الأئمّة الرّاشدين، وكان له أجر وثواب مُصيبة كُلّ نبيّ ورسُول ووصيّ وصدّيق وشهيد مات أو قُتل منذ خلق الله الدّنيا إلى أن تقُوم السّاعة".

وشكل ذلك معنىً جديدا للولاء لأئمة أهل البيت بما يعني الولاء القلبي والعاطفي بدل الولاء السياسي المستحيل لعدم وجود الأئمة في الخارج.

٥ – الغلو بالأئمة

[٧٢٦] – المصدر، ح رقم ٤٧٣٥ – ٢

كانت نظرة عامة الشيعة (ما عدا الغلاة) الى الأئمة من أهل البيت نظرة عادية معتدلة، بأنهم علماء أبرار، أو أئمة معصومين.[٧٢٧] ولكن نظرة الشيعة "الاثني عشرية" للأئمة، تطورت في وقت متأخر، فأصبحوا يصفونهم ويعتقدون بأنَّهم "محور الدين" و"أساس الاسلام" كما يظهر من "الزيارة الجامعة" التي جاء فيها: "السلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي ومعدن الرحمة وخزان العلم وأبواب الإيمان وأمناء الرحمن وحجج الله على أهل الدنيا والآخرة والأولى، ومعادن حكمة الله وحفظة سر الله وحملة كتاب الله، وعيبة علمه وحجته وصراطه ونوره وبرهانه، وأشهد أنكم الأئمة الراشدون المهديون المعصومون، اصطفاكم بعلمه وارتضاكم لغيبه واختاركم لسره واجتباكم بقدرته ورضيكم خلفاء في أرضه وحججاً على بريته، عصمكم الله من الزلل، فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق والمقصر في حقكم زاهق والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه وميراث النبوة عندكم، من والاكم فقد والى الله ومن عاداكم فقد عادى الله، ومن أحبكم فقد أحب الله ومن أبغضكم فقد أبغض الله، من أتاكم نجا ومن لم يأتكم هلك، وضل من فارقكم، وفاز من تمسك بكم وأمن من لجأ إليكم وسلم من صدقكم وهدي من اعتصم بكم، من اتبعكم فالجنة مأواه ومن خالفكم فالنار مثواه.. إني مؤمنٌ بكم وبما آمنتم به، كافرٌ بعدوكم وبما كفرتم به، مستبصرٌ بشأنكم وبضلالة من خالفكم، موالٍ لكم ولأوليائكم، مبغضٌ لأعدائكم ومعادٍ لهم".

وذهبت "الزيارة الجامعة" الى مخاطبة الأئمة بالقول: "أن أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة طابت وطهرت بعضها من بعضٍ خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه مُحْدِقِين".

[٧٢٧] - يقول العالم الرجالي الشيعي باقر بن محمد الوحيد البهبهاني (١٢٠٥هـ): "الظاهر أنّ كثيراً من القدماء سيما القميين منهم (وابن الغضائري أحمد بن الحسين البغدادي (المتوفي ٤٥٠)) كانوا يعتقدون للأئمّة (عليهم السلام) منزلة خاصة من الرفعة والجلالة و مرتبة معينة من العصمة والكمال بحسب اجتهاد رأيهم وما كانوا يجوّزون التعدي عنها، وكانوا يعدّون التعدي ارتفاعاً وغلواً حسب معتقدهم حتى أنّهم جعلوا مثل نفي السهو عليهم غلواً بل ربّما جعلوا التفويض إليهم أو التفويض الذي اختلف فيه ... أو المبالغة في معجزاتهم ونقل العجائب من خوارق العادات عنهم أو الإغراق في شأنهم وإجلالهم وتنزيههم عن كثير من النقائص وإظهار كثير قدرة لهم وذكر علمهم بمكنونات السماء والأرض، ارتفاعاً أو مورثاً للتهمة به سيما بجهة أنّ الغلاة كانوا مختفين في الشيعة مخلوطين بهم مدلسين (بالجملة)" . الوحيد البهباني، الفوائدالرجالية، ص ٣٨

و قد ترافق ذلك مع الادعاء بأنهم يقومون بأدوار كونية كإنزال الغيث ومسك السماء ومحاسبة الخلق يوم القيامة: "بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزّل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه وبكم ينفس الهم ويكشف الضر". و"إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم وفصل الخطاب عندكم".[٧٢٨]

وتدل هذه "الزيارة" التي يرويها الصدوق وابن قولويه والطوسي عن الغالي (موسى بن عمران النخعي) على تأثر "الاثني عشرية" بأقوال الغلاة "المفوضة" الذين كانوا يقولون بأن الله خلق الأئمة ثم "فوضهم" خلق الكون والرزق والحياة والموت والحساب يوم القيامة. [٧٢٩]

وإذا كان الشيعة "الاثنا عشرية" قد تجنبوا القول بالتفويض الكامل (أي الخلق) فإنَّ نظرتهم للأئمة تطورت مع الزمن، باتجاه أنواع مخففة من الغلو، في القرون اللاحقة، فإذا بالذي كان يعدُّ غلوا في نظر القدماء، يُصبحُ عاديا في نظر المتأخرين، وما كان يعتبر عاديا بات يوصف بالتقصير. فقد كان الشيعة المعتدلون (ومشايخ قم) في أواسط القرن الرابع الهجري يعتبرون من لا يقول بسهو النبي والأئمة مغاليا، كما كانوا يعتبرون من يضيف "الشهادة الثالثة" (أي: أشهد أن عليا ولي الله) في الأذان مغاليا من المفوضة، كما يقول الشيخ الصدوق. [٧٣٠] ولكن الغلاة كانوا يتهمون من لا يقول بذلك "بالتقصير".[٧٣١]

---

[٧٢٨] – خلافا لقوله تعالى:"فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ". (الرعد، ٤٠) و"مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ" (الأنعام،٥٢)، و"إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ". (الغاشية/٢٥ – ٢٦)

[٧٢٩] – وهي فرقة أسسها "المفضل بن عمر الجعفي" (١٧٩هـ) بعد أن كان أحد أعضاء الفرقة "الخطابية" المغالية (أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب مقلاص الأسدي الكوفي) الذي كان يقول بألوهية الأئمة. وقد تنزل المفضل درجة عن الألوهية فقال "بالتفويض". وأسس فرقة عرفت باسمه "المفضلية" أو "المفوّضة". وهي فرقة تغالي بالأئمة وتسبغ عليهم صفات الله وأعماله، وترفعهم فوق البشر، وتدعي بأن الله تعالى تفرد بخلقهم خاصة، وأنه فوض إليهم خلق العالم بما فيه وجميع الأفعال. وقد روت عن الامام الصادق أنه قال:"اجعلونا مخلوقين وقولوا فينا ما شئتم". وقد تصدى الإمام الصادق لهؤلاء "المفوضة" كما تصدى للخطابية، وكافحهم بشدة وقال:" أبرأ ممن يزعم أنا أرباب .. أبرأ ممن يزعم أنا أنبياء .. من قال: بأننا أنبياء فعليه لعنة الله، ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله". الخوئي، معجم الرجال (١٠٠١٢) و رقم ١٢٥٨٧ ترجمة محمد بن أبي زينب الأسدي، ح رقم ٤ ورجال الكشي: ١٦٠ و ١٩٢ و ١٩٣و١٩٣ و١٩٤ و١٩٥ والكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب في أن الأئمة محدثون مفهمون، ح رقم ٢ والصفار، محمد بن فروخ، بصائر الدرجات: ٦٤ – ٦٥ . وانظر أيضا: آمالي الصدوق: ١٣٠ وكتب الرجال للنجاشي و **ابن الغضائري** وابن داود والعلامة الحلي في الخلاصة .

[٧٣٠] – يقول: "إنّ علامة المفوّضة والغلاة هو أنّهم ينسبون لمشايخ وعلماء قم التقصير". الصدوق، الاعتقادات، الباب ٣٧، ص ١٠٠ وينسب اليهم إضافة "الشهادة الثالثة في الاذان: أشهد أنّ علياً ولي الله" ويقول:"لا شك في أنّ عليّاً ولي

وقد رفض الشيخ المفيد تعريف القميين للغلو والتقصير، وقلب النظرة وقال:"فأما نص أبي جعفر (محمد بن الحسن بن الوليد) – رحمه الله – بالغلو على من نسب مشايخ القميين وعلمائهم إلى التقصير، فليس نسبة هؤلاء القوم إلى التقصير علامة على غلو الناس، إذ في جملة المشار إليهم بالشيخوخة والعلم من كان مقصرا، وإنما يجب الحكم بالغلو على من نسب المحقين إلى التقصير، سواء كانوا من أهل قم أم غيرها من البلاد وسائر الناس . وقد سمعنا حكاية ظاهرة عن أبي جعفر ...لم نجد لها دافعا في التقصير، وهي ما حكي عنه أنه قال: "أول درجة في الغلو نفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام – عليه السلام –" فإن صحت هذه الحكاية عنه فهو مقصر مع أنه من علماء القميين ومشيختهم. وقد وجدنا جماعة وردوا إلينا من قم يقصرون تقصيرا ظاهرا في الدين، وينزلون الأئمة – عليهم السلام – عن مراتبهم، ويزعمون أنهم كانوا لا يعرفون كثيرا من الأحكام الدينية حتى ينكت في قلوبهم، ورأينا من يقول إنهم كانوا يلتجئون في حكم الشريعة إلى الرأي والظنون، ويدعون مع ذلك أنهم من العلماء. وهذا هو التقصير الذي لا شبهة فيه. ويكفي في علامة الغلو نفي القائل به عن الأئمة سمات الحدوث وحكمه لهم بالإلهية والقدم، إذ قالوا بما يقتضي ذلك من خلق أعيان الأجسام واختراع الجواهر وما ليس بمقدور العباد من الأعراض، ولا يحتاج مع ذلك إلى الحكم عليهم وتحقيق أمرهم بما جعله أبو جعفر سمة للغلو على كل حال". [٧٣٢]

ثم عرَّف المفيد الغلاة والمفوضة، فقال:" الغلو في اللغة هو التجاوز عن الحد، والخروج عن القصد ... والغلاة من المتظاهرين بالاسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته – عليهم السلام – إلى الألوهية والنبوة، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد، وخرجوا عن القصد، وهم ضلال كفار حكم فيهم أمير المؤمنين – عليه السلام – بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة – عليهم السلام – عليهم بالإكفار والخروج عن الاسلام" . [٧٣٣] "والمفوضة صنف من الغلاة، وقولهم الذي فارقوا به من سواهم من الغلاة اعترافهم بحدوث الأئمة وخلقهم ونفي القدم عنهم وإضافة الخلق والرزق مع ذلك

الله، وأنّه أميرالمؤمنين حقّاً وأنّ محمّداً وآله صلوات الله عليهم خير البرية، ولكن ليس ذلك في أصل الأذان، وإنّما ذكرت ذلك ليعرف بهذه الزيادة المتهمون بالتفويض، المدلسون أنفسهم في جملتنا". الصدوق، من لا يحضره الفقيه.

[٧٣١] –كما يقول الشيخ عبدالله المامقاني (١٣٥١هـ): "إنّ أكثر ما يعدّ اليوم من ضروريات المذهب في أوصاف الأئمّة كان القول به معدوداً في العهد السابق من الغلو". المامقاني، عبد الله، تنقيح المقال، المقدمة، الفائدة ٢٥، ج١، ص ٢١١، ٢١٢

[٧٣٢] – المفيد، تصحيح اعتقاد الإمامية، ص ١٣٦، شبكة الشيعة العالمية

[٧٣٣] – المصدر، ص ١٣١

إليهم، ودعواهم أن الله سبحانه وتعالى تفرد بخلقهم خاصة، وأنه فوض إليهم خلق العالم بما فيه وجميع الأفعال".[٧٣٤]

وكما يلاحظ فان المفيد جعل علامة الغلو "نفي الحدوث" عن الأئمة، أو القول بتفويض الله لهم خلق الكون وإدارته، مما يعني أنه يقبل الدرجات الأدنى من ذلك الغلو، وهو ما عبر عنه بقوله:" إن الأئمة من آل محمد (ص) قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد ويعرفون ما يكون قبل كونه". بالرغم من انه استدرك رافضا إطلاق القول عليهم بأنهم يعلمون الغيب وأنه منكر بيِّن الفساد، لأن الوصف بذلك إنما يستحقه من علم الأشياء بنفسه لا بعلم مستفاد، وهذا لا يكون إلا الله – عز وجل". [٧٣٥]

وفي خطوة متقدمة من الغلو، زعم المفيد بأن الأئمة كانوا يسمعون كلام الملائكة دون أن يروهم. [٧٣٦] وتبنى قول من فضَّل "الأئمة" على سائر من تقدم من الرسل والأنبياء سوى نبينا محمد (ص) أو أولي العزم، رغم وجود فريق معتدل من الشيعة كان يقطع بفضل الأنبياء كلهم على سائر الأئمة.[٧٣٧]

ثم ذهب الى القول بتولي النبي والأئمة لعملية الحساب للناس يوم القيامة، فقال:"إن الحساب هو موافقة العبد على ما أمر به في دار الدنيا وإنه يختص بأصحاب المعاصي من أهل الإيمان، وأما الكفار فحسابهم جزاؤهم بالاستحقاق والمؤمنون الصالحون يوفون أجورهم بغير حساب ...وإن المتولي لحساب من ذكرت رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) والأئمة من ذريتهما – عليهم السلام – بأمر الله – تعالى – لهم بذلك وجعله إليهم تكرمة لهم وإجلالا لمقاماتهم وتعظيما على سائر العباد، وبذلك جاءت الأخبار المستفيضة عن الصادقين (ع) عن الله تعالى... وأما الميزان فهو التعديل بين الأعمال والمستحق عليها، والمعدلون في الحكم إذ ذاك هم ولاة الحساب من أئمة آل محمد (ص)". [٧٣٨]

وبناء على ذلك، يتحدث الشيخ محسن كديوار في كتابه (القراءة المنسية: نظرية "الأئمة": علماء أبرار)

---

[٧٣٤] – المصدر، ص ١٣٤

[٧٣٥] – المفيد، أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، باب 41 - القول في علم الأئمة (ع) بالضمائر والكائنات وإطلاق القول عليهم بعلم الغيب وكون ذلك لهم في الصفات، تحقيق إبراهيم الأنصاري الخوئيني، مركز الأبحاث العقائدية، المكتبة العقائدية

[٧٣٦] –المصدر، باب 44– القول في سماع الأئمة (ع) كلام الملائكة الكرام وإن كانوا لا يرون منهم الأشخاص .

[٧٣٧] –المصدر، باب 46 – القول في المفاضلة بين الأئمة والأنبياء.

[٧٣٨] – المصدر، باب 56 – القول في الحساب وولاته والصراط والميزان.

عن عودة الغلو والتفويض الى الثقافة الشيعية، في القرن الخامس، على يد "مدرسة بغداد" التي تزعمها (المفيد والمرتضى والطوسي). ويقول: إن "المفوضة" استلموا بالتدريج مقام الوجاهة، وأصبح فكرهم في القرون اللاحقة هو الحاكم على الذهنية الشيعية مع إجراء بعض التعديلات الكلامية.[٧٣٩] و"إن فكرة الغلو والتفويض التي أنكرها الأئمة في القرنين الأولين بشدة، بدأت ... بإجراء بعض الترميم والتعديل لمقولة الغلو والتفويض بعيدا عن أشكال الغلو المفرط والتفويض المجحف (الرؤية الربوبية للأئمة) وفي إطار الارتفاع بفضائل الأئمة وحالاتهم الخارقة، ودخل هذا الفكر المعدل والمحسن "الغلو والتفويض المعدلين" تدريجيا الى الشيعة، وبسط سيطرته المطلقة على الفكر الشيعي في القرن الخامس، بمعنى أن "المفوضة" منذ هذا القرن فلاحقا، لم يعودوا بمثابة تيار مستقل عن التشيع، بل إن هذه العقيدة والفكرة عن الأئمة أصبحت هي العقيدة الرسمية للتشيع، والتي تقترن بملامح من الغلو والتفويض غير المفرط، حتى أصبح ما كان يعد غلوا وتفويضا في زمان سابق، جزءا وركنا رئيسيا من أركان المذهب".[٧٤٠]

٦- التطرف والعنف ضد الآخرين

وفي مقابل الغلو بالأئمة "غير الموجودين في الحياة" واعتبار الإيمان بهم جزءا من العقيدة الدينية، اتخذ مؤسسو الطائفة "الاثني عشرية" مواقف عنيفة ضد الحكام التاريخيين، وأتباعهم، وممن لا يعترف بإمامة "الأئمة الاثني عشر" أو ينكر واحدا منهم، حتى لو كان شيعيا إماميا (كالاسماعيلية، أو الزيدية). فقد قال ابن بابويه الصدوق: "اعتقادنا فيمن خالفنا في شئ واحد من أمور الدين كاعتقادنا فيمن خالفنا في جميع

---

[٧٣٩] – وهي نظرية كان يتبناها ابن الغضائري، أحمد بن الحسين البغدادي (٤٥٠هـ) الذي يقول بامكان صدور السهو عن الأئمة، وينفي تفويض الأمور للأئمة، كالمعجزات، والأمور الخارقة للعادة، وعلم الغيب. وكذلك ابن الجنيد ابو علي محمد بن أحمد الكاتب (٣٧٧هـ) ويستشهد كديوار بقول الوحيد البهباني، باقر بن محمد الأكمل (١٢٠٥هـ) في كتابه "الفوائد الرجالية":" الظاهر ان كثيرا من القدماء سيما القميين منهم (والغضائري) كانوا... يعدون نفي السهو عليهم غلوا". وكذلك بقول العالم الرجالي الأصولي المامقاني، في تنقيح المقال، المقدمة، ج ١ ص ٢١١ – ٢١٢ ويقول:" يعتقد اتباع هذه النظرية "الأئمة علماء ابرار" ان القراءة البشرية للامامة هي القراءة الوحيدة التي تنسجم وتتناغم مع الضوابط القرآنية والمعايير المعتبرة في السنة النبوية والروايات الاجتماعية الواردة من أئمة اهل البيت والاصول العقلية والحقائق التاريخية".

[٧٤٠] – كديور، محسن، القراءة المنسية: نظرية "الأئمة" علماء أبرار (٢٠٠٥)، ترجمة أحمد القبنجي، الحوار المتمدن: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=340679

أمور الدين".[741] وقال الشيخ المفيد:"اتفقت الإمامية و كثير من الزيدية على أن المتقدمين على أمير المؤمنين (ع) ضلال فاسقون و أنهم بتأخيرهم أمير المؤمنين (عليه السلام) عن مقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عصاة ظالمون و في النار بظلمهم مخلدون".[742]

و"اتفقت الإمامية على أن من أنكر إمامة أحد الأئمة وجحد ما أوجبه الله تعالى من فرض الطاعة فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار".[743]

وانتشرت بينهم "زيارة عاشوراء" المروية عن الإمام الباقر والتي تتضمن اللعن ليس لمن قتل الحسين فحسب وانما لمن "اغتصب" حق الأئمة في الحكم والخلافة، فقد جاء فيها:" لَعَنَ اللهُ أُمَّةً أَسَّسَتْ أَسَاسَ ٱلظُّلْمِ وَالجَوْرِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً دَفَعَتْكُمْ عَنْ مَقَامِكُمْ وَأَزَالَتْكُمْ عَنْ مَرَاتِبِكُمُ ٱلَّتِي رَتَّبَكُمُ اللهُ فِيهَا، وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً قَتَلَتْكُمْ وَلَعَنَ اللهُ الْمُمَهِّدِينَ لَهُمْ بِٱلتَّمْكِينِ مِنْ قِتَالِكُمْ، بَرِئْتُ إِلَىٰ اللهِ وَإِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَمِنْ أَشْيَاعِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ وَأَوْلِيَائِهِم". وتضمنت كذلك "الْبَرَاءَةِ مِمَّنْ أَسَسَّ أَسَاسَ ٱلظُّلْمِ وَالجَوْرِ"، و" مِمَّنْ أَسَسَّ أَسَاسَ ذَلِكَ وَبَنَىٰ عَلَيْهِ بُنْيَانَهُ وَجَرَىٰ فِي ظُلْمِهِ وَجَوْرِهِ عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰ أَشْيَاعِكُمْ، وَبِالْبَرَاءَةِ مِنْ أَشْيَاعِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ". وورد فيها "أَللّهُمَّ ٱلْعَنْ أَبَا سُفْيَانَ وَمُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ ٱللَّعْنَةُ أَبَدَ ٱلآبِدِينَ...والْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ وَٱللَّعْنَةِ عَلَيْهِمْ". وتحث "الزيارة" على ترديد هذه الجملة مائة مرّة: "أَللّهُمَّ ٱلْعَنْ أَوَّلَ ظَالِمٍ ظَلَمَ حَقَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَآخِرَ تَابِعٍ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ.. أَللّهُمَّ خُصَّ أَنْتَ أَوَّلَ ظَالِمٍ بِٱللَّعْنِ مِنِّي وَٱبْدَأْ بِهِ أَوَّلاً ثُمَّ (ٱلْعَنِ) ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثَ وَٱلرَّابِعَ أَللّهُمَّ الْعَنْ يَزِيدَ خَامِساً".

وتقوم "الزيارة الجامعة" بإكمال المهمة فتدعو الى إعلان البراءة واللعن عند زيارة أحد الأئمة ومخاطبتهم هكذا:" برئت إلى الله عز وجل من أعدائكم ومن الجبت والطاغوت والشياطين وحزبهم الظالمين لكم الجاحدين لحقكم والمارقين من ولايتكم والغاصبين لإرثكم الشاكّين فيكم المنحرفين عنكم ومن كل وليجة دونكم وكل مطاعٍ سواكم ومن الأئمة الذين يدعون إلى النار (وكفرت بالجبت والطاغوت واللات والعزى). ومن جحدكم كافر ومن حاربكم مشرك ومن رد عليكم في أسفل درك من الجحيم. وعلى من جحد ولايتكم غضب الرحمان".

ويضيف جعفر بن محمد بن قولويه القمي (٣٨٦هـ) في "كامل الزيارة" فقرة أخرى الى هذه الزيارة:

---

[741] – الصدوق، محمد بن علي بن بابويه (–٣٨١)، الاعتقادات، ص ١١٦ والاعتقادات للمجلسي، ص ١٠٠

[742] – المفيد، أوائل المقالات، باب ٤– القول في المتقدمين على أمير المؤمنين.

[743] – المصدر، باب 6 – القول في تسمية جاحدي الإمامة ومنكري ما أوجب الله تعالى للأئمة من فرض الطاعة .

"اللهم العن اللذين بدلا نعمتك، وخالفا كتابك، وجحدا آياتك، واتهما رسولك، واحش قبورهما واجوافهما نارا وأعد لهما عذابا أليما، واحشرهما وأشياعهما وأتباعهما الى جهنم زرقا، واحشرهما وأشياعهما وأتباعهما يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا".

وهو ما أشاع ثقافة العنف واللعن والتطرف لدى عامة الشيعة، وانعكس سلبا عليهم في علاقتهم بإخوانهم المسلمين الذين يعظمون الخلفاء الراشدين الثلاثة، وعزلهم، وألَّب عليهم، واستفز المتطرفين من أهل السُنَّة للرد عليهم، وإذكاء المعارك الطائفية العبثية حول رجال تاريخيين (من الأئمة والخلفاء) مضى على وفاتهم قرون من الزمن.

وربما يعود السبب في ذلك الى تحول التشيع "الاثنا عشري" من حركة سياسية حية تطالب بالحق والعدل، الى عقيدة دينية تاريخية فارغة من المحتوى السياسي. [٧٤٤]

وقد ترافق التطرف لدى الشيعة الاثني عشرية، مع تطرف الفاطميين في مصر، منذ عام ٣٦٥ حيث قام الخطباء بلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، على المنابر، وصدر قرار بابطال صلاة التراويح من مساجد مصر وسورية على اعتبار ان عمر بن الخطاب هو الذي ابتدعها، وتم نقش فضائل الامام علي بن ابي طالب وذريته على السكة وجدران المساجد. [٧٤٥]

٧- الإيمان بالرجعة

وحتى يعطي التشيع "الاثنا عشري" معنىً للولاء للأئمة (غير الموجودين في الحياة) حاول ربط الشيعة بالمستقبل، ودفعهم للإيمان برجعة الأئمة الى الحياة الدنيا، مرة أخرى، وتأسيس دولتهم، كما جاء في "الزيارة الجامعة": "مؤمنٌ بإيابكم مصدقٌ برجعتكم منتظرٌ لأمركم مرتقبٌ لدولتكم، ونصرتي لكم معدةٌ حتى يحيي

---

[٧٤٤] - وبالطبع كانت هناك استثناءات من بعض الرجال، حيث يذكر أن الشريف المرتضى (- ٤٤٠) قال عند وفاته:"أبو بكر وعمر وليا فعدلا واسترحما فرحما، فأنا اقول: ارتدا بعد أن أسلما؟". وقد أرسل صاحب ديوان الانشاء بمصر ابن خيران أحمد بن علي (٤٣١هـ) جزئين من شعره ورسائله لتعرض على الشريف المرتضى، ومن شعره:"أنا شيعي لآل المصطفى غير أني لا ارى سب السلف، أقصد الاجماع في الدين ومن قصد الاجماع لم يخش التلف، لي بنفسي شغل عن كل من للهوى قرظ قوما أو قذف".

[٧٤٥] - الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ٢٩٥

الله تعالى دينه بكم ويردكم في أيامه ويظهركم لعدله ويمكنكم في أرضه، ويكِرِّ في رجعتكم ويُملّك في دولتكم ويُشَرَّف في عافيتكم ويُمَكّن في أيامكم وتقر عينه غداً برؤيتكم".[٧٤٦]

وهذا ما أكده أحد مشايخ الطائفة "الاثني عشرية" وهو الشيخ المفيد، بقوله:"إن الله – تعالى – يرد قوما من الأموات إلى الدنيا في صورهم التي كانوا عليها فيعز منهم فريقا ويذل فريقا ويديل المحقين من المبطلين والمظلومين منهم من الظالمين، وذلك عند قيام مهدي آل محمد (ع) وأقول: إن الراجعين إلى الدنيا فريقان: أحدهما من علت درجته في الإيمان، وكثرت أعماله الصالحات، وخرج من الدنيا على اجتناب الكبائر الموبقات، فيريه الله – عز وجل – دولة الحق ويعزه بها ويعطيه من الدنيا ما كان يتمناه والآخر من بلغ الغاية في الفساد، وانتهى في خلاف المحقين إلى أقصى الغايات وكثر ظلمه لأولياء الله واقترافه السيئات، فينتصر الله – تعالى – لمن تعدى عليه قبل الممات، ويشفي غيظهم منه بما يحله من النقمات، ثم يصير الفريقان من بعد ذلك إلى الموت ومن بعده إلى النشور وما يستحقونه من دوام الثواب والعقاب، وقد جاء القرآن بصحة ذلك وتظاهرت به الأخبار، والامامية بأجمعها عليه إلا شذاذا منهم تأولوا ما ورد فيه مما ذكرناه على وجه يخالف ما وصفناه".[٧٤٧]

إن "التشيع الإثني عشري" هو في الحقيقة ما يطلق عليه المفكر الشيعي الثائر علي شريعتي (١٩٧٧م): "التشيع الصفوي"، وقد تشكل قبل ولادة الصفويين بقرون طويلة من الزمن، ولكنه كان ولا يزال يحمل بذور التشيع العلوي السياسي، التي تنبتُ بين آونة وأخرى فتنتج نماذج شيعية أخرى أكثر ثورية وأقرب الى روح العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وسوف نتحدث عن بعض هذه النماذج في الفصل القادم.

المبحث الثالث :السُنَّة الاثنا عشرية

ونظرا لفراغ العقيدة "الاثني عشرية" من المحتوى السياسي، لعدم وجود الأئمة في الحياة، فقد تبنى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٦٢٣-٥٥٣) أو تظاهر بتبني "الاثني عشرية" وبنى "سرداب الغيبة" الموجود حتى الآن، في سامراء.

---

[٧٤٦] – وكان الطبري قد قال في روايته عن عبد الله بن سبأ، أنه قال: العجب فيمن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله عز وجل: "إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ"، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى.

[٧٤٧] – المفيد، أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، باب 55 – القول في الرجعة.

وتبنتها كذلك فرق صوفية سنية تؤمن بخلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل، وتجمع بينهم وبين حب أهل البيت، وزيارة قبورهم، والتبرك بهم، وطلب الشافعة منهم.

وقد نظَّر لها بعض العلماء السُنَّة كالقندوزي[٧٤٨]، وتبناها "البكتاشية".[٧٤٩] و"الانكشارية" في العهد العثماني. [٧٥٠]

وتوجد اليوم في مصر والسودان وتركيا وألبانيا وغيرها من البلاد، بعض الحركات الصوفية التي تؤمن بالأئمة الاثني عشر. وكانت الحركة الصوفية (الصفوية) واحدة ممن يؤمن بهذه العقيدة قبل أن تتحول على يد الشاه إسماعيل الصفوي الى حركة شيعية وتؤسس الدولة الصفوية في إيران في القرن العاشر الهجري (٩١٠).

---

[٧٤٨] – القندوزي، سليمان بن خواجه كلان إبراهيم بن بابا خواجة البلخي، الصوفي، الحسيني (١٢٢٠ – ١٢٩٤ هـ)، نزيل القسطنطينية. جمع في كتابه هذا (ينابيع المودّة لذوي القرى) جملة كتب سابقة جمعت فضائل ومناقب أهل البيت، كذخائر العقبى، ومناقب الخوارزمي، وابن المغازلي، وجواهر العقدين للسمهودي، وفرائد السمطين للحمويني.

[٧٤٩] – "البكتاشية" هي طريقة صوفية تركية تنسب الى الحاج بكتاش ولي (القرن السابع الهجري، حوالي: ١٣٢٤م) انتشرت في الأناضول وألبانيا، وتجمع في تعاليمها بين عقائد الشيعة الاثني عشرية وتعاليم الطرق الصوفية القلندرية والحيدرية. وهم يقولون إنهم من أهل السنة، لأنهم يؤمنون بالخلفاء الثلاثة، ويعترفون أيضا بالأئمة الاثني عشر، ويبجلون منهم خاصة جعفر الصادق. وهم يوجدون اليوم في تركيا بين العلويين وفي العراق بين الجالية التركمانية، وفي مصر والشام، وألبانيا حيث يشكلون نسبة ٣ بالمائة في ألبانيا، وقد انتقل اليها زعيمهم بعد حضر أتاتورك الطرق الصوفية عام ١٩٢٥، فاتخذوا من تكية تيرانا مركزا عالميا لهم، ولديهم مجلة تحت عنوان (الحكمة).

[٧٥٠] – الانكشارية، تعني في التركية: (الجيش الجديد) وهي طائفة عسكرية تألفت من أسرى الحرب من الغلمان والشباب، وكانت أقوى فرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذا. أرجع بعض المؤرخين تأسيسها الى عهد (أورخان الأول) سنة ١٣٢٤م وقام السلطان محمود الثاني بحلها والقضاء عليها عام ١٨٢٦م. وارتبط الانكشارية بالطريقة الصوفية البكتاشية عند تأسيسهم، ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يطلقون عليهم اسم أولاد الحاج بكتاش.

الباب الخامس

ظاهرة التعصب الطائفي

الفصل الأول:

كيف تحول الشيعة من حزب سياسي الى طائفة؟

شهد القرن الثاني الهجري ولادة عدد من الحركات السياسية الثورية المعارضة للأمويين ومن بعدهم العباسيين، كما شهد أيضا ولادة عدد من المدارس الفكرية كالمعتزلة، والفقهية، كالجعفرية والحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية (في بداية القرن الثالث).

وبينما كانت الحركات السياسية تشكل أحزابا شعبية معارضة تنتشر في المجتمع الاسلامي بلا حدود، فان المدارس الفقهية كانت، في البداية، تقتصر على أئمة المذاهب ونخب من تلامذتهم، ولم تكن تشكل

حركات جماهيرية واسعة، أو تحمل هوية طائفية لفئات كبيرة من المجتمع، إلا بقدر ما كانت تمتزج بالحركات السياسية، كالمعتزلة والجعفرية والحنفية.

وربما كانت بعض المدن والمناطق، مثلا تشتهر تاريخيا، بلون سياسي معين كالميل الى الأمويين (في الشام) أو العلويين (في الكوفة) ولكنها لم تكن تنحصر في إطار طائفي، كما حدث في ما بعد.

وقد بدأ "التطوؤوف" (أو التحول الى طائفة) يأخذ مجراه على خطين: خط الصراع السياسي بين العلويين والعباسيين، وخط المدارس الفقهية، وذلك بعد فقدان الحركات السياسية لروحها الحيوية والابتعاد عن شعاراتها الأولية (كالعدل وتطبيق الشريعة) إما بالوصول الى السلطة والتحول الى أنظمة سياسية مستبدة، وإما بالتطرف والغلو تجاه أئمة المعارضة، الأحياء منهم والأموات.

هذا من جهة ومن جهة أخرى بدأ "التطوؤوف" في صفوف المدارس الفقهية، يسمها بالجمود والابتعاد عن الاجتهاد، واعتماد التقليد، والانغماس في المصالح المادية التي توفرها وظائف الدولة كالقضاء والإفتاء وإدارة المدارس وإمامة الجمعة والجماعة وما الى ذلك، في ظل الأنظمة المختلفة التي كانت تتبنى هذا المذهب يوما وذاك في يوم آخر.

تحول الشيعة من حركة ثورية الى طائفة مغلقة

إن الوقوف في صفوف المعارضة لفترة طويلة يؤدي عادة الى انفصال الحركة المعارضة عن التيار العام للدولة والمجتمع، ولا سيما في ظل الأنظمة المستبدة التي لا تعرف غير لغة القمع والقتل والارهاب، وهو ما يدفع المعارضة الى السرية والكتمان والابتعاد عن مراكز الدولة وأنديتها، والى استخدام خطاب عنيف وتكفيري أحيانا ضد كل من يشايع النظام الحاكم، وإذا مرَّ على الحركة جيل أو جيلان أو ثلاثة، فان الأبناء والأحفاد يفتقدون عادة الأهداف والمحركات والشعارات الثورية الأولى ويصبحون أشبه بقبيلة لا تحتفظ سوى بالأسماء والعناوين والطقوس والعواطف .

وهذا ما حصل مع الحركة الشيعية في القرون اللاحقة، علما بأن الشيعة لم يكونوا تيارا واحدا وذوي مسيرة واحدة. وقد كانت هناك حركات عديدة تولد من رحم المعاناة والصراعات والظروف المختلفة،

ولكنها بصورة عامة كانت تفتر وتذبل أحيانا ، وتنطوي على نفسها، وتتشعب، وتتصارع فيما بينها أيضا، وتتطرف وتغلو في أئمتها أحيانا أخرى.

وقد بلغ الغلو ببعض الحركات الشيعية الى إدعاء الألوهية أو النبوة أو العصمة والقداسة للأئمة، وادعاء مشاركة الله تعالى في إدارة الكون والرزق والحياة والموت والحساب بالنيابة عنه، كما ادعى ذلك الغلاة السبئية، والخطابية، والمفوضة، وغيرهم.

وبالرغم من استنكار بقية الشيعة المعتدلين لتلك المزاعم وتبرؤهم منها ومن الغلاة وتكفيرهم لهم، الا أن الاشاعات كانت تلوثهم، والاتهامات كانت تطال الأبرياء منهم أيضا، فتبني جدرانا عازلة حولهم، تفصل بينهم وبين جماهير الأمة، وتزرع الأحقاد والعداوات ضدهم.

وهكذا كان مفهوم الشيعة يتحول بهم من حركة ثورية تعمل من أجل عموم الأمة وتطالب بالعدالة لها، الى حركة طائفية منعزلة ميتة تقف في مواجهة الأمة.

وقد كانت الحركة "العباسية" في بدايتها فصيلا من الحركة الشيعية العريضة.[٧٥١] ثم افترقت عنها بعدما سيطرت على السلطة عام ١٣٢، واستلمت الحركة "الزيدية" راية المعارضة لها، حتى استولت على بعض المناطق هنا وهناك، بينما مال الجناح "الجعفري" الى الهدوء والموادعة والتفرغ لتأسيس المذهب الفقهي "الجعفري".

ثم انبثق عن الجناح الجعفري فصيل آخر هو الفصيل "الإسماعيلي" الذي نجح في تأسيس الدولة الفاطمية في أواخر القرن الثالث الهجري، في الوقت الذي كان الجناح "الاثنا عشري" يتلاشى سياسيا ليغدو مجرد نظرية دينية تاريخية وفقهية.

وبينما كان أتباع هذا الجناح يعادون أبناء عمومتهم "الفاطميين" في القرن الرابع الهجري، ويقتربون من "العباسيين" أعدائهم التاريخيين، فإنّهم كانوا أيضا يعتاشون على تراث قديم من الاتهامات والاشاعات

---

[٧٥١] - النوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٢

والأحقاد والضغائن الموروثة من القرن الثاني، حيث كانوا يواصلون تطرفهم ضد الشيخين والصحابة، و هو ما كان يحمل ملامح الغلو تجاه الأئمة (غير الموجودين ظاهراً في الساحة). أي إنَّ هذا الجناح كان يخوض في ذيول معركة بائدة حول من هو أحق بالخلافة، في الوقت الذي لم يكن يملك إماما (ظاهراً) ينافس العباسيين أو الفاطميين.

محورية أئمة أهل البيت في الحركة الشيعية

ولو عدنا قليلا الى الوراء لشاهدنا تميز الحركات الشيعية عن الخوارج بارتباطها بأهل البيت، بصورة عامة، ليس بسبب وجود النص على هذا الامام أو ذاك، بقدر ما كان أهل البيت يتمتعون به من احترام وتقدير وتعاطف وحب وولاء في قلوب الأمة، إضافة الى عصبيتهم القوية في مواجهة الأمويين ثم العباسيين، وعدم تمتع قيادات ثورية من خارج إطارهم بتلك المنزلة الاجتماعية والدينية .

ولذلك فقد شكل "أهل البيت" محورا لازما للتشيع والحركات الشيعية، حتى بدا كأن العمل من أجل إعادة السلطة إلى أهل البيت هدفا أوليا لدى بعض الشيعة، يسبق شعارات العدل ورفع الظلم عن عامة المسلمين.

ولئن كان "أهل البيت" قد انقسموا وتشعبوا، فقد ظلوا يشكلون محوراً لكثير من الحركات الشيعية.

ولم يكن "الزيدية" يجدون مشكلة كبيرة عند فقد إمام من أئمتهم، حيث كانوا يلتفون حول أي قائد آخر من سلالة الحسن أو الحسين، بينما كان "الاثنا عشريون" يعانون معاناة كبيرة قاتلة لأنهم كانوا يشترطون التوارث العمودي في البيت الحسيني، وعندما كان يتوفى أحد الأئمة من هذه السلالة ويخلف طفلا صغيرا (كما حدث بعد وفاة الرضا والجواد) كانوا يصابون بالحيرة والارتباك، لعدم قدرة الصبي على قيادتهم.

وعندما توفي الحسن العسكري سنة ٢٦٠ دون أن يخلف ولدا ظاهرا، وقعت الفرقة "الاثنا عشرية" في أزمة كبيرة، بالرغم من اعتقادها بوجود ولد مستور وغائب، وأصيبت بالانعزال والتهميش، ولم تستطع أن تتفاعل مع القيادات العلوية الناشطة يومذاك، ولا الاعتراف "بالبويهيين" الذين سيطروا على مقر الخلافة في

بغداد (٣٣٤ – ٤٤٧ هـ /٩٤٦ – ١٠٥٥م) كحكام شرعيين، كما لم يعترفوا بالدولة الفاطمية الوليدة (٢٩٥–٥٥٧هـ).

عوامل تشكل الطائفة الشيعية

ربما كان الشيعة "الإثنا عشرية" أول من تحول إلى طائفة، قبل بقية الفصائل الشيعية (الزيدية والإسماعيلية) التي كانت تسعى الى الحكم أو تمارسه فعلا، وذلك لفقدانهم المشروع السياسي، واضطرارهم إلى الالتزام "بالتقية"، أي عدم الانخراط في أي مشروع ثوري أو سياسي، انتظاراً لخروج الإمام الثاني عشر "محمد بن الحسن العسكري" الذي كانوا يعتقدون بولادته واختبائه منذ منتصف القرن الثالث الهجري سنة ٢٦٠ .

فقد أفتى عدد من العلماء الشيعة، عبر القرون المختلفة، بعدم جواز انتخاب أي إمام آخر "لم يعهد إليه من الله" .[٧٥٢] وقال عبد الرحمن بن قبة:" ليس يقوم عندنا مقام الإمام إلا الإمام". [٧٥٣]

وهكذا تحول الشيعة "الإثنا عشرية" من حزب سياسي حيوي إلى طائفة جامدة في مقابل الطوائف الفقهية الأخرى كالحنابلة والأحناف والشوافع، يمتازون فقط بالالتزام بفقه الامام جعفر الصادق، ويعتنقون نظرية "الإمامة" القائمة على العصمة والنص، وينتظرون خروج "الإمام المهدي" لكي يقيم دولتهم.

وهكذا استبدلوا الشعارات الثورية القديمة (العدل والشورى) ببعض الطقوس التي اخترعوها في أواسط القرن الرابع في ظل البويهيين، كطقس الاحتفال بيوم "الغدير" في الثامن عشر من ذي الحجة، في ذكرى تنصيب النبي الامام علي خليفة على المسلمين عند غدير خم كما يعتقدون، وطقس مواكب العزاء الحزينة في ذكرى عاشوراء يوم مقتل الامام الحسين، في بعض المحلات الخاصة للشيعة في جانب الكرخ ببغداد. وما رافق ذلك من تعطيل لدوائر الدولة، وإغلاق الاسواق.

---

[٧٥٢] – النعماني، الغيبة، ص ٥٧ و٢٠١

[٧٥٣] – الصدوق، اكمال الدين، ج١ ص ٥٧

كما ترافق ذلك مع نمو ظاهرة الغلو عند الشيعة بحق الأئمة، تدريجيا.

وساهمت الاختلافات الفقهية البسيطة بين السُنَّة والشيعة مثل طريقة الوضوء أو التكتف والإسبال في الصلاة، أو طريقة الأذان، أو تحديد أوائل الشهور القمرية والأعياد، بالاضافة الى الإحتفال بعاشوراء، في تكريس الاختلاف الطائفي وتكوين الهوية الشيعية. [٧٥٤]

ويجدر بنا هنا أن نقتبس باختصار من كتابنا "التشيع السياسي والتشيع الديني"[٧٥٥] بعض المواقف أو التعليمات والوصايا التي رافقت مسيرة الشيعة الإمامية خلال انطلاقتها في القرن الثاني الهجري، والتي ساهمت بتحولهم من حزب سياسي يعمل من أجل الإصلاح في الأمة الإسلامية ونشر الحق والعدالة لعموم المسلمين، إلى طائفة منغلقة على نفسها، ومنفصلة عن بقية المسلمين، في القرون التالية:

١- المقاطعة النفسية والفكرية: التكفير واللعن

---

[٧٥٤] - كان عمر بن الخطاب قد حذف "حي على خير العمل" من الأذان، وأضاف اليه: "الصلاة خير من النوم"، فأصبحت هذه الفقرة شعارا لأهل السنة، فيما أتخذ الشيعة الفقرة المحذوفة شعارا لهم، ثم أضاف الغلاة المفوضة فقرة أخرى هي: "أشهد أن عليا ولي الله"، كما يقول الصدوق، وأضافوا اليها بعد ذلك: "وأشهد أن أولاده المعصومين حجج الله". وقد أحيى الصفويون هذه البدعة، وقام الشاه ناصر الدين في زيارته الى كربلاء نهاية القرن التاسع عشر، باجبار مؤذن ضريح الامام الحسين على إعادة الأذان وإضافة "أشهد أن عليا ولي الله".

[٧٥٥] - الكاتب، أحمد، التشيع السياسي والتشيع الديني (٢٠٠٩) الفصل السابع:المقاطعة والانطواء الطائفي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان. علما بأن هذه الروايات تتناقض مع الموقف العلني لأهل البيت وخصوصا الامام جعفر الصادق، الذي كان ينفي تبنيه لنظرية الامامة، كما كان يعلن احترامه للشيخين أبي بكر وعمر ويرفض الاساءة اليهما، حسبما هو موجود في كتاب الكليني "الكافي". الكليني، الكافي، كتاب الروضة، ح رقم ٣١٩ و الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من سلاح رسول الله، ح رقم ١ والكشي عن سعيد الأعرج عن الإمام الصادق. الخوئي، معجم الرجال، رقم ٥١٠٩ و رقم ٩٥٥٨ والصفار، بصائر الدرجات، ج ٤، باب (٤) ما عند الأئمة عليهم السلام من سلاح رسول الله ص وآيات الأنبياء، ح رقم (٤)

فقد أدى الغلو بالأئمة، ورفع أمر "الإمامة" إلى مستوى العقيدة والعبادات الضرورية في الإسلام، إلى اعتبار "الولاء" للأئمة الحسينيين، شرطا للهدى والتقوى والإخلاص، واتهام من لا يؤمن بولايتهم بالضلال والشرك، ورسم صورة سلبية "لأعداء" أئمة أهل البيت وشيعتهم، وخصومهم.[٧٥٦]

وحسبما ينقل الكليني في "الكافي" عن الإمام جعفر الصادق، فإن ثمة فرقا بين الإسلام والإيمان، وأن من لم يعرف ولاية أهل البيت أو لم يعرف واحدا من الأئمة، كان ضالا.[٧٥٧] أو مشركا.[٧٥٨] أو كافرا.[٧٥٩]

وانطلاقا من ذلك، فقد اتخذ الفكر "الإمامي" موقفا سلبيا من الصحابة الذين لم يتبعوا عليا بعد وفاة رسول الله (ص) مباشرة.[٧٦٠] واتهم عامة الناس بالردة بعد النبي (ص) إلا ثلاثة .. المقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري و سلمان الفارسي.[٧٦١]

وروى الكليني عن محمد الباقر أنه قال:" كل من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير والله شانئ لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلت عن راعيها وقطيعها... ومن أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عز وجل ظاهرا عادلا أصبح ضالا تائها وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق، وإن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله، قد ضلوا وأضلوا، فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد".[٧٦٢]
ونسب إلى الصادق، حديثا يعتبر فيه أتباع الأنظمة والأحزاب المنافسة لأهل البيت مشركين.[٧٦٣]

٢– المقاطعة السياسية

---

[٧٥٦] – الكليني، الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب أدنى ما يكون فيه العبد مؤمنا أو كافرا، ح رقم ١

[٧٥٧] – المصدر، باب أن الإسلام يحقن به الدم، ح رقم ٤ و كتاب الحجة، باب معرفة الإمام والرد إليه، ح رقم ٦

[٧٥٨] – المصدر، باب الشرك، ح رقم ٥

[٧٥٩] – المصدر، كتاب الحجة، باب أنه من ادعى الإمامة وليس لها بأهل، ح رقم ٢ و كتاب الحجة، باب معرفة الإمام والرد إليه، ح رقم ٥

[٧٦٠] – المصدر، كتاب الإيمان والكفر، باب في قلة عدد المؤمنين، ح رقم ٦

[٧٦١] – المصدر، كتاب الروضة، ح رقم ٣٤١

[٧٦٢] – المصدر، كتاب الحجة، باب فيمن دان الله بغير إمام من الله، ح رقم ٢

[٧٦٣] – ويقول فيه: " من أشرك مع إمام إمامته من عند الله من ليست إمامته من الله، كان مشركا بالله". المصدر، باب أنه من ادعى الإمامة وليس لها بأهل، ح رقم ٦

وقد أدى تكفير أئمة المخالفين، وأتباعهم، والحكم بضلالهم، إلى موقف سلبي آخر، هو الفصل الاجتماعي والسياسي بين الشيعة "الإمامية" وغيرهم من المسلمين المخالفين، استنادا الى رواية عن الصادق يخاطب فيها الشيعة:"أحبوا في الله من وصف صفتكم وأبغضوا في الله من خالفكم وابذلوا مودتكم ونصيحتكم لمن وصف صفتكم ولا تبتذلوها لمن رغب عن صفتكم وعاداكم عليها وبغى لكم الغوائل".[٧٦٤]
وأنه قال:" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس مجلسا ينتقص فيه إمام أو يعاب فيه مؤمن". [٧٦٥]

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يدعو الفكر الإمامي إلى مقاطعة الأنظمة الحاكمة، وأن يروي عن الباقر النهي عن الدخول في أعمال الحكام المخالفين. [٧٦٦]

٣ – المقاطعة الاجتماعية

وإذا كانت مقاطعة الظالمين مفهومة ومعروفة عن أئمة أهل البيت، فإن الإمامية رووا عنهم روايات أخرى تأمر بمقاطعة المخالفين اجتماعيا، كما روى الكليني عن أبي عبد الله أنه قال لبعض الشيعة مستنكرا:" تصافحون أهل بلادكم وتناكحونهم؟ أما إنكم إذا صافحتموهم انقطعت عروة من عرى الإسلام وإذا ناكحتموهم انهتك الحجاب بينكم وبين الله عز وجل". [٧٦٧]

ونتيجة لقرار مقاطعة المخالفين اجتماعيا فقد قام الإمامية بمقاطعتهم في الصلوات والعبادات، وتحريم صلاة الجماعة خلفهم إلا للتقية. [٧٦٨]

---

[٧٦٤] – المصدر، كتاب الروضة، رسالة الإمام الصادق، حديث رقم ١

[٧٦٥] – المصدر، كتاب الإيمان والكفر، باب مجالسة أهل المعاصي، ح رقم ٨ و ٩ و ١٢ و ١٥

[٧٦٦] – المصدر، ح رقم ٨٥٣١ – ٥ و ح رقم ٨٥٣٨ – ١٢

[٧٦٧] – المصدر، ح رقم ٩٥٦١ – ١٧

[٧٦٨] – المصدر، ح رقم ٥٢٧٦ – ٢ و ح رقم ٥٢٨١ – ٧ و ح رقم ٥٢٧٨ – ٤

وقد أدى موقف المقاطعة الاجتماعية ببعض الإمامية إلى تحريم الزواج بين الطرفين[٧٦٩]

وروى الكليني مجموعة روايات بهذا المضمون، تنهى عن الزواج من النواصب والمخالفين.[٧٧٠] ولا سيما النساء "المؤمنات" منهم.[٧٧١] كما عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله: إن لامرأتي أختا عارفة على رأينا، وليس على رأينا بالبصرة إلا قليل، فأزوجها ممن لا يرى رأيها؟ قال: لا ولا نعمة ولا كرامة.. إن الله عزَّ وجل يقول: "فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن".[٧٧٢] وروى الكليني حديثا عن أبي عبد الله يبرر ويفسر تزويج الإمام علي لابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب، بالاغتصاب والإكراه: "إن ذلك فرجٌ غُصبناه".[٧٧٣]

٤ – المقاطعة الاقتصادية

وتناقل الإمامية أحاديث عن أئمة المذهب بوجوب مقاطعة الشيعة لمخالفيهم اقتصاديا، وخصوصا في موضوع الزكاة. وتحريم دفع الزكاة للفقراء المخالفين.[٧٧٤] ووجوب إعادة إخراج الزكاة مرة ثانية إن تم وضعها في غير موضعها.[٧٧٥]

٥– الانطواء وتعزيز العلاقات الداخلية

ونتيجة للانفصال الذي أحدثته نظرية "الإمامة الإلهية" بين الإمامية ومحيطهم الإسلامي العام، أدرك الإماميون مبكراً أهمية تعزيز العلاقات الداخلية، فنقلوا عن الباقر قوله لأحد أصحابه:" يا خثيمة أبلغ من ترى من موالينا السلام وأوصهم بتقوى الله العظيم وأن يعود غنيهم على فقيرهم وقويهم على ضعيفهم، وأن

---

[٧٦٩] – المصدر، ح رقم ٩٥٥٦ – ١٢

[٧٧٠] – المصدر، ح رقم ٩٥٤٧ – ٣ و ح رقم ٢ ٩٥٥ – ٨ و ح رقم ٩٥٤٨ – ٤

[٧٧١] – المصدر، ح رقم ٢ ٩٥٥ – ٨ و ح رقم ٩٥٤٨ – ٤

[٧٧٢] – المصدر، ح رقم ٩٥٥٠ – ٦

[٧٧٣] – المصدر، ح رقم ٩٥٣٦ – ١ و ح رقم ٩٥٣٧ – ٢

[٧٧٤] – المصدر، ح رقم ٥٩٢٨ – ٦ و ح رقم ٥٧٤٤ – ١

[٧٧٥] – المصدر، ح رقم ٥٩٢٤ – ٢

يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فإن لقيا بعضهم بعضا حياة لأمرنا، رحم الله عبدا أحيا أمرنا".[٧٧٦] ونقلوا عن أبي عبد الله الصادق أنه أوصى الشيعة بالتزاور والمحادثة والتبري والتولي.[٧٧٧]

وقد لعبت هذه الأحاديث والوصايا بمقاطعة المخالفين عباديا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا ونفسيا، وتعزيز العلاقات الداخلية الشيعية، دورا كبيرا في تشييد الكيان الطائفي الخاص للشيعة، وفرض جدار من العزلة حولهم، وتحويلهم من طليعة سياسية تناضل من أجل مصالح الأمة العامة في الحرية والعدالة والشورى، الى مجموعة خاصة منطوية على نفسها وتتبادل العداوة والبغضاء مع الآخرين.

٦- التطرف ضد الصحابة

ولعل أكبر عامل في عزل الشيعة في غيتو طائفي، كان قيامهم بلعن الخلفاء الثلاثة باعتبارهم "مغتصبين لحق الامام علي بالخلافة"، فضلا عن عائشة وطلحة والزبير ومعاوية الذين حاربوا الامام. حيث تطور الموقف السلبي من الخلفاء والصحابة، من اعتبارهم كفاراً ومشركين، إلى إبداء العداوة والبغضاء لهم ولعنهم.

وقد روى الكليني عن أبي جعفر الباقر أنه قال:"إن الشيخين (أبا بكر وعمر) فارقا الدنيا ولم يتوبا ولم يتذكرا ما صنعا بأمير المؤمنين فعليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين".[٧٧٨] وأضافت بعض الروايات اليهما آخرين من الصحابة وزوجات النبي.[٧٧٩]

وتجلى السب واللعن بصورة سافرة، في بعض عهود الفاطميين (وخاصة في أيام الحاكم بأمر الله) [٧٨٠] الذين جهروا باللعن في القاهرة وكتبوا ذلك على جدران المساجد.[٧٨١]

---

[٧٧٦] – المصدر، كتاب الإيمان والكفر، باب زيارة الإخوان، ح رقم ٢

[٧٧٧] – المصدر، باب تذاكر الإخوان، ح رقم ٢ و ح رقم ٣ و ٤ و ٦ وكتاب الروضة، ح رقم ٢٩٢

[٧٧٨] – المصدر، كتاب الروضة، ح رقم ٣٤٣

[٧٧٩] – المصدر، ح رقم ٥١٤٤ – ١٠

[٧٨٠] – أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي نائبه بدمشق بعقاب رجل مغربي، وضربه والطواف به على حمار، والنداء: هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر، ثم ضربت عنقه. الشكعة، اسلام بلا مذاهب، ص٥٢٣

يقول المقريزي:" دخل الفاطميون الى مصر يرافقهم التعصب لمذهبهم، والتفاني الصريح في حب أهل الكساء (ع) حتى أن المعز "أمر في رمضان سنة ٣٦٢ أن يكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر: خير الناس بعد رسول الله (ص) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب".[٧٨٢]

ولما دخل جوهر (قائد المعز الفاطمي) الى مصر وبنى القاهرة، أذن في جميع المساجد الجامعة وغيرها (حي على خير العمل) وأعلن تفضيل علي بن أبي طالب على غيره، وجهر بالصلاة على الحسن والحسين وفاطمة الزهراء (رض) فقابله الرعية ونادوا: معاوية خال المؤمنين. فأرسل جوهر رجلا الى الجامع فنادى: أيها الناس أقلوا القول ودعوا الفضول، فلا ينطقن أحد الا حلت به العقوبة الموجعة. وفي سنة ٣٧٢ أمر العزيز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية. وفي سنة ٣٨١ ضرب رجل بمصر وطيف به في المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس. [٧٨٣]

لقد قام الفاطميون بذلك، في الوقت الذي كان العباسيون يعترفون بشرعية الخلفاء الثلاثة ويجلونهم ويحترمونهم .

وقد استغل القادر العباسي مسألة سب الخلفاء كنقطة مهمة لتكفير الفاطميين، وإثارة الرأي العام الاسلامي ضدهم.

---

[٧٨١] – يقول فاضل الأنصاري:"نقل عن قيام الخطباء بلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، ونقش فضائل الامام علي بن ابي طالب وذريته على السكة وجدران المساجد، وابطال صلاة التراويح من مساجد مصر وسورية على اعتبار أن عمر بن الخطاب هو الذي ابتدعها". الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ٢٩٥

[٧٨٢] – المقريزي، الخطط ح٤ ص ١٥٦

[٧٨٣] – المقريزي، الخطط ج ٤ ص ١٥٥و١٥٦و١٥٧ وبعد القضاء على الفاطميين، "اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور، يوسعون فيه على عيالهم، ويتبسطون في المطاعم، ويصنعون الحلاوات، ويتخذون الأواني الجديدة، ويكتحلون ويدخلون الحمام جريا على عادة أهل الشام التي سنها لهم الحجاج في أيام عبد الملك. وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسط". المقريزي، الخطط ج٢ ص ٣٨٥

وكما هو معروف، فان العباسيين كانوا في بدايتهم فرقة من "الرافضة" ويتخذون منهم موقفا سلبيا من الخلفاء الثلاثة.[784] ولكنهم بدأوا تدريجيا بالتخلي عن عقيدة الرفض، وتبني التسامح تجاه الخلفاء الراشدين، بل وتقديرهم وتقديسهم، وإعدام من يشتمهم ويلعنهم (كما فعل المتوكل).

وكان الخليفة العباسي المأمون قد حاول ذات مرة أن يكتب كتابا في الطعن على معاوية فقال له القاضي يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين العامة لا تتحمل هذا، ولا سيما أهل خراسان، ولا تأمن أن يكون لهم نفرة. فتراجع عن ذلك.[785]

وحاول المعتضد تكرار ذلك مرة أخرى فكتب كتابا ليقرأ على المنابر بلعن معاوية، ولكنه تراجع هو الآخر أيضا.[786] وهذا ما لم يفهمه الشيعة والفاطميون الذين أصروا على موضوع اللعن فكان عاملا من عوامل انفصالهم عن الجماهير وانعزالهم ومحاربتهم، وسقوطهم في النهاية.

٧-رد فعل المسلمين ضد الشيعة بسبب الغلو واللعن والتكفير

ومع تضخيم العباسيين للخلفاء الثلاثة كرموز مقدسة لهم ولأهل السنة، فان التعدي عليهم بالسب واللعن، كان يعزل الشيعة في غيتوات ضيقة، ويدفع البعض الى اعتبار ذلك جريمة كبرى تستحق التكفير والإخراج من الملة، ويمكن مشاهدة ذلك في المواقف التالية:

١- قول الامام مالك: "الذي يشتم أصحاب النبي (ص) ليس له سهم أو نصيب في الاسلام".[787]

---

[784] - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٥٢، والطبري، ج٦، ص ٤٣و٨٣، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص ٣١٨

[785] - البيهقي، المحاسن والمساوئ، ج١ ص ١٠٨

[786] - الطبري، في حوادث سنة ٢٨٤

[787] - كتاب السنة للخلال، رقم ٧٧٦

٢- قول الإمام أحمد بن حنبل، عندما سئل عن من يشتم أبا بكر وعمر وعائشة، فقال: "ما أره على الاسلام".[٧٨٨]

٣- والبخاري الذي قال: "ما باليت صليت خلف رافضي أو صليت خلف اليهود والنصارى. لا يسلم عليهم، ولا يعادون (من العيادة) ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم".[٧٨٩]

٤- وابن قتيبة الدينوري الذي قال: "إن غلو الرافضة في حب علي المتمثل في تقديمه على من قدمه رسول الله (ص) وصحابته عليه، وادعاؤهم له شركة النبي في نبوته وعلم الغيب للأئمة من ولده، وتلك الأقاويل والأمور السرية قد جمعت الى الكذب والكفر أفراط الجهل والغباوة".[٧٩٠]

٥- والفريابي الذي قال:"ما أرى الرافضة الا زنادقة".[٧٩١]

٦- وعبد القاهر البغدادي الذي قال:" وأما أهل الأهواء من الجارودية والهشامية والجهمية والإمامية الذين كفروا خيار الصحابة.. فإنا نكفرهم، ولا تجوز الصلاة عليهم عندنا ولا الصلاة خلفهم".[٧٩٢]

٧- والقاضي عياض الذي قال:"نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم إن الأئمة أفضل من الأنبياء". والسمعاني الذي قال:"اجتمعت الأمة على تكفير الإمامية، لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة وينكرون أجماعهم وينسبونهم الى ما لا يليق بهم".[٧٩٣]

---

[٧٨٨] - المصدر السابق.

[٧٨٩] - البخاري، خلق افعال العباد، ص ١٢٥

[٧٩٠] - الدينوري، ابن قتيبة، الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، ص ٤٧

http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showpo...66&postcount=6

[٧٩١] - اللالكائي، ج ٨ ص ١٥٤٥

[٧٩٢] - البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق، ص ٣٥٧

[٧٩٣] - القاضي عياض، الأنساب، ٣٤١/٦

٨- وأخيرا وليس آخرا، إبن تيمية الذي استنتج من كل تلك الفتاوى قائلا:" وبهذا يتبين أنهم شر من عامة أهل الأهواء وأحق بالقتال من الخوارج".[٧٩٤]

واختلق بعض محدثي أهل السنة، أحاديث على لسان النبي تدعو لقتل الشيعة، مثل هذا الحديث الذي رواه ابن حجر الهيثمي: "إن عليا قال: قال رسول الله: يظهر في أمتي في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة يرفضون الاسلام"، والذي أخرجه الدار قطني بزيادة أنه قال لعلي: "فإن ادركتهم فاقتلهم فانهم مشركون، قال قلت: ما العلامة فيهم: قال يقرضونك بما ليس فيك ويطعنون على السلف".[٧٩٥]

ولم يتوقف الأمر عند عزل الشيعة في "غيتو طائفي" وانما تعدى الى مهاجمتهم وإحراق دورهم ودكاكينهم ومساجدهم ومكتباتهم، وقتلهم واغتصاب نسائهم، في فتن استعرت في بغداد واصفهان خلال القرون التالية.

يقول ابن خلدون في (تاريخه):" فلما كان سنة إحدى وخمسين وثلثمائة أصبح مكتوباً على باب الجامع ببغداد لعن صريح في معاوية ومن غصب فاطمة فدك ومن منع من دفن الحسن عند جده ومن نفى أبا ذر ومن أخرج العباس من الشورى.

ونسب ذلك إلى معز الدولة. ثم محي من الليلة القابلة فأراد معز الدولة إعادته. فأشار المهلبي بأن يكتب مكان المحو لعن معاوية فقط والظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي ثامن عشر ذي الحجة من هذه السنة أمر الناس بإظهار الزينة والفرح لعبد العزيز من أعيان لشيعة.

وفي السنة بعدها أمر الناس في يوم عاشوراء أن يغلقوا دكاكينهم ويقعدوا عن البيع والشراء ويلبسوا المسوح ويعلنوا بالنياحة وتخرج النساء مسبلات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ولطمن خدودهن

---

[٧٩٤] - ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج ٢٨ ص٤٨٢

[٧٩٥] - الهيتمي، ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص ٣

حزناً على الحسين ففعل الناس ذلك. ولم يقدر أهل السُنَّة على منعه لأن السلطان للشيعة. وأعيد ذلك سنة ثلاث وخمسين فوقعت فتنة بين أهل السُنَّة والشيعة وجرى نهب الأموال".

ويقول ابن كثير في حوادث سنة 354 هـ:"ثم تسلط أهل السُنَّة (الحنابله) على الروافض فكبسوا مسجدهم مسجد "براثا" الذي هو عش الرافضة، وقتلوا بعض من كان فيه من القوم" وتوالت الفتن، كل سنة تقريبا، يهجم عوام الحنابلة على مناطق الشيعة ومساجدهم ويعيثون فسادا.

وفي سنة 362 هـ وقعت فتنة عظيمة راح ضحيتها آلاف الشيعة، و نهبت أموالهم، يقول ابن كثير: "وفيها أحرق الكرخ بغداد...فاحترقت طائفة كبيرة من الدور والأموال من ذلك ثلاثمائة دكان يسترزق منه الشيعة، و ثلاثون مسجدا وسبعة عشر ألف إنسان".[٧٩٦]

الصفويون واللعن

ومن المعروف أن "الصفويين" الذين حكموا بلاد فارس (١٧٢٦-١٥٠١) قد تبنوا سياسة اللعن للخلفاء علنا، حيث كان الشاه الصفوي إسماعيل، يسير في الشوارع والدراويش يلعنون أبا بكر وعمر أمام يديه، ويجبرون الناس على ترديد ما يقولون ومن يرفض يعاقب. مما أثار موجة من الكراهية والتكفير ضد الشيعة في العالم الاسلامي. وقام الأفغان باحتلال عاصمة الصفويين سنة ١٧٢٦ وخلع الشاه حسين وإعدامه. وبعد سقوطهم، حاول الإمبراطور الأفشاري نادر قلي شاه (١٧٤٧-١٧٣٦)، أن يوقف عادة اللعن ويقضي عليها لأنها كانت تسبب التوتر بين رعيته، فعقد مؤتمراً اسلاميا في النجف بتاريخ ٢٥ شوال ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م ضم كبار علماء السُنَّة والشيعة، وتوصل خلاله الى قرار بمنع السب للخلفاء. وتعهد باستحلال دم وأموال وأعراض من يسب الشيخين.

وقد كان موضوع تكفير الشيعة على هذا الأساس محورا رئيسيا في ذلك المؤتمر، حيث سأل ممثل العلماء الشيعة الإيرانيين الملا باشي علي أكبر، محاوريه من علماء أهل السنة: لماذا تكفروننا، ونحن من أهل القبلة؟

---

[٧٩٦] - ابن كثير، البداية و النهاية ج ١١ ص ٢٧٣، تاريخ ابن خلدون ج٤ ص ٤٤٦-٤٤٧

[797] فقال العالم السني المفاوض، الأفغاني هادي خوجة: أنتم تكفرون بسبكم الشيخين، وتكفرون بتضليلكم الصحابة وتكفيركم إياهم، فأعلن الملا باشي تخلي الشيعة عن السب واللعن والإلتزام بالترضي على جميع الصحابة.

ومع ذلك أصر أحد العلماء السُنَّة المشاركين في المؤتمر وهو "بحر العلم" على تكفير الشيعة، وعدم قبول توبتهم.[798] وكاد المؤتمر يفشل لولا تدخل مفتي الأحناف الملا حمزة، وإعلانه قبول علماء السُنَّة لالتزام علماء الشيعة بعدم سب الصحابة مستقبلا، وإعادة الاعتبار اليهم والاعتراف بهم كفرقة من الفرق الاسلامية. [799]

ورغم عدم قيام كثير من الشيعة بسب الخلفاء الراشدين، والتزامهم بالترضي على الصحابة، ولا سيما بعد قيام الجمهورية الاسلامية الايرانية، وتبنيها لسياسة الوحدة الاسلامية، إلا أن ظاهرة السب واللعن لم تختف تماما من بين صفوف الشيعة، وظلت تتأجج بقصص وحكايات عن ضرب عمر للزهراء وإشعال النيران في بابها واسقاط جنينها، وما الى ذلك. وهو ما ساهم ويساهم في عزل الشيعة بصورة عامة في غيتو طائفي، فضلا عن تكفيرهم وإعلان الحرب عليهم، من قبل بعض الأوساط المتشددة من "أهل السنة".

وهناك بالطبع أسباب سياسية أخرى، تدفع بعض الحكومات السنية المستبدة، لاتخاذ موضوع (اللعن) مادة لمحاصرة الشيعة والتمييز ضدهم، وعزلهم والتضييق عليه، ومحاربتهم.[800]

---

[797] – السويدي، عبد الله بن حسين بن مرعي العباسي (١١٧٤هـ)، الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية، ص ١٩ – ٢٠ المكتبة الحلبية بمصر، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ (١٩٠٥) / صورة منه على المكتبة الوقفية على شبكة الانترنت

[798] – المصدر، ص ٢١

[799] – المصدر، ص ٢١

[800] – السامرائي، سعيد، الطائفية في العراق الواقع والحل (١٩٩٣) ص ٢٤٦ مؤسسة الفجر، لندن ط١، ١٩٩٣

الفصل الثاني

تحول المذاهب السنية الى طوائف

التعصب والصراع بين المذاهب السنية

قبل أن تتحول الحركة السياسية الشيعية الى "طائفة"، كانت المدارس الفكرية والفقهية السنية تتصارع ليس مع الشيعة فقط وإنما فيما بينها أيضا. فقد اشتد الخلاف بين المرجئة والقدرية والمعتزلة والجهمية، وحاول الأمويون قمع بعض التوجهات الفكرية المعارضة لهم، فقام والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بقتل معبد الجهني الذي كان يرفض القول بالقدر، صبرا، سنة ٨٨ هـ، وأفتى عبد الرحمن الأوزاعي بقتل غيلان الدمشقي وقطع يديه ورجليه، لنفس السبب. وأمر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، واليه على العراق خالد بن عبد الله القسري، بقتل الجعد بن درهم سنة ٩٩ فقام بذبحه يوم عيد الأضحى بعد الصلاة مباشرة. وكذلك قام بقتل الجهم بن صفوان لأنهما كانا ينفيان الصفات عن الذات الإلهية ويقولان بخلق القرآن.

وقام الامام أحمد بن حنبل بتكفير المعتزلة ووصفهم بالزنادقة، وكل من يقول بخلق القرآن.[٨٠١] وهكذا تحول أتباعه، في القرن الرابع، إلى طائفة متعصبة في بغداد، يهاجمون الشيعة والشافعية، ويضيقون ذرعا حتى بالامام محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) لمجرد نفيه التجسيم عن الله ورفضه لمقولة "جلوس النبي محمد مع الله على العرش" كما كان يقول الحنابلة، وذلك عندما كتب على باب داره: (سبحان من ليس له أنيس وليس له جليس) فهاجم الحنابلة بيته ورموه بالحجارة، ولم تنقذه إلا فرقة من الشرطة، وعندما مات منعوا تشييعه فدفن في بيته.[٨٠٢]

---

[٨٠١] - ابن الجوزي، مناقب ابن حنبل، ص ٢٠٧

[٨٠٢] - ابن الأثير، الكامل، ج١ ص ١٧١، وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١ ص ١٤٥

وذكر ابن كثير في تاريخه عن حوادث سنة ٣٦٣هـ التي وقعت في بغداد بين الشيعة و"أهل السنّة" بمناسبة يوم عاشوراء، فقال: "إنّ جماعة من "أهل السنّة" أركبوا امرأة سمّوها عائشة، وتسمّى بعضهم بطلحة، وبعضهم بالزبير، وقالوا: نقاتل أصحاب علي (عليه السلام)، فقتل بسب ذلك خلق كثير".[٨٠٣]

ولم يقتصر التعصب الطائفي على الحنابلة، وانما تفشى التعصب الشديد في بغداد، لمذهب أبي حنيفة، حتى أن الخليفة القادر بالله أراد تولية عهد القضاء لقاض شافعي، في أواخر القرن الرابع الهجري، فثار الأحناف، ووقعت الفتن فاضطر الخليفة إلى إرضائهم وعزل القاضي الشافعي، وأحل محله قاضيا حنفيا. [٨٠٤]

وبالنسبة للمالكية، فقد تحول الامام مالك، بعد وفاته، في نظر أتباعه من المصريين الى شخص مقدس، كانوا يتبركون بقلنسوته ويطلبون البركة ونزول المطر بها، وعندما استنكر الامام الشافعي ذلك ونهاهم عنه، قاموا بالتظاهر ضده مطالبين الوالي بإخراج الامام الشافعي من مصر، مما أجبر الوالي على قبول طلبهم خوفا من الفتنة واتساعها، لكن الوالي توفي قبل أن ينفذ قراره. [٨٠٥]

ومن مظاهر ذلك التعصب الطائفي، المبالغة في تعظيم معاوية والدفاع عن جرائم ابنه يزيد، ويذكر أن الامام الحافظ عبد الرحمن النسائي (٣٠٣هـ)، ألف كتابا في (فضائل الصحابة)، فسئل في دمشق: ماذا أخرج في كتابه عن معاوية؟ فقال: أي شئ أخرج؟ "الله لا تشبع بطنه"؟، فضرب في المسجد، وأخرج منه، وديس على خصيتيه مما أدى الى وفاته. [٨٠٦]

---

[٨٠٣] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣١٢

[٨٠٤] – حسين عبد الأمير يوسف، نشأة المذهب الشافعي وتطوره تاريخيا، ص ١٥٧ دار ومكتبة البصائر، بيروت ٢٠١٢ الطبعة الأولى

[٨٠٥] – المصدر، عن ابن حجر العسقلاني، توالي التأسيس، ص ٨٤

[٨٠٦] – ابن كثير، البداية والنهاية، والذهبي،

وبالنسبة ليزيد بن معاوية، فقد توقف أبو حامد الغزالي في لعنه وسبه، وشكك بقتله للحسين، وهوّن من مسألة القتل فاعتبرها أدنى من الكفر، واحتمل توبة يزيد، وتوصل الى عدم جواز لعن أحد ممن مات من المسلمين بعينه، وأفتى بفسق من لعنه وعصيانه لله تعالى.[٨٠٧] وقال إبن الصلاح:"إن قاتل الحسين لا يكفّر بذلك، وانما ارتكب إثما".[٨٠٨] وقد اشتهر الفقيه المالكي القاضي إبن العربي بالدفاع عن يزيد، واعتباره واحدا من الزهاد والتابعين "الذين يقتدى بقولهم ويرعوى من وعظهم".[٨٠٩] وتبريره لقتل الحسين بقوله:"ما خرج اليه أحد الا بتأويل، ولا قاتلوه الا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل... "انها ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان" فما خرج الناس إلا بهذا وأمثاله".[٨١٠]

تفكك الوحدة السنية

وكما رأينا في الباب الثالث، فإن الخليفة العباسي القادر، حاول أن يشكل جبهة سنية موحدة، في مقابل البويهيين والفاطميين، ولكن ما أن ذهب خطر هؤلاء بعيداً، حتى تفككت الوحدة السنية، حيث انتفض المعتزلة سنة ٤٦٠ في بغداد، بقيادة إبن الوليد محمد بن أحمد بن عبد الله الكرخي (٤٧٨هـ) الذي عزم على إظهار الاعتزال، بتحريض من جماعة من أهل مذهبه، مما اضطر جمعا من الفقهاء وأهل الحديث الى الطلب من الخليفة القائم وسؤاله باخراج "الاعتقاد القادري" وقراءته، واتفقوا ومعهم الخليفة على لعن من خالفه وتكفيره.[٨١١]

---

[٨٠٧] - ابن طولون، شمس الدين، قيد الشريد من أخبار يزيد، ص ٥٧ - ٥٩ دار العلوم للطباعة، القاهرة.

[٨٠٨] - المصدر، ص ٦٠

[٨٠٩] - وذلك اعتمادا على نقل الامام أحمد بن حنبل خطبة ليزيد ابن معاوية في كتابه: الزهد. ابن العربي، أبو بكر (٥٤٣ هـ) العواصم من القواصم، ص ٣٣٩ تحقيق الدكتور عمار طالبي ١٩٧٤، مكتبة دار التراث، القاهرة

[٨١٠] - ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٣٣٨

[٨١١] - راجع: ابن عماد الحنبلي عبد الحي بن أحمد (- ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٣٦٣/٣ وابن كثير، البداية والنهاية ٩٦/١٢ وكانت التوترات بين المذاهب السنية الحنفية والمالكية والشافعي والحنبلية، تشتعل هنا وهناك

وأصدر القاضي الحنبلي الشريف أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى فتوى بإهدار دم الإمام أبي الوفاء علي بن عقيل سنة ٤٦١ لاتهامه بالنزوع الى الاعتزال. مما دفعه الى الهرب أربع سنين، وعدم الظهور إلا بعد إعلان توبته أمام حشد من الناس وبتوقيع الشهود عليه.[٨١٢]

وتفجر الصراع بين المذاهب السنية، في ظل خلافة المقتدي محمد بن القائم (٤٦٧ – ٤٨٧) وفي زمن السلطان السلجوقي (الحنفي) طغرلبك، حيث قام وزيره (المعتزلي الحنفي) محمد بن منصور الكندري (٤٥٦هـ) بشن حملة إعلامية شعواء ضد الأشاعرة والشافعية، واعتبارهم مبتدعين، ولعنهم على المنابر بسبب "خروج أبي الحسن الأشعري مؤسس المذهب على طريقة السلف في مسألة صفات الله". ومنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس، وعزلهم عن الخطابة بالجامع، وتسبب ذلك في فتنة طائفية كبرى طار شررها فملأ الآفاق، وطال ضررها فشمل خراسان والشام والحجاز والعراق. وحسبما يقول الدكتور طه جابر العلواني: فان "السلاجقة الأتراك حين سيطروا على العراق وتحكموا في مقاليد بغداد اضطهدوا سائر الفرق والمذاهب الإسلامية التي لا تتبنى توجههم "الماتريدي" في العقائد والحنفي الخاص في الفقه. وقد أصاب الأشاعرة

بين فترة وأخرى، كما هو الحال في مصر والعراق وفارس، وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي، عند الحديث عن اصفهان: وقد فشا الخراب في نواحيها، لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية، والحروب المتصلة بينهما، فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى، وأحرقتها وخربتها، لا يخافون في ذلك إلا ولا ذمة. قال تاج الدين السبكي (–٧٧١) في (طبقات الشافعية الكبرى): وقعت فتنة بين الحنفية والشافعية في نيسابور، ذهب تحت هياجها خلق كثير، وأحرقت الأسواق والمدارس، وكثر في الشافعية، فانتصروا بعد ذلك على الحنفية، وأسرفوا في أخذ الثار منهم في سنة ٥٥٤.

[٨١٢] – يذكر الامام زين الدين الحنبلي في (طبقات الحنابلة) وابن قدامة المقدسي في (تحريم النظر في كتب الكلام) فتوى القاضي ابن عيسى، باهدار دم ابن عقيل سنة ٤٦١ وهروبه أربع سنوات، وبينما كان مسافرا في سفينة سمع رجلا يقول: تمنيت لو لقيت هذا الزنديق ابن عقيل حتى اتقرب الى الله تعالى بقتله واراقة دمه. ففزع ابن عقيل من هذا الوعيد الرهيب، فأسرع الى اعلان توبته امام حشد من الناس، وبتوقيع الشهود عليه، ومما قاله في محضر توبته: اني أبرأ الى الله تعالى من مذاهب المبتدعة: الاعتزال وغيره، ومن صحبة اربابه وتعظيم اصحابه، والترحم على أسلافهم والتكثر بأخلاقهم، وما كنت علقته ووجد بخطي من مذاهبهم وضلالتهم، فأنا تائب الى الله سبحانه وتعالى من كتابته وقراءته، وانه لا يحل لي كتابته ولا قراءته ولا اعتقاده... ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام. ابن قدامة، تحريم النظر، ص ٣٣

والمذاهب السنية الفقهية المغايرة لهم عنت كبير، وعرفت بغداد في عهدهم عقوبة إعدام كتب المخالفين لمذهب الدولة حرقاً. قبل أن يمارس المغول ذلك في إغراق كتب العلم في نهر دجلة بعد قرنين من الزمان". [٨١٣]

الفتنة بين الحنابلة والشافعية

وقدم شيخ الشافعية ابن القشيري الى بغداد، فأخذ يذم الحنابلة، وينسبهم الى التجسيم، مما تسبب في تفجر الخلاف بين الحنابلة والشافعية (الأشاعرة)، في سنة ٤٦٩ حيث دار قتال عنيف بينهم، فأمر الخليفة المقتدي الوزير نظام الملك (الذي كان شافعيا) أن يصلح بين الحنابلة وابن القشيري، فقال الشريف ابو جعفر بن ابي موسى الحنبلي للوزير: أي صلح يكون بيننا؟ انما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دنيا أو تنازع في ملك، فأما هؤلاء القوم فانهم يزعمون أننا كفار، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كان كافرا، فأي صلح بيننا، وهذا الامام مفزع المسلمين وقد كان جداه القائم والقادر أخرجا اعتقادهما للناس، وقرئ عليهم في دواوينهم وحمله عنهم الخراسانيون والحجيج الى اطراف الأرض ونحن على اعتقادهما. [٨١٤]
وكذلك ينقل عن ابن القشيري نفس القول تجاه الحنابلة. [٨١٥]

وأفتى القاضي أبو الحسين محمد بن محمد بن أبي يعلى الفراء (الحنبلي) (٤٥١-٥٢٦) في كتابه (الاعتقاد) بوجوب هجران الأشاعرة فيمن أوصى بهجرهم من أهل البدع والضلال.

وعندما استوزر السلاجقة الوزير الشافعي (نظام الملك) قام بانقلاب على سائر المذاهب السنية ودعم الشافعية في مواجهتهم، وقرب أبا إسحاق إبراهيم الشيرازي (٤٧٦هـ) وإمام الحرمين أبا المعالي عبد

---

[٨١٣] - موقع الوحدة: http://www.alwihdah.com/view.asp?cat=1&id=1480

[٨١٤] - آل عبد اللطيف، عبد العزيز، ص ٢٦٠ مجلة أم القرى. (البداية ١٢/ ١١٥ وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢١ والمنتظم ١٦/ ٢١٠

[٨١٥] - ابن عساكر الدمشقي (-٥٧١) تبيين كذب المفتري فيما نسب الى أبي الحسن الأشعري، ص ١٠٨ موقع خزانة المذهب الشافعي

الملك بن عبد الله الجويني (٤٧٨هـ) وبنى لهما المدرسة النظامية. [٨١٦] وحاول الشافعية احتكار المذهب السني في ظل السلاجقة في القرن الخامس الهجري، حيث كانوا يحصرون الدخول للمدرسة بأتباع المذهب الشافعي، ويهاجمون الأحناف والحنابلة والمالكية، فضلا عن الشيعة والمعتزلة.

كما عمد السلاجقة الى تشجيع المتصوفة والعناية بهم وإنشاء الربط لهم، لترويج الانصراف للعبادة الخالصة والزهد في الحياة والابتعاد عن السياسة وشؤون الدنيا من جهة أخرى. [٨١٧]

وظلت الخلافات الطائفية مستعرة بين الأحناف والشافعية والحنابلة، إلى وقت طويل، حيث كان محمد بن موسى، قاضي دمشق الحنفي (٥٩٧هـ) يقول: "لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الشافعية الجزية". [٨١٨] فيما كان الفقيه الشافعي أبو حامد الطوسي، المتوفى في نفس العام يقول:" لو كان لي الأمر لوضعت على الحنابلة الجزية" وعندما كان يسأل عن زواج الحنفي بشافعية يقول:" لا يجوز لأنه يشك في إيمانها" أو " يجوز قياسا على الكتابية". [٨١٩] أما أهل الأندلس فكانوا مالكية يطردون من الأندلس الحنفي

---

[٨١٦] – افتتحت المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٩٥ وأنشأ الوزير نظام الملك مدارس عديدة على غرارها في مدن أخرى مثل البصرة ومرو والموصل وهراة ونيسابور واصفهان وغيرها لخدمة مصالح الدولة السلجوقية ومحاربة التشيع والاعتزال عن طريق التعليم. ورغم تمذهب السلاجقة عموما بالمذهب الحنفي، فقد كان الوزير نظام الدين شافعيا اشعريا، لذلك كانت من شروط القبول في المدرسة النظامية أن يكون الطالب شافعيا أصلا وفرعا...ومن بين العوامل التي أملت انشاء تلك المدارس حاجة الدولة الى الموظفين من عمال وقضاة وكتاب، وقد ضمن الوزير عن طريقها كفاءات هامة تطيع أوامره. كما يقول الدكتور فاضل الأنصاري، في قصة الطوائف.. الاسلام بين المذهبية والطائفية (٢٠٠٠) ص ٢٦٥ دار الكنوز الأدبية بيروت لبنان، ط١

[٨١٧] – الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ٢٦٥ – ٢٦٦

[٨١٨] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢ ص ١٨٧

[٨١٩] – ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٤ ص ٢٢٤

والشافعي والحنبلي اذا وفد عليها، فان كان معتزليا فربما قتلوه. ولهذا أفتى البعض بتعزير من يترك مذهبا لمذهب، من باب سد الذريعة. [٨٢٠]

ويحدثنا القاضي أبو بكر بن العربي عن جانب من ظاهرة التعصب الطائفي في المغرب والأندلس، فيقول:"كان سبب ذلك أن الفتن لما ضربت رواقها وتقاتلت العباسية والأموية، وبعدت أقطار الاسلام وتعذر ضبطها بالنظام، وانتشرت الرعية، نفذ إلى هذه البلاد (الأندلس أو المغرب) بعض الأموية، فألفى هاهنا عصبية فثاروا به، وأظهر الحق وقال: أحمي السنة، فلا فقه إلا فقه أهل المدينة، ولا قراءة إلا قراءتهم، فألزم الناس العمل بمذهب مالك والقراءة على رواية نافع، ولم يمكنهم من النظر والتخيير في مقتضى الأدلة، متى خرج ذلك عن رأي أهل المدينة، وذلك لما رأوه من تعظيم مالك لسلفهم، ولما أرادوه من صرف قلوب الناس اليهم، في تعلقهم بسيرة حرم رسول الله ودار نبوته ومقر سنته، فصار التقليد دينهم والاقتداء يقينهم، فكلما جاء أحد من المشرق بعلم، وقعوا في صدره وحقروا من أمره، إلا أن يستتر عندهم بالمالكية، ويجعل ما عنده من علوم على رسم التبعية... وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم إلا عند آحاد... واستمر القرون على موت العلم وظهور الجهل، فكل من تخصص لم يقدر على أكثر من أن يتعلق ببدعة الظاهر، فيقول: اتبع الرسول، فكان هذا عونا على الباطل، وذلك بقدر الله وقضائه". [٨٢١]

ويقول المقريزي:"إن المعز بن باديس حمل جميع أهل إفريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه من المذاهب. فرجع أهل افريقية وأهل الأندلس كلهم الى مذهب مالك إلى اليوم رغبة فيما عند السلطان وحرصا على طلب الدنيا". [٨٢٢]

ويحدثنا المقريزي عن تعصب السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي حمل الكافة على عقيدة أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، وشرط ذلك في أوقافه.. فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر والشام

---

[٨٢٠] – الجندي، عبد الحليم، الامام جعفر الصادق، ص ٢٥٦

[٨٢١] – ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٣٦٥ – ٣٦٦

[٨٢٢] – المقريزي، الخطط ج٤ ص ١٤٤

والحجاز واليمن والمغرب حتى صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد، بحيث أن من خالفه ضرب عنقه، والأمر على ذلك الى اليوم. [٨٢٣]

وانعكس الخلاف الطائفي على الشارع، فكثرت الفتن والحروب الطائفية هنا وهناك، وكما ينقل ياقوت الحموي في "معجم البلدان" فان العصبية وقعت في أهل الري، وبعد أن هاجم الأحناف والشوافع الشيعة، بحيث لم يتركوا من الشيعة من يعرف، وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية فكان الظفر للشافعية مع قلتهم فخربت محال الشافعية والحنفية وبقيت الشافعية، وهي أصغر محال الري، ولم يبق من الشيعة والحنفية الا من يخفي مذهبه. [٨٢٤]

ونظرا لتفشي التعصب والصراع بين المذاهب السنية، في ذلك الزمان، فقد اشتهر على الألسن قول المعتزلي الزمخشري محمود بن عمر (٥٣٨هـ):

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به وأكتمه..... كتمانه لي أسلم

فإن حنفيا قلت، قالوا: بأنني أبيح الطلى،وهو الشراب المحرم

وإن شافعيا قلت، قالوا بأنني أبيح نكاح البنت، والبنت تحرم

وإن مالكيا قلت، قالوا بأنني أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم

وإن حنبليا قلت، قالوا: بأنني ثقيل .. حلولي..بغيض.. مجسم

وإن قلت من أهل الحديث وحزبه يقولون تيس ليس يدري ويفهم

[٨٢٣] – المقريزي، الخطط ج ٤ ص ١٦١

[٨٢٤] – حسين عبد الأمير يوسف، نشأة المذهب الشافعي وتطوره تاريخيا، ص١٥٩

واستمر التعصب والانطواء الطائفي بين أبناء المذاهب السُنّيّة الى وقت قريب، حيث كان أتباع كل مذهب يصلون في ناحية من المسجد، وحتى في المسجد الحرام، وربما لا يزال هنالك من يرفض الصلاة خلف المخالف مذهبيا، الى الآن، مما دفع الشيخ محمد سعيد البوطي (٢٠١٣م) الى الحديث عن هذا الأمر وإدانته قائلا:"لقد ظهر أخيرا في بعض البلدان ولدى فريق من الناس ما يخالف هذا الحق (جواز الصلاة خلف المخالف مذهبيا) المتفق عليه" واعتبره "امتداداً للتعصب السيئ الذي لا وجه له في الدين" وقال:"يجب تحذير المسلمين منه بكل وسيلة. ان تعدد المحاريب في المساجد وتسمية كل محراب منها باسم مذهب من المذاهب الأربعة أسوأ مظهر يتجسد فيه التخريب المقيت الذي لا معنى له ولا مسوغ، وإن ما يفعله بعض العوام من الانزواء في طرف من المسجد وصلاة الجماعة قائمة تؤدى أمام عينيه لا يمنعه من القيام اليها إلا أن الامام ينتمي الى غير مذهبه فهو ينتظر إمامه الذي من حزبه لا يقتدي بغيره ولا يرى أن صلاته تصح إلا من ورائه. نقول: إن هذا الذي شاع عند كثير من العوام أو من يتسم بسمة العلم شئ لا يستند الى أي أصل من أصول الدين، وما أجمع الأئمة والعلماء في كل عصر وزمن الا على خلافه، وما يمسك الناس على هذه العادة إلا شيئان أثنان: تعصب لا وجه له من هؤلاء الناس، وتنفيع لأناس توارثوا مثل هذه الوظائف واعتادوا نيل جراياتها والاستفادة منها". [٨٢٥]

ويلاحظ الباحث حسين يوسف تأثر أغلب المؤلفات الفقهية بالعصبية المذهبية، وهو ما سبب قلة عرضها لأدلة الأحكام الفقهية من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية والاجماعات المعتبرة والصحيحة. [٨٢٦]

الفصل الثالث

---

[٨٢٥] – البوطي، محمد سعيد (٢٠١٣) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الاسلامية (١٩٦٩) ص ٥٢ –٥٣ ط ١٠ دار الفارابي دمشق ١٩٨٥

[٨٢٦] – حسين ، نشأة المذهب الشافعي وتطوره تاريخيا، ص ١٤٦

مظاهر التعصب الطائفي وأسبابه

المبحث الأول:مظاهر التعصب الطائفي

بعد تحول الحركات السياسية والمدارس الفقهية والفكرية، الى طوائف شعبية تتوارث الصفة المذهبية "الطائفية" جيلا بعد جيل، كما تتوارث القبائل والقوميات والشعوب عناوينها، بعيدا عن مضامين تلك الحركات الثورية وتلك المدارس العلمية الفكرية والفقهية، وروحها السياسية والدينية والأخلاقية، انحدرت الأمة الاسلامية درجات أخرى ، بعيدا عن القيم الاسلامية الأصيلة، كروح الأخوة والمحبة والرحمة والعدل والتعاون والاخلاص والتواضع والإيثار، لتستبدل بمواقف الشك والريبة والكراهية والعداوة والتفسيق والتضليل والتكفير والعدوان والاستئثار. وولد "الانسان الطائفي" الممسوخ المشحون بالعقد والأزمات النفسية، المناقض لصورة الإنسان المؤمن الذي يريده الله تعالى.

وتحتدم المشاعر الطائفية العمياء، أحيانا بدافع الخوف من الآخر، بعد حدوث حروب ومجازر، وعمليات انتقام طائفي جماعي، فلا يعود المرء يفرق بين أبناء الطائفة الأخرى، ويتعصب لأبناء طائفته مهما ارتكبوا من أخطاء أو مجازر. وهنا تختفي النظرة الموضوعية الفردية والنسبية للناس لتحل محلها نظرة شمولية عامة سوداء تحكم على الطائفة الأخرى كلها بالاجرام والعنصرية والطائفية والفسق والتبديع والتضليل والتكفير، وما يستتبع ذلك من مواقف سلبية.

ويمكننا تسجيل عدة ملامح للانسان الطائفي، على مختلف المستويات:

١- فعلى المستوى النفسي: فيما يتعلق بالهوية ، يقدم "الطائفي" الهوية الطائفية أولاً، ويتخلى نفسيا عن شعور الأمة الواحدة الذي يأمر به الله تعالى "وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون".(الأنبياء، ٩٢) كما يفضل اسم الهوية الطائفية على اسم "المسلم" الذي سمى الله به المسلمين "هو سماكم المسلمين". (الحج، ٧٨) ولا يعود ينظر إلى الناس حسبما يقسمهم القرآن (في الصفحات الأولى من سورة البقرة) الى مؤمنين ومنافقين وكفار، بل يجمع بين هؤلاء الأصناف الثلاثة في خانة واحدة ويقسمهم الى "سنة" و"شيعة" أو أية طائفة أخرى.

٢- وعلى المستوى الأخلاقي: لا يلتزم "الطائفي" بالحق والعدل، كما أمر الله تعالى " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى". (الأنعام ١٥١- ١٥٢) "ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى". (المائدة، ٨) فهو "الطائفي" لا يميز بين الحق والباطل، أو ينحاز الى الباطل ضد الحق، على العكس من المؤمن الحقيقي "اللاطائفي" الذي يتبع الحق أينما كان ويعامل الناس بالحق، ولا ينظر الى هوياتهم الطائفية.

وعلى رغم أن الله عز وجل يحض على التعامل مع الناس بعدل على أساس المسؤولية الفردية، وعدم تحميل الأبرياء مسؤولية المجرمين، كما يقول تعالى في أربع آيات متشابهة في القرآن الكريم: " ولا تزر وازرة وزر أخرى". (فاطر ١٨) فان "الطائفي" ينتهج أسلوب العقاب الجماعي بصورة عمياء ضد أبناء الطائفة الأخرى، فيما لو حدثت جريمة بحق واحد أو أكثر من أبناء طائفته، وهذه عادة قبلية جاهلية لا تزال موجودة أيضا في بعض القبائل البدوية غير المتحضرة، حتى في داخل الطائفة الواحدة، حيث يقومون بالانتقام من أفضل وأعلم رجال القبيلة الأخرى، لو وقع على أحدهم عدوان من تلك القبيلة، دون الذهاب الى المحاكم أو محاسبة المجرم بصورة شخصية.

٣- ومن أهم سمات "الطائفي" اللا أخلاقية: التطفيف في الميزان، والكيل بمكيالين خلافا لقول الله تعالى: "ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" (المطففون، ١-٣)، فهو يهتم جدا بالتباكي على المآسي والكوارث والاعتداءات التي تتعرض لها طائفته، ولا يكترث أبدا تجاه ما يحدث للآخرين ويحاول انكاره أو نسيانه. كما انه يقرأ التاريخ دائما بعين عوراء فيفتخر بما أنجزت طائفته، ويتناسى مواقف الطائفة الأخرى الوطنية، وفي نفس الوقت ينسى ما اقترف رجال من طائفته من خيانات وجرائم، وينبش من أعماق التاريخ مواقف يصفها بالخيانية لرجال من الطائفة الأخرى، سواء كانت صحيحة أم كاذبة، ويحاول تعيير خصومه بها.

٤- وعلى المستوى الثقافي: يتعصب "الطائفي" لكل ما لديه من تراث، ولا ينظر إذا ما كان صوابا أو خطأ، خلافا لما يطلب الله تعالى من المؤمنين "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه"، فتراه يدافع باستماتة عن أفكار ونظريات وطقوس ومصادر طائفته الثقافية، في حين يهاجم أفكار ونظريات وطقوس ومصادر

الطائفة الأخرى، ولا يمانع أيضا، أو لا يستطيع أن يميز بين أقوال رجال الطائفة الأخرى وفرقها المختلفة البائدة والمعاصرة، والرئيسية والهامشية، والعامة والشاذة، والحقيقية والملفقة. انه يمارس نقد الآخرين بجرأة، ولكنه يتردد أو يرفض أن يمارس النقد الذاتي.

وهو في حين يقدس رموزه وزعماءه وأئمته، ويدافع عنهم، ويبرئهم من جرائمهم، يقوم بلعن رموز الطائفة الأخرى وأئمتها، والاستهانة بهم ونقدهم ومهاجمتهم.

٥- وعلى المستوى النفسي: يتصف "الطائفي" بالغرور والجهل المركب، فيحسب أنه على الحق مائة بالمائة، وانه من "الفرقة الناجية" وأن الطائفة الأخرى من الفرق الاثنتين والسبعين الضالة التي تدخل النار[٨٢٧]، كما وصف الله اليهود والنصارى:"وقالت اليهود ليست النصارى على شئ، وقالت النصارى ليست اليهود على شئ، وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون". (البقرة، ١١٣) ومن المعلوم أن هذا الغرور يقود الى الاستعلاء على الآخرين وتكفيرهم وتفسيقهم وتضليلهم والتحريض على قتلهم.

وكما يقول سعيد السامرائي:"تصل مشاعر الطائفي الى نقطة اللاعودة عندما يحكم على الآخرين بالخسران المبين، ولا يعود هناك في نظره فائدة ولا أجر ولا ثواب من الانفتاح عليهم والتواصل معهم، اللهم الا في المستوى الخارجي المنافق، وحسب ما تقتضيه مصالحه التجارية أو الوظيفية أو غيرها".[٨٢٨] وانه "الشخص الذي يحمل بين جنباته تلك المشاعر المرة المبنية على أسس واهية مبنية على جهل الأهل والمربين أو التوجيه الخبيث للحكام المتسلطين، أو كليهما، ويحمل هذه المشاعر تجاه أخيه المسلم مع انه يضحك في

---

[٨٢٧] – كما يقول ابن تيمية مثلا: ان جميع المسلمين في النار الا أهل السنة، فهم الفرقة الوحيدة الناجية، وان أهل السنة لم يتفقوا قط على خطأ، ولا يتفقون على ضلالة، وما خالفتهم طائفة على أمر اتفقوا عليه الا والصواب معهم والخطأ مع غيرهم. وقد صنف ابن تيمية كتبا في الشيعة منها "جواز قتال الرافضة" و "منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية". الأنصاري، قصة الطوائف..ص ٣٤٤

[٨٢٨] – السامرائي، سعيد، الطائفية في العراق الواقع والحل (١٩٩٣) ص ٤٥

وجهه صباح مساء، ويشاركه أفراحه وأتراحه، ويشاركه التجارة والسفر والعمل بسبب الجيرة أو زمالة العمل أو مقاعد الدراسة".[829]

٦- وعلى المستوى الثقافي يتعصب "الطائفي" لأفكار طائفته ونظريات أئمته مهما كانت، ويحاول تأويل النصوص القرآنية لكي تتماشى مع عقائد وفتاوى طائفته، كما ينقل عن مفتي العراق شيخ الحنفية في القرن الرابع الهجري عبد الله (عبيد الله) بن الحسين بن دلال الكرخي (٣٤٠هـ) قوله:" الأصل في كل آية تخالف قول أصحابنا، فإنها تحمل على النسخ، أو على الترجيح،، والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق. والأصل أن كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا، فإنه يحمل على النسخ، أو على أنه معارض بمثله، ثم صار الى دليل آخر، أو ترجيح فيه بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح، أو يحمل على التوفيق".[830]

٧- وعلى المستوى الشرعي والفقهي، يقوم "الطائفي" بإضفاء الطابع الديني على البدع والخرافات والأساطير، والافتاء باستحبابها أو وجوبها، واختلاق أحاديث تؤيد مواقف طائفته، وتبريرها بشتى الوسائل مهما كانت لا عقلانية ومخالفة للقرآن الكريم. ويغلق باب النقد والتحليل والمراجعة على نفسه، فليس هناك أفضل مما كان. وقد اعتبر محمد بن عبد الوهاب "الرافضة" مشركين، بناء على حديث رواه بحقهم عن النبي (صلى الله عليه وآله) يقول فيه:" يا علي سيكون في أمتي قوم ينتحلون حب أهل البيت لهم نبز يسمون الرافضة، قاتلوهم فانهم مشركون". [831]

---

[829] - المصدر

[830] - الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ١٩١ والعشماوي، محمد سعيد، الاسلام السياسي، تاريخ التشريع الاسلامي، ص ٢٩٢

[831] - وقد بنى اتهاماته تلك، التي كفر على أساسها الشيعة، على أقوال بعض كتاب ومتكلمي الامامية السابقين، كالمفيد والصدوق والكشي والحلي، و بعض الروايات التي وجدت في كتبهم الحديثية والكلامية، والتي لم يقولوا بصحتها جميعا .

٨- وعلى المستوى الإعلامي: يقوم "الطائفي" لدى احتدام المعارك السياسية في بعض البلاد، بالكذب والافتراء والبهتان وتلفيق الاشاعات والنبز بالألقاب، وتجريد المواطنين من الطائفة الأخرى، من هوياتهم الوطنية والقومية، واتهامهم بالانتماء الى بلد آخر أو قومية أخرى، خلافا لقول الله تعالى "ولا تنابزوا بالألقاب" أو "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" . [٨٣٢]

٩- وعلى المستوى السياسي: يتسم "الطائفي" بالاستكبار في الأرض، ومحاولة احتكار السلطة له ولطائفته، وإقصاء أبناء الطائفة الأخرى من جميع المناصب والإدارات، وتهميشهم، وهي سياسة متبعة في كثير من البلاد العربية والاسلامية، وخصوصا في الحكومات "الدينية" التي تضلل وتبدع الطوائف الأخرى، حتى لو كان أبناء تلك الطوائف أكثرية أو أقلية. فضلا عن ممارستها لسياسة التطهير الطائفي والتسفير والتهجير، وتجنيس الأجانب من الطائفة الأخرى، كما فعل صدام حسين في السبعينات والثمانينات في العراق، وكما تفعل حكومة البحرين هذه الأيام. فان "الدولة الطائفية تجعل النسيج الاجتماعي يهترئ وخيوطه تتقطع. وكلما زاد التمييز والاضطهاد الطائفي كلما ضعف النسيج الاجتماعي، وهو ما حصل في فترات معينة من تاريخ العراق الحديث". [٨٣٣]

---

[٨٣٢] - وقد رأينا ذلك عندما كتبت صحيفة "الثورة" في عدد من افتتاحياتها عقب انتفاضة آذار ١٩٩١ (ويقال ان الكاتب كان صدام حسين نفسه) بأن "المعدان" (وهو مصطلح يحمل احتقارا لعرب الأهوار، والجنوب بصورة عامة) بأنهم من أصول هندية، جاء بهم محمد القاسم من الهند مع الأبقار أيام الفتح الاسلامي. السامرائي، الطائفية في العراق الواقع والحل، ص ٥٠ وتكررت نفس الاتهامات عام ٢٠١٢ من على منابر "الحراك الشعبي" السني المعارض، الذي كان يصف حكومة المالكي بأنها صفوية وفارسية، وأعاد تنظيم "داعش" نفس الاسطوانة العنصرية عندما احتل الموصل وتكريت بأنه جاء ليقاتل الروافض الفرس الصفويين. انظر أيضا: عبد الرزاق الحصان في كتابه "العروبة في الميزان" الذي نشر في الثلاثينات من القرن العشرين، وجاء فيه:" ان الشيعة شعوبيون بالاجماع، فرس بالاجماع، وهم من بقايا الساسانيين في العراق، ولا حق لهم في السلطة، أو في تمثيل في السلطة".

[٨٣٣] - السامرائي، الطائفية في العراق الواقع والحل ، ص ٤٨

واذا ما قامت انتفاضة أو ثورة من قبل أبناء الطائفة الأخرى ضد الحاكم الظالم الذي ينتمي لطائفته، فان "الطائفي" يسارع الى شجب الانتفاضة وتأييد الحاكم مهما كان ظالما أو كافرا، فان "الطائفي" لا يرى للثوار أي حق في امتيازات البلد الاسلامي كائنا ما كانت نسبتهم من السكان، كما يقول السامرائي. [٨٣٤]

١٠- وعلى مستوى التحليل السياسي، يقوم الطائفي دائما بتحليل الأحداث والمواقف من منطلق طائفي، ولا ينظر الى أبعاد الصراع الأخرى، فقد يكون موقف معين من نظام معين أو دولة معينة أو سياسة معينة، نابعة من مصالح سياسية أو اقتصادية أو قومية أو استراتيجية، ولا علاقة لها بهوية الطرفين الطائفين، سواء كانت سلبا أم إيجابا، ولكن الطائفي لا ينظر الى القضية الا من زاوية طائفية.

فان الصراع بين الصفويين والعثمانيين لم يكن في الحقيقة صراعا بين السُنَّة والشيعة بقدر ما كان صراعا إقليميا بين بلدين كبيرين يتصارعان على مناطق النفوذ في العراق، وقد استمر ذلك الصراع حتى بعد سقوط الدولة الصفوية وسيطرة الأفغان السُنَّة الأحناف على ايران.

وفي هذا يقول الدكتور أحمد الزقاقي:" إن تفسير اسباب الصراع الصفوي العثماني بحقائق الاقتصاد والجغرافيا السياسي ليس اسقاطا للتحليل المادي التاريخي على التاريخ الاسلامي. لأن عزو الصراع دائما الى الاسباب الدينية كثيرا ما ينأى عن الواقعية المطلوبة شرعا وطبعا". [٨٣٥]

١١- وعلى المستوى الاقتصادي: يتمثل الانحياز الطائفي بمقاطعة أبناء الطوائف الأخرى، تجاريا واقتصاديا وعدم تشغيلهم وتوظيفهم، أو البيع والشراء منهم. كما يتمثل الانحياز الطائفي اقتصاديا لدى

---

[٨٣٤] - كان الموقف غير الثوري للعراقيين السنة ابان الثورة الشعبية ضد صدام في شعبان ١٤١١ / آذار ١٩٩١ بسبب خوفهم من استلام الشيعة للحكم فكان صدام عند بعضهم أهون الشرين، وما ذلك الا لكون معتقدات الشيعة عند هؤلاء هي من السوء بحيث تكون أسوأ من معتقدات البعث وكفريات صدام. السامرائي، الطائفية في العراق الواقع والحل ، ص ١٧٦

[٨٣٥] - الزقاقي، أحمد، الاساس التشريعي، ص ٨

الحكومات الطائفية بإعطاء الامتيازات والتسهيلات والمناقصات والمقاولات الكبرى لمجموعة النظام من أقرباء وأصدقاء وأحباب من أبناء طائفة الحاكم. [٨٣٦]

١٢- وعلى المستوى العسكري: يقوم "الطائفي" بإبادة إخوانه المسلمين من الطائفة الأخرى، كما أفتى أبو حامد الغزالي للخليفة المستظهر بإبادة الباطنية أي الاسماعيليين، قائلا:" إن قبول التوبة من المرتد لا بد منه.. وأما توبة الباطنية (أي الاسماعيليين).. ففي هذا خلاف بين العلماء. هذا للمسالمين من الاسماعيليين في زمن السلم، أما في زمن الحرب فان من قبض عليه منهم كان حكمه القتل وكذلك النساء. "فانا نقتلهن مهما صرحن بالاعتقاد الذي هو كفر على مقتضى ما قدرناه، وأما الصبيان فمن بلغ صبيانهم (من العمر) عرضنا الاسلام عليهم فان قبلوا قبل اسلامهم وردت السيوف عن رقابهم الى قربها، وإن أصروا على كفرهم مقلدين فيه آباءهم مددنا سيوف الحق الى رقابهم وسلكنا بهم مسلك المرتدين. والقول الوجيز فيه أن يسلك بهم (جميعا) مسلك المرتدين في النظر في الدم والمال، والنكاح والذبيحة ونفوذ الأقضية وقضاء العبادات. أما الأرواح فلا يسلك بهم مسلك الكافر الأصلي، إذ يتخير الإمام في الكافر الأصلي بين أربع خصال: بين المن والفداء والاسترقاق والقتل. ولا يتخير في حق المرتد، بل لا سبيل الى استرقاقهم ولا الى قبول الجزية منهم ولا الى المن والفداء، وانما الواجب قتلهم وتطهير وجه الأرض منهم، هذا حكم الذين يحكم بكفرهم من الباطنية. ولا يختص جواز قتلهم ولا وجوبه بحالة قتالهم، بل نغتالهم ونسفك دماءهم. وأما النسوان فانا نقتلهم مهما صرحن بالاعتقاد الذي هو كفر على مقتضى ما قررناه، فان المرتدة مقتولة عندنا. نعم للإمام أن يتبع منه موجب اجتهاده، فإن رأى أن يسلك فيهم مسلك أبي حنيفة ويكف عن قتل النساء فالمسألة محل الاجتهاد". [٨٣٧]

وكما فعل السلطان العثماني سليم الأول، الذي قتل أربعين ألفا من شيعة الأناضول في يوم واحد بل في ساعة واحدة. متسلحا بفتوى أصدرها الشيخ نوح الحنفي، والتي جاء فيها:"إعلم أسعدك الله أن هؤلاء الكفرة والبغاة الفجرة جمعوا بين أصناف الكفر والبغي والعناد وأنواع الفسق والزندقة والإلحاد، ومن توقف في

---

[٨٣٦] - السامرائي، الطائفية في العراق الواقع والحل ، ص ٢٦٧

[٨٣٧] - الأمين، حسن، الاسماعيليون والمغول (١٩٩٧) ص ٢١٩

كفرهم وإلحادهم ووجوب قتالهم وجواز قتلهم فهو كافر مثلهم، فيجب قتل هؤلاء الأشرار الكفار، تابوا أو لم يتوبوا..." ثم حكم باسترقاق نسائهم وذراريهم. وكما يقول السيد عبد الحسين شرف الدين، فان السلطان سليم "أباد بهذه الفتوى من مؤمني حلب أربعين ألفا أو يزيدون، وانتهب أموالهم، وأخرج الباقين منهم من ديارهم الى نبل والنغاولة وأم العمد والبوز والفوعة وقراها. وهاجم الأمير ملحم ابن الأمير حيدر، بسبب هذه الفتوى جبل عامل عام ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤م، فانتهك الحرمات واستباح المحرمات "وقعة أنصار" وقتل وسلب وخرب ونهب وأسر ألفا وأربعمائة من المؤمنين، ولم يرجعوا حتى هلك".[٨٣٨]

وعندما يصل التعصب الطائفي الى مستوى القتل والإبادة للمسلمين الذين يختلفون مع المتعصب طائفيا، سواء كان فردا أم حاكما، فانه ينتهك مبادئ الإسلام الأساسية والأولية، ويناقض بصورة تامة تعاليم القرآن الكريم الذي ينهى عن قتل المسلمين بدون حق فضلا عن مخالفة العشرات من الأحاديث النبوية التي تدعو المسلمين الى السلام والمحبة والتآخي والتعاون بينهم. وهي أحاديث متواترة، وتعبر عن روح الإسلام، ولكن عيون الطائفيين تعمى عنها فلا يحركهم سوى الحقد والكراهية والبغضاء والعدوان.

١٣- عدم ادراك أولوية المعارك الاستراتيجية:

إن التعصب الطائفي يغطي على الصراعات الحيوية الأخرى ويعمي عين المتعصب عنها. فهناك على الأرض صراعات حقيقة وأخرى وهمية، وصراعات شخصية وحزبية، وفكرية وسياسية، ومدنية ودينية، وقبلية وطائفية، وديكتاتورية وديمقراطية، وليست كلها صراعات طائفية، وإن لبست لبوس المذاهب الطائفية.

المبحث الثاني: أسباب التعصب

---

[٨٣٨] - شرف الدين، عبد الحسين (١٩٥٧) الفصول المهمة في تأليف الأمة، ص ١٣١ – ١٤٢ ط ٥ و جبل عامل في التاريخ، ٢ / ٧٥

يمكننا تحديد ثلاثة عوامل لظاهرة التعصب الطائفي بصورة عامة، وبالخصوص لدى الطوائف السُنّيّة، وهي:القرارات السياسية، والتقليد الأعمى والجمود ورفض الاجتهاد، والمصالح المادية لفئة العلماء:

٤ – القرارات السياسية

نشأت الخارطة المذهبية التاريخية في العالم الاسلامي، من تبني الحكام المختلفين لهذا المذهب أو ذاك، ولو لفترة من الزمن، فقد تبنى العباسيون في زمن الرشيد، المذهب الحنفي، وساعدوا على انتشاره في مناطق سيطرتهم، ثم تبنى المأمون الاعتزال، وبعده تبنى المتوكل المذهب الحنبلي، وتردد الخلفاء الذين خلفوه بتبني هذا المذهب أو ذاك، الى أن قام الخليفة القادر بجمع المذاهب السُنّيّة الأربعة (الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي) في بوتقة واحدة، وأطلق عليهم "أهل السُنَّة".. وعادت الكفة لتترجح بعد ذلك أيضا بين الشوافع والحنابلة والأحناف.

وأما في ظل السيطرة الأموية الأولى، فقد كان الإمام مالك أقرب الفقهاء اليهم، وقام الأمويون في الأندلس بتبني المذهب المالكي (وقراءة نافع للقرآن) نظراً للعلاقات القديمة بين الطرفين.

وعندما قامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا تبنت المذهب الاسماعيلي. وتبنى العثمانيون المذهب الحنفي، لأنه يجيز خلافة غير القرشيين، بينما تبنى الصفويون المذهب الإثني عشري.

وكما يلاحظ فإن اختيار الحكام لمذاهب معينة، وفرض التقليد على الناس، وتحريم الاجتهاد والخروج المذاهب الرسمية، يأتي انسجاما مع ثقافة العصور الوسطى التي كانت تعطي للحكام مسؤولية حماية الدين، واستغلاله لخدمة السلطات الحاكمة، ولم يكن اختيار المذهب خيارا شعبيا عن وعي وقناعة وإيمان، ما عدا حالات نادرة جدا.

وقد أشار ابن حزم الى هذا العامل بقوله:" مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة فانه لما ولى الرشيد أبا يوسف القضاء من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقية، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاء، وكان لا يلي

قاض في الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كانوا على مذهبه، والناس سراع الى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم".[٨٣٩]

وربما نجد في الوصية التي كتبها وزير صلاح الدين الأيوبي، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير (الكاتب) (٦٣٧هـ) الى المحتسب، نموذجا على دور السلطان في فرض المذاهب والتعصب لها وقمع الآراء الأخرى، حيث يقول:

- " نحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس في أمر دينهم الذي هو عصمة مالهم وأمر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم. فابدأ أولا بالنظر في العقائد، واهدِ فيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا، وقالوا: ربنا الله ثم استقاموا، ومن عداهم شعب دانوا أديانا، وعبدوا من الأهواء أوثانا، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطانا. فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولا، ولا تقبل منه صرفا ولا عدلا، وليكن قتله على رؤوس الأشهاد، ما بين حاضر وباد، فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته، ولا تدنست علومها بمثل أثر جهالته، وما تجده من كتبها (أي كتب الفلسفة) التي هي سموم ناقعة، وأفاع ملففة، لا أقوال مؤلفة، فاستأصل شأفتها بالتمزيق، وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق، ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها والكشف عن مكامن أسرارها، فمن وجدت في بيته فليؤخذ جهارا ولينكل بها اشهارا. وأما من تحدث في القدر، وقال فيه بمخالفة نص الخبر، فليس فيه شئ من ربقة الاسلام، وإن تنسك بمداومة الصلاة والصيام. وكذلك يجري الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم، أو قال بحدوث القرآن القديم... (ويتابع): هؤلاء قوم خبثت سرائرهم وعميت بصائرهم وعظمت عند الله جرائمهم فخذهم بالتوبة، وإلا فخذهم عند ذلك بحد الجلد، فان لم ينجح فبحد ذوات الجهد، فان

---

[٨٣٩] - ابن حزم، علي بن أحمد (- ٤٥٦) جمهرة انساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر ١٩٦٢ ص ٥٦٥/ حسين عبد الأمير يوسف، نشأة المذهب الشافعي وتطوره تاريخيا، ص ١٤٧

هذه أمراض عمى لا ترجى لها الإفاقة، ولا تبرئ منها إلا الدماء المراقة. وأما الفرقة المدعوة بالرافضة فانهم أناس ليس لهم من الدين إلا إسمه ولا من الاسلام إلا رسمه".[٨٤٠]

وكما فعل صلاح الدين قام حكام آخرون مثل الصفويين والعثمانيين بفرض مذهب معين ومحاربة المذاهب الأخرى وإقصائها من الساحة.[٨٤١]

٥- الجمود وغلق باب الاجتهاد

كان الاجتهاد في الدين ضرورة لمواكبة العصر، ورغم كل الاختلاف بين الأئمة إلا أنهم لم يكونوا يجيزون تقليدهم تقليدا أعمى، أو يحصرون الاجتهاد بهم.[٨٤٢]

ولكن من جاء بعدهم من المقلدين والمتأخرين ألزموا الناس تقليد واحد من الأئمة الأربعة، وبعد ذلك حظروا الأخذ والعمل بقول غيره كأنهم جعلوه نبيا مرسلا مطاعا، كما يقول الخجندي، وهو ما أدى في نظره الى التفرق وانشقاق عصا المسلمين، وتبديع وتكفير كل أتباع مذهب لأتباع المذاهب الأخرى.[٨٤٣]

---

[٨٤٠] - ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر (لا . ت) ٢/ ٣٨٦ – ٣٨٩/ كوثراني، الطائفية والحرب، ص ٢٥٥

[٨٤١] - حسين عبد الأمير، نشأة المذهب الشافعي وتطوره تاريخيا، ص ١٦٤

[٨٤٢] -، وكان الامام الشافعي يقول:" من قلد معينا في تحريم شئ أو تحليله، وقد ثبت الحديث الصحيح على خلافه، ومنعه التقليد عن العمل بالسنة فقد اتخذ من قلده ربا من دون الله تعالى يحل له ما حرم الله ويحرم عليه ما أحل الله".الخجندي المعصومي، محمد سلطان البخاري المكي، هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة (١٩٤٠) ص ٢٢ وص ٣١ – ٣٢ نشر جمعية إحياء التراث الاسلامي، بدون ذكر تاريخ أو مكان النشر

[٨٤٣] - المصدر، ص ٩

وقد شكل تصريح الكرخي الحنفي الآنف،[٨٤٤] سابقة في التعصب الطائفي ليس لها مثيل، وهو ما يعني اعتبار صحة المذهب الحنفي في كل شئ، وحمل الآيات والأحاديث المخالفة له، بعد ذلك، بأية صورة على ما يوافق المذهب.

ويقول ابن تيمية: "ومن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل كان مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً ".[٨٤٥]

وهذا ما يذهب اليه أيضا مفتي الشافعية في مكة أحمد دحلان، حيث يقول:"إن الأخذ بظواهر الآيات والأحاديث قبل عرضها على كلام الأئمة أصل من أصول الكفر ، كما صرح بذلك كثير من الأئمة منهم الامام السنوسي في شرحه على (أم البراهين) فلا يجوز تفسير شئ من الآيات والأحاديث بالرأي ولا حملها على معان لم ينص عليها الأئمة المعتبرون، فلا بد في ذلك كله من النقل عن الأئمة المجتهدين في الدين. [٨٤٦] فليس لنا أن نقول هذه الآية تدل على كذا وهذا الحديث يدل على كذا الا بالنقل عن الأئمة المعتمدين ... فلا يجوز لأهل هذه الأعصار الاجتهاد والاستنباط في شئ من الآيات والأحاديث، بل يجب عليهم الأخذ بأقوال أئمة الدين واتباعهم في كل ما يقولون من الأحكام الفقهية وتفسير الآيات القرآنية والأحاديث

---

[٨٤٤] - " الأصل في كل آية تخالف قول أصحابنا، فإنها تحمل على النسخ، أو على الترجيح،، والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق". وقال في الأحاديث التي تخالف المذهب الحنفي:" الأصل إن كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا، فإنه يحمل على النسخ، أو على أنه معارض بمثله، ثم صار الى دليل آخر، أو ترجيح فيه بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح، أو يحمل على التوفيق". كتاب أصول الكرخي.

[٨٤٥] - إبن تيمية، مجموع الفتاوى ١٣ / ٣٦١

[٨٤٦] - دحلان، أحمد زيني (١٨٨٦م)، رسالة في كيفية المناظرة مع الشيعة والرد عليهم. ص ٣٧ المكتبة الحلبية بمصر، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ (١٩٠٥) / صورة منه على المكتبة الوقفية على الانترنت

النبوية. [٨٤٧] وبعض الآيات والأحاديث تكون عند الأئمة محمولة على معان ظهرت لهم بأدلة وقرائن خفيت علينا فلا يجوز لنا مخالفة أقوالهم فيها... ولو كان الأخذ بظواهر القرآن جائز من غير عرضه على كلام الأئمة لأشكل كثير من الآيات. [٨٤٨] **فيجب على ولاة الأمر أن يمنعوهم من ذلك التخبط ويأمروهم بالدخول في السواد الأعظم بتقليد أحد الأئمة الأربعة.** [٨٤٩]

وقد ابتدأت ظاهرة التقليد الأعمى، والتعصب الطائفي للفقهاء الأربعة، في القرن الرابع الهجري، واشتدت في القرن الخامس، حيث بتنا نرى كبار العلماء والمحدثين يمنعون من الاجتهاد ويوصون بالتقليد، كإمام الحرمين الجويني وابن الصلاح والنووي والإسنوي وابن المنير من المالكية، والزركشي في البحر المحيط، والطوفي الحنبلي في شرح مختصر الروضة، والنفراوي المالكي في الفواكه الدواني، وغيرهم .

فقد ذهب الجويني (٤٧٨هـ) في كتابه (البرهان) الى تحريم تقليد الصحابة، وادعى "إجماع المحققين على أن العوام ليس لهم أن يتعلقوا بمذاهب أعيان الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بل عليهم أن يتبعوا مذاهب الأئمة الذين سبروا ونظروا وبوبوا الأبواب وذكروا أوضاع المسائل، وتعرضوا للكلام على مذاهب الأولين، والسبب فيه أن الذين درجوا وإن كانوا قدوة في الدين وأسوة للمسلمين؛ فإنهم لم يفتنوا بتهذيب مسالك الاجتهاد، وإيضاح طرق النظر والجدال وضبط المقال، ومن خَلْفَهُم مِنْ أئمةِ الفقهِ كَفَوا مَنْ بَعْدَهُمُ النظرَ في مذاهبِ الصحابةِ، فكان العاميُ مأموراً باتباعِ مذاهبِ السابرين. [٨٥٠]

وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتاوى الفقهية الكبرى):" وأما ابن الصلاح فجزم في كتاب الفتيا بما قاله الإمام – أي إمام الحرمين – وزاد أنه لا يُقَلِّدَ التابعينَ أيضاً، ولا مَنْ لم يُدوَّن مذهبه، وإنما يقلد الذين دُوِّنَتْ

[٨٤٧] – المصدر، ص ٣٨

[٨٤٨] – المصدر، ص ٣٩

[٨٤٩] – المصدر، ص ٤٣

[٨٥٠] – الجويني، البرهان، ج ٢ ص ٧٤٤

مذاهبهم وانتشرت ...فامتنع التقليد إذاً لتعذرِ الوقوفِ على حقيقة مذاهبهم".[٨٥١]

وكتب ابن رجب الحنبلي (٧٩٥ هـ) رسالة بـ " الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة " ورفض فيها الاجتهاد والتقليد لغير الأئمة الأربعة، فضلا عن منع عموم الناس من سلوك طريق الاجتهاد.[٨٥٢]

ونتيجة لغلق باب الاجتهاد، انتشرت ظاهرة التقليد الأعمى والتعصب للمذاهب، حتى عند العلماء، مما دفع الفخر الرازي (٦٠٦هـ) للشكوى من تلك الظاهرة، فقال في تفسير قول الله تعالى "إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله" من تفسيره (مفاتيح الغيب): "إني قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها، وبقوا ينظرون إليَّ كالمتعجب. يعني كيف يمكن العمل بظاهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا ... وهذا مشاهد وواقع في هذه الأمة" .[٨٥٣]

وقد ساق المانعون للاجتهاد وتقليد غير الأئمة الأربعة، مبررات عديدة لرأيهم كقول ابن رجب "إن مذاهب غير هؤلاء لم تشتهر ولم تنضبط، فربما نسب إليهم ما لم يقولوه أو فهم عنهم ما لم يريدوه، وليس لمذاهبهم من يذب عنها وينبه على ما يقع من الخلل فيها بخلاف هذه المذاهب المشهورة".[٨٥٤]

ولكن الدكتور فاضل الأنصاري يعلل تبني الحكام لتلك المذاهب الأربعة (السُنّيّة) دون سواها، بموقفها من الحكام وتأكيدها على "وجوب طاعة ولي الأمر، الواجبة على كل احد، بأمر من الله". [٨٥٥] ويقول:إنه "بغلق باب الاجتهاد لصالح التقليد ضاقت مساحات الحوار وانفسح المجال رحيبا للتعصب لمن يقلد.

---

[٨٥١] – ابن حجر، الفتاوى الفقهية الكبرى، ج٨ ص ٣٤٠

[٨٥٢] – المصدر، ص٣٣

[٨٥٣] – الخجندي، هل المسلم ، ص ٣٢

[٨٥٤] – المصدر، ص ٣٣

[٨٥٥] – الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ١٦٧

وتعددت وسائل القسر والارهاب الفكري، وسخرت الديباجات الآسرة للأخذ عن مذهب معين دون سواه والتعصب له وحده". [٨٥٦]

وهكذا يعزو الدكتور حسين عبد الأمير يوسف ظاهرة التفرق والنزاع الطائفي الى الجمود الفقهي والفكري، حيث يقول: إن"ظهور طبقة من العلماء غير المجددين وانكفاء الأمة على نفسها ... جعل كل طائفة من الطوائف الاسلامية تختصر على ما عندها مُعِدَةً إياه الحق وغيره البطلان المبين، الأمر الذي عزز روح التعصب الأعمى للمذهب".[٨٥٧]

٦- المصالح المادية لفئة العلماء والطلاب والمشايخ وأئمة الجمعة والجماعة والقضاة والمفتين.

وتلعب المصالح المادية للمشتغلين بالفقه والقضاء وإمامة الصلوات، دوراً كبيراً في تعزيز الروح الطائفية حتى في داخل المذهب السُنّي، إذ عندما كان أحد الفقهاء يتولى رئاسة القضاء، كان يعين تلامذته وأنصاره في مناصب الإفتاء والقضاء وإمامة المساجد وصلوات الجمعة والتعليم في المدارس، وما الى ذلك، في جميع أرجاء الدولة، ومع مرور الزمن يتكاثر الأنصار والأولاد والأحفاد، ويصبحون حزبا كبيرا له مصالحه وعلاقاته الداخلية والخارجية، فتولد الطائفة، ويولد التعصب لها والتعصب ضد الطوائف الأخرى.

وحسبما يقول الدكتور فاضل الأنصاري، فإن "الأصل التاريخي للطائفية بدأ يتشكل عندما تحول الافتاء الى وظيفة رسمية تحركها المصالح والعواطف والأهواء، وصار "التقليد" نهجا مهيمنا على الساحة الفقهية، وذلك من أجل تقييد الناس، ومنعهم من الخروج عن السياسات المرسومة، سواء الى جانب السلطة أو ضدها، فتسارعت المذاهب حثيثة نحو التعصب والتطوؤف، تحمي كل منها نفسها وتحافظ على بقائها

---

[٨٥٦] - المصدر، ص ١٩٢

[٨٥٧] - حسين عبد الأمير، نشأة المذهب الشافعي، ص ١٦٤

بالتعقيدات وتتحصن بالشعائر والمستجدات، فتراجعت مظاهر التسامح والمجادلة "بالتي هي أحسن" لصالح العنف والكراهية والبغض والتسطح، وأضحى التعصب للمعتاد ومجاراة السلف أقوى رسوخا من الاستعداد لقبول الحقيقة أو القدرة على التمحيص والاستبصار. فتربص البعض بالآخر، وتشرذمت الجماعات بين التحيزات العصبية في توارث متعاقب جيلا بعد جيل". [٨٥٨]

ويضع الكاتب العراقي علي الوردي إصبعه على المصالح المادية لرجال الدين (السُنَّة والشيعة) أو كما يسميه (الرزق) كعامل من العوامل التي أدت الى زيادة الفجوة والاختلاف بين التشيع والتسنُّن. [٨٥٩]

الفصل الرابع

البيئة العامة لنشوء الفرق الطائفية

اكتنفت ولادة الطوائف الاسلامية أجواء عامة وسياقات سياسية وفكرية وثقافية مختلفة، ساهمت بتكريس المشاعر الطائفية، وتعزيز الفوارق بين المسلمين، من أهمها ما يلي:

---

[٨٥٨] - الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ٥١٣

[٨٥٩] - حيث يقول:"أكاد أعتقد أن من العوامل التي أدت الى زيادة الفجوة والاختلاف بين التشيع والتسنن هو مورد الرزق الذي يعيش عليه رجال الدين في كل منهما، فرجل الدين السني يعتمد في رزقه على الحكومة، بينما زميله الشيعي يعتمد على العامة، وهذا جعل كلاهما ينظر الى الحياة بمنظار يختلف عن منظار الآخر". الوردي، علي، لمحات اجتماعية، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص ٢٥٤

١- الاستبداد وتهميش الأمة الاسلامية

فقد ولدت الطوائف في أجواء سياسية استبدادية مطلقة، كانت تعاني فيها الأمة من التهميش الفاحش، خلافا لما أمر الله تعالى، وما أراد من دور حضاري كبير لها، بما تمثل من توجيه الخطاب القرآني مباشرة الى الأمة الاسلامية وعدم توجيهه الى شخص معين. فإذا نظرنا – مثلا – الى أهم الأحكام السياسية كجباية الزكاة وإقامة الحدود وتطبيق العدل، فسوف نرى أن القرآن الكريم يوكلها للمسلمين بصورة عامة، ولا يعقدها لشخص معين بعد الرسول، فهو يقول: "ولتكن منكم أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" أو "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" و "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل". (النساء ٥٨) "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" ويوجه خطابه لعامة المسلمين، في أكثر من ثلاثين آية: "أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" دون أن يربطها بنظام سياسي أو حاكم معين، وكذلك: "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة". (النور، ٢) و"السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما". (المائدة، ٣٨) والآيتان كما هو واضح موجهتان الى عموم الأمة الاسلامية وليس الى الحكام فقط.

ولكن إذا ألقينا نظرة على تاريخ الدول الاسلامية، فاننا نجد عملية تهميش كبرى جرت لدور الأمة في إدارة شؤونها، ومشاركتها في العملية السياسية.

وقد قام الفكرُ السياسي المنتج من قبل فقهاء السلاطين، بصورة عامة، بتضخيم دور الإمام ومنحه صلاحيات واسعة، في مقابل سلب كل دور للأمة في صنع القرار أو إدارة عجلة الدولة، حتى كاد يقترب من القول بعصمة الإمام، حيث قام الفقهاء والمحدثون باستيراد أحاديث من تجربة الرسول السياسية وتركيبها على نظام الخلافة المستبدة، كالحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي (ص): أنه قال: "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ومن عصى الأمير فقد عصاني".[٨٦٠]

---

[٨٦٠] – البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" حديث رقم ٦٧١٨

وقام الفكر السياسي السلطاني بإلغاء دور الشورى، في عملية اتخاذ الإمام للقرارات، حيث مال عموما إلى القول بأن الشورى مستحبة ومعلمة وليست ملزمة للإمام، حتى لو كان مجيئه للسلطة بغير شورى أو انتخاب من الأمة، وإنما عن طريق القهر والغلبة، أو العهد من الإمام السابق.

وفي إطار الصلاحيات المطلقة التي أعطاها ذلك الفكر للإمام، سمح له بفرض اجتهاداته وآرائه السياسية والفلسفية والكلامية والتاريخية والفقهية على الأمة، أو تبني المدارس المذهبية المختلفة وفرضها على الناس، بدل أن يترك للعلماء والجماهير حرية التفكير والانتقاء والالتزام بما يشاءون من نظريات وأفكار.

وفي مقابل الصلاحيات المطلقة التي أعطاها الفكر السلطاني للإمام، قام بفرض الطاعة المطلقة على الأمة، وحرَّم الخروج على الإمام بغض النظر عن التزامه بالشريعة الإسلامية أو وفائه بشروط عقد الإمامة. وأضفى بعض الفقهاء السُنَّة على مسألة الطاعة للإمام ثوبا شرعيا وعقديا، واعتبروها علامة فارقة بين السُنَّة والبدعة، وحرم بعضهم حتى الدعاء على السلطان الظالم. وجاءوا بأحاديث كثيرة، كما ادعوا "الإجماع" على وجوب الطاعة المطلقة للأمراء.

٢- تبني الحكام للمذاهب

وفي إطار الصلاحيات المطلقة التي أعطاها الفكر السياسي (السُنّي والشيعي) للإمام، سمح له بفرض اجتهاداته وآرائه الشخصية والسياسية والفلسفية والكلامية والتاريخية والفقهية على الأمة، أو تبني المدارس المذهبية المختلفة وفرضها على الأمة، بدل أن يترك للعلماء والجماهير حرية التفكير والانتقاء والالتزام بما يشاءون من نظريات وأفكار. وربما كان ذلك جزءا من عمل الدولة وتكليف أحد الفقهاء بأعمال القضاء وتشريع القوانين حسب مذهب معين، يختاره السلطان.

وهو ما خلق حالة من الاستبداد الثقافي والديكتاتورية الفكرية، وقضى على الحوار العلمي الهادئ.

فقد ذهب أبو علي الجبائي (المعتزلي) إلى: أن للإمام أن يجمع الناس على شيء من الدين من دون الحاجة إلى أخذ رضاهم، وأن الإمام إذا فعل شيئاً صار كأنه فعله (النبي) عليه السلام.[٨٦١]

وأعطى الإمام النووي الحق للإمام بتشريع مسائل عبادية، كإيجاب صوم ثلاثة أيام في الاستسقاء. وقال ابن أبي العز:"دلت نصوص الكتاب والسُنَّة وإجماع سلف الأمة، أن ولي الأمر.. يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه".[٨٦٢]

ومع أن العبادات التي هي علاقة بين العبد وخالقه، ليست من رعاية الشؤون العامة، ولا تدخل في مهمات الإمام السياسية، ولا يجوز فيها الابتداع، فقد ذهب بعض الفقهاء إلى " أن له أن يتبنى من الأحكام الشرعية ما شاء، ويسن من القوانين ما أراد، لأن الخليفة هو المسؤول عن رعاية مصالح المسلمين العامة".[٨٦٣] وقال إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون (٧٩٩هـ): إن من تصرفات الحاكم: الفتاوى في العبادات وغيرها.[٨٦٤]

وفي الحقيقة إن مذهب الإطلاق في صلاحيات الإمام، ينسجم مع الدور الذي رسمه الفكر السياسي للإمام، وهي حراسة الدين والدنيا، ورعاية مصالح المسلمين العامة، وافتراض كون الإمام أعلم وأتقى الناس، ولذلك فله الحق بتبني ما يشاء من أحكام وقوانين وأفكار.

وكان ابن المقفع قد اقترح على الخليفة العباسي المنصور أن يضع تقنينا لأحكام الفقه، ويجعله موحدا في جميع أنحاء الدولة الإسلامية، وأشار في كتابه "الصحابة" إلى أن الحاكم ينبغي أن يجمع أهل العلم ويستشيرهم ويحفزهم على كتابة قانون أساسي للدولة، وأن يجعل للسلطان نصيبا في التشريع بحيث لا يصبح

---

[٨٦١] – الهمداني، القاضي عبد الجبار، المغني في التوحيد والإمامة، ج٢٠ قسم ٢ ص ٥٣

[٨٦٢] – شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٦

[٨٦٣] – الخالدي، معالم الخلافة، ص ٤٥٠

[٨٦٤] – ابن فرحون، تبصرة الحكام ج١ ص ٧٩

مثلا قانون إلا بموافقة السلطان، فكره الفقهاء منه هذا الرأي وأنكروه إنكارا شديدا. وخضع الخليفة لرأيهم، ولم يأخذ برأي ابن المقفع.[٨٦٥]

ولكن المنصور دعا الإمام مالك بن أنس، إلى أن يؤلف كتابا في الفقه (الموطأ) ليفرضه على بقية الناس، إلا أن الإمام مالك استهجن هذه الفكرة ورفضها أيضا. وقام الخليفة محمد المهدي بن المنصور باستدعاء تلميذ الامام أبي حنيفة، أبي يوسف، ليتولى القضاء ويديره على ضوء المذهب الحنفي. وقام هارون الرشيد بدعم أهل الحديث.

وبعد ذلك بحوالي نصف قرن، قام الخلفاء العباسيون (المأمون والمعتصم والواثق) بتبني الفكر الاعتزالي، وبالخصوص القول بخلق القرآن، ومحاسبة من يرفض ذلك من العلماء، ومعاقبتهم إلى حد القتل والتعذيب.

ثم قام المتوكل بتبني مدرسة أهل الحديث، أو "السُنّة" في عملية انقلاب كبرى على المعتزلة.

وقام الخلفاء الأمويون في الأندلس بتبني المذهب المالكي -كما يقول أبو بكر ابن العربي- "وذلك لما رأوه من تعظيم مالك لسلفهم، ولما أرادوه من صرف قلوب الناس اليهم، في تعلقهم بسيرة حرم رسول الله ودار نبوته ومقر سنته... فلا فقه إلا فقه أهل المدينة، ولا قراءة الا قراءتهم، فألزم الناس العمل بمذهب مالك والقراءة على رواية نافع، ولم يمكنهم من النظر والتخيير في مقتضى الأدلة، متى خرج ذلك عن رأي أهل المدينة".[٨٦٦]

---

[٨٦٥] - السنهوري، فقه الخلافة، ص ٣٠٩ ويروى أن ابن المقفع ارسل كتابا الى الخليفة المنصور أسماه "رسالة الصحابة" ينصحه فيها متأدبا كمن يريد الاصلاح أن "يحسن اختيار بطانته وعماله ومعاونيه" لكن المنصور بدلا من تقدير ابن المقفع لاسداء النصح، أمر به فقطعت أطرافه وهو حي أمام عينيه وشويت على النار وأُطعم إياها قسرا قبل أن يموت من نزفه. ص ١٣٧

[٨٦٦] - ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٣٦٥ – ٣٦٦

ولأنَّ الخلفاء كان لهم حق تبني ما يشاءون من مذاهب حسب قانون الصلاحيات المطلقة، فقد كانوا ينقلبون أحيانا على المذهب الرسمي أو الشعبي ويعلنون تأييد ما يحلو لهم من أفكار ومواقف، سواء بالنسبة للأحداث التاريخية أو بالنسبة إلى المذاهب الفكرية والفقهية. وهذا ما خلق مشكلة في تبنى بعض الحكام لمواقف فكرية أو فقهية تعارض السُنَّة، أو الرأي العام الإسلامي، مما شكل خطراً كبيرا على المجتمع الإسلامي، والانحراف به من موقع الإمامة. ولذلك رفض بعض الفقهاء كالجويني وإبن تيمية تدخل الإمام في الشئون الفقهية والفكرية والتفسير والحديث.[٨٦٧]

٣–تديين الحقل السياسي

من الأمور المهمة التي سبقت أو رافقت تفجر الخلاف السياسي في التاريخ الاسلامي وتحوله الى كيانات طائفية، هو تديين الحقل السياسي، وإضفاء هالة من القدسية على الحكام، بالرغم من أن عامة المسلمين يكادون يتفقون على أن القرآن الكريم لا يشير الى موضوع الحكم، وأن الرسول الأعظم لم يوص الى أحد بالخلافة من بعده، وأن الأنصار بادروا الى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة، نتيجة للفراغ السياسي الذي حصل بعد وفاة الرسول، للتباحث بشأن إقامة سلطة جديدة في المدينة، ثم اتفقوا على مبايعة أبي بكر كأول خليفة للرسول.[٨٦٨]

وهو ما يؤكد عدم وجود نص ديني على الخلافة، وأن كل ما حدث كان تلقائيا وعفويا ومن وحي الاجتهاد السياسي للصحابة، وبمبادرة عقلية منهم، إدراكا منهم بضرورة إقامة حاكم لهم ينفذ الشريعة ويدير شؤون حياتهم. وهو ما يؤكد كون الخلافة مسألة مدنية عرفية وليست دينية. بيد أن الفكر الشيعي (الإمامي) رفع من منزلة الأئمة (الاثني عشر) الى درجة العصمة، فيما أضفى الفكر السياسي السُنّي نوعا من القداسة على الخلفاء الثلاثة أو الأربعة الأوائل، وعموم الصحابة، وجعل الإيمان بهم جزءا من العقيدة والدين، وأصلا من أصول "المذهب السُنّي" كما يقول الامام أحمد بن حنبل، ثم جاء الماوردي في وقت لاحق، فأوجب

---

[٨٦٧] – الجويني، غياث الأمم، ص ١٥٣ و ابن تيمية، الفتاوى ج٣ ص ٢٨

[٨٦٨] – ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤ ص ١٠٧٤– ١٠٧٥ والطبري، ج٢ ص ٤٤٥

"إقامة إمام يكون سلطان الوقت وزعيم الأمة فيكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه".[٨٦٩]

ومع معرفتنا بعدم وجود نص ديني إسلامي على الخلافة يترجح لدينا أن يكون منبع هذه النظرية من الثقافات السابقة على الإسلام، مثل الثقافة الفارسية التي حملت إلينا على لسان الملك (أردشير) وصيته لبنيه:" إعلموا أن الملك والدين أخوان توأمان، لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، لأن الدين أس الملك وعماده، ثم صار الملك بعدُ حارس الدين، فلا بد للملك من أسه، ولا بد للدين من حارسه. وإن رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إياكم الى دراسة الدين وتلاوته، والتفقه فيه، فتحملكم الثقة بقوة السلطان على التهاون به، فتحدث رياسات مستسرات فيمن قد وترتم وجفوتم وحرمتم وأخفتم وصغرتم من سفلة الناس والرعية، وحشو العامة، واعلموا أنه لن يجتمع رئيس في الدين مسرّ ورئيس في الملك معلن في مملكة واحدة قط إلا انتزع الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في الملك، لأن الدين أس والملك عماد، وصاحب الأس أولى بجميع البنيان من صاحب العماد".[٨٧٠]

ورغم سيادة إتجاه "تديين السياسي" فإن بعض علماء أهل السُنَّة حاول، بشكل عام، رفض تديين الحقل السياسي، إذ قال الإمام الجويني (٤٨٧هـ): إن "معظم مسائل الإمامة عريّة عن مسالك القطع، خلية عن مدارك اليقين".[٨٧١]

وقال أبو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ): "إعلم أن النظر في الإمامة ليس من المهمات وليس ايضا من فن المعقولات، بل من الفقهيات، بل إنها مثار للتعصبات والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها، وإن اصاب فكيف اذا أخطأ".[٨٧٢]

[٨٦٩] – الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ١١١ وهناك نص آخر لابن تيمية يقول فيه:"يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين الا بها، فان بني آدم لا تتم مصلحتهم الا بالاجتماع لحاجة بعضهم الى بعض، ولا بد لحراسة الدين من رأس". ابن تيمية، السياسة الشرعية ص ١٥ – ١٦

[٨٧٠] – ابن الجوزي، الشفاء، ص ٤٦، وانظر: عهد اردشير، حققه وقدم له: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٧، ص ٥٣ — ٥٤ عن وجيه كوثراني، الطائفية والحرب، ص ١٠١

[٨٧١] – الجويني، غياث الأمم ص ٧٥

وقال الفقيه الأصولي سيف الدين الآمدي (٦٣١ هـ): "إعلم أن الكلام في الإمامة ليس من أصول الديانات، ولا من الأمور الأبديات بحيث لا يسع المكلف الاعراض عنها والجهل بها، بل لعمري ان المعرض عنها ارجى من الواغل فيها. فانها قلما تنفك عن التعصب والأهواء، واثارة الفتن والشحناء والرجم بالغيب في حق الأئمة والسلف بالآراء".[٨٧٣]

الشيعة: الامامة منصب ديني الهي

وربما كان موقف "أهل السُنَّة" رد فعل على موقف الشيعة الإمامية، الذين اعتبروا الامامة أصلاً من أصول الدين. وأعطوا منصب الخلافة والإمامة دورا "دينيا" كبيرا، وذلك لأنهم اعتبروها خلافة إلآهية في الأرض، وأن "مهمة الامام الاساسية – كما يقول أسعد القاسم – استخلاف النبي (ص) في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم الى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فالامام هو الذي يفسر لهم القرآن ويبين لهم المعارف والاحكام، ويشرح لهم مقاصد الشريعة ويصون الدين من التحريف والدس، وله الولاية العامة على الناس في تدبير شئونهم ومصالحهم واقامة العدل بينهم وصيانتهم من التفرقة والاختلاف". [٨٧٤] "فالامامة بذلك تعد منصبا إلهيا، واستمراراً للنبوة في وظائفها باستثناء كل ما يتعلق بالوحي، وهي بهذا المفهوم أسمى من مجرد القيادة والزعامة في أمور السياسة والحكم".[٨٧٥]

٤- الإعتماد على الرؤى والأحلام كمصدر ديني

---

[٨٧٢] – الغزالي، أبو حامد، الاقتصاد في الاعتقاد، ص ٢٣٤

[٨٧٣] – الآمدي، غاية المرام في علم الكلام، ص ٣٦٣

[٨٧٤] – القاسم، أزمة الخلافة والإمامة، ص ٣٤

[٨٧٥] – المصدر

بعد اعتمادها على تأويل القرآن الكريم، وتزوير أحاديث على لسان النبي الأكرم، اعتمدت عملية تديين الحقل السياسي على مصدر جديد هي دعوى الاتصال المباشر مع الله والنبي في الرؤى والأحلام. إذ كلما كان يفتقد الحاكم أو إمام أحد المذاهب المنطق الديني في مواجهة الحكام والمذاهب الأخرى، كان يلجأ الى مصدر جديد لكسب الشرعية الدينية، وهي الرؤى والأحلام.

وقد تفشى هذا المصدر منذ القرن الثاني الهجري بين معظم الحكام وأئمة المذاهب، وشكَّل ظاهرة ثقافية سلبية في المجتمعات الاسلامية، ترافقت وتنامت مع ظاهرة الانقسام والتشرذم التي عصفت بالعالم الاسلامي .

وقد هوى الفكر الطائفي الى هذا المستوى الثقافي، المشحون بالخرافات والأساطير، بواسطة الأحاديث المزورة المنسوبة الى النبي الأكرم محمد (ص) التي كانت بحد ذاتها خطوة متقهقرة الى الوراء، تم استغلالها من قبل الحكام ورؤساء المذاهب لتشييد دولهم وحكوماتهم ومذاهبهم وسياساتهم الطائفية.

ويأتي على رأس تلك الأحاديث الحديث الشهير الذي يرويه البخاري باسناد متصل من حديث أبي قتادة، قال قال رسول الله: "من رآني فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتزيا بي، أو لا يتمثل بي". أو ما رواه أبو هريرة عن النبي (ص) قال: "ومن رآني في المنام فقد رآني، فان الشيطان لا يتمثل صورتي".[٨٧٦]

ذلك الحديث الذي فتح بابا لإضفاء الشرعية الدينية على كثير من الأئمة والحكام والمؤلفين وأصحاب المذاهب المختلفة. وأصبحت الأحلام الواردة عن الرسول والصحابة بمثابة المسلمات والواضحات التي لا يجوز البحث فيها فضلا عن التشكيك بصحتها.[٨٧٧]

و"حاول البعض أن يثبت أن المنامات جزء من العقيدة وأن كثيراً من العقائد جاءت الى النبي عن طريق المنام، فقال: إن الله أوحى الى نبيه في المنام ستة اشهر ثم أوحى اليه بعد ذلك في اليقظة بقية عمره.. فما المانع أن تكون هذه الاحلام مصدراً مستمرا للتعاليم والأوامر السماوية؟".[٨٧٨]

---

[٨٧٦] – البخاري، ج ٨ ص ٥٤

[٨٧٧] – الخطيب، علاء، الحلم المقدس وأثره في تأسيس الدول واشعال الحروب، ص ٤٦ المركز الثقافي العراقي، لندن دار الحكمة ٢٠١٤ ط ١

ولم يتوقف الأمر عند رؤية الرسول وأخذ الشرعية والمباركة منه، وانما تعدى الأمر الى ادعاء رؤية الله عز وجل، في المنام. فقد قال إبن تيمية إن "المؤمن قد يرى الله في المنام في صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه، فاذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا في صورة حسنة، واذا كان في إيمانه نقص رأى ربه ما يشبه إيمانه".

ويعتبر ابن تيمية إمكانية الرؤيا من المسلمات ويقول:"إن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين يؤكدون على أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار عيانا، وان أحدا لا يراه في الدنيا بعينه، لكن يرى في المنام ويحصل للقلوب من المكاشفات والمشاهدات ما يناسب حالها... ومن الناس من تقوى مشاهدة قلبه حتى يظن انه رأى ذلك بعينه وهو غالط، ومشاهدات القلوب تحصل بحسب إيمان العبد ومعرفته في صورة مثالية. وليس في رؤية الله في المنام نقص ولا غيب يتعلق به سبحانه وتعالى وإنما ذلك بحسب حال الرائي وفساده واستقامة حاله وانحرافه، وما أظن عاقلا ينكر ذلك".[٨٧٩]

وأضاف الخطيب:"لقد شكلت الثقافة المنامية أساسا خطيرا من أسس التفريق بين المذاهب في المعتقدات الدينية والأحكام الشرعية. ولا يجد المرء عناء في اكتشاف ذلك... إن للاحلام مساحة كبيرة وأهمية في اثبات أو نفي المذهب أو الفكرة التي يؤمن بها الكاتب".[٨٨٠]

ويقول علي الوردي:" إن المسلمين أدخلوا بعض الأحلام في صلب شريعتهم، وأيدوها بما أوتوا من كتاب وسنة، فصارت لديهم بمثابة الوحي المنزل".[٨٨١]

ويحدثنا فاضل الأنصاري عن دور الأحلام والرؤى في تعميق الشرخ بين المسلمين، فيقول:"تتالت الرؤى التي ظهر فيها الرسول في أحلام الأشخاص وهو يحدث بتكفير هذا أو ذاك، فاعتبرت تلك الأقوال

---

[٨٧٨] - المصدر

[٨٧٩] - ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، م ٥ ص ٣٨٤، جامعة الامام محمد بن سعود ٢٠٠٨ تحقيق محمد رشاد سالم، وانظر أيضا: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، ج ١ ص ١٨٢ تحقيق يحيى بن محمد الهنيدي، طباعة مجمع الملك فهد ١٤٢٦، وشرح الوصية الكبرى لابن تيمية، وفتاوى ابن باز

[٨٨٠] - الخطيب، الحلم المقدس، ص ١٧٥

[٨٨١] - المصدر، ص٨٥

صحيحة مسندة "إذا كان راويها الذي شهد الرسول في منامه قد عرف بصدقه" وبذلك رست قاعدة "أحاديث الرؤيا" وبدأت تحفل بها كتب الصحاح "استنادا الى ما نسب للرسول من قول: "من رآني فقد رآني" باعتبار ان النبي لا يتلبسه الشيطان".[٨٨٢]

وبناء على هذه القاعدة ادعى الخليفة العباسي هارون الرشيد أنه رأى الرسول في المنام وبشره بالخلافة، وقال له: "إن هذا الأمر قد صار إليك، فاغزُ وحج ووسع على أهل الحرمين". وكذلك ادعى المتوكل.[٨٨٣]

ولما كان المتوكل قد أحدث انقلابا في سياسة الدولة العباسية المذهبية ضد المعتزلة ولصالح أهل السُنَّة، فقد استغل البعض (باب الأحلام) ليضفي الشرعية الدينية على ما فعل المتوكل، ويكرس الاتجاه الجديد، فبث هذه الاشاعة: أن المتوكل رؤي في المنام، بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قيل له بماذا؟ قال: بقليل من السُنَّة أحييتها. [٨٨٤]

واذا كان المتوكل قد رأى النبي في المنام، فان أحمد بن حنبل قد ادعى أنه رأى الله في المنام وجها لوجه، حسبما ينقل ولده عبد الله عنه، يقول: سمعت أبي يقول: رأيت رب العزة في المنام، فقلت: يا رب، ما أفضل ما تقرب به اليك المتقربون؟ قال: بكلامي يا أحمد، قلت: يا رب بفهم أو بغير فهم، قال: بفهم وبغير فهم. [٨٨٥] (هناك رواية أخرى يقول فيها أحمد أنه رأى الله تسعا وتسعين مرة، وفي المرة المائة سأل الله أن يعلمه شيئا فقال له...)

ونُقل عنه أيضا أنه رأى النبي في المنام، وقال له: يا أحمد كما اتبعت سُنَّتي واستحييت أن تنزل عريانا جعلتك ربع الاسلام. [٨٨٦]

---

[٨٨٢] – الأنصاري، قصة الطوائف، ص ١٥٨

[٨٨٣] – المصدر، ص ١٥٨

[٨٨٤] – تاريخ بغداد ٧/ ١٧٠ والبداية والنهاية ١٠/ ٣٥١

[٨٨٥] – الذهبي، سير اعلام النبلاء، ص ٣٤٧

[٨٨٦] – عن احمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، ص ١١١،، دار الثبات، تحقيق صبري سلامة شاهين ٢٠٠٣

وقد شرح أبو الحسن محمد بن أحمد الملطي (٣٧٧هـ) في كتابه "التنبيه والرد" كيفية العمل لمن أراد أن يرى النبي في منامه، وهي الاغتسال ليلة الجمعة وصلاة ركعتين يقرأ فيهما سورة "قل هو الله أحد" ألف مرة .

ونقل عن محمد ابن عكاشة أنه اغتسل وصلى ونام فرأى النبي، فقال له: يا رسول الله إن الفقهاء قد اختلفوا علي، وعندي أصول من السنة، أعرضها عليك، فقال: نعم. فعرض عليه عقيدته السُنّيّة كما يلي:"الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من جور وعدل ولا يخرج على الأمراء بالسيف، وإن جاروا، والكف عن أصحاب محمد، وأفضل الناس عند الله بعد رسول الله: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي". ويقول ابن عكاشة بأنه ظل يعرض هذه العقائد على النبي ثلاث ليال متواليات، ولكنه كان يشعر بشيء من التردد عند ذكر عثمان قبل علي. وكأن النبي أحس بما في نفسه فقال له "ثم عثمان، ثم علي" وأعاد ذلك ثلاث مرات، وعيناه تهملان بالدموع". ويضيف:" فوجدت حلاوة في قلبي وفي فمي، فمكثت ثمانية أيام لا آكل طعاما ولا أشرب شرابا، حتى ضعفت عن صلاة الفريضة".[٨٨٧]

وقد روى الامام أحمد بن حنبل هذا الحلم للمتوكل عندما سأله قائلا:"يا أحمد إني أريد أن أجعلك بيني وبين الله حجة، فأظهرني على السُنَّة والجماعة، وما كتبت عن أصحابك عما كتبوه عن التابعين مما كتبوه عن أصحاب رسول الله". [٨٨٨] باعتباره حديثا موثقا عن النبي.

أما أحمد بن حنبل نفسه، فقد أصبح هو موثقا جدا ومزكى بناء على الأحلام، حيث شوهدت روحه بعد وفاته في السماء –كما يقول ابراهيم الحربي– أنه رأى بشر الحافي في المنام فقال له: قدم علينا البارحة روح أحمد بن حنبل فنثر عليه الدر والياقوت، فهذا مما التقطت، قلت: فما فعل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، قال: تركتهما وقد زارا رب العالمين، ووضعت لهم الموائد. [٨٨٩]

---

[٨٨٧] – الملطي العسقلاني، ابو الحسين محمد بن احمد، التنبيه والرد على الأهواء والبدع، ص ١٥ – ١٦ المكتبة الشاملة

[٨٨٨] – المصدر، ص ٢٣ – ٢٥

[٨٨٩] – الخطيب، علاء، الحلم المقدس ص ١٩٣ عن ابن خلكان عن ابي الفرج ابن الجوزي في كتابه عن (اخبار بشر الحافي)

ولم يفت تلميذ الشافعي، الربيع بن سليمان المرادي، أن يرسم هالة من القدسية على أستاذه، فيقول إنه رآه في المنام بعد وفاته فقال له: يا أبا عبد الله ما صنع الله بك، فقال: اجلسني الله على كرسي من ذهب ونثر علي اللؤلؤ الرطب. [٨٩٠]

وفي رؤيا أخرى يقال أنه سئل النبي عن الشافعي فقال: من أحبني وأحب سنتي فليتبع طريق الشافعي فانه مني وأنا منه. [٨٩١]

وهكذا قال الامام الأوزاعي عبد الرحمن بن عمر بن أحمد (٨٨ – ١٥٧): "رأيت رب العزة في المنام فقال: أنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال: بفضلك أي رب، ثم قلت: يا رب أمتني على الاسلام، فقال: وعلى السُنَّة". [٨٩٢]

انقلاب الأشعري على المعتزلة

ولعبت الأحلام دورا كبيرا في انقلاب الامام أبي الحسن الأشعري على المعتزلة، لصالح "أهل السُنَّة"، حيث كان معتزليا يدافع بقوة عن أفكار المعتزلة، ثم اختلف مع أستاذه أبي علي الجبائي وزملائه، وشن حربا شعواء عليهم وتبرأ منهم ومزق كتبه وطعن بها، وأسس المذهب الاشعري بناء على رؤيا زعم أنه رآها.

وقد ارتقى كرسيا في المسجد الجامع في البصرة في يوم جمعة، من سنة ٣٠٠ للهجرة، في خلافة المقتدر، ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه نفسي، أنا فلان بن فلان، كنت قلت بخلق القرآن، وإن الله لا يُرى بالأبصار، وإن أفعال البشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة". [٨٩٣]

---

٨٩٠ – ابن خلكان، وفيات الاعيان، مجلد ٤ ص ١٦٣/ الحلم المقدس ص ١٩٤ سكت ابن خلكان عن منامات الشافعي/ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٢ ص ٦٠ – ٦٩

٨٩١ – (يراجع : مناقب الشافعي لابي حاتم الرازي، حيث يوازي بين الشافعي والرسول)

٨٩٢ – أبو نعيم، حلية الأولياء، والبداية والنهاية، لابن كثير

٨٩٣ – الأنصاري، قصة الطوائف.. ص ٢٢٣ عن ابن النديم في الفهرست، ص ٢٧١

يقول ابن عساكر في تاريخه: إن الاشعري تحير في المسائل التي لم يجد لها جوابا شافيا عند المعتزلة، فسأل الله أن يهديه الى الصراط المستقيم، ثم نام فرأى الرسول في المنام فقال له: عليك بسُنَّتي، فلما استيقظ رجع الى الكتاب والسُنَّة. [٨٩٤]

ويشرح الاشعري نفسه قصة الحلم فيقول: بينما أنا نائم في العشر الأول من شهر رمضان، رأيت المصطفى (ص) فقال: يا علي انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق، فلما استيقضت دخل علي أمر عظيم، ولم أزل مفكرا مهموما للرؤيا، ولما أنا عليه من إيضاح الأدلة في خلاف ذلك، حتى كان العشر الأوسط فرايت النبي (ص) في المنام فقال لي: ما فعلت فيما أمرتك به؟ فقلت: يا رسول الله، وما عسى أن افعل وقد خرجت للمذاهب المروية عنك وجوها يحتملها الكلام، واتبعت الأدلة الصحيحة التي يجوز اطلاقها على الباري عز وجل؟ فقال لي: انصر المذاهب المروية عني فانها الحق، فاستيقضت وأنا شديد الأسف والحزن، فأجمعت على ترك الكلام واتبعت الحديث وتلاوة القرآن". [٨٩٥]

ويعتمد ابن مجاهد أبو بكر أحمد بن موسى التميمي البغدادي (– ٣٢٤) على رؤيا يدعيها أنه رأى الله في المنام، لتدعيم صحة كتابه (السبع في القراءات) فيقول: رأيت رب العزة في المنام، فختمت عليه ختمتين للقرآن، فلحنت في موضعين فاغتممت لذلك، فقال لي: يا ابن مجاهد، الكمال لي الكمال لي. [٨٩٦]

الشيعة والأحلام

رفض الشيعة مبدأ رؤية الله في اليقظة والمنام في الدنيا والآخرة، خلافا لما ذهب اليه بعض أئمة أهل السُنَّة، فقد رفض الامام جعفر الصادق إمكانية رؤية الله في المنام، وقال لإبراهيم الكرخي، الذي سأله قائلا:

---

[٨٩٤] – الاشعري، مقالات الاسلاميين، تحقيق الدكتور الاهواني، عن موقع وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية، المغربية، مقال بعنوان ابو الحسن الاشعري.

[٨٩٥] – ابن عساكر الشامي، تبيان كذب المفتري، ص ٣٨

[٨٩٦] – الخطيب، الحلم المقدس، ص ١٨١ عن ابن خلكان، وفيات الأعيان

ان رجلا رأى ربه عز وجل في منامه فما يكون ذلك؟ فقال:"ذلك رجل لا دين له، إن الله تبارك وتعالى لا يرى في اليقظة ولا في المنام، ولا في الدنيا ولا في الآخرة".[٨٩٧]

وهو ما ذهب اليه المعتزلة أيضا، واختلف الشيعة في رؤية النبي، وتصحيح حديث:"من رآني في المنام فقد رآني، فان الشيطان لا يتمثل صورتي". حيث رواه الصدوق في (الأمالي) و(عيون اخبار الرضا) والشيخ المفيد في (أوائل المقالات).[٨٩٨] وضعفه الشريف المرتضى في (الأمالي) وقال عنه: "هذا خبر واحد ضعيف من أضعف الأخبار ولا معول على مثل ذلك". [٨٩٩]

وأثبت المفيد صدق منامات الأئمة، فقال:"إن منامات الرسل والأنبياء والأئمة – عليهم السلام – صادقة لا تكذب، وإن الله تعالى عصمهم عن الأحلام، وبذلك جاءت الأخبار عنهم (ع) على الظهور والانتشار، وعلى هذا القول جماعة فقهاء الإمامية و أصحاب النقل منهم، وأما متكلموهم فلا أعرف لهم نفيا ولا إثباتا ولا مسألة فيه ولا جوابا . والمعتزلة بأسرها تخالفنا فيه". [٩٠٠]

وبغض النظر عن صحة الحديث السابق "من رآنا فقد رآنا" أو اعتماد الشيعة عليه، فان بعضهم روى عن الأئمة أحاديث مشابهة، ولا سيما في عملية إثبات الإمامة لعدد من الأئمة (الاثني عشر) الذين يفتقدون النص الصريح على إمامتهم من آبائهم، وأضافوا الى الأحلام قصصا أخرى باسم "المعاجز" لا تحدث إلا في المنامات، مثل قصة (تكلم الحجر الأسود) في الكعبة والفصل بين الامامين المتنازعين محمد بن الحنفية وزين العابدين علي بن الحسين، والسلام على الأخير بلسان عربي فصيح.[٩٠١] والمنام الذي رواه الشيخ حسين بن مثلة الجمكراني، سنة ٣٧٣ هـ أنه رأى الامام المهدي الغائب (محمد بن الحسن العسكري)

---

[٨٩٧] – المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، ج ٤ ص ٣٢

[٨٩٨] – المفيد، أوائل المقالات في المذاهب، ص ٩٢ – ٩٣

[٨٩٩] – المرتضى، الأمالي ج٢ ص ٣٩٢

[٩٠٠] – المفيد، أوائل المقالات، باب 45 – القول في صدق منامات الرسل والأنبياء والأئمة، وارتفاع الشبهات عنهم والأحلام .

[٩٠١] – الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب ما يضل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة، ح رقم ٥ والصفار، بصائر الدرجات، ج ١٠ ص ٥٠٢، وابن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٦٠

في المنام، يأمره ببناء مسجد في منطقة جمكران بالقرب من مدينة "قم" حيث يقام اليوم مسجد كبير يحج اليه الملايين من الشيعة كل عام. [٩٠٢]

واذا كان الشيعة بصورة عامة لا يعتمدون في بناء عقائدهم على الأحلام، فان الثقافة الشعبية الشيعية تتبادل بعض القصص التي يؤمن بها بعض الناس إيمانا كبيرا، مثل القصة التي يوردها الدكتور علي الوردي عن لص من قطاع الطريق حاول ذات مرة التعرض لزوار الحسين، وسلب أموالهم. وبينما كان كامنا في الطريق أخذته غفوة فنام، ورأى في منامه كأن القيامة قد قامت وأن الناس قد حشروا للحساب، وأراد الملائكة القاءه في النار لأعماله، فأنقذه الحسين لأن شيئا من غبار الزوار أصابه أثناء نومه، فاستيقظ اللص وهو ينشد شعرا: "إذا رمت النجاة فزر حسينا، لكي تبقى الإله قرير عين، فإن النار ليس تمس جسما، عليه غبار زوار الحسين". ويعلق الوردي على ذلك بقوله:"انتشر هذا الشعر بين الناس، وأصبح عندهم كأنه من الآيات المنزلات". [٩٠٣]

وربما كان الوردي يعني الشيعة الأخباريين، الذين عُرفوا بالإيمان بالأحلام، وعلى رأسهم الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي (١٨٢٦م) الذي يقول عنه الوردي أنه استلهم معظم عقائده المغالية من الأحلام، واستند فيها على الحديث القائل "من رآنا فقد رآنا حقا". وينقل عنه قوله عن نفسه:"أنه في أول مرة رأى في بعض

[٩٠٢] – وقد ادعى الشاه اسماعيل الصفوي أنه رأى الامام علي في المنام وقال له:"ولدي لا تدع القلق يشوش افكارك. احضر القزلباشية مع أسلحتهم الكاملة الى المسجد في تبريز وأمرهم أن يحاصروا الناس، واذا أبدى هؤلاء أية معارضة أثناء الخطبة باسم اهل البيت فان الجنود ينهون الأمر". الخطيب، الحلم المقدس، وأثره في تأسيس الدول واشعال الحروب، ص ٨٨ وص ٦٣ المركز الثقافي العراقي، لندن دار الحكمة ٢٠١٤ ط ١، عن تاريخ الشاه اسماعيل . ومثلما قامت الدولة الصفوية على أساس حلم، فقد سقطت على أساس حلم آخر رآه والي افغانستان مير ويس الذي أعلن استقلال بلاده عن فارس، وحكم من ١٧٠٨ – ١٧١٥م ثم قضى على الدولة الصفوية، بعد أن ادعى انه رأى رؤيا عندما كان في الحج ونام عند قبر النبي فشاهد النبي يقلده سيفا (الوردي علي، تاريخ العراق الحديث ج١ ص ١٠٠) وبعد قرنين من الزمان ادعى نادر شاه الذي احتل العراق، أنه رأى الامام علي يقلده سيفه ذا الفقار، ويأمره باحتلال العراق. الخطيب، الحلم المقدس، ص ٨٦

[٩٠٣] – الوردي، الأحلام، ص ٦٠

أحلامه الحسن بن علي عليه السلام، ورجا منه أن يعلمه شيئا إذا قرأه استطاع أن يراه أو يرى غيره من الأئمة في النوم، فعلمه الحسن بضعة أبيات من الشعر. وكانت هذه الأبيات مفتاح كنز عظيم من العلوم للشيخ بعد ذلك، استطاع بها أن يرى أي إمام يشاء في نومه عند الحاجة". [٩٠٤]

وهذا ما يؤكده علاء الخطيب أيضا، حيث يقول: كان الأحسائي يدعي أنه يرى الأئمة والنبي، وكان يعتقد أنه لا ينطق عن الهوى بل هي علوم ألقيت اليه من النبي وأهل البيت، ويقول: رأيت النبي وقلت: يا سيدي أريد منك مساعدتي على أن أخلع الدنيا أصلا، بحيث لا أعرف شيئا منها، فقال: هذا أصلح... فسقاني النبي من ريقه... وكل من رأيت منهم يجيبني في كل ما طلبت، وكنت مدة إقبالي سنين متعددة ما يشتبه علي شئ في اليقظة إلا وأتاني بيانه في المنام.. كنت في تلك الحال دائما أرى منامات وهي إلهامات. [٩٠٥]

ومن المعروف أن معركة طويلة وعنيفة جرت بين الأصوليين والأخباريين في كربلاء في القرن الثامن عشر، اضطر فيها المجتهد "الملا محمد باقر الوحيد البهبهاني" إلى استخدام نفس سلاح (الرؤيا) ضد خصمه الأخباري الشيخ أحمد الأحسائي، وقال إنه رأى الامام الحسين وقد أمره أن يقضي عليه. [٩٠٦] وذلك بعد أن أصدر فتوى تحرم الصلاة خلف الشيخ الاحسائي زعيم الأخباريين باعتباره فاقد الأهلية لإمامة الجماعة وأنه غير عادل.[٩٠٧]

الباب السادس

---

[٩٠٤] – الوردي، علي، الأحلام بين العلم والعقيدة (١٩٥٨) ص ١٠ ط٢ ١٩٩٤ دار كوفان لندن

[٩٠٥] – الخطيب، الحلم المقدس ص ٧٤

[٩٠٦] – الخطيب، الحلم المقدس، ص ٧٣

[٩٠٧] – المصدر، ص ٧٢

الحلول المختلفة للمشكلة الطائفية

الفصل الأول

الدعوة للوحدة الاسلامية والاتفاق على أصول الاسلام

العثمانيون يدعون الى الوحدة الاسلامية في مواجهة الاستعمار الغربي

بعد تاريخ طويل من الصراع الطائفي العنيف بين العثمانيين والصفويين (أو بين السنة والشيعة)، شعر العثمانيون في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بخطر التهديد الأوربي المتزايد للبلاد الاسلامية، ، فغيروا من سياستهم المعادية للشيعة وكثفوا دعواتهم الى الوحدة الاسلامية، ولا سيما عشية الحرب العالمية الأولى، حيث شعر العثمانيون في العراق بحاجتهم الى المجتهدين الشيعة لتعبئة الجماهير فأغدقوا العطايا السخية على مدن العتبات المقدسة، وحاولوا عقد مصالحة بين العلماء السُنَّة والشيعة.[٩٠٨]

مراجع الشيعة والوحدة الاسلامية

واستجاب المجتهدون الشيعة لدعوة الوحدة بين المسلمين، فأصدر المجتهد الشيعي الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (١٩٥٢م) في ١٩٠٩ كتابا تحت عنوان (الدين والاسلام، أو الدعوة الاسلامية) دعا فيه الى وحدة السُنَّة والشيعة، وأبدى حسرته على نكوص الاسلام وانقسام المسلمين.[٩٠٩]

---

[٩٠٨] - نقاش، اسحاق، شيعة العراق (١٩٩٤) ص ١٠٦ دار المدى، دمشق، ط ١ ١٩٩٦

[٩٠٩] – المصدر، ص ١٠٤

وأصدر الفقهاء الشيعة، في كانون الأول ١٩١٠ فتاوى جاء فيها: " ... قد رأينا اختلاف كلمة العلماء في غير ما يتعلق بأصول الديانة والشقاق بين سائر طبقات المسلمين هو السبب الموجب لانحطاط دول الاسلام واستيلاء الأجانب على معظم الممالك الاسلامية.. فلأجل المحافظة على الكلمة الجامعة الدينية والمدافعة عن الشريعة الشريفة المحمدية قد اتفقت الفتاوى من المجتهدين العظام الذين هم رؤساء الشيعة الجعفرية ومن علماء أهل السُنَّة الكرام المقيمين بدار السلام، على وجوب الاعتصام بحبل الاسلام كما أمرهم الله به... وعلى وجوب إتحاد كافة المسلمين في حفظ بيضة الاسلام وصون جميع الممالك الاسلامية من العثمانية والإيرانية عن مداخلات الأجانب وتشبثاتهم... ونذكر عامة المسلمين الأخوة التي عقدها الله تعالى بين المؤمنين، ونعلن لهم وجوب التحرز والتجنب عما يوجب الشقاق والنفاق، وأن يبذلوا جهدهم في حفظ نواميس الأمة والتعاون والتعاضد وحسن المواظبة على اتفاق الكلمة حتى تصان الراية الشريفة المحمدية ويحفظ مقام الدولتين العليتين العثمانية والايرانية".

ووقع على هذه الفتوى المراجع الكبار كالشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني، وعبد الله المازندراني، وشيخ الشريعة الاصفهاني، واسماعيل بن صدر الدين العاملي، ومحمد حسين المازندراني.[٩١٠]

وكما يقول إسحاق نقاش، فإن محتويات الفتوى كانت تشير الى استعداد المجتهدين في العراق لقيادة حركة جهادية. [٩١١]

وقد رحب بالفتوى الشيعية، العالم المصري محمد رشيد رضا، الذي نشرها في "المنار"، وعلق عليها قائلا: "إن الفتوى أول مؤشر على استعداد المؤسستين الدينيتين الشيعة والسُنِّيّة لاعلاء وحدة المسلمين". [٩١٢]

[٩١٠] – المصدر، ص ١٠٨ – ١٠٩ عن مجلة (العلم) سنة ١٩١١ ص ٤٣٤ – ٤٣٦، اعيد نشر هذه الفتوى مع تغيرات طفيفة في العرفان عدد ٦٩ سنة ١٩٨١ ص ٤ – ٥

[٩١١] - المصدر، ص ١٠٩

[٩١٢] - المصدر، ص ١٠٩

وعندماقامت إيطاليا باحتلال طرابلس الغرب وبنغازي في تشرين الأول ١٩١١، أصدر جميع المجتهدين الشيعة الكبار فتوى تدعو الى الجهاد ضد إيطاليا. وأصدروا بيانات تندد باحتلال ليبيا، وقاموا بجمع التبرعات للحرب ضد إيطاليا، والدعوة لحشد المقاتلين للدفاع عنها. وقارن عالم شيعي عربي في كلمة له الغزو الايطالي بالحملة الصليبية ودعا الى الوحدة بين المسلمين كافة.

وكتب القنصل البريطاني: يبدو أن موجة من المشاعر المتعاطفة مع السُنَّة قد اجتاحت الشيعة في "الكاظمين".[٩١٣]

وعندما شنَّ البريطانيون حربهم على الدولة العثمانية، ونزلت قواتهم في الفاو جنوب العراق، هبَّ العلماء الشيعة للدفاع عن العراق والقوات العثمانية وأصدروا الفتاوى بالجهاد، وانخرطوا في عمليات المقاومة.

واستنادا الى التقارير البريطانية فانه بحلول كانون الثاني ١٩١٥ كان التبشير بالجهاد يمارس في كل مسجد من مساجد العراق. وأرسل مبعوثون من مدن العتبات المقدسة الى العشائر يحثونها على قتال البريطانيين باسم الاسلام... وقيل إن زهاء ١٨ الف متطوع جندوا من بين سكان الفرات العرب الشيعة، ووضعوا بامرة القيادة التركية، وكان على رأس المجاهدين شخصيات دينية شيعية بارزة منها شيخ الشريعة الاصفهاني ومهدي الخالصي ومحمد سعيد الحبوبي ومصطفى الكاشاني ومهدي الحيدري ومحسن الحكيم.[٩١٤]

وتجسدت الوحدة الإسلامية في مواجهة الاحتلال البريطاني، في قصيدة للشاعر العراقي محمد حبيب العبيدي (– ١٩٦٣): "لا تقل جعفرية حنفية..لا تقل شافعية زيدية..جمعتنا الشريعة الأحمدية.. وهي تأبى الوصاية الغربية".[٩١٥]

وشكلت الدعوة للوحدة الاسلامية أو التقريب بين المذاهب الاسلامية وتجاوز التاريخ السلبي، أهم بنود الاصلاح الذي قاده جمال الدين الأفغاني في أواخر القرن التاسع عشر. وتبناها من بعده تلميذه الشيخ محمد

---

[٩١٣] - المصدر، ١١٠

[٩١٤] - المصدر، ص ١١٢

[٩١٥] - المصدر

عبده، ثم تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا الذي ذهب شوطا بعيدا في الدعوة الى الوحدة الاسلامية في مجلة "المنار" على قاعدة "التعاون فيما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه"، وضمنها كتابه "السُنَّة والشيعة، أو الوهابية والرافضة".[٩١٦]

وهذا ما عبر عنه أفضل تعبير الشيخ محمد تقي القمي مؤسس "دار التقريب بين المذاهب الاسلامية في القاهرة" بقوله:"إن دعوتنا أن يتحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها، وأن ينظروا فيما وراء ذلك نظرة من لا يبتغي الفلج والغلب، ولكن يبتغي الحق والمعرفة الصحيحة، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالإنصاف والحجة البينة إلى الاتفاق في شيء مما اختلفوا فيه فذاك، وإلا فليحتفظ كل منهم بما يراه وليعذر الآخرين، ويحسن الظن بهم، فإن الخلاف على غير أصول الدين لا يضر بالإيمان، ولا يخرج المختلفين عن دائرة الإسلام" و"ليس من غايتنا أن يترك السُنّي مذهبه، أو الشيعي مذهبه، وإنما نريد أن يتحد الجميع حول الأصول المتفق عليها، ويعذر بعضهم بعضاً فيما وراء ذلك، مما ليس شرطاً من شروط الإيمان ولا ركناً من أركان الإسلام، ولا إنكاراً لما هو معلوم من الدين بالضرورة". [٩١٧]

الدعوة للوحدة الاسلامية بعد الحرب العالمية الأولى

وتعزز الشعور بضرورة الوحدة الاسلامية وتجاوز خلافات الماضي الطائفية، عندما إنجلى غبار الحرب العالمية الأولى عن سقوط الدولة العثمانية ووقوع معظم البلاد الاسلامية تحت براثن الاستعمار، وبدأت الخطوات الأولى لاحتلال فلسطين، فقام أحد كبار المجتهدين الشيعة في العراق وهو الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء بزيارة القدس وصلى الجمعة فيها ودعا الى الوحدة الاسلامية.

وقام بعده أحد مراجع الشيعة الكبار في ايران، وهو السيد محمود البروجردي (١٩٦٠م) بالدعوة الى التقريب بين السُنَّة والشيعة، وأرسل بعثة الى الأزهر الشريف في القاهرة، ليؤسس جمعية تحمل اسم (دار التقريب بين المذاهب الاسلامية) وقد انتمى اليها كبار علماء الأزهر مثل الشيخ المراغي والشيخ شلتوت وغيرهم . وقامت الجمعية باصدار مجلة "رسالة الإسلام".

---

[٩١٦] – القفاري، مسألةُ التّقريب ، ج٢ ص ١٩٢

[٩١٧] – المصدر، ج٢ ص ١٧٨ عن "الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب"، ص ٦٤– ٦٥

ولاقت دعوى البروجردي التوحيدية صدى طيبا في مصر عبد الناصر الذي كان يرفع شعار الوحدة العربية، ويحاول جمع طاقات العالم الاسلامي والعالم الثالث في مؤتمر عدم الانحياز، فبادل الأزهر دعوة المرجعية الشيعية الايرانية باصدار إعلان يعترف بالمذهب الجعفري، وتدريسه في الأزهر الشريف.

الازهر و الاعتراف بالمذهب الشيعي الجعفري

حيث أصدر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت، عام ١٩٥٨ فتوى تنص على "أن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الإمامية الإثني عشرية مذهب يجوز التعبد به كسائر مذاهب أهل السُنَّة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات".[٩١٨]

وقال الشيخ محمد أبو زهرة، وكيل كلية الحقوق في القاهرة:" إن محو الفروق الطائفية، يجب أن يكون غاية مقصودة، ذلك لأن اسباب الخلاف قد زالت، ومن الخطأ أن نتمسك بالاختلاف الطائفي مع زوال اسبابه، وكيف يكون بيننا تنافر فكري بسبب أن عليا أفضل من أبي بكر وعمر، أم انهما افضل منه، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت".[٩١٩]

وشرح أسباب الخلاف بين المسلمين، فقال:"إن الطائفية في الاسلام ليس الأساس فيها مما يتصل بالاعتقاد أو في الأصول التي يجمع عليها أهل القبلة، بل جلها في مسائل ليست من اللب، ولو ادعى بعض الطوائف أنها من اللب، لهذه الاعتبارات نقرر أن الطوائف الاسلامية يجب ان تتفق وتتلاقى على محبة الله

---

[٩١٨] - القاسم، اسعد، ازمة الخلافة، ص ٢٧٤ عن / عن رسالة الاسلام، العدد ٣ من السنة ١١ ص ٢٢٧ عام ١٩٥٩

[٩١٩] - أبو زهرة، محمد، الوحدة الاسلامية، سلسلة الثقافة الاسلامية، المكتب الفني للنشر، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٤٦

ورضاه، وتحت ظل كتاب الله تعالى والسُنَّة الصحيحة والمقررات الاسلامية التي علمت من الدين بالضرورة، ولا مانع أن نختلف ولكن يكون اختلاف آحاد في منازع علمية لا تفرقة فيها، ولا يكون اختلاف جماعات وطوائف تفرق وتحصل الأمة الاسلامية قطعا متنابذة متدابرة متنافرة". [٩٢٠]

وتحدث أبو زهرة عن التقريب فقال:" التقارب والتقريب: أن تتقارب الطوائف الاسلامية، فان دراسة التراث الاسلامي ككل لا يقبل التجزئة بحيث تدرس كل طائفة ما عند الأخرى، يقرب ما بين الطوائف ويزيل تلك النعرة غير الطبيعية التي خلفتها بعض القرون في ماضي الاسلام، واننا بهذا يتحقق لنا الغرض المقصود، وهو محو الطائفية في الاسلام وتقريب ما بين الطوائف، بحيث يكون خلافها مذهبيا كالخلاف الذي بين المالكية والحنابلة، ونحن ندرس بعض آراء الامامية على اساس انه مذهب كالمذاهب التي ندرسها، وكذلك ندرس الزيدية". [٩٢١]

وأشار الى أن مصر أخذت قوانين في الميراث والطلاق من الامامية. [٩٢٢] كما دعى الى تشكيل مجمع علمي إسلامي، لدراسة المسائل الدينية كلها، وإصدار رأي جماعي في كل مسألة، على أساس الأكثرية، وإمضاء الحكم الصادر عن المجمع حتى يجدَّ ما يوجب تغييره. [٩٢٣]

ودعى كذلك الى إنشاء معاهد جامعة في دراستها للمذاهب الاسلامية كلها، وقال:"لا جدال في وجوب التوحيد الثقافي والنفسي، وأنه لن توجد لنا وحدة اسلامية إلا إذا كان قوامها التوحيد الثقافي، وانه لا بد من يجتمع على المذاهب في صعيد واحد". [٩٢٤] واستدرك قائلا:" التقريب لا يعني محو المذهبية. لسنا

---

[٩٢٠] - المصدر.

[٩٢١] - المصدر، ص ٤٥

[٩٢٢] - المصدر، ص ٤٩

[٩٢٣] - المصدر، ص ٥٠

[٩٢٤] - المصدر،ص ٥١

نقصد بمحو الطائفية محو المذهبية، وادماج المذاهب الاسلامية في مذهب واحد، فان ذلك لا يصح أن يكون عملا ذا فائدة، لأن إدماج المذاهب في مذهب واحد ليس عملا علميا يحمد عند العلماء، فان كل مذهب مجموعة من المعلومات أقيمت على مناهجه تتجه في مجموعها الى النصوص الاسلامية والبناء عليها، وهو ثمرات جهود لأكابر العلماء في هذا المذهب، وكل إدماج فيه إفناء، وليس من المصلحة العلمية في شئ إفناء تلك الجهود الفكرية التي قامت في ظل القرآن والسُنَّة الصحيحة الثابتة، يجب أن تكون كل الجهود قائمة على أصولها، ويرجع اليها ويختار منها عند العمل، أصلحها للبقاء واكثرها ملاءمة مع الأزمان، أو أقواها اتصالا بالقرآن، مع بقاء المصدر في موضعه يرجع اليه".[٩٢٥]

وقال:"إن الوحدة التي نبتغيها لا تمس سلطان ذي سلطان يقوم بالحق والعدل بين المسلمين، ولا شكل الحكم في الاقاليم الاسلامية، فلكل إقليم أسلوب حكمه ما دام يؤدي الى إقامة الحق والعدل فيه ويحقق المعاني الاسلامية السامية. إن الاسلام دين الوحدة الجامعة الشاملة، كما هو دين التوحيد الخالص. [٩٢٦]

وفي سياق الاتجاه العام للوحدة العربية والاسلامية، أصدر الدكتور مصطفى محمد الشكعة (٢٠١١م)[٩٢٧] كتابه الشهير "إسلام بلا مذاهب" الذي صدرت منه أكثر من عشرين طبعة منذ عام ١٩٦٠. والذي استعرض فيه أشهر المذاهب الإسلامية، واستنكر الخلافات بين الفرق الإسلامية، وقال متألماً: " هذه الفُرقة القاتلة، وتلك الدماء المهراقة على مر القرون لم تفد الإسلام في شيء، بل نخرت عظامه وأضعفت مقاومته لتيارات الغدر والإستعمار" . وطرح فكرة التقريب بين المذاهب التي كان البعض يراها بأنها ساذجة أو مستحيلة أو غير مقبولة، وقال: إن الخلاف بين الإمامية و السنة، على الإمامة، خلاف يمكن تفادية،

[٩٢٥] - المصدر، ص ٤٧

[٩٢٦] - أبو زهرة، محمد، الوحدة الاسلامية، ص ٢٩

[٩٢٧] - الشكعة، مفكر وأستاذ جامعي مصري وعضو مجمع البحوث الإسلامية والعميد الأسبق لكلية الآداب جامعة عين شمس، ورئيس لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية، وعضو لجنة الحوار الإسلامي المسيحي بالأزهر الشريف. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

فليس هناك في الوقت الحاضر نظام لحكام المسلمين عن طريق الإمام. وإن ما يقرب الفرق الاسلامية هو أكثر بكثير مما يفرقها. و لأجل ذلك كان لزاما أن نبدأ في إعادة حساباتنا من جديد و أن نوحد الصفوف .

وذهب الشكعة الى أن معظم الفوارق بين المذاهب واهية ولا يجوز أن تكون سببا للفرقة. وأن سبب التطاحن بين فرق الإسلام أساسه إستغلال بعض الأشخاص للخلافات البسيطة ومحاولة تضخيمها لخدمة مصالحهم السياسية أو الإقتصادية. إضافة الى الغلو عند بعض المذاهب ومبالغتهم في تصحيح مذهبهم وتخطئة المخالفين، مما يؤدي بذلك الاختلاف الى الانتقال من ساحة الفكر إلى ساحة السيف.

وقد حاول الشكعة في كتابه إيضاح نقاط الغلو والشطط في كل مذهب، من أجل التقريب بين المذاهب جميعا و ضمها تحت راية واحدة هى راية الإسلام.

ولكن دعوة الشكعة الى "إسلام بلا مذاهب" لاقت معارضة من بعض الذين اعتبروها دعوة عاطفية أكثر منها واقعية، وتجاوزاً للطبيعة التي جبل الناس عليها، ومنهم المسلمون الذين لا يمكن أن يتوحدوا في فرقة واحدة. وأن الطريق السليم الذي يؤثر إيجاباً في التقارب بين الفرق والمذاهب الاسلامية هو الاعتراف بالآخر، واحترام التعدد، وذلك بإلغاء كل ما وضع من أحاديث الافتراق وما كتب في تواريخ في الملل والنحل لنصرة الفرقة الناجية.

وقام الشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٩٩٩) (رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى في لبنان) بالدعوة الى صياغة علم الكلام على أساس اعتبار: الوحدة أصلا إعتقاديا مقدسا، ونقد علم الكلام التقليدي الذي طالما أعاق الوحدة بين السُنَّة والشيعة.[٩٢٨]

---

[٩٢٨] - زقاقي، الاساس التشريعي، ص ٦١ عن فرح موسى، شمس الدين، ص ٣٥٠ – ٣٨٦

الفصل الثاني

هيمنة أحد المذاهب على الأخرى

في مقابل خيار الوحدة الاسلامية، اختارت الحركة الوهابية خيار الهيمنة على الشيعة وإبادتهم وإقصائهم، وقد تحدثنا بعض الشئ عن هذا الخيار في مقدمة الكتاب، بناء على نظرية الوهابية للشيعة بأنهم كفار ومن أتباع دين آخر غير الاسلام..[٩٢٩]

وأعرب محي الدين الخطيب في مقدمته لكتاب الشيخ عبد الله السويدي عن "مؤتمر النجف" الذي عقده الملك الإيراني نادر شاه الأفشاري سنة ١١٥٦هـ /١٧٤٩م، بأن الطريقة التي يمكن بها التقريب هي أن يتنازل أتباع أحد المذهبين عن مذهبه ويلتحق بأهل المذهب الآخر. [٩٣٠] وضرب لذلك مثلا بقرار علماء الشيعة في مؤتمر النجف عام ١١٥٦ هـ، في ظل دولة نادر شاه الافشاري.

وخلص الى أن فرق المسلمين السُنّيّة متقاربة في الأصول، ومختلفة في الأمور الثانوية، ولذلك يمكن التفاهم والتقارب بين الفرق المتقاربة في الأصول، ويستحيل هذا التفاهم مع الشيعة الإمامية لأنها تخالف جميع المسلمين في أصولهم. [٩٣١]

---

[٩٢٩] – الخطيب، محب الدين، الخطوط العريضة التي قام عليها دين الشيعة الامامية، (١٩٦٠) ص ٥

[٩٣٠] – السويدي، عبد الله بن حسين بن مرعي العباسي (١١٧٤هـ)، "مؤتمر النجف" مع مقدمة لمحب الدين الخطيب، ص ٨ مطبعة البصري، بغداد، بدون تاريخ

[٩٣١] – المصدر، ص ٣٥ و ٤٣

وفي محاولته المستميتة من أجل محاربة دعوة التقريب التي أطلقها الشيعة، أكد الخطيب في مقدمته لكتاب السويدي: أن الفرقة والإختلاف أنواع قد تكون فى الفكر وقد تكون فى المنهج وقد تكون فى السياسة وقد تكون فى العقيدة وهى أشدها، وقال: ما يهمنا ليس وحدة المسلمين وإجتماعهم وحسب ! بل ما يهمنا أن يجتمعوا على التوحيد والعقيدة الصحيحة، فإجتماعهم على العقيدة وتفرقهم فيما سواها كالسياسة وطرق التفكير وغيره أفضل من أن يجتمعوا على قلب رجل واحد فى السياسة والفكر وغيره ولكن مختلفون ومتفرقون فى الإعتقاد! [٩٣٢]

القفاري: لا للوحدة بين السُنَّة والشيعة، ولا بد لهم من العودة الى الاسلام

وانسجاما مع هذا الموقف السلبي الرافض لأي تقارب أو حوار بين السُنَّة والشيعة، ذهب كثير من الوهابيين الى عدم ضرورة أو جدوى الاتحاد بين المسلمين، أو بين ما يسمى بأهل السُنَّة وما يسمى بالشيعة، لأن هؤلاء بنظره خارج الدين وفرقة منحرفة، وعليهم العودة الى الاسلام أو بالأحرى الى أهل السُنَّة الذين يمثلون الاسلام الصحيح.

يقول ناصر القفاري:" أن مسألة التقريب والتأليف والوحدة استُغلت لإعطاء الباطل صفة الشرعية.. ومنح الدخيل من الأفكار صفة الأصيل، لتبقى بذور الفتنة وأُسس الخلاف بين الأُمة لتشتعل في أي لحظة

[٩٣٢] – حيث قال في مقدمته لكتاب السويدي، عبد الله بن حسين بن مرعي العباسي (١١٧٤هـ)، "مؤتمر النجف"، ص ٨ – ٩:" إن مجتهدي الشيعة من الايرانيين وعلماء النجف اجتمعوا في يوم الخميس ٢٥ شوال سنة ١١٥٦ بمحضر من علماء أهل السنة والجماعة، في أردلان والأفغان وما وراء النهر (بخارى وما اليها) برئاسة علامة العراق السيد عبد الله السويدي، ورعاية نادر شاه ورماقبته لأعمال المؤتمر. فقرر علماء الشيعة ومجتهدوهم جميعا بلا استثناء، وعلى رأسهم عظيمهم الديني الملا باشي (علي أكبر) أنهم يتنزلون على مذهب أهل السنة في الصحابة، ويرفعون كل محدثات الخبيث الشاه اسماعيل الصفوي، ويعترفون بأن اتفاق الصحابة على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي... فهذا العمل الذي قام به مجتهدو الشيعة وعلماؤهم سنة ١١٥٦ في محضر عام يصح أن يسمى "تقريبا" لأنه أزال "المكفرات التي كان يفترق بها الشيعة عن أهل السنة افتراقا أساسيا".

يراد لها. ولا شك أن الإسلام قد رسم للأُمة طريق وحدتها، قال تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... " (آل عمران: آية ١٠٣) فهو اعتصام بحبل الله واجتماع على هدى الله ... وما حصلت الفرقة إلا بالبعد عن هذا "المنهج". وقد بيّن القرآن الكريم المنهج الذي يلجأ إليه المسلمون عند التنازع والاختلاف، قال تعالى: "فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ" (النساء: آية ٥٩) ... وإن نشب صراع وقامت معارك فالله يقول: "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ" (الحجرات: آية ٩) . لكن هذا "المنهج" خاص بالمسلمين الذين يهتدون بهدى الله، أما من يتسمى بالإسلام وهو ضد الإسلام فإنه يجب كشفه لتعرف الأمة عداوته، ولا يجدي معه سلوك هذا السبيل". [٩٣٣]

ولذلك يرفض القفاري آراء رواد التقريب بين المذاهب الاسلامية في القرن العشرين، من السُنَّة والشيعة، كمفتي مصر الشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والشيخ محمد جواد مغنية والشيخ عبد الله الخنيزي والشيخ محمد تقي القمي وغيرهم من "جماعة التقريب" الذين قالوا:"أنه لا خلاف بين أهل السُنَّة والشيعة في شيء من أصول الإيمان، أو أركان الإسلام أو ما عُلم من الدين بالضرورة ؛ وإنما هو خلاف في بعض المسائل الفلسفية والآراء الكلاميّة التي لا صلة لها بأصول العقيدة . أو لا خلاف بينهم أصلاً إلا في بعض مسائل الفروع". [٩٣٤] ويقول:" إن دعوى عدم وجود خلاف أساسي، على الرغم من وجوده أمر خطير، لأن هذه "فتوى" وحكم على الضلال والباطل بالإسلام. وهذا باب من أبواب الصد عن دين الله وشرعه". [٩٣٥]

وهذا ما يردده أيضا موسى جار الله في "الوشيعة" ، و إحسان إلهي ظهير في "السُنَّة والشيعة" ، و إبراهيم الجبهان في "تبديد الظلام".[٩٣٦]

---

[٩٣٣] – القفاري، مسألةُ التّقريب ، ج١ ص ٧

[٩٣٤] – المصدر، ج١ ص ٨ نقلا عن مجلة "دار التقريب": "رسالة الإسلام" السنة الأولى، العدد الأول، ١٣٦٨ هـ، مجلد ١، ص ٢٢ – ٢٣ و ص ٩٣

[٩٣٥] – المصدر، ج ١ ص ٩

[٩٣٦] – المصدر، ج ١ ص ١٨

الفصل الثالث

التعايش والتعاون

إذا وضعنا خيار الوحدة جانبا، ورفضنا خيار التكفير والاحتراب والاقتتال، فان خيار التعايش السلمي والاحترام والتعاون بين الطوائف المختلفة، يبدو خيارا معقولا وعمليا وممكنا، بل ومطبقا في كثير من المجتمعات الاسلامية وغير الاسلامية، ومنذ أمد بعيد. ولا سيما أن الاختلاف الطائفي الموروث يبدو في كثير من الأحيان كقدر لا مفر منه ولا علاج له منذ ١٤٠٠ سنة، وأنه سوف يستمر الى أمد غير منظور، ولا ينتهي بسهولة.

وهذا الخيار يتطلب قدرا كبيرا من التسامح والالتزام بالحد الأدنى من القوانين الاسلامية أو قوانين حقوق الانسان، بالاعتراف بالآخر مهما كان، وضمان حريته في الاعتقاد، خاصة وأنه يعتنق المبادئ الأساسية من التوحيد والنبوة والمعاد، ولم يخرج عن الاسلام.

وهو خيار ينقله الشيعة عن الإمام جعفر الصادق أنه قال: "الاسلام شهادة أن لا اله الا الله، والتصديق برسوله، حقن الدماء وعليه جرت المناكح والموارث، وعلى ظاهره جماعة الناس". وقد سأله الشيعة: كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس (أي من المخالفين) فقال:"تؤدون الأمانة اليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم وتشهدون جنائزهم". [٩٣٧]

وينقل هذا الرأي أيضا عن الشيخ السوري محمد بهجة البيطار (١٩٧٦م) الذي قال بعد حوار فاشل مع الشيخ العراقي محمد الخالصي (١٩٦٣م):" لنتفق جميعاً على أن لكلٍّ دينه ومعتقده ولنتعاون فيما بيننا

---

[٩٣٧] - الكليني، اصول الكافي، ٢/ ٦٣٢

كما تتعاون الدول المختلفة الأديان والعقائد". كما نسب هذا الرأي إلى السيد محسن الأمين العاملي (١٩٥٢م). [٩٣٨]

وربما اشتهر مؤخرا الشيخ يوسف القرضاوي بالدعوة الى هذا الخيار (التعايش والتعاون) مع اشتراطه بعدم التبشير بالمذاهب في المجتمعات الطائفية الأخرى، واعتبار ذلك خرقا لأسس التعايش. [٩٣٩]

يفضل الدكتور فاضل الأنصاري خيار التعايش القائم على التسامح والاحترام والاعتراف بالآخر، على المطالبات والأطروحات المبتسرة مثل "الدمج بين المذاهب" أو "إسلام بلا مذاهب" أو "الدعوة الى مذهب واحد". ويقول إنها لا تقوم على أسس واقعية، ولا تقر بأهمية التعددية العقائدية، أو أهمية الرأي الآخر لتحسين الأداء والتحرك الى الصواب، وانها تتجاهل حقيقة مشروعية التمذهب أصلا، كضرورة من ضرورات المعاصرة. [٩٤٠]

ويدعو بدلا من ذلك الى خيار "التعايش المنفتح بين المذاهب" والاعتراف بأن الاسلام ليس حكرا على أحد، وأن حرية التفكير والرأي والاجتهاد متاحة للجميع، وأن الخطاب الاسلامي يمكن أن يكون متعددا. [٩٤١]

ورغم كون هذا الخيار (التعايش والتعاون) مثالياً لحل المشاكل الحالية، الا أنه يعاني من بعض الصعوبات، فبالاضافة الى الصراعات السياسية ومحاولات الهيمنة من هذه الطائفة على تلك، في أكثر من زمان ومكان، فان التركة الثقافية لمختلف الطوائف الاسلامية تحول دون تحقيقه أيضا.

---

[٩٣٨] – القفاري، مسألةُ التّقريب ، ص ٢٥٨ ج ٢ عن "الإسلام والصحابة الكرام بين السنّة والشيعة" لمحمد بهجة البيطار: ص ١١٦

[٩٣٩] – راجع مقابلة القرضاوي مع صحيفة "المصري اليوم" المصرية، في التاسع من أيلول ٢٠٠٨

[٩٤٠] – الأنصاري، قصة الطوائف.. ، ص ٥١٦

[٩٤١] – المصدر، ص ٥١٦

ولو فتشنا في صفحات التراث الطائفي لوجدنا التعصب ينبع لدى من يعتبر الولاء لأهل البيت شرطا من شروط الإيمان، وتكفير من لا يعتقد بذلك، كما يقول الشيخ المفيد، زعيم الشيعة الامامية الاثني عشرية في بداية القرن الخامس الهجري: "اتفقت الإمامية على أن من أنكر إمامة أحد من الائمة وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فرض الطاعة، فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار". وإنه:"اتفقت الامامية على أن أصحاب البدع كلهم كفار، وعلى الامام أن يستتيبهم عند التمكن، فان تابوا عن بدعهم وصاروا الى الصواب، وإلا قتلهم لردتهم عن الايمان، وأن من مات منهم على تلك البدعة فهو من أهل النار".[٩٤٢]

كما ينبع التعصب ممن يضخم الموقف من الصحابة والمسائل السياسية التاريخية الى مستوى العقيدة، ويعتبر كل من يفضل عليا على عثمان أو على أبي بكر وعمر مبتدعا "رافضيا" خارجا عن الملة والدين.[٩٤٣] أو كما ينقل عن البخاري قوله: " لا يجوز السلام على الشيعة ولا يشهدون، ولا تؤكل ذبائحهم، وإنه لا يبالي اذا ما صلى خلف اليهود والنصارى أو الجهمية والشيعة".[٩٤٤]

وهذا ما يدل على أن التحدي الذي يواجه خيار التعايش يأتي من طرفين، هما:

أولا: الغلاة الذين يستفزون الآخرين بسب رموزهم وأئمتهم التاريخيين.

وثانيا: السلفيون الذين يقيمون حكومات دينية ويحاولون فرض أنفسهم وأفكارهم على الآخرين بالقوة، ويكفرون من لا يتطابق معهم في العقيدة والسلوك، وأنهم فقط من يمثل الاسلام والحق والفرقة الناجية، وأن الآخرين مبتدعة وكفار أو ضالون.

---

[٩٤٢] - المفيد، أوائل المقالات ص ١٦ و ص ٤٤

[٩٤٣] - كما يقول الذهبي: "البدعة على ضربين: فبدعة صغرى، كغلو التشيع، أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرق ... ثم بدعة كبرى كالرفض الكامل والغلو فيه والحط على أبي بكر وعمر (رض) فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة". الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ١/ ٥-٦

[٩٤٤] - البخاري، خلق افعال العباد ١٢٥

وهو ما نجد له نماذج كثيرة في التاريخ والزمن المعاصر، ولعل ما قامت به منظمة "داعش" الوهابية أو تنظيم الدولة الاسلامية، التي أعلنت الخلافة في الموصل في حزيران ٢٠١٤ من إعلان الحرب على الشيعة، أفضل مثال على عدم إيمان المتطرفين بالتعايش السلمي فضلا عن التعاون، والاتحاد.

ومن هنا فان خيار التعايش السلمي يسود في ظل الأنظمة العلمانية أو الدينية غير المتعصبة، ويتعزز بالقوانين الرادعة عن الاعتداء على الآخرين واستفزازهم، وبالالتزام بالعدل والمساواة في المعاملات. كما يتعزز أيضا بالتزاوج والاختلاط في الدراسة والعمل والعبادة.[٩٤٥]

ولئن كان التعايش يتهدد من استبداد طائفة بالسلطة وما يستتبعه من ظلم وتمييز وإقصاء، فان نظام المحاصصة السياسية والادارية كفيل بتخفيف التوتر الطائفي، كما هو الحال في لبنان.

وهذا ما يقترحه كاظم شبيب، في كتابه "المسألة الطائفية، تعدد الهويات في الدولة الواحدة". إذ يتبنى الديمقراطية والمواطنة الدستورية ودولة الانسان، كحل للأزمة الطائفية.

---

[٩٤٥] - كترجمة تفصيلية وعملية لخيار التعايش قدمت المعارضة الشيعية في المملكة العربية السعودية الممثلة في (الحركة الاصلاحية) بعد اتفاقها مع الحكومة سنة ١٩٩٢ جملة من المطالب الى الدولة السعودية:

١- اعلان الحكومة السعودية احترامها للمذهب الشيعي
٢- تعمير مراقد الأئمة في البقيع
٣- السماح للشيعة ببناء مساجدهم وحسينياتهم
٤- جعل التعليم في مناطق الشيعة يتفق مع مذهبهم
٥- حرية التعبير والتفكير وطبع الكتب واصدار المجلات وفق القانون
٦- حرية انشاء الحوزات العلمية والمدارس
٧- وقف حملات التشهير بالشيعة والطعن في مذهبهم
٨- الغاء التمييز ضد الشيعة في المؤسسات التعليمية والجامعية والوظائف الحكومية والسياسية والعسكرية والأمنية
٩- عدم التمييز بين المحاكم الشرعية الشيعة والسنية
١٠- وضع حد للاهمال والحرمان. **الزقاقي، الاساس التشريعي، ص ٢٨**

ولكن شبيب لا يضع خارطة طريق للوصول الى تلك الاهداف في ظل الدول الدينية التي تعتبر الديمقراطية كفرا وترفض الدستور وتتمسك بالفكر السياسي الاستعلائي والاقصائي السُنّي أو الشيعي.

وبالاضافة الى التعايش، فان قدرا أدنى من الاتحاد بين المسلمين يمكن تحقيقه من خلال التعاون السياسي، حول القضايا الرئيسية التي تهم الأمة كقضية فلسطين، أو محاربة الاستعمار.

يقول فرح موسى: إن معظم فقهاء الشيعة الامامية دعوا الى الوحدة الاسلامية على أساس الالتزام السياسي بقضايا المسلمين. [٩٤٦] ويتحدث في كتاب له، عن تقديم رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى في لبنان الشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٩٩٩) خارطة طريق نحو إقامة الوحدة بين المسلمين، على أساس التعارف والتعايش والتعاون، تتضمن ما يلي:

١- مشاريع اقتصادية كبرى مشتركة

٢- مجلس شورى اسلامي

٣- حركة نقابية اسلامية

٤- منظمات كشفية مشتركة

٥- تعليم اللغات الأساسية للشعوب الاسلامية

٦- تدريس جغرافية العالم الاسلامي

٧- تدريس تاريخ المسلمين

٨- تشجيع السياحة وخاصة للطلاب بين الدول الاسلامية

٩- توجيه الاعلام المكتوب والمرئي والمسموع لتوجيه المسلمين نحو الوحدة. [٩٤٧]

---

[٩٤٦] - فرح موسى: الشيخ شمس الدين، ص ٣٦٩

[٩٤٧] - المصدر، ص ٣٧١

إن خيار الوحدة على أساس الالتزام السياسي بقضايا المسلمين المصيرية، هو ما يؤكد عليه أيضا محمد حسين فضل الله (٢٠١٠م) الذي يقول: إن الوحدة في القضية السياسية أقرب الوحدات الى الواقعية، ويستشهد بتجربة الامام علي مع الخلفاء الراشدين وقوله:"لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين".[٩٤٨]

ولكن الشيخ المغربي أحمد الزقاقي يرفض خيار الاتحاد حول القضايا السياسية، ويصفه بأنه خيار ظرفي مصلحي مؤقت ينتهي بانتهاء مشاكل العالم الاسلامي. ويقول: إن الوحدة على أساس الالتزام السياسي غير ناجحة. ويقترح بدلا من ذلك: الوحدة على قاعدة الاصلاح العلمي.[٩٤٩] ويشترط شروطا سياسية أخرى للوحدة، هي:

١- صياغة دستور الوحدة بموافقة شعبية، وعلى أرضية اسلامية غير مذهبية، بما لا يعني إلغاء المذاهب أو إدماجها أو تغليب بعضها على بعض، واعتماد آليات الشورى في الحكم.
٢- القطع مع نموذج الدولة السلطانية الملوكية الذي برز بعد الانقلاب على الخلافة الراشدة، لقيامها على الجباية لا على الهدية، وعلى الوراثة وبيعات الإكراه لا على الشورى والاختيار، ويتبع ذلك لزوم تحديد جديد لمعنى الخلافة والامامة.
٣- الالتزام الاخلاقي والسياسي بقضايا المسلمين
٤- تطوير منظمة المؤتمر الاسلامي (منظمة التعاون الاسلامي) لتفي بمتطلبات الوحدة.[٩٥٠]

ويضيف اليها شروطا تربوية نفسية، مثل:

---

[٩٤٨] - محمد حسين فضل الله، تأملات في آفاق الوحدة الاسلامية، مجلة المنطلق، عدد ١١٣، ص ٢٨ والزقاقي، الاساس التشريعي، ص ٥٣

[٩٤٩] - الزقاقي: الأساس التشريعي، ص ٥٧

[٩٥٠] - المصدر، ص ١٧٤

١- لزوم حسن الجوار والأمانة وسلامة الصدر للمسلمين والكف عن المخالفين، واجتناب التقاطع والتدابر وتحري الاخلاص في كل شئ.

٢- إخضاع الوحدة لمنطق الأصالة، والإرتكاز في الوجدان النفسي والروحي والمبدأ الاسلامي، لا لمنطق الضرورة.

٣- العودة بالولاية العامة بين المسلمين الى حقيقتها كأداة ربط أفقي قوامه التناصر والاخوة والإخلاص، وكأداة ربط عمودي قوامه الشورى وتعاون الحاكم والمحكوم على خدمة دين الله ومصلحة الأمة. [٩٥١]

وبما أنه يصعب أو يستحيل اقامة إجماع ثقافي أو ديني بين الناس، كما يقول كاظم شبيب، فانه يمكن بدلا من ذلك، في نظره، الوصول الى إجماع سياسي. [٩٥٢]

ويفرق شبيب بين المذهبية التي تعني الالتزام بمذهب فقهي معين، وبين الطائفية التي تعني التمييز ضد الآخرين ومعاداتهم، لا بمعنى إلغاء الطوائف فالطائفية الدينية حالة طبيعية وإيجابية كونها نتاج التاريخ الاجتماعي والديني للمجتمعات. ويقترح: إلغاء الطائفية من العقل الفردي، كخطوة أولى نحو الغاء الطائفية السلبية من الطوائف والمجتمع والاسرة والمؤسسات الأهلية والحكومية والدولة. [٩٥٣]

ويركز كاظم شبيب على معالجة الطائفية بالديموقراطية. [٩٥٤] ويشيد بالديمقراطية التوافقية، التي قدمها آرنت ليبهارت في عام ١٩٦٩ كبديل يتحاشى استثارة الولاءات الأولية ذات الصلابة الشديدة والتي لا سبيل الى استئصالها او تذويبها، وتقوم على أربع سمات أساسية:

---

[٩٥١] - المصدر، ص ١٧٥- ١٧٦

[٩٥٢] - شبيب، كاظم، المسألة الطائفية، ص ١٤٣

[٩٥٣] - المصدر، ص ٢٥٧

[٩٥٤] - المصدر، ص ٣٠٥

١- الحكم من خلال ائتلاف واسع

٢- الفيتو المتبادل

٣- التمثيل النسبي

٤- الاستقلال النسبي لكل جماعة في إدارة شئونها الداخلية. [٩٥٥]

وهو ما تذهب اليه أيضا الباحثة "ملغا ملمين بنغسيو" في أطروحة الماجستير التي قدمتها في الجامعة النرويجية للعلوم والتكنولوجيا في عام ٢٠٠٤ وتناولت فيها ١١٨ مجتمعا ما بعد الصراع، في الفترة بين ١٩٨٥ – ٢٠٠٢ وخلصت الى أن الديمقراطية التوافقية هي أكثر الصيغ السياسية ملاءمة للمجتمعات ذات الانقسامات الحادة، وهي الأكثر قدرة على حفظ السلام الدائم في مجتمعات ما بعد الصراع، كما أنها قادرة على ضمان الاستقرار السياسي في المجتمعات التي تشهد تنافسا حادا بين الجماعات المختلفة. [٩٥٦]

وفي هذا الإطار يتحدث محمد المختار الشنقيطي، فيقول:"الصراع السني – الشيعي هو عرض لأزمة أعمق وهي ما أسميه: الأزمة الدستورية في الحضارة الاسلامية، فهذا الصراع لو وضعناه في سياق الخلاف داخل الأديان، فهو ليس صراعا عميقا من الناحية الاعتقادية، وانما الذي جر كل هذه الدماء عبر التاريخ هما مسألتنان: شرعية السلطة والذاكرة التاريخية".[٩٥٧]

ويتفق معه محمد المحفوظ، الذي يرجع المشكلة الطائفية الى الأزمة الدستورية، ويقول:"الطائفية كمشكلة هي وليدة بنية الدولة التي لا تتسع لجميع المواطنين، ووليدة الخيارات السياسية المتبعة، فهي ذات طبيعة سياسية، ويستخدم السياسي الديني لتسويغ وتغطية نزعاته الإقصائية والنبذية والتمييزية".[٩٥٨]

---

[٩٥٥] - المصدر، ص ٣٣٩

[٩٥٦] - **المصدر**، عن كتاب: الديمقراطية التعددية في مجتمع متعدد، ص ٤٥

[٩٥٧] - الشنقيطي، محمد المختار، الخلافات السياسية بين الصحابة. المصدوقي، الدولة المدنية.. كحل للمسألة الطائفية، مقال في جريدة القدس العربي، بتاريخ ٢٠١٣/١١/٢٢

[٩٥٨] - المصدر

الفصل الرابع

الحوار بين المذاهب

إن الحل السابق: (التعايش والتعاون) يحاول تقديم حل للمشكلة الطائفية على مستوى المجتمع وحل الخلاف بين أتباع المذاهب المختلفة، ولم يقترب من موضوع الاختلافات الفكرية والسياسية والفقهية بين السُنَّة والشيعة، ولذلك فانه لم يستطع حل الخلاف الطائفي بصورة جذرية، ومع أنه تضمن حلا عمليا دستوريا وقانونيا للصراع بين الطوائف كجماعات انسانية، إلا أنه لم يستطع إقتلاع القنابل الموقوتة في العلاقة بين الطرفين، والتي تنفجر بين حين وآخر، كما لم يستطع أن يقضي على جدران العزلة والكراهية والأحقاد الموروثة، التي تؤججها بعض العادات والتقاليد والممارسات الخاطئة هنا أو هناك.

وبالتالي فإن الحل الأفضل من التعايش هو الحوار الذي يغوص في العمق ليزيل الخلافات الفكرية والفقهية، ويقرب بين الطرفين تقريبا حقيقيا دائما وصلبا. وفي مقدمة الحوار لا بد من تعرف كل طائفة على الطائفة الأخرى، كما قال الشيخ محمد تقي القمي سكرتير جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية في مصر، إن "جهل كل فريق بما عند الآخر جهلا مطبقا، جعل الشيعة يخلطون بين أهل السنة والنواصب، وجعل أهل السنة يخلطون بين الشيعة والغلاة".[٩٥٩]

---

[٩٥٩] - في مقدمته لكتاب (بين الشيعة وأهل السنة) للدكتور سليمان دنيا، مدرس الفلسفة وعلم العقيدة بكلية أصول الدين، وعضو الجمعية الفلسفية المصرية.

وقبل أن نقوم باستعراض الخطوات الجادة التي بذلت وتبذل في هذا المجال، لا بد أن نشير الى ضرورة تكوين الصورة الواعية العلمية الدقيقة عن النفس والآخرين، من خلال الواقع وليس من خلال العناوين العامة الموهمة، أو الكتب الصفراء المعادية أو القديمة والبائدة والتي تعبر عن وجهات نظر أصحابها في زمن من الأزمان، فإن من المعلوم أن الفرق المختلفة مرت بمراحل من التطور، والتشعب والتعدد والافتراق، وضمت الكثير من التيارات والأحزاب والفرق، ولا يمكن النظر اليها كفرقة واحدة صلدة تؤمن وتلتزم بكل ما تفتقت عنه أذهان الزعماء والمشايخ السابقين، وما كتب الأولون.

ومن البديهي أن هذه الصورة العلمية عن الآخرين لا يمكن تكوينها في ظل الحروب والأجواء المتوترة والعقد النفسية، وانما فقط في ظل الأجواء البناءة الهادئة المسئولة التي تبحث عن الحل الجاد وتعزيز العلاقات الأخوية بين الطوائف الاسلامية.

وإذا أردنا استعراض أهم نقاط الخلاف بين السُنَّة والشيعة، فيمكننا العثور على المواضيع التالية:

١- الموقف من القرآن وسلامته، والاعتماد عليه كمصدر أول للتشريع في الاسلام.

٢- نظرية الإمامة الشيعية، القائمة على النص والعصمة والوراثة في سلالة أهل البيت.

٣- الموقف السلبي من الصحابة وسبهم ولعنهم باعتبارهم مغتصبين لحق الامام علي بالخلافة، في مقابل القول بعدالة جميع الصحابة وتقديسهم وعدم السماح بنقدهم.

٤- الموقف من أحاديث البخاري ومسلم وما تتضمنه من فكر استبدادي، يأمر بالخضوع للطغاة والظالمين، ويحرم الثورة عليهم.

٥- إيمان أهل السُنَّة بنظرية القدر الجبرية.

٦- الخلافات الفقهية كالمتعة لدى الشيعة، ورضاعة الكبير لدى السُنَّة.

٧- وقضايا جزئية أخرى كالأذان والوضوء والتكتف والإسبال في الصلاة

٨- الاحتفال بعاشوراء

وهذه نقاط خلافية توجد عند بعض الشيعة وبعض السُنَّة، ولا يعني وجودها لدى فريق من هؤلاء أو أولئك أن جميع السُنَّة أو جميع الشيعة يؤمنون بها أو يلتزمون بها أو يمارسونها، ولكنها بصورة عامة توجد في تراثهم أو فقههم أو في أوساط العامة منهم.

ولقد جرت وتجري حوارات كثيرة بصورة حرة عبر الكتب، وفي مؤتمرات وندوات تعقد لذلك، وخاصة تلك المؤتمرات التي تعقدها الجمهورية الاسلامية الايرانية في الداخل والخارج بهدف التقريب وتعزيز الوحدة الاسلامية، وكذلك المؤتمرات التي تعقدها منظمة المؤتمر الاسلامي (كمؤتمر جدة ٢٠١٢) والتي أوصت مرارا بضرورة عقد حوارات بين أبناء المذاهب الاسلامية، والاعتراف المتبادل بين المذاهب الثمانية.

"إن الخلافات الطائفية لا تتعلق بمبادئ الدين الثابتة، أو ضروريات الإسلام، وذلك لأن الإنسان المسلم ملزم بالعقيدة الإسلامية الواردة في القرآن الكريم، وفيما عدا ذلك فان كل شيء ظني واجتهادي ومختلف فيه. وفي الوقت الذي توجد في الدين قواعد لا يجوز أن يختلف عليها إثنان؛ توجد اجتهادات ظنية لا يجوز أن تكون سببا للاختلاف بين أثنين، وإنما هي مدعاة للحوار والنقاش. ومن تلك الأمور الخلاف بين الشيعة والسُنَّة الذي لا يدور حول القواعد الثابتة، وإنما يتعلق بالقضايا الاجتهادية القائمة على أساس التأويلات والروايات الظنية".[٩٦٠]

١-الموقف من القرآن الكريم

من القضايا الخلافية المهمة التي تثار ضد الشيعة هو موضوع الموقف من سلامة القرآن الكريم، وذلك باتهام الشيعة بالتشكيك به، ورواية قراءات مختلفة عن النسخة المشهورة، تصب في مصلحة نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت، وهي روايات موجودة في "الكافي" للكليني الذي يعتبر من أهم مصادر الشيعة الإمامية الروائية، وفي كتب أخرى صدرت في القرن الرابع الهجري، وأعاد تجميعها الأخباري الميرزا حسين النوري

[٩٦٠] - من البيان الشيعي الجديد، لأحمد الكاتب (٢٠٠٨)

الطبرسي (١٣٢٠هـ) ونشرها تحت عنوان "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب" في سنة (١٢٩٢هـ).

ورغم أن الكتاب قوبل باستنكار كبير من الشيعة أنفسهم، وأجبروا المؤلف على سحب كتابه من الأسواق، وأعلنوا رفضهم لرواياته الضعيفة، وتمسكهم بسلامة القرآن، وإعلان إجماعهم على ذلك، الا أن بعض المتصيدين في الماء العكر والرافضين أساسا لأي تقارب بين السُنَّة والشيعة، من السلفيين والوهابيين، دأبوا على طرح موضوع القرآن ومطالبة الشيعة بإعلان موقفهم من سلامته، بين فترة وأخرى. كما فعل محي الدين الخطيب، في كتابه "الخطوط العريضة". وناصر القفاري.[٩٦١]

لذلك ومن أجل حسم الخلاف بين السُنَّة والشيعة، فقد اقترح الشيخ محمد الغزالي (١٩٩٦م) في مقال له: عقد مؤتمر حول (القرآن كتابا مصونا خالدا) .

وقد لاقت الفكرة ترحيبا من قبل العالم الشيعي محمد حسين فضل الله بينما رفضها رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان محمد مهدي شمس الدين، قائلا:"لا حاجة لعقد مثل ذلك المؤتمر، لأن ذلك بديهي ومعروف، بل إنه قد يفتح بابا من أبواب الريب في تاريخنا".[٩٦٢]

ولكن أحمد الزقاقي فضل طرح موضوع القرآن على طاولة الحوار بين السُنَّة والشيعة، من أجل بناء الوحدة على أسس متينة، بعيدة عن المجاملات.[٩٦٣]

---

[٩٦١] – الذي زعم "بأنه لا سبيل إلى رفع الخلاف وتحقيق التقارب والروافض مصرون على شذوذهم عن جماعة المسلمين، لا نملك الوصول معهم إلى نتيجة في حوار أو مناظرة، أو مؤتمرات للمباحثة، لاختلافنا معهم في أصول العقائد والأحكام. فعلى هذا لا ينبغي مناظرتهم أو مكالمتهم أو تدارس الخلاف بيننا وبينهم، فهم على دين آخر". واستشهد بقول أبي يعلى: "أن مذهبهم أن الكتاب مغير مبدل، وأنه قد ذهب أكثره، فلا يأمن أن يرد إلى آية فتكون منسوخة بآية من القرآن الغائب عنا الذي هو عند الإمام". القفاري، مسألةُ التّقريب، ج٢ ص ٢٥٤

[٩٦٢] - الزقاقي ، الأساس التشريعي، ص ١١٠، عالم الكتب الحديث ٢٠٠٨ الاردن عمان، **نقلا** عن مجلة الحوار، عدد ٦ السنة الثانية، ١٩٨٧ ومجلة المنطلق، عدد ١١٣، ص ٣٠ – ٣١ فضل الله: (تأملات في آفاق الوحدة الاسلامية). والغزالي: (أفكار مقترحة للحوار السني الشيعي) .

وفي الحقيقة لم تعد قضية الموقف من سلامة القرآن أو تحريفه، قضية خلافية بين السُنَّة والشيعة منذ القرن الرابع الهجري، عندما بت شيوخ الفرقة الإثني عشرية (المؤسسة في ذلك الوقت) موقفهم من الأحاديث التي كان يتناقلها بعض الفرق الشيعية في القرون السابقة، وأصدروا بيانات متتالية بالتزامهم بصحة القرآن وعدم وقوع التحريف فيه، ما عدا الأخباريين (غير الأصوليين الذين يشكلون الغالبية العظمى من الشيعة) الذين ظلوا يكررون تلك الأحاديث دون بحث في سندها.

وإذا كان لا بد من وقفة حول القرآن في الحوار بين السُنَّة والشيعة، فانه لا بد من الحوار حول مسألة هيمنة القرآن على الحديث أو هيمنة الحديث على القرآن، وهو ما ذهب اليه الحنابلة وكثير من أهل السُنَّة، الذين ألغوا عمليا كثيرا من آيات القرآن، كآيات القسط والعدل، التي جمدوها بالنسبة للحكام بناء على أحاديث تأمر بطاعة الحاكم الظالم، وسوف نستعرضها في الصفحات التالية.

٢- نظرية الإمامة

إن الإيمان بوجود النص الصريح على الإمام علي بالخلافة، في الثقافة الشيعية، شكل ويشكل أزمة في العلاقات بين السُنَّة والشيعة، وذلك لما له من تداعيات سلبية على الموقف من كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان. [٩٦٤]

وكما يقول الشيخ شمس الدين فان "اللازم الأعظم لعقيدة الشيعة الامامية في الامامة، كما عرضها علم الكلام القائم الآن هو: بطلان التاريخ الذي وقع خارج شرعية الامامة، منذ أبي بكر الى آخر سلطان... يقتضي كون الموقع التنظيمي السياسي للسُنَّة كلهم خارج الشرعية السياسية عند الشيعة، وهذا يقتضي: ضرب وحدة الأمة وانقسامها في القضية السياسية التنظيمية برمتها". [٩٦٥]

---

[٩٦٣] - الزقاقي، الاساس التشريعي، ص ١٥٩

[٩٦٤] - ينقل عن الشيخ المفيد والمجلسي تكفير الخلفاء الراشدين، كالقول: ان ابا بكر وعمر كانا كافرين، الذي يحبهما فهو كافر ايضا.

[٩٦٥] - الزقاقي، الاساس التشريعي، ص ٦١ عن فرح موسى، شمس الدين، ص ٣٥٠ ــ ٣٨٦

ومن هنا فان الحاجة ماسة الى مراجعة موضوع النص مراجعة جادة وجريئة، وملاحظة تاريخ تطور نظرية الإمامة الإلهية (القائمة على النص) إبتداء من القرن الثاني الهجري وانتهاء بالقرن الخامس، حيث تبلورت النظرية في ظل الدولة البويهية، وفي أيام الصراع الفاطمي مع العباسيين. وعدم وجود أية ثمرة من ذلك النزاع التاريخي في ظل الأنظمة الديمقراطية المعاصرة التي لا تبتني على وجود النص أو عدمه، وهو ما يحتم التحرر الكامل من التراث التاريخي الفكري القديم، والتركيز على تطوير الفكر السياسي المعاصر.

وفي سياق السعي لعقد حوار جاد بين السُنَّة والشيعة، قام الكاتب الشيعي البصري حسن فالح الفكيكي بالدعوة الى النقد الذاتي، وعدم الاكتفاء بالدعوة العاطفية للوحدة.[٩٦٦]

وقام الفكيكي بنقد كتاب "التشيع والشيعة" لمحمد باقر الصدر، فقال:"انه يكتفي بمناقشة مسلمات الطرف الآخر دون أن يبدو في نظره حاجة تدعو لمناقشة ما يعتقد به من مسلمات، فكأنه يمتلك بمفرده – دون الطرف الآخر – الحقيقة كاملة".[٩٦٧]

ودعا الفكيكي: الى استخدام العقل في تقييم المرويات الشيعية.[٩٦٨] وقام بانتقاد حديث (المؤازرة) الذي يعتمد عليه الشيعة في تأسيس نظريتهم الإمامية.[٩٦٩] وقام أيضا بإعادة قراءة حديث الغدير قراءة شخصية، لا سياسية دينية، واستشهد بموقف الأنصار الذين لم يكونوا يعرفون المعنى السياسي منه.[٩٧٠]

وفي مقابل هذه الخطوة النقدية الجريئة التي خطاها بعض الشيعة في قراءة نظرية الإمامة، من أجل تعزيز الوحدة الاسلامية، فان عددا من الكتاب السُنَّة المتحولين الى التشيع في العقود الأخيرة، أصروا على

---

[٩٦٦] - الفكيكي، حسن فالح، الوحدة الاسلامية المنشودة، ص ٧ دار الكوثر، دمشق ٢٠٠٢ ط ١

[٩٦٧] - المصدر، ص ٨

[٩٦٨] - المصدر، ص ٣٠

[٩٦٩] - المصدر، ص ٢٤ – ٢٧ و ٢٩

[٩٧٠] - المصدر، ص ١١٧

ضرورة التمسك بنظرية الإمامة وعدم التفريط بها من أجل الوحدة، وعلى رأس هؤلاء الشيخ التونسي محمد السماوي التيجاني، صاحب كتاب "ثم أهتديت"، والكاتب العراقي سعيد السامرائي مؤلف "الطائفية في العراق الواقع والحل" والكاتبين الأردنيين: أحمد حسين يعقوب، الذي كتب " الخطط السياسية لتوحيد الأمة الاسلامية"، وأسعد القاسم، الذي كتب " أزمة الخلافة والإمامة".

يقول السامرائي:"إن الدعوة الى أهل البيت (ع) هي من أفضل الطرق، إن لم تكن أفضلها، لحل الاشكالات الطائفية، وعلى المدى البعيد، لأن تعريف التشيع كفيل بإزالة غيوم الضغينة والحقد والشك المؤسسة على التجهيل".[٩٧١]

ويقول أحمد حسين يعقوب: أن سبب الخلاف والفرقة بين المسلمين يعود الى استحواذ أبي بكر وعمر على القيادة بعد النبي والفصل بين المنظومة الالهية والقيادة السياسية التي عينها الله وهم الأئمة الاثنا عشر، وإبعادهم عن رئاسة الدولة.[٩٧٢] وأن طريق الوحدة بين المسلمين يكمن في اعتناق نظرية أهل البيت، أي الإمامة.

وهذا ما يرفضه بشدة أحمد الزقاقي، ويعتبره تحليلا ضعيفا لأسباب تفرق المسلمين، ودعوة فاشلة لتوحيد المسلمين، ويقول: إن "الأولى نعتها بالخطط السياسية لتخريب وحدة الأمة الاسلامية، لأنها تقوم على سرد معالم تنبني على مغالطات وتفتل في حبل العداوات والأحقاد التاريخية وتحيي الخلافات القديمة، انها خطة تهدف الى تشييع أهل السُنَّة لا الى توحيد الأمة الاسلامية. انها مذهبية متعصبة".[٩٧٣] و" ظاهرها التوحيد ولكن باطنها التخريب، وبث الفرقة وتغليب المذهب".[٩٧٤]

---

[٩٧١] - السامرائي، الطائفية في العراق الواقع والحل (١٩٩٣) ص ١٧٩

[٩٧٢] - الزقاقي، الاساس التشريعي، ص ٦٤- ٦٥ عن أحمد حسين يعقوب: الخطط السياسية لتوحيد الأمة الاسلامية، ص ٢٤٣ – ٣٣٦ ط ١، ١٩٩٤ دار الثقلين بيروت

[٩٧٣] - المصدر، ص ٦٧

[٩٧٤] - المصدر، ص ٦٣

ولكن اسعد القاسم يعتقد بوجود ثمرة لذلك النزاع القديم، وهو اتباع تراث أهل البيت وفقههم ورؤيتهم للدين.[٩٧٥]

وبغض النظر عن ثمار نظرية الإمامة الفقهية، فإن الحوار حول الموضوع يبدو عقيما وبدون معنى حيوي في الوقت الراهن، وذلك لعدم وجود الأئمة من أهل البيت المنصوص عليهم من الله، منذ أكثر من ألف عام.

٣- الموقف من الصحابة والحديث

يشكل الموقف من الصحابة نقطة خلاف كبيرة وأزمة في العلاقات بين السُنَّة والشيعة، ففي حين يقدسهم الأولون يشكك بهم الآخرون، وقد يتخذون منهم أو من كبارهم مواقف سلبية عنيفة، بناء على الاعتقاد باغتصابهم الخلافة من الامام علي، أو نسبة أمور تاريخية اليهم كالهجوم على بيت الزهراء واسقاطها جنينها وما الى ذلك.

وبالرغم من عدم وجود مبرر لتكفير أي مسلم على أساس موقفه من أي شخص سواء كان صحابيا أو غير صحابي، ولا سيما اذا كان يتخذ موقفه على أساس شبهة أو تأويل، إلا أن كثيرا من أهل السُنَّة وخاصة من المتأخرين دأبوا على تكفير الشيعة أو "الرافضة" الذين يسبون أو يلعنون بعض الصحابة.[٩٧٦]

وقد كان موضوع تكفير الشيعة على هذا الأساس محورا رئيسيا في المؤتمر الوحدوي الذي عقده "نادر شاه" في النجف بتاريخ ٢٥ شوال ١١٥٦هـ حيث سأل الملا باشي علي أكبر (الشيعي الايراني) محاوريه من

[٩٧٥] - القاسم، أسعد، أزمة الخلافة والإمامة، ص ١٨٩

[٩٧٦] - علما بأن الشيعة أيضا يفتون بقتل من يسب الأئمة الاثني عشر، أو يهينهم، وقد اغتال نواب صفوي القاضي أحمد كسروي سنة ١٩٤٥ لأنه انتقد الامامين الباقر والصادق، واتهمهما بالدجل، واختراع المذهب الامامي وادعاء صفات مغالية، بناء على أحاديث "الكافي". وذلك في كتابه "التشيع والشيعة".

علماء أهل السنة: لماذا تكفروننا، ونحن من أهل القبلة؟ وطلب منهم أن يبينوا الأمور التي ذكرها المتأخرون وكفروا الشيعة بها لكي يرفعوها.[٩٧٧]

فقال العالم السني هادي خوجة: أنتم تكفرون بسبكم الشيخين، وتكفرون بتضليلكم الصحابة وتكفيركم إياهم، وتفضلون عليا على أبي بكر، وتقولون: انه الخليفة الحق بعد النبي (ص).

فأعلن العالم الشيعي الملا باشي: أن الصحابة كلهم عدول رضي الله عنهم وأرضاهم. وأن أفضل الخلق بعد النبي (ص) أبو بكر بن أبي قحافة فعمر بن الخطاب فعثمان بن عفان فعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) وأن خلافتهم على هذا الترتيب الذي ذكرناه. وبالرغم من ذلك الإعلان لم يوافق أحد العلماء السُنَّة المشاركين في المؤتمر وهو "بحر العلم" على سحب حكم التكفير عن الشيعة، قائلا: سب الشيخين كفر (ثلاث مرات). ومراده أن من وقع منه سب الشيخين لا تقبل توبته على مذهب الحنفية، وأن هؤلاء الأعجام (الايرانيين) وقع منهم السب أولاً، فرفعهم السب في الوقت لا ينفع شيئا. [٩٧٨]

وهنا تدخل مفتي الأحناف الملا حمزة، وأعلن قبول علماء السُنَّة لالتزام علماء الشيعة بعدم سب الصحابة مستقبلا، واعتبارهم من الفرق الاسلامية. ووافقه بقية العلماء السُنَّة المشاركين في المؤتمر. [٩٧٩]

وأرسل المؤتمر وفدا الى الحجاز واسطنبول للتوقيع على ما اتفق عليه المشاركون في المؤتمر من علماء السُنَّة والشيعة، على اعتراف بعضهم ببعض، ولكن رسولهم العالم الكربلائي نصر الله الحائري قتل في الحجاز بظروف غامضة، ولم يتم اعتراف الدولة العثمانية به، ثم قتل نادر شاه بعد ذلك بسنوات.

---

[٩٧٧] - السويدي، عبد الله بن حسين بن مرعي العباسي (١١٧٤هـ)، الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية، ص ١٩ – ٢٠ المكتبة الحلبية بمصر، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ (١٩٠٥) / صورة منه على المكتبة الوقفية على الانترنت

[٩٧٨] - المصدر، ص ٢١

[٩٧٩] - المصدر، ص ٢١ والغريب ان نادر شاه تعهد في بيان المؤتمر باستحلال دم وأموال وأعراض من يسب الشيخين، ربما في محاولة منه لقطع دابر الفتنة المستعرة بين صفوف مواطني امبراطوريته من السنة والشيعة.

وبعد حوالي مائة عام من ذلك المؤتمر، أعاد أحمد دحلان مفتي الشافعية في مكة في أواخر القرن التاسع عشر، تكفير من يسب الصحابة، وحذر من اعتقاد نقص لأحد منهم أو التعرض لشئ من السب لأن ذلك يوجب لعنة فاعله، وخروجه من ربقة الاسلام. [٩٨٠] [٩٨١]

وكان هذا الموضوع الحساس على رأس المطالب السُنّيّة التي قدمها شيخ الأزهر محمد الخضر حسين للشيخ النجفي عبد الكريم الزنجاني، الذي زار مصر سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤ من أجل توحيد المسلمين والتقريب بين مذاهبهم. حيث طرح شيخ الأزهر ضرورة تصحيح نظرة الشيعة إلى الصحابة حتى يتحقق التآلف، فوعده الزنجاني خيرا وقال له بأن في إيران طبقة مستنيرة صارت تعرف للصحابة أقدارهم وتخجل من الأكاذيب التي كتبت عنهم. [٩٨٢]

واشترط الكاتب السعودي محمد بن موسى الشريف للتقريب بين السُنَّة والشيعة، إعلان الشيعة بوضوح إيمانهم "بعدالة الصحابة جميعاً، وطي صفحة الفتن التي حدثت بينهم رضي الله عنهم". [٩٨٣]

وفي الحقيقة لم يكن تخلي الشيعة عن موقفهم السلبي من بعض الصحابة، سهلا، ولذلك دعوا الى إعادة النظر فيهم، كما قال مرتضى الرضوي، في كتابه:"مع رجال الفكر في القاهرة" (ص ٥١):"لا يمكن التفاهم والاتفاق على شيء قبل أن نضع رجال الصدر الأول في ميزان الحساب، لأنهم خلفوا أموراً خلافية كثيرة لا يمكن التغاضي عنها". [٩٨٤]

---

[٩٨٠] - دحلان، رسالة في كيفية المناظرة مع الشيعة والرد عليهم. ص ٤٩ المكتبة الحلبية بمصر، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ (١٩٠٥) / صورة منه على المكتبة الوقفية على الانترنت

[٩٨١] - **ابن تيمية: الصارم المسلول في كفر من شتم الرسول أو أحد اصحاب الرسول**، ص٦ و ٧، السويدي، "مؤتمر النجف" مع مقدمة لمحب الدين الخطيب، مطبعة البصري، بغداد، بدون تاريخ

[٩٨٢] – القفاري، مسألةُ التّقريب ، ج٢ ص ١٧٦

[٩٨٣] - http://alburhan.com/main/articles.aspx?article_no=4800#.U0Hir8fXely

[٩٨٤] - القفاري، مسألة التقريب، ج٢ ص ٢٢٧

ومن هنا، نرى أنه لا يمكن حل هذه الأزمة إلا من جهتين:

الأولى:إعادة النظر في جذر القضية وهو موضوع النص على الإمام علي، فاذا لم يثبت النص كما كان يقول الشيعة الزيدية البترية والسليمانية، أو ثبت بصورة خفية لا جلية، وبالوصف لا بالتعيين كما كان يقول الجارودية الزيدية وبعض الامامية (كالسيد المرتضى) فان مبايعة الصحابة لأبي بكر وعمر وعثمان، تكون اجتهادا سياسيا منهم، وليس انقلابا على أمر ديني صريح، وتبقى قصة الهجوم على بيت الزهراء، وهذه بحاجة الى مراجعة التاريخ بدقة والتأكد من جوهر القصة، وفيما اذا كان تهديدا لفظيا من عمر في حالة غضب، أو عملا عدوانيا كاملا؟ وقد قمت بدراسة القضية في كتابي (السُنَّة والشيعة، وحدة الدين، خلاف السياسة والتاريخ) وتوصلت الى أن القصة تطورت عبر التاريخ ولم تكن معروفة في القرون الأولى ولم يسجلها أهم مصدر روائي شيعي وهو "الكافي".

الثانية: التفريق بين الصحابة، وعدم النظر اليهم نظرة واحدة، أو القول بعدالة جميع الصحابة وتوثيق مروياتهم بلا نقاش، حسب قول أهل السُنَّة. وضرورة الموازنة بين رأي السُنَّة الذين يعدلون جميع الصحابة، ورأي الشيعة الذين يشككون في كثير منهم، ودراسة تاريخ كل صحابي على حدة.

وهذا ما يذهب اليه أسعد القاسم (الكاتب الأردني المتشيِّع) الذي يطالب بإعادة النظر في عدالة الصحابة، وعدم توثيق كل ما يروى عنهم، ورفض "الصورة الوهمية التي رسمتها أجهزة الدعاية والاعلام الأموية عنهم".[٩٨٥] وهو ما يطالب به كذلك الكاتب العراقي المتشيِّع سعيد السامرائي، الذي يقول:"يجب ألا يعتبر السُنّي المساس ببعض الصحابة على أنه تهجم على الاسلام وأنه مؤامرة الى آخر قائمة الأراجيف، خصوصا وان النظرة الى الصحابة ليست من أصول الدين ولا فروعه". [٩٨٦]

---

[٩٨٥] - القاسم، أزمة الخلافة ص ٣٢٨

[٩٨٦] - السامرائي، سعيد، الطائفية في العراق الواقع والحل (١٩٩٣) ص ٣٧٧

ولا بد في موضوع الخلاف حول الصحابة، من التسامح والاعتدال، وعدم تكفير أو تبديع من يعتقد لشبهة أو قناعة معينة أن فلانا من الصحابة أو بعضهم كان مخطئا أو منافقا أو منحرفا، وعدم اتخاذ ذلك عقبة أمام الحوار والوحدة بين المسلمين.

وإضافة الى الحل الجذري المطلوب لمعالجة مسألة السب واللعن التي يرتكبها بعض الشيعة، فان المطلوب من الجميع (التسامح) وعدم تضخيم ذلك الى درجة التكفير، فان المسلم الذي يسب بعض الصحابة لا يقوم بذلك عداوة للاسلام، وانما لوقوع الشبهة والتأويل أو العداوة الشخصية.

وقد سب رجل أبا بكر بمحضر منه، فقال له أبو برزة الاسلمي: يا خليفة رسول الله دعني أضرب عنقه. فقال: أجلس ليس ذلك لأحد إلا لرسول الله (ص). [٩٨٧] ورفض الإمام علي بن أبي طالب تكفير الخوارج الذين كفروه، ولم يقاتلهم إلا بعد أن قتلوا رجلا من المسلمين.

واذا عدنا الى أقوال أئمة أهل السُنَّة الأوائل فسنجد موقفا رافضا لتكفير من يسب الصحابة، كما صرح ابن حزم قائلا: "وأما من سبّ أحدا من الصحابة (رضي الله عنهم) فان كان جاهلا، فمعذور، وإن قامت عليه الحجة فتمادى غير معاند، فهو فاسق كمن زنى أو سرق، وإن عاند الله تعالى في ذلك ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر". [٩٨٨]

٤- الفكر السياسي

ينظر الشيعة الى الآثار السياسية التي ترتبت على تقديس الصحابة، ويرفضون اعتبار عملهم وما رضوا به، سُنَّة شرعية بعد كتاب الله وسُنَّة نبيه. وخاصة استخلاف ومبايعة أئمة جهلة أو فاسقين، وعدم اشتراط العدالة في حكام المسلمين، والاعتراف بشرعية الخلفاء "غير الراشدين" . [٩٨٩]

---

[٩٨٧] - القاضي عياض، كتاب الشفا، الباب الأول من القسم الرابع. ورواه النسائي.

[٩٨٨] - ابن حزم، الفصل في الأهواء والملل والنحل، ص ٢٥٧ ج ٣

[٩٨٩] - القاسم، أزمة الخلافة، ص ٣٢٨ - ٣٢٩

ويستنكرون بالخصوص أقوال مثل ابن تيمية:"ان يزيد رغم ما فيه من ظلم وقتل وفعل ما فعل يوم الحرة، فانه لا يجوز الخروج عليه، لأن من لم يكن مطيعا لولاة الأمور مات ميتة جاهلية".[990] وذلك بناء على أحاديث وردت في صحاح أهل السُنَّة مثل "من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فانه من فارق الجماعة شبرا فمات، فميتته جاهلية".[991] وحديث حذيفة بن اليمان "قال رسول الله: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسُنَّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان انس، قلت: كيف أصنع يا رسول الله ان ادركت ذلك؟ قال: تسمع وتُطع للأمير وان ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع".[992] وحديث عبد الله بن مسعود، قال سلمان الجعفي: يا نبي الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فقال: اسمعوا واطيعوا، فانما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم.[993] وقال رسول الله (ص): ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها، قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم. وحديث أم سلمة: ستكون بعدي أمراء عليكم فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ ومن أنكر سلم، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا. قال رسول الله (ص) سيكون بعدي أمراء فأدوا لهم طاعتهم، فان الأمير مثل المجن ويتقى به، فان اصلحوا وأمروكم بخير فلكم، وان اساءوا وأمروكم به فعليهم وانتم منه براء. (كنز العمال).

وهذه أحاديث لا يقبلها الشيعة وربما كثير من أهل السُنَّة الآن، لأنها ضعيفة متنا وسندا، ولكن أهل السُنَّة بصورة عامة يصححونها باعتبارها مروية عن بعض "الصحابة الذين لا يقبلون النقد" في نظرهم.

وبناء على ذلك يدعو أسعد القاسم الى التحرر من التقليد الأعمى "لأنه ليس كل ما ورثه المسلمون بسُنَّتهم وشيعتهم من أسلافهم يمثل واقعا اسلاميا ينبغي تقديسه، فانه لا سبيل للخروج من هذه الحالة

---

[990] - ابن تيمية، منهاج السنة ج١ ص ٣٧

[991] - صحيح مسلم، كتاب الامارة ج٤ ص ٥١٧

[992] - مسلم، كتاب الامارة، ج ٤ ص ٥١٥

[993] - أخرجه مسلم في ١١٨ ج ٢ وغير واحد من اصحاب الصحاح والسنن.

الجاهلية الا بأن يبدأ أبناء الأمة بنهضة توعية شاملة في الفكر والثقافة الاسلامية الأصيلة... وهذا يلزم دراسة الاسلام بعقائده وشرائعه وتاريخه مجددا، والتحقق منها ".[٩٩٤]

٥- موضوع القدر

وكامتداد لموضوع الصحابة والحديث، يدور جدل تاريخي بين السُنَّة والشيعة حول موضوع "القدر" حيث يرفض الشيعة، كالمعتزلة، نظرية القدر الجبرية، التي يؤمن بها أهل السُنَّة، بناء على بعض الأحاديث الواردة لديهم، مثل حديث آدم وموسى، الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله (ص): احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وأسكنكَ في جنته ثم اهبطت الناس بخطيئتك الى الأرض. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالته وبكلامه، واعطاك الألواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما. قال آدم: فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى)؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله، قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله (ص) فحج آدم موسى.[٩٩٥]

إن الجدل حول موضوع "القدر" لم يكن في البداية بين السُنَّة والشيعة وانما كان بين فريقين ممن يعتبرون اليوم كلاهما من "أهل السُنَّة" وهم المعتزلة وبعض أهل الحديث، ولم يبق محصورا بين السُنَّة والشيعة، وانما ساهم فيه بعض علماء أهل السُنَّة كالشيخ محمد الغزالي الذي اعتبر القدرية الجبرية من عوامل الانحطاط والاستبداد، وسبب من أسباب افساد الفكر الاسلامي وانهيار الحضارة والمجتمع.[٩٩٦] وقال:"جاءت في

[٩٩٤] - **القاسم، أزمة الخلافة،** ص ٣٣١

[٩٩٥] - مسلم، كتاب القدر، ج ٥ ص ٥٠٧

[٩٩٦] - الغزالي، محمد، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص ١٤٤

القدر احاديث كثيرة نرى أنها بحاجة الى دراسة جادة، حتى يبرأ المسلمون من الهزائم النفسية والاجتماعية التي أصابتهم قديما وحديثا".[997]

٦- المسائل الفقهية، كزواج المتعة المؤقت

رغم ضآلة وعدم أهمية الاختلاف بين السُنَّة والشيعة في المسائل الفقهية، إلا في مسائل معدودة كالموقف من حكم الظالم، والزواج المؤقت ورضاع الكبير، فان الاختلاف بينهما كان كبيرا ومتجذرا حول مصادر الفقه وطرق الرواية وأسلوب الاجتهاد، حيث كان الشيعة الإمامية منذ عهد الإمام جعفر الصادق (-١٤٨) مؤسس الفقه الجعفري، يرفضون الاعتراف بالرواة السُنَّة والرواية عن رسول الله (ص) إلا عن طريق أئمة أهل البيت.[998] كما كانوا يرفضون الاجتهاد والقياس.[999] ويعتبرون أئمة أهل البيت مصدرا من مصادر التشريع كامتداد للرسول الأعظم، وأنهم مفوض اليهم من الله في أمر التشريع.[1000] ومن هنا فان الشيعة يجدون صعوبة كبيرة في الاعتراف بصحة المذاهب السُنّية الفقهية، على العكس من أهل السُنَّة الذين قد ينظرون الى الفقه الشيعي "الجعفري" كمذهب من المذاهب الاسلامية "الاجتهادية" وإن كان البعض يشكك بنسبة الفقه الموروث عند الشيعة الى الإمام الصادق، أو يشكك بروايات الصادق بدون سند عن رسول الله.[1001]

---

[997] - الغزالي، السنة، ص ٣٠٩

[998] - الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة، ح رقم ٦

[999] - ويروون عن الصادق أنه حذر الإمام أبو حنيفة قائلا:" اتق الله، ولا تقس (في) الدين برأيك، فإن أول من قاس إبليس". وقال له:" دع الرأي والقياس.. فان دين الله لم يوضع بالآراء والمقاييس". الوافي، ح رقم [٣٣١٧٧] ٢٧ و ح رقم [٣٣١٧٥] ٢٥ و ح رقم [٣٣١٧٦] ٢٦

[1000] - كما روي عن الإمام الصادق أنه قال:"فما فوض الله إلى رسوله (ص) فقد فوضه إلينا". الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب التفويض إلى رسول الله والأئمة أمر الدين، ح رقم١ و ٨ و ٩

[1001] - روى الكشي عن سالم بن أبي حفصة (البتري) أنه دخل على أبي عبد الله فقال له: عند الله نحتسب مصابنا برجل كان إذا حدث قال: قال رسول الله (ص) (ويقصد الإمام الباقر) فقال أبو عبد الله ردا عليه:" قال الله تعالى: ما من شئ إلا وقد وكلت به غيري إلا الصدقة فإني أتلقفها بيدي تلقفا، حتى أن الرجل والمرأة ليتصدق بتمرة أو بشق تمرة فأربيها له

وقد أصدر شيخ الأزهر محمود شلتوت في سنة ١٣٦٨هـ /١٩٤٩ فتوى بشأن جواز التعبد بالمذهب الجعفري، كما ذهب المشرع المصري الى الأخذ ببعض الأحكام الشيعية في موضوع الطلاق والإرث. [١٠٠٢] وكان ابن تيمية أول من تقبل رأي الشيعة في بطلان الطلاق بالثلاث، واعتباره واحدا.

وإذا كان أهل السُنَّة قد اعترفوا بالمذهب الجعفري فلا بد للشيعة أن يعترفوا بالمذاهب السُنّيّة، وذلك لن يكون الا بتجاوز نظرية الامامة، والنظر الى الفقه الجعفري كاجتهاد من الامامين الباقر والصادق، كاجتهاد الأئمة الآخرين، وأنه قابل للصواب والخطأ، وليس فقها "معصوما" كالفقه الصادر من رسول الله (ص).

ولعل أهم مسألة خلافية فقهية بين السُنَّة والشيعة تتمثل في موضوع الزواج المؤقت (المتعة) التي يقول بها الشيعة الجعفرية ويرفضها أهل السُنَّة، ويمكن بحثها بصورة مشتركة على ضوء إعادة النظر في أصول الفقه كهيمنة السُنَّة على القرآن أو الإجماع أو حجية أخبار الآحاد، والتي قد تؤدي الى الأخذ بجواز المتعة بصورة نسبية.

كما أن الحوار حول أصول الفقه قد يؤدي الى الإقلاع عن بعض الفتاوى المخالفة للقرآن والسُنَّة المتواترة والعقل والذوق والفطرة كفتوى جواز رضاعة الكبير من المرأة الأجنبية، والتي يقول بها بعض أهل السُنَّة.

وقد أدرك كثير من العلماء والمفكرين المسلمين الداعين للوحدة الاسلامية والحوار بين المذاهب، ضرورة تأسيس الحل على قاعدة الاصلاح العلمي، وهذا ما ذهب اليه أيضا الشيخ المغربي أحمد الزقاقي، في كتابه "الأساس التشريعي للوحدة بين الشيعة وأهل السُنَّة"، حيث اقترح اربع مراحل يجمل بعملية التقريب بين الشيعة وأهل السُنَّة أن تقطعها: (نذكر منها): فقه موارد الاختلاف بين الشيعة وأهل السُنَّة والوعي

كما يربي الرجل فلوه أو فصيله فيلقاه يوم القيامة وهي مثل أحد أو أعظم من أحد". الكشي، ترجمة الحسن بن صالح بن حي.

[١٠٠٢] – محمد ابو زهرة، الوحدة الاسلامية، ص ٤٩ سلسلة الثقافة الاسلامية، المكتب الفني للنشر، القاهرة، ١٩٥٨

بالمباني السياسية والكلامية والفقهية التي استقر عليها كل مذهب، وتصحيح المنحرف من المباني واقامة اعوجاجه، والتصالح على مصادر الاستنباط.[١٠٠٣]

الخلاف حول صيغة الأذان

يشكل الأذان أبرز معالم الاسلام والمذاهب المختلفة، ويقال إن المسلمين تداولوا في وضع علامة فارقة لهم عند الصلاة فاقترح بعضهم الناقوس النصراني، واقترح بعضهم الأذان بناء على رؤيا، واذا صح هذا الخبر فيبدو أن الأذان لم يكن تشريعا إلهيا بقدر ما كان اتفاقا بين المسلمين.

ولذلك كانت هناك مرونة في تعديل الأذان حسب الظروف والحاجة، فقام عمر بحذف (حي على خير العمل) أثناء حروب الفتح، وأضاف مكانها (الصلاة خير من النوم) .[١٠٠٤]

وقام الشيعة فيما بعد، وكموقف معارض لعمر، برفض الاضافة والإصرار على الفقرة المحذوفة (حي على خير العمل) لتصبح شعارا للشيعة والتشيع، ثم أضاف اليها الغلاة "المفوضة" –كما يقول محمد بن علي بن بابويه الصدوق في (من لا يحضره الفقيه) – الشهادة الثالثة (أشهد أن عليا ولي الله) وقد تبناها الصفويون في القرن العاشر الهجري عند قيام دولتهم، وبقي الشيعة في العراق بعيدين عنها، حتى زيارة الشاه القاجاري ناصر الدين الى العراق في عام ١٨٧٠، عندما سمع المؤذن في مرقد الامام الحسين في كربلاء يؤذن بدونها، فأمره بأن يعيد الأذان ويضيف اليها "الشهادة الثالثة".[١٠٠٥]

[١٠٠٣] - الزقاقي، الأساس التشريعي ، ص ١

[١٠٠٤] - قال ابو حنيفة "الصلاة خير من النوم" هذه الجملة تزاد بعد اكمال الأذان لأنها ليست من السنة. عمر وضعها في الأذان، وقال سعد الدين التفتازاني: ان حي على خير العمل كان ثابتا على عهد رسول الله، وان عمر هو الذي أمر ان يكف الناس عن ذلك مخافة ان يثبط الناس عن الجهاد ويتكلوا على الصلاة. وروى البيهقي في سننه: أن علي بن الحسين زين العابدين كان يقول، اذا قال حي على الفلاح: حي على خير العمل، ويقول: هو الأذان الأول. الوائلي، أحمد، هوية التشيع، ص ٤٦ – ٤٧

[١٠٠٥] - الحيدري، ابراهيم، تراجيديا كربلاء، سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، ص ٦٦ دار الساقي بيروت ط ١ ١٩٩٩

ثم تطورت هذه الشهادة التي تتلى مرتين بعد الشهادتين، لتصبح (أشهد أن عليا وأولاده المعصومين حجج الله".

ولكن بعض الفقهاء الشيعة الاصلاحيين كالشيخ محمد الخالصي (١٩٦٣)، والسيد محمد حسين فضل الله (٢٠١٠) وغيرهما، عادوا الى صيغة الأذان الأولى بحذف الشهادة الثالثة التي اعتبروها بدعة.

وكان كثير من العلماء الشيعة يعترفون باضافتها الى الأذان، ولكنهم يقولون باستحبابها وتلاوتها بنية الاستحباب لا على أساس انها جزء من الأذان، خوفا من إضافة ما ليس منه فيه. [١٠٠٦]

ومع حدوث الجدل حولها في الستينات من القرن العشرين في العراق، أفتى المرجع الشيعي يومذاك السيد محسن الحكيم، قائلا: "لا بأس بالإتيان به بقصد الاستحباب المطلق لما في خبر الاحتجاج : إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمد رسول الله فليقل علي أمير المؤمنين. بل ذلك في هذه الأعصار معدود من شعائر الإيمان ورمز التشيع، فيكون من هذه الجهة راجحا شرعا، بل قد يكون واجبا، لكن لا بعنوان الجزئية من الأذان". [١٠٠٧]

٧ – التقية

يأخذ بعض علماء أهل السُنَّة على الشيعة إيمانهم بالتقية، وهم لذلك لا يمكنهم الحوار بصراحة مع الشيعة لأنهم قد يخفون ما لا يعلنون، ويدافع الشيعة بأن "التقية" مبدأ قرآني سمح به الله عز وجل بقوله "إلا أن تتقوا منهم تقاة" وأنهم لا يلجؤون الى "التقية" الا اضطرارا، وعندما يواجهون الموت والتعذيب فيخفون عقيدتهم، ولكن عقائدهم أصبحت معروفة، وهم أصبحوا اليوم في مأمن وصارت لهم دول، فلماذا يضطرون

[١٠٠٦] - يقول الشيخ صالح الكلباسي: اتفق العلماء المراجع على جواز ذكر الشهادة الثالثة عقيب الشهادتين في الأذان والإقامة، بل أكدوا على استحباب ذلك... إلا أنهم لم يعدوها جزء لهما، غير أن هناك من العلماء من لم يستبعد جزئيتها لهما. موقع مركز الاشعاع الاسلامي، للدراسات والبحوث الاسلامية. ما هو رأي الفقهاء الشيعة الإمامية بالنسبة للشهادة الثالثة في الأذان فقهيا وتاريخيا؟ www.Islam4u.com

[١٠٠٧] - الحكيم، محسن (١٩٧٠) مستمسك العروة الوثقى، ج ٥ ص ٥٤٥

الى استعمال "التقية"؟ وما الذي يمكن أن يخفوه؟ وانهم ليس بالضرورة يؤمنون بكل ما جاء في الكتب السالفة، وانهم مستعدون للحوار حول أي موضوع، وأن دعوتهم للوحدة الاسلامية صادقة ولا يشوبها شائبة.

علما بأن من يضطر لممارسة "التقية" في العادة هي الجماعات الصغيرة السرية، وأما الشعوب والأمم الكبيرة، كما هو حال الشيعة اليوم، لا يمكن أن تخفي نواياها وعقائدها بسهولة.

٨- المهدي المنتظر

يختلف الشيعة والسُنَّة حول (المهدي المنتظر) فيؤمن السُنَّة، أو بعضهم، بأنَّه يظهر آخر الزمان، بينما يؤمن الشيعة الاثنا عشرية بولادته في منتصف القرن الثالث الهجري، وأنه ابن الحسن العسكري وأنه لا يزال حيا مستترا، وسوف يظهر في المستقبل، وإن طال الزمن.

ويشكل الإيمان بولادة ووجود الإمام "محمد بن الحسن العسكري" حجر الزاوية في عقيدة الشيعة الاثني عشرية، إذ أن الاعتراف بعدم ولادته يؤدي الى انقطاع الإمامة وانهيارها.

وسواء كانت نظرية خروج المهدي في آخر الزمان صحيحة؟ أم لا؟ وسواء كان قد ولد أم لا؟ فان السُنَّة والشيعة قد يتفقون على فكرة خروج إمام عادل يحارب الظلم والجور، في كل زمان ومكان، وهو ما يضفي عليه صفة إنسانية ثورية، وليس بالضرورة أن يكون شخصا مكلفا من السماء.

٩- عاشوراء وزيارة الحسين

من القضايا الخلافية المهمة بين الشيعة والسُنَّة الاحتفال بيوم عاشوراء (يوم مقتل الامام الحسين في كربلاء) كل عام، وزيارة قبره في كربلاء.

وقد كان أئمة أهل البيت يحثون شيعتهم على زيارة قبر الحسين، كما يروى عن الامام جعفر الصادق أنه قال: "زيارة الحسين عليه السلام واجبة على كل من يقر للحسين بالإمامة من الله عزّوجلّ".[١٠٠٨]

وقد شعر المتوكل العباسي الذي أيد أهل السُنَّة، بالانزعاج من زيارة الشيعة لمرقد الامام الحسين، فأصدر أمراً بمنع ذلك ومعاقبة من يقوم بزيارة كربلاء، كما أمر بهدم قبر الحسين سنة ٢٣٦ وهدم ما حوله من منازل وأن يحرث ويبذر ويمنع الناس من اتيانه، وان صاحب الشرطة نادى في الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به الى المطبق، فهرب الناس وامتنعوا من المصير اليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه. [١٠٠٩]

إن الشيعة أصروا ويصرون على إحياء ذكرى عاشوراء (أكثر مما أصروا ويصرون على إحياء يوم الغدير) كموقف مبدئي ضد الظلم وضد سيطرة يزيد على السلطة بالقوة، وهو ما يؤمن به كثير من أهل السُنَّة حتى اليوم، ولأن الفكر السياسي السُنّي يشكل امتدادا للفكر الأموي ويجيز الاستيلاء على السلطة بالقوة ويحرم الثورة ؛ فإنه يدين حركة الامام الحسين ويمتعض من الاحتفال بذكراه. [١٠١٠]

وهذا ابو حامد الغزالي يقول في كتابه "احياء علوم الدين": "يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكاياته وما جرى بين الصحابة والتشاجر والتخاصم فانه يهيج على بعض الصحابة والطعن فيهم وهم أعلام الجيل".[١٠١١]

[١٠٠٨] - الصدوق، محمد بن علي ، ثواب الأعمال، وعيون الأخبار. وجعفر بن محمد بن قولويه القمي، كامل الزيارات، ومحمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، والمفيد، الارشاد.

[١٠٠٩] - الطبري ج٧ ص ٣٦٥

[١٠١٠] - يقول سعيد السامرائي: يعترض بعض السنيين من إسلاميين وغيرهم على الشعائر الدينية للشيعة كإقامة مجالس العزاء في محرم من كل عام وكزيارة مراقد الأئمة وغيرها. السامرائي، الطائفية في العراق الواقع والحل (١٩٩٣) ص ٣٧٦

[١٠١١] - ابن حجر المكي، الصواعق المحرقة، ص ٢٢٣/ اسعد القاسم، أزمة الخلافة ٢٨٩

وقد اشترط الكاتب السعودي محمد بن موسى الشريف، للتقارب مع الشيعة "الكف عن نبش الماضي، وإثارة الأحقاد والأحزان باسم الحسين رضي الله عنه، وجعل ذلك فاصلاً في العلاقة بين السُنَّة والشيعة. [١٠١٢]

ولا يبدو أن الحوار مع الشيعة حول قيامهم بمراسم عاشوراء سوف يدفعهم الى ترك إقامتها، ولذلك لا بد أن يغير السُنَّة موقفهم أو يتسامحوا على الأقل إزاءها، كما تسامح العثمانيون، إذا لم يفضلوا الاشتراك في إقامتها كما يفعل البعض منهم، باعتبارها قضية إنسانية عالمية للتنديد بالظالمين ونصرة المظلومين في كل مكان، وفي نفس الوقت لا بد من تشذيب وتهذيب طقوس عاشوراء من قبل الشيعة، وعدم التطرف بتحميل جميع السُنَّة مسؤولية مجزرة كربلاء.

١٠- زيارة قبور الأئمة والأولياء والصالحين

وهذا موضوع خلافي كبير بين المسلمين، وليس بين السُنَّة والشيعة، وانما بالخصوص بين أتباع محمد بن عبد الوهاب وعامة المسلمين، حيث يتهم الوهابيون من يزور القبور ويعظمها أو يطلب الشفاعة والحوائج من الأموات، حتى لو كان رسول الله (ص) بالشرك الأعظم المخرج من الملة، ومخالفة التوحيد، ويعتبرون ذلك نوعا من العبادة المنهي عنها في الاسلام، وحسبما يقول القاضي الايراني المتأثر بالوهابية أحمد كسروي (١٩٤٥م):"ليست زيارة القبب والتوسل بالموتى ونذر النذور للقبور وأمثالها الا الشرك، ولا فرق بين هذه وبين عبادة الأوثان التي كانت جارية بين المشركين من العرب، فقام الاسلام يجادلها ويبغي قلع جذورها". [١٠١٣]

[١٠١٢] - موقع البرهان: http://alburhan.com/main/articles.aspx?article_no=4800#.U0Hir8fXely

[١٠١٣] - كسروي، أحمد (١٩٤٥) التشيع والشيعة، ص ١٤٤ تحقيق ونشر ناصر بن عبد الله القفاري وسلمان بن فهد العودة، ١٩٨٨

ولكن علماء الشيعة يقولون بأن زيارة القبور مستحبة في الاسلام، وبالخصوص زيارة الامام الحسين لأنها تحمل معاني الولاء لأهل البيت في مقابل الظالمين والطغاة، وإن طلب الحوائج من الأموات لا يقوم به الا الجهلة، وإن رفض ممارسات الجهال لا تعني منع زيارة الأئمة والسلام عليهم، والدعاء عند قبورهم وطلب الحوائج من الله، تماما كما يفعل عامة المسلمين عند قبر رسول الله (ص).

وهذا ما يفتح بابا للحوار بين الشيعة أو عامة المسلمين وبين الوهابية، بعدم تكفير زوار قبور الأئمة أو اتهامهم بالشرك، والفصل بين الزيارة وبين بعض الممارسات الخاطئة (كالتوسل وطلب الحوائج منهم).

من يعلق الجرس؟

ان السؤال المهم في هذا الباب (الحوار) هو من يعلق الجرس؟ وهل يجب انتظار المراجع العليا والعلماء من الطائفتين لكي يقوموا بهذا الحوار بصورة رسمية؟ أم يمكن أن يقوم به المثقفون وعامة الشعب، فيأخذوا بالنقاط الايجابية من هذا المذهب ويتركوا النقاط السلبية من ذلك المذهب؟ وكيف يمكن إنجاز هذا الحوار الفكري والثقافي على مدى العالم الاسلامي؟

الفصل الخامس

اللامذهبية: فتح باب الاجتهاد

مضى على مشروع (الحوار بين المذاهب) عقود طويلة، عقدت خلالها الكثير من المؤتمرات والندوات، وألف الكثير من الكتب، ولا تزال الطوائف على حالها، إن لم تتكرس الطائفية بصورة أسوأ من ذي قبل، حيث نرى بين فترة وأخرى بعض المشايخ من هذه الطائفة وهم يشنون حملات إعلامية ضد الطائفة الأخرى ويعيدون الأمور الى نقطة الصفر وكأنهم لم يتحاوروا ولم يحلوا أية مشكلة، ورغم الاجتماعات المتكررة بين

شيوخ الطوائف إلا أننا لم نسمع منهم أي بيان مشترك يضع النقاط على الحروف، ويقدم تصورا فكريا وفقهيا وسياسيا موحدا يقضي على المشاكل الطائفية العالقة، ويوحد المسلمين حقيقة في بوتقة واحدة .

ويبدو أنه لا ينبغي أن نتوقع ذلك منهم في الأمد القريب وحتى البعيد، لأن معظم المشايخ يرتبطون بدول وحكومات لها هويات طائفية وتستخدم الفكر الطائفي في تعبئة شعوبها وتكريس سلطتها على الناس، أو يعاني كثير منهم من مشكلة التقليد الأعمى والتبعية للعواطف الجماهيرية المتخلفة، وبالتالي لا نتوقع منهم النجاح في حل العقدة الطائفية في المستقبل.

وفي الحقيقة إن المشايخ عجزوا عن حل العقد المذهبية داخل كل طائفة، ورفض بعضهم مجرد التفكير بتجاوز المذاهب أو التخلي عنها وتوحيد الطائفة الواحدة المتشرذمة بين عدد من المذاهب. فكيف يستطيع هؤلاء أن يرأبوا صدعا عمره مئات السنين؟

ولكن عجز المشايخ عن الحوار الجدي بين الشيعة والسُنَّة وتوحيد المسلمين، لا ينبغي أن يدفعنا الى اليأس، فهناك حل آخر أكثر جدوى، وهو يأخذ طريقه الى الواقع فعلاً، وإنْ كان يواجه عقبات وصعوبات إلا أنه يشق طريقه بثبات ويحقق تقدما على الأرض، خاصة مع وسائل الإتصال الحديثة من إذاعات وفضائيات وإنترنت.

وذلك الحل هو "اللامذهبية" وهو يعني التحرر من الطوائف ومن يقف وراءها من الحكام والانظمة السياسية، والمؤسسات الدينية المهيمنة، وشيوخ الطوائف.

الخيار "اللامذهبي" هو أن يقول كل واحد من المسلمين: " أنا مسلم" (فقط).. لا سُنّي ولا شيعي.. ولا حنفي، ولا حنبلي، ولا شافعي، ولا مالكي، ولا زيدي، ولا إسماعيلي، ولا إثنا عشري.

وهو قرار شعبي فردي لا يرتبط بحكومة ولا بمرجعية دينية طائفية.

وهذا الخيار يقوم على حرية الاجتهاد والنظر والتفكير في أمور الخلافات الطائفية الفكرية والسياسية والفقهية والتاريخية، بعيداً عن التعصب الأعمى والتقليد للآباء والمجتمعات، والتبعية للدول الطائفية.. والتسلح بالوعي العام والانفتاح الثقافي والقدرة على البحث والحوار والتمييز.

هذا على المستوى الشخصي والاجتماعي، وأما على مستوى الدولة، فيمكن تحقيق "اللامذهبية" بعدم تبني الدولة لمذهب معين، وإيكال عملية التشريع إلى مجلس النواب، أو الى لجنة مختلطة من الفقهاء، وعدم الاقتصار على فقهاء مذهب واحد، ولا سيما في القوانين الحديثة التي تتطلب تظافر الجهود والعمل القانوني المشترك، أو التلفيق بين المذاهب.

وبما أن الحق يوجد في الاسلام، والاسلام مشترك بين جميع الطوائف، فإن الخلاف يكمن في الاجتهادات الفكرية والفقهية والسياسية الطائفية، وهي اجتهادات بشرية قابلة للصواب والخطأ، ومن هنا فلا توجد طائفة تمتلك الحق المطلق أو تكون على الباطل المطلق.

وإذا تركنا الناس أحرارا فانهم سوف يقرأون ويبحثون ويتحاورون ويتعرفون على الحق من الباطل، فيقتربوا من الأقرب للصواب ويبتعدوا من الآراء غير المعقولة أو الخرافية والأسطورية والأحكام المنافية للقرآن والعقل والعلم، والتي توجد في هذا المذهب أو ذاك.

واذا كان المثقفون غير المتخصصين بمباحث الخلاف الطائفي غير قادرين على الاجتهاد الكامل المطلق في أمور العقيدة والفكر والفقه، فانهم قادرون بالطبع على ممارسة الاجتهاد النسبي في قضايا الخلاف الرئيسية التي يتفق جميع المذاهب على حرمة التقليد فيها.

وإذا كانت الطائفية وجهاً من وجوه التعصب، وثمرة للانغلاق الفكري والجهل والتخلف، فان اللامذهبية تعني البحث عن الحق أينما كان، والحرية الفكرية وعدم التقليد. ولئن كان معظم الناس يعيشون في مستويات دنيا من الثقافة والعلم والقدرة على البحث والتمييز بين الحق والباطل، فان الانسان المؤمن يمكنه التعرف على الحق من خلال الاستماع الى المتحاورين المختلفين والتفكير بموضوعية وحياد فيما يقوله الطرفان، كما يصف الله تعالى المؤمنين "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه".

وعندما تتسع ظاهرة اللامذهبية وتصبح تيارا قويا في المجتمع فانها سوف تحطم الحواجز الطائفية وتخفف من التعصب الأعمى في كل مجتمع طائفي، وتقرب المؤمنين بعضهم الى بعض.

اللا مذهبية.. دعوة قديمة

إن الدعوة الى "اللامذهبية" دعوة قديمة طرحها بعض العلماء في القرون الوسطى، وأكد عليها آخرون في العقود الأخيرة، وهي وإن كانت تدور في إطار المذاهب السُنيّة، التي كانت تتناحر فيما بينها، وربما لا تزال، إلا أنها يمكن أن تعالج المشكلة الطائفية بين السُنَّة والشيعة أيضا.

فقد انتقد فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) في القرن الخامس الهجري، ظاهرة التعصب والتقليد الأعمى، وقال في تفسير قول الله تعالى "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله" (التوبة، ٣١) من تفسيره (مفاتيح الغيب): إني قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها، وبقوا ينظرون إليَّ كالمتعجب. يعني كيف يمكن العمل بظاهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا". [١٠١٤]

وذهب ابن حزم (٤٥٦هـ): الى كون الاجتهاد فرض عين على كل مسلم بحسب طاقته، وإن من لم يجتهد فهو آثم عند الله. وقال:"الناس في ذلك على مراتب، فمن ارتفع فهمه عن فهم ...أغتام العامة، فانه لا يجزيه في ذلك ما يجزي من ذكرنا، لكن يجتهد هذا على حسب ما يطيق في البحث عما نابه من نص الكتاب والسُنَّة ودلائلهما، ومن الاجماع ودلائله، ويلزم هذا إذا سأل الفقيه فأفتاه أن يقول له: من أين قلت هذا؟ فيتعلم من ذلك مقدار ما انتهت اليه طاقته وبلغ فهمه".[١٠١٥]

وألف محمد بن اسماعيل الصنعاني (١١٨٢ هـ) "رسالة في موضوع الاجتهاد أسماها "ارشاد النقاد الى تيسير الاجتهاد" ساق فيها أدلة كثيرة على وجوب الاجتهاد وتيسيره في كل عصر.

وألف جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) كتابا في الرد على القائلين بغلق باب الاجتهاد أسماه " الرد على من أخلد في الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض".

[١٠١٤] - الرازي، فخر الدين (٦٠٦هـ) تفسير مفاتح الغيب، المعروف بالتفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤

[١٠١٥] - ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، المجلد الثاني، الجزء الأول، الباب الحادي والثلاثون، في صفة التفقه في الدين.. وصفة الاجتهاد الواجب على أهل الاسلام.

وربما كان الشيخ عبدالحليم ابن تيمية واحدا ممن مارسوا الاجتهاد الحر، في بعض فتاويه، وخاصة حول "مسألة الطلاق بالثلاث" التي أخذ فيها برأي الشيعة، وخالف فيها إجماع المذاهب الأربعة، مما أدى الى سجنه في دمشق ومنعه من الإفتاء.

وقال ولي الله الدهلوي (١٧٦٢م) منتقداً ظاهرة التعصب الشديد للمذاهب: "ترى العامة لا سيما اليوم في كل قطر يتقيدون بمذهب من المذاهب، ويرون خروج الانسان من مذهب من قلده ولو في مسألة، كالخروج من الملة كأنه نبي بعث اليه وافترضت طاعته عليه، وكان أوائل الأمة وخير القرون قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد، قال أبو طالب المالكي في (قرة القلوب): إن الكتب والمجموعات محدثة، والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد منهم واتخاذ قوله في كل شئ والتفقه على مذهب، لم يكن الناس قديما على ذلك، بل كانت العامة يتعلمون ويأخذون من العلماء أين وجدوهم، ومن كان منهم يسمع الحديث يعمل به ولا يقلد سواه". [١٠١٦]

وقال:" إن هؤلاء المسمين أنفسهم بالفقهاء، الجامدين على التقليد، يبلغهم الحديث من أحاديث النبي (ص) بإسناد صحيح وقد ذهب اليه جمع عظيم من الفقهاء المتقدمين، وهم لا يعملون به، وما يمنعهم من العمل الا التقليد لمن لم يذهب اليه، فهؤلاء جميعا على سخافة وسفاهة رأي وضلالة". [١٠١٧]

ويعد الشوكاني المتوفى عام ١٢٥٠ هـ من ابرز الفقهاء المتأخرين الذين دعوا الى فرض الاجتهاد وذم التقليد ونبذه، وألف رسالة في ذلك أسماها "القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد".

وتبعه في ذلك الشيخ محمد رشيد رضا، الذي رفع في (تفسير المنار) لواء التحرر من التقليد للمذاهب.

وأصدر أستاذ الأدب والفكر الاسلامي في جامعة عين شمس، الدكتور مصطفى محمد الشكعة في عام ١٩٦٠ كتابا تحت عنوان "إسلام بلا مذاهب"، وقدم له شيخ الجامع الأزهر يومذاك محمود شلتوت قائلا:"

[١٠١٦] - الخجندي، هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين، ص ٣٨ – ٣٩ عن الدهلوي، ولي الله، التفهيمات الإلهية، ج ١ ص ١٥١

[١٠١٧] - المصدر، ص ٤٠ عن الدهلوي، التفهيمات، ج ١ ص ٣٠٩

أنه محاولة من تلكم المحاولات التي اضطلع بها المصلحون أخيرا للم الشعث، وتأليف القلوب وتوحيد الصف" وأضاف: "إن السبيل الى إعادة الصف الاسلامي الى وحدته أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، وأن نطرح وراء ظهورنا تلكم التأويلات البعيدة للنصوص الشرعية من كتاب الله والسُنَّة الصحيحة، وأن نفهمها كما فهمها المعاصرون للتنزيل... وأن نحارب احتكار فرد أو أفراد تعاليم الدين، فما كان الاسلام دين أسرار وأحاجي لا يعرفها الا طائفة خاصة تطلع عليها من تشاء وتمنعها عمن تشاء".[١٠١٨]

وقد استعرض الشكعة في كتابه آراء مختلف الفرق الاسلامية، ودعا المسلمين الى وحدة الكلمة ولم الشمل ورأب الصدع وتضييق الشقة بين المذاهب الاسلامية المعتدلة من أهل السُنَّة والشيعة والزيدية والإباضية، والاتفاق حول الجادة الوسطى ونبذ الغلو والتطرف.وتمنى على الغلاة أن يفيئوا الى كلمة الحق وأن يعودوا الى المصدر الأصيل الذي اشتقت العقيدة منه أركانها، واستمدت الشريعة منه أحكامها، بعيدا عن شطط التأويل وغموض التخريج.. مع الاستظلال براية الأخوة والتآلف والمودة والتعاطف والمحبة والإيثار. [١٠١٩]

وحسبما يقول الشيخ محمد أبو زهرة، فان القانون المصري أخذ منذ (١٩٣٠) نظام الأسرة من المذاهب المختلفة، فأخذ من الامامية والمالكية والحنابلة، وتحلل من التقيد بمذهب أبي حنيفة. ففي الطلاق المعلق أخذ بمذهب الشيعة الامامية، وبأن الطلاق الثلاث لا يقع الا طلقة واحدة. وفي القانون رقم ٧٧ لسنة ١٦٤٣ وهو قانون الميراث أخذ بمذهب الامامية في جعل الميراث مولى العتاقة أو كما سماه الامامية مولى النعمة اذا لم يكن له وارث بالنسب أو السبب. وفي القانون رقم ٧١ لسنة ١٩٤٦ وهو قانون الوصية أخذ بمذهب الامامية في جواز الوصية للوارث. وان لجنة الأحوال الشخصية التي ألفتها رياسة الجمهورية سنة ١٩٦٠

[١٠١٨] - الشكعة، مصطفى، اسلام بلا مذاهب (١٩٦٠) ص ٢٨

[١٠١٩] - المصدر، مقدمة الطبعة السادسة

أخذت من مذهب الامامية أن الطلاق لا يقع الا أمام شاهدي عدل، وأخذت من مذهب الظاهرية أنه لا يقع في غيبة الزوجة الا بعد علمها. [١٠٢٠]

وأصدرت دار الافتاء المصرية مؤخرا بتاريخ ٢٠١٢/٣/٧ فتوى بتأييد "اللامذهبية" جاء فيها:"ليس ثمة ما يلزم المقلد شرعا بالاستمرار على المذهب أو يمنع من التحول عنه الى غيره. وإذا ارتفع مستوى المقلد العلمي وجب عليه ان يعمل نظره في الأدلة وألا يقتصر على مذهب إمامه، وجميع المذاهب على حق، ما دام رائدها الكتاب والسُنَّة والتقيد بأصول الاجتهاد وشروطه.. وليس لمتبع مذهب أن يخطئ المذاهب الاخرى".[١٠٢١]

كما دعا المحقق الشيعي السيد مرتضى العسكري (٢٠٠٥) الى "اللامذهبية" بصورة غير مباشرة، وقال إن الوحدة الاسلامية تتحقق من خلال أمرين اثنين:

١- الرجوع الى كتاب الله وسُنَّة رسوله (ص) والعمل بهما في مجال الأحكام وترك اجتهاد المجتهدين من صحابة وتابعين ومجتهدين أتوا بعدهم.

٢- عدم إثبات العصمة عن الخطأ والزلل لأي كان بعد رسول الله في رواية الحديث، واخضاع كل الثروة الحديثية للفحص العلمي على ضوء ذلك... وعدم تقليد السلف الصالح في استنباط الأحكام الشرعية، ولا دراية الحديث. وبذلك يتحقق الوصول الى معرفة الاسلام من الكتاب والسنة، ويتيسر توحد المسلمين حولها. [١٠٢٢]

لماذا التقليد؟

[١٠٢٠] - أبو زهرة ، محمد (١٩٧٤) الوحدة الاسلامية (١٩٧١) ص ٢٧٩ – ٢٧٨ دار الرائد العربي، بيروت لبنان

[١٠٢١] - موقع دار الافتاء المصرية:
http://www.dar-alifta.org/ViewFatawaConcept.aspx?LangID=1&ID=111

[١٠٢٢] - العسكري، مرتضى، معالم المدرستين، بيروت، الدار العالمية ط ٥ ١٩٩٣

وقد قام الفقيه المصري السيد سابق بتحليل أسباب تراخي الفقهاء وميلهم للتقليد والجمود عليه، فقال: إن "الناس بعد الفقهاء فترت همتهم، وضعفت عزائمهم، وقد بلغ الغلو في الثقة بؤلاء الأئمة حتى قال الكرخي: كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ". [١٠٢٣]

وأضاف: "بالتقليد والتعصب للمذاهب فقدت الأمة الهداية بالكتاب والسُنَّة وحدث القول بانسداد باب الاجتهاد وصارت الشريعة هي أقوال الفقهاء وأقوال الفقهاء هي الشريعة، واعتبر كل من يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعا لا يوثق بأقواله، ولا يعتد بفتاويه، وكان مما ساعد على انتشار هذه الروح الرجعية ما قام به الحكام والأغنياء من انشاء المدارس وقصر التدريس فيها على مذهب أو مذاهب معينة، فكان ذلك من أسباب الاقبال على تلك المذاهب والانصراف من الاجتهاد، ومحافظة على الأرزاق التي رتبت لهم. سأل أبو زرعة شيخه البلقيني: ما تقصير الشيخ تقي الدين السبكي (٧٥٦هـ)[١٠٢٤] عن الاجتهاد، وقد استكمل آلته؟ فسكت البلقيني، فقال أبو زرعة: فما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وأن من خرج عن ذلك لم ينله شئ من ذلك، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس عن إفتائه، ونسبت اليه البدعة. فابتسم البلقيني، ووافقه على ذلك. وبالعكوف على التقليد وفقد الهداية بالكتاب والسُنَّة والقول بانسداد باب الاجتهاد وقعت الأمة في شرٍّ وبلاء ودخلت في جحر الضب الذي حذر رسول الله (ص) منه. و

كان من آثار ذلك أن اختلفت الأمة شيعا وأحزابا حتى انهم اختلفوا في حكم تزوج الحنفية بالشافعي، فقال بعضهم: لا يصح، لأنها تشك في إيمانها. وقال آخرون: يصح، قياسا على الذمية". [١٠٢٥]

الحركة الوهابية واللامذهبية

[١٠٢٣] - السيد سابق، فقه السنة (١٩٤٧) ص ٨ ج ١، دار مصر للطباعة، الفتح للاعلام العربي، القاهرة

[١٠٢٤] - عالم مصري مجتهد إمام الأشاعرة والشافعية في عصره، وكان يلقب بشيخ الاسلام وقاضي القضاة.

[١٠٢٥] - السيد سابق، فقه السنة (١٩٤٧) ص ٨ – ٩ ج ١

وكانت الحركة "الوهابية" قد قامت بالدعوة الى التحرر من المذاهب السُنيّة الأربعة، والعودة الى السلف الأول.

وكتب أحد المتأثرين بها وهو المدرس في المسجد الحرام الشيخ البخاري محمد سلطان المعصومي الخجندي، سنة ١٩٤٠، رسالة تحت عنوان "هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة". وذلك في جواب لسؤال ورده من مسلمين يابانيين، وقال فيها:"أما اتباع مذهب من هذه المذاهب الأربعة أو غيرها فليس بواجب ولا مندوب، وليس على المسلم أن يلتزم واحدا منها بعينه، بل من التزم واحدا منها بعينه في كل مسائله فهو متعصب مخطئ مقلد تقليدا أعمى، وهو ممن فرقوا دينهم فصاروا شيعا". [١٠٢٦]

وعزى الخجندي بأسف ظاهرة اتباع مذهب معين والتعصب له، الى المقلدين والمتأخرين الذين ألزموا الناس تقليد واحد من الأئمة الأربعة ومذاهبهم المعروفة، ثم "حظروا الأخذ والعمل بقول غيره كأنهم جعلوه نبيا مرسلا مطاعا". [١٠٢٧] وقال: ان التمذهب كان سببا في شق عصا المسلمين وتفرق جماعتهم وانتشار النفاق والشقاق، والتبديع والتضليل والتكفير والاقتتال بين المسلمين.[١٠٢٨]

ووجه الخجندي نداء الى عامة المسلمين بانتهاج اللامذهبية وترك التمذهب بمذهب معين، قائلا:"يا أيها المسلم إرجع الى دينك، وهو العمل بظاهر القرآن والسُنَّة وما أجمع عليه سلف الأمة، والأئمة الصالحون، فان فيه نجاتك وبه سعادتك. فكن مسلما موحدا، لا تعبد الا الله ولا ترجو الا الله، ولا تخف الا الله، وصير نفسك أخا لكل مسلم، فأحب لهم ما تحب لنفسك... فان كان الأمر هكذا فالحذر كل الحذر من التقليد

[١٠٢٦] - الخجندي، هل المسلم ، ص ٧

[١٠٢٧] - المصدر، ص ٩

[١٠٢٨] - المصدر

الجامد، لأنه لا شك أن من يقلد مذهبا واحدا بعينه في كل مسألة ربما يترك العمل بكثير من الأحاديث الصحاح ويخالفها، ولا شك انه ليس هذا الا ضلال". [١٠٢٩]

ولئن كان السلفيون (الوهابيون) ينادون باللامذهبية فانهم يحصرونها بين المذاهب السُنيّة فقط، ويضعون بين أنفسهم وبين التراث الشيعي حاجزا نفسيا عاليا، بحيث يصعب عليهم الأخذ من الفقه الشيعي أية مسألة. [١٠٣٠]

الشيعة واللامذهبية

إذا كان للسُنَّة أربعة مذاهب معروفة، يريد البعض الخروج منها الى اللامذهبية، فان للشيعة اليوم مذاهب متعددة كثيرة بكثرة المجتهدين لديهم، ولكن الفارق بينهم وبين السُنَّة أن تقليد هؤلاء المجتهدين ينحصر في حياتهم، فإذا ماتوا سقط تقليدهم . ومع ذلك فإن مفهوم التقليد تطور لدى الشيعة بصورة سلبية من مراجعة الرواة أو الفقهاء وسؤالهم عن المسائل الفقهية الحادثة، الى الالتزام بفقيه واحد مدى الحياة، وعدم استفتاء أي فقيه آخر، وهذا يشبه التقليد المذموم لدى السُنَّة، وبالتالي فان اللامذهبية عند الشيعة تعني التحرر وكسر التقليد الدائم لفقيه واحد. ولكن تبقى "اللامذهبية" عند الشيعة بالنسبة للانفتاح على التراث السُنّي، أصعب منها عند السُنَّة بالنسبة للتراث الشيعي، وذلك لأن الشيعة يعتقدون أن الحق ينحصر في طريق أهل البيت، ويشككون في تراث أهل السُنَّة، على العكس من أهل السُنَّة الذين قد يقبلون بالتراث الشيعي كرافد من الروافد الحديثية والفقهية المشابهة للمذاهب الأربعة الأخرى.

[١٠٢٩] - المصدر، ص ١١

[١٠٣٠] - ومن الجدير بالذكر ان القانون المصري المعاصر الذي يلتزم بالمذهب الشافعي، أخذ بفتوى الطلاق الشيعية، وربما أخذ بعض الفقهاء ببعض مسائل الإرث الشيعية الأخرى كإعادة المال كله الى البنات اذا لم يكن لهن أخ، وعدم توزيعه على الأعمام وأبناء العم، كما تذهب الى ذلك المذاهب السنية .

وإذا استطاع الشيعة كسر حاجز احتكار أهل البيت للصراط المستقيم، ولا سيما في موضوع الإمامة الإلهية والولاية الدينية لأهل البيت، فإن نظرتهم الى بقية المذاهب السُنّيّة سوف تعتدل، ويصبح بإمكانهم توسيع إطار اللامذهبية من التحرر من المجتهدين والفقهاء الشيعة الى إطار الفقهاء من أهل السُنَّة.

وفي الحقيقة لن تبقى حينها أية مشكلة رئيسية بين السُنَّة والشيعة، حيث يغدو التشيع مذهبا من المذاهب الاسلامية، يحترمها ويسمح بالأخذ منها، وبالطبع ستكون الشورى على رأس المسائل التي يأخذها الشيعة من السُنَّة، وقد فعلوا.

البوطي يرفض اللامذهبية

اعتبر الشيخ السوري محمد سعيد البوطي (٢٠١٣م) "اللامذهبية.. أخطر بدعة تهدد الشريعة الاسلامية" في كتاب حمل هذا العنوان، أصدره سنة ١٩٦٩ ردا على رسالة الخجندي المعصومي، وقال: إن "اللامذهبية" أكذوبة استشراقية ابتدعها المستشرق الألماني الحاقد شاخت الذي قال:إن مضمون الاسلام بسيط موجز كان يفهمه الأعرابي في دقائق ثم ينطلق وهو يقول: والله لن أزيد على ذلك.[١٠٣١]

وهو نفس ما يقوله الخجندي من أن حقيقة الايمان والاسلام حسب حديث جبرئيل، وحديث: "بني الاسلام على خمس" ... وأن الاسلام ليس أكثر من كلمات وأحكام يسيرة يفهمها أي أعرابي أو مسلم، وهي من السهل بحيث لا تحتاج الى تقليد إمام أو التزام مجتهد. [١٠٣٢]

ولكن البوطي كاد أن يقترب من "اللامذهبية" عبر احترامه واعترافه بحرية الاجتهاد لمن يقدر عليه، بيد أنه أنكر فتح باب الاجتهاد للعامة من الناس، ومن لا يملك وسيلة الاجتهاد والاستنباط والتبصر بالأدلة

[١٠٣١] - البوطي، محمد سعيد (٢٠١٣) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الاسلامية (١٩٦٩) ص ٣٧ و ٥٨ ط ١٠ دار الفارابي دمشق ١٩٨٥

[١٠٣٢] - المصدر، ص ٣٩ – ٤٠ ط ١٠

ومفهوماتها. [١٠٣٣] ومال الى المحافظة على المذاهب الأربعة (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي) وعدم تجاوزها، بدعوى اتفاق المسلمين عليها وتمحيصها عبر الزمان. [١٠٣٤]

وقد جرى بين البوطي وعدد من علماء الشام سجال طويل حول المذهبية واللامذهبية، ونشر محمد عيد عباسي كتابا في الرد على البوطي تحت عنوان: "المذهبية المتعصبة هي البدعة".[١٠٣٥]

وقال البوطي في محاضرة له:"إن الذي يوضح لنا هديه (ص) إن غمّ علينا شيءٌ من ذلك، هم العلماء الأئمة الذين أجمعت الأمة على إمامتهم وصدقهم وتضحيتهم وعلمهم و اجتهادهم... فلا بدّ إذا أن يكون عامة الناس أتباعا لهؤلاء الأئمة ولابد أن نكون بمذاهبهم متمذهبون... إن تمزيق الناس عن المذاهب الأربعة، مصيبة نتيجتها أن يسود الهوى، ويدب الخلاف ويسفه الكلُ الكلَّ من المسلمين...ويصفق الغرب".[١٠٣٦]

وقد أيد الشيخ السلفي الشنقيطي محمد ولد الحسن الددو، موقف الشيخ البوطي السلبي من "اللامذهبية" وكرر نفس حججه في رفضها، وقال:"أما دعوة اللامذهبية (أو دعوة التنكر للمذاهب) فإنها دعوة محدثة، ولم تكن في العصور السابقة، فلم ينكر أحد من الذين عاصروا أتباع التابعين – عندما قامت المذاهب – وجود هذه المذاهب، ولم ينكر ذلك أي أحد من علماء المسلمين... وبالنسبة لما نسمعه اليوم من الثورة على المذاهب، وإذا سأل أحد طلبة العلم أو أنصاف المتعلمين عن مذهبه قال: "أنا مذهبي الكتاب والسنة، ولا أعترف بالمذاهب" هذه بمثابة آراء الخوارج التي ظهرت في الزمان الأول".[١٠٣٧]

[١٠٣٣] - المصدر، ص ٦٤

[١٠٣٤] - المصدر، ص ٨٨ – ٩٠

[١٠٣٥] - ولكن البوطي نفى نسبة الكتاب للمؤلف وقال: إن الكتاب ليس بقلم السيد عباسي، وانما تعاون في كتابته كل من الشيخ ناصر الألباني، ومحمود مهدي الاستانبولي، وخير الدين وانلي. ووجه خطابه الى الألباني قائلا:"إن الكاتب يدعو الناس بعد ذلك الى السعي الحثيث لتوحيد المذاهب ويضع لذلك الوسائل ويخطط الأسباب متخيلا أن أمر هذا التوحيد من السهولة بمكان. وإنه ليس إلا كمن يجمع صفحات منثورة أو يحزم عيدانا متفرقة". المصدر، ص ١٦٨

[١٠٣٦] - http://www.alkeltawia.com/vb/showthread.php?t=7375

[١٠٣٧] - عن موقع الإسلام اليوم، على العنوان التالي:
http://www.muslm.org/vb/archive/index.php/t-283641.html

وربما كان هذا التغير في الخطاب السلفي من تبني شعار "اللامذهبية" سابقا" الى الاعتراف بالمذاهب الأربعة المعروفة، محاولة من أجل الذوبان في المذاهب الأربعة، وإزالة ما كان يحول بينها وبين أتباع المذاهب من أهل السُنَّة.

وعلى أيَّة حال فان التحجج بعدم قدرة العوام من الناس على استنباط الأحكام الفقهية، لا يمنع من إمكان الكثير من المثقفين الاطلاع على الآراء المختلفة في المسائل العقدية والفكرية والسياسية وحتى الفقهية، واختيار الأفضل والأصح منها، وهو ما يصب في تغذية تيار اللامذهبية والعودة الى الكتاب والسُنَّة، الذي يتنامى في أوساط الكثير من المثقفين.

والغريب تحجج الرافضين لمبدأ اللامذهبية كالشيخ الوهابي الددو، بعمل السابقين في قرون الجمود والانحطاط، خلافا لاستنكار الشيخ الخجندي الذي اعتبر التقليد الأعمى والتعصب المذهبي واتباع مذهب معين، بدعة وجهلا وباطلا وضلالا وخروجا عن الدين، وإضفاء للعصمة على الإمام المقلد. [١٠٣٨]

الفصل السادس

الحل الديمقراطي العادل

إن الخلافات الطائفية بين السُنَّة والشيعة لها مستويات عدة، فمنها ما هو ثقافي وما هو نفسي وما هو فقهي شخصي أو عبادي، وما هو سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، وما هو دستوري. والحلول التي استعرضناها في الفصول السابقة كانت من أجل معالجة الأزمة الطائفية على المستويات الثقافية والنفسية والفقهية الشخصية والاجتماعية، وهي وإن كانت تلعب دورا كبيرا في حل الأزمة، ولكنها لا تشكل نسبة كبيرة من الحل الجدي الأساسي وهو الحل الدستوري والسياسي.

[١٠٣٨] - الخجندي، ص ٩ و١١، و ١٣، و ٢٢ و ٤٠

وقد قلنا سابقا بأن الطائفية وليدة الاستبداد، ونقول الآن بأن الفكر الطائفي السُنّي والشيعي هو أيضا وليد عصور الاستبداد وثقافته.

ومن هنا فإن أية محاولة جادة وجذرية لحل الأزمة الطائفية لا بد أن تأخذ بنظرها تقديم البديل الجذري للاستبداد وهي الديمقراطية، بكل ما تعنيه من احترامٍ للانسان ولجميع مكونات الشعب، والمساواة والحرية والعدالة والقانون والمشاركة الشعبية، وانبثاق الحكومة من الشعب عبر صناديق الاقتراع.

وفي هذه الحالة لن يبقى هنالك ظلم ولا طغيان، ولا تحدث أزمة في العلاقات بين مكونات المجتمع الطائفية، فيصلي من يشاء كيفما يشاء ويعبد ربه من يشاء كما يشاء، ويمارس من الطقوس ما يريد.

وهذا ما يذهب اليه الكاتب القطيفي كاظم شبيب، في كتابه "المسألة الطائفية" حيث يقترح "معالجة الطائفية بالديمقراطية" ويقول:"الديمقراطية، شكلا ومضمونا، هي محطة رئيسة لجميع المساعي والمشاريع التي تستهدف معالجة الطائفية بصورة كلية لا جزئية. وبدونها قد تفشل كل خطط المعالجة وتتحول الى محاولات ترقيعية وترميمية لمشكل طائفي هنا، أو لتخدير أزمة طائفية هناك، فقد تعالج – محاولات التهدئة – أعراضا طفيفة للمرض، وتتغافل عن المرض الأساس. والمشي للمعالجة بلا ديمقراطية يعني الحكم المسبق على المسار المتبع بالاحتضار وبالتالي بالموت المحتم".[١٠٣٩]

ولكن الديموقراطية لا تشكل حلا سحريا دائما، إذ يبقى مع ذلك شعور صادق أو كاذب بالظلم والتهميش لدى هذه الطائفة أو تلك، أو يحدث سوء تطبيق للديمقراطية والعدالة عندما تحتكر طائفة ما تشكل الأكثرية أو الأقلية، بصورة ديمقراطية، المناصب العليا أو الدنيا في الدولة، مما يغذي الشعور في نفوس الطائفة الأخرى، بالتمييز الطائفي والظلم، ويعيق إجراء العدالة بشفافية، وقد يفجر أزمة طائفية جديدة.

فمثلا لو كانت الأكثرية من طائفة معينة تشكل ستين أو سبعين في المائة، والأقلية ثلاثين أو أربعين بالمائة (كما في العراق مثلا) فان النظام الديمقراطي القائم على مبدأ الأغلبية، سوف يميل الى كفة الأكثرية الطائفية ويحرم الطائفة الصغرى من جميع المناصب السيادية ومفاتيح السلطة الأمنية والعسكرية.

[١٠٣٩] - شبيب، كاظم، المسألة الطائفية، تعدد الهويات في الدولة الواحدة، ص ٣٠٥

وهنا ستعجز الديمقراطية عن معالجة الشعور بالغبن والتهميش والتمييز لدى الأقلية، رغم الاستحقاق الديمقراطي للأكثرية. كما حدث فعلا بعد تجربة دستور ٢٠٠٥، ولو كان الشعور الطائفي لدى الطرفين ضعيفا وباهتا، لما التفت أحد الى احتكار هذه الطائفة أو تلك للمناصب العليا، كما في المجتمعات ذات الثقافة العلمانية، ولكن عندما تكون المشاعر الطائفية ملتهبة وساخنة، ولا سيما بعد حصول حروب أو مجازر جماعية وعهود طويلة من الاستبداد والظلم، فان الديمقراطية تفشل أيضا في لجم الشعور بالطائفية أو القضاء عليها.. بل ربما تساعد على تغذيتها وتفجيرها، بما توفره من حرية إعلامية وسياسية وحملات انتخابية، يستغلها البعض لتحشيد الرأي العام في طائفته وراءه، فيختلق أرقاما غير صحيحة وقصصا وهمية ويضخم من حوادث الظلم والتمييز، لكي يصعد الى السلطة.

وهذا ما انتبه اليه مسبقا (منذ عام ١٩٩٣) الكاتب العراقي المتشيع سعيد السامرائي، الذي قال في كتابه "الطائفية في العراق الواقع والحل": إن المشكلة الطائفية لن تنتهي بمجرد تحقيق الحكم الديمقراطي في العراق، أو بزوال صدام، بل إنها ستبقى وتكون عرضة للتحريك من قبل أعداء الأمة الخارجيين والداخليين كلما سنحت لهم الفرصة وكلما احتاجوا لذلك. لذا توجب مواجهة المسألة الطائفية على المستويات جميعا: الفردي والديني والسياسي".[١٠٤٠]

ورغم أهمية وجذرية مقترح شبيب، لحل الأزمة الطائفية (بالديمقراطية والمواطنة الدستورية ودولة الانسان) إلا أنه يواجه عقبات كأداء في الأجواء المشحونة طائفيا، ولا يمكن تنفيذه بسهولة، بالاضافة الى أن شبيب لا يضع خارطة طريق للوصول الى ذلك الهدف في ظل الدول الدينية التي تعتبر الديمقراطية كفرا وإلحادا، وترفض الدستور وتتمسك بالفكر الطائفي المتطرف، كما هو الحال في السعودية. [١٠٤١]

[١٠٤٠] - السامرائي، الطائفية في العراق الواقع والحل، ص ١٠٦

[١٠٤١] - شبيب، كاظم، المسألة الطائفية، سيناريوهات العلاقة بين الطوائف: سيناريو القطيعة أم سيناريو التلاقي؟ ص ١٩٣

وهنا تأتي مسألة البيضة والدجاجة، كما يتساءل شبيب:"كيف نأخذ بالديمقراطية لمعالجة الطائفية بينما نحن بحاجة لفهم وتطبيق الديمقراطية أولاً حتى ننجح في معالجة الطائفية ثانياً".[١٠٤٢] ولذلك يستبعد انتظار تحقق الديمقراطية حتى تحل الأزمات الطائفية، ويقول: إن تحقق الديمقراطية يأتي من خلال مسارات متعددة، ومعالجة الطائفية مسار من المسارات التي تراكم التجربة لتحقيق الديمقراطية. [١٠٤٣]

وهذا صحيح، ولكن كثيرا من الأقليات الحاكمة (العائلية وليس الطائفية فقط) ترفض الديمقراطية بشدة بطبيعتها، وتؤجج الطائفية في نفس الوقت، لكي تبقى ممسكة بالسلطة بصورة مستبدة، وتحول دون حدوث اختراق وحدوي ديمقراطي في المجتمع، وتظل تتهم الطوائف (الأكثرية) التي تنادي بالديمقراطية، بالطائفية مهما قدمت من تنازلات.

ولحل هذه المشكلة يشير شبيب الى أطروحة (الديمقراطية التوافقية) التي قدمها آرنت ليبهارت في عام ١٩٦٩ كبديل يتحاشى استثارة الولاءات الأولية ذات الصلابة الشديدة والتي لا سبيل الى استئصالها أو تذويبها، وتقوم على أربع سمات أساسية، هي:

١- الحكم من خلال إئتلاف واسع
٢- الفيتو المتبادل
٣- التمثيل النسبي
٤- الاستقلال النسبي لكل جماعة في إدارة شئونها الداخلية. [١٠٤٤]

وهذا الحل (الديمقراطية التوافقية) ما تطرحه أيضا الباحثة ملغا ملمين بنغسيو كحل للمجتمع متعدد الطوائف والقوميات، وتقول:"إنها أكثر الصيغ السياسية ملاءمة للمجتمعات ذات الانقسامات الحادة، وهي

[١٠٤٢] - المصدر، ص ٣١٤

[١٠٤٣] - المصدر، ص ٣١٤

[١٠٤٤] - المصدر، ص ٣٣٩

الأكثر قدرة على حفظ السلام الدائم في مجتمعات ما بعد الصراع، كما إنها قادرة على ضمان الاستقرار السياسي في المجتمعات التي تشهد تنافسا حادا بين الجماعات المختلفة. [١٠٤٥]

وهو ما جرى تطبيقه في التجربة الديمقراطية العراقية في دستور ٢٠٠٥، ما عدا فقرة الفيتو المتبادل، التي تم اثباتها فقط في مسألة تعديل الدستور، حيث نص الدستور العراقي على حق كل ثلاث محافظات بنقض التعديل، وهو ما أعطى المحافظات الكردية، والسنية حق رفض تعديل الدستور، حتى إن أرادت أغلبية المحافظات الأخرى تعديله. وهو ما شكل نوعا من ديكتاتورية الأقلية على الأكثرية، يخالف الروح الديمقراطية، بالاضافة الى أنه قد يشحن الشعور بالغبن والتهميش لدى الأكثرية الطائفية والقومية، ويؤدي الى شل العملية السياسية.

وهذا ما أثبتته التجربة الدستورية العراقية (من ٢٠٠٥ الى ٢٠١٥ على الأقل) التي عجزت فيها غالبية الشعب عن إصلاح الدستور وتعديله، بسبب المادة التي تعطي حق الفيتو لثلاث محافظات من ثماني عشرة من محافظات العراق.

واذا ما تجاوزنا هذه النقطة، فان الديمقراطية التوافقية لا تستطيع شق طريقها أيضا في الأجواء الطائفية المشحونة، وذلك لأن كل أقلية أو كل طائفة ستحاول أن تضخم من أعدادها وتقلل من عدد الطائفة الأخرى، سواء كانت أقلية أو أكثرية في الواقع، وتحاول أن تحصل على نسبة أكبر من الكعكة السياسية، ولا سيما في البلاد التي لا توجد فيها احصائيات دقيقة بالنسب الطائفية، أو لا يشار اليها في دفتر النفوس، كما في العراق حاليا. حيث يقول الشيعة مثلا إنهم يشكلون من ستين الى سبعين في المائة، ويقول السُنَّة العرب أنهم يشكلون (مع الأكراد) من أربعين الى خمسين في المائة.(وإن كانت نتائج الانتخابات قد شكلت علامة تقريبية على النسب الطائفية والقومية) وهذا ما ظلَّ يشعل الأزمة الطائفية ويعوق العملية الديمقراطية في نفس الوقت.

[١٠٤٥] **- المصدر**، ص ٤٥٠ **عن** ملغا ملمين بنغسيو، الديمقراطية التعددية في مجتمع متعدد (٢٠٠٤) وهي أطروحة ما جستير في الجامعة النرويجية للعلوم والتكنولوجيا تناولت فيها بنغسيو ١١٨ مجتمعا ما بعد الصراع في الفترة بين ١٩٨٥ – ٢٠٠٢

ومن الجدير بالذكر هنا: إن الطوائف لا علاقة لها بالمذاهب، والخلاف بينها اليوم لا يتمحور حول الاختلافات الفقهية والفكرية بين المذاهب القديمة، وانما هي أشبه ما تكون بقوميات أو قبائل تتسم بأسماء طائفية شيعية أو سُنيّة، وإلا فانها تضم خليطا من البسطاء والجهلة وغير المتدينين والملحدين والعلمانيين والبعثيين والشيوعيين الى جانب الاسلاميين، وهؤلاء ينتمون الى مذاهب عديدة وربما يكون بعضهم شيعيا قريبا من السُنَّة أو سُنّيّا قريبا من الشيعة، أي إنه لا يوجد خط فاصل دقيق يفصل بين السُنَّة والشيعة، ولا يميز السُنَّة عن الشيعة إلا بعض الطقوس والعادات أو العلاقات الاجتماعية، والصلاة في هذا المسجد أو ذاك.

ومن هنا لا بد من مراجعة تعريف الهويات الطائفية، والنظر الى حقيقتها ومعناها اليوم، فقد تكون الهويات متداخلة أو منقلبة ومتعاكسة، أو لم يبق منها سوى الأسماء والعناوين.

ويمكننا التأكد من ذلك من خلال النظر الى الاختلاف التاريخي الرئيسي بين الشيعة والسنة، والذي كان يدور حول الفكر السياسي الدستوري، وكيفية انتخاب الحاكم (الإمام) بعد رسول الله (ص) والصفات المطلوب توفرها فيه، وهويته القومية والقبلية، فقد كان الشيعة (الإمامية) يعتقدون بأن الإمامة امتداد للنبوة، وأن النظام السياسي يجب أن يكون دينيا، وأن الامام يعين بالنص من الرسول أو الإمام السابق، وأنه يشترط فيه أن يكون معصوما ومن سلالة علي والحسين.[١٠٤٦]

بينما كان أهل السُنَّة أو المسلمون بصورة عامة، يرفضون نظرية العصمة والنص، ويقولون بالشورى طريقا لانتخاب الإمام، ولذلك كانوا يجيزون انتخاب أبي بكر في السقيفة، ومن تبعه من الخلفاء كعمر وعثمان وعلي.

هذا على مستوى النظرية المقابلة للشيعة، وإن كان "أهل السُنَّة" أتباع الإمامين أحمد بن حنبل وأبي الحسن الأشعري، قد آمنوا بشرعية الخلفاء العباسيين، وحصروا الحق في الحكم فيهم، في مقابل دعوات الشيعة الزيدية والإمامية الاسماعيلية (الفاطمية) والإثني عشرية.

[١٠٤٦] – لمزيد من التفصيل راجع كتاب: التشيع السياسي والتشيع الديني، للمؤلف.

وكان هذا الخلاف الدستوري عاملا مهما في إقصاء مختلف الفرق الشيعية عن دائرة أهل السُنَّة التي قام بتشكيلها الخليفة القادر بالله العباسي من المذاهب الأربعة (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي) في القرن الخامس الهجري، في مقابل الشيعة البويهيين والفاطميين، الذين كانوا ينافسون منظومة الخلافة العباسية ويحاولون القضاء عليها من الداخل والخارج.

أما الخلافات الأخرى الجزئية الفكرية والفقهية فهي لم تكن تشكل فارقا أو حاجزا بين السُنَّة والشيعة، لأنها كانت ولا تزال موجودة بصورة أكثر حِدَّة وعنفا بين المذاهب السُنّيّة الأربعة نفسها، وخاصة بين الأحناف والحنابلة. ومع ذلك فقد قام الخليفة القادر بتجميع المذاهب الأربعة في إطار سُنّي واحد، لأن أتباعها كانوا يدينون له بالولاء، ولم يدخل الشيعة الإمامية معهم – رغم ولائهم له – لأنهم كانوا يشككون في مصدر الشرعية الدستورية للخلافة العباسية، بتبنيهم لنظرية النص على الامام علي.

ولكن الصورة الفكرية السياسية اليوم تختلف كثيرا، إذ أن الشيعة بصورة عامة يؤمنون بالنظام الديمقراطي أو الشورى، واختيار الإمام عبر صناديق الاقتراع، وهو ما يعني أنهم تخلوا عن العمود الفقري في نظريتهم (الشيعية) وهو النص والعصمة والوراثة وحصر الامامة في السلالة العلوية الحسينية، أي أنهم اقتربوا جوهريا من السُنَّة، أو أصبحوا يتبنون نظريتهم السابقة. ولم يعد يهمهم كثيرا أن تكون الخلافة بعد رسول الله (ص) بالنص أو الشورى، أو هكذا يفترض بمن يؤمن بالنظام الديمقراطي، ولا يمتلك محورا سياسيا "إماميا" معاصرا يدور حوله كالخلفاء الفاطميين أو العباسيين.

وإذا ما وعينا هذه النقطة المهمة التي تشكل جوهر الخلاف الطائفي السُنّي – الشيعي، فيمكننا القول إذاً: إن الخلاف الطائفي خلاف تاريخي بائد ومنقرض منذ قرون، حيث لا يوجد اليوم لا خلفاء عباسيون، ولا أئمة فاطميون. ولا معنى حقيقي في الخارج للفكر السُنّي أو الشيعي.

وهذا ما أدركه بعد معارك طويلة، كل من الشعبين الشيعي في ايران، والسُنّي في الدولة العثمانية، أن المعركة ليست بينهما بقدر ما هي معركة في داخل كل دولة، بين الشعب والحكام المستبدين الذين يحكمون بصورة مطلقة، فانطلقت حركتان شعبيتان في كلا البلدين تطالبان بالدستور والديمقراطية والعدالة والحرية والمشاركة الشعبية في الحكم عن طريق إجراء انتخابات برلمانية. وبعد كفاح طويل نجحت الحركتان في ايران

سنة ١٩٠٦ وفي تركيا سنة ١٩٠٨ بإجبار الحكومتين الإيرانية والعثمانية على إجراء انتخابات تشريعية والعمل بدستور.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن ما يسمى بالسُنَّة والشيعة اليوم، يكادون يتفقون على نظام سياسي جديد ودستور مدني ديمقراطي، وهو ما يشكل هوية بديلة لهم، أو يخلق من السُنَّة والشيعة طائفة واحدة يمكن تسميتها بالمسلمين الديمقراطيين. وإن ما يميز بينهم في الحقيقة هو بعض المخلفات التاريخية والعقد النفسية، واذا ما تم القضاء عليها وحلحلتها، فان المجتمع سيشهد ذوبان الحواجز الطائفية الوهمية، وينخرط في حركة وحدوية صلبة.

وربما يشير البعض إلى خضوع الشيعة الى "المرجعية الدينية" التي تدعي أنها تشكل امتدادا لخط الإمامة الإلهية المتمثلة في أئمة أهل البيت، وأنها تنوب عن الإمام الثاني عشر المهدي الغائب (محمد بن الحسن العسكري) وهذا ما يجعل من الشيعة كيانا طائفيا متميزا عن أهل السُنَّة الذين لا يؤمنون بقيادة المرجعية الدينية، وأن الشيعة وإن كانوا قد تخلوا عن نظرية الامامة الإلهية عمليا، إلا أنهم قد استبدلوها بقيادة دينية جديدة، وهذا ما يحول دون اندماجهم في وحدة حقيقية مع أهل السُنَّة.

والجواب عن ذلك بأن نظرية "النيابة العامة للفقهاء عن الامام المهدي" أو حتى نظرية "ولاية الفقيه" المطبقة في الجمهورية الاسلامية الايرانية، لا تشكل نظرية مجمع عليها من الشيعة، بل هي محل نقاش ورفض من كثير من علماء الشيعة المحققين، ولم تشكل في الدستور الإيراني مادة بديلة عن الانتخاب الجماهيري لمجالس الشورى المتعددة التي تنتخب الرؤساء والمسئولين.

وأما في العراق فلم تدرج أي من النظريتين (النيابة العامة للفقهاء أو ولاية الفقيه) في الدستور العراقي، الذي باركته المرجعية الدينية (والسيد علي السيستاني خصوصا) وأوكل الى الشعب، دون تمييز طائفي، اختيار المسئولين من خلال مجلس النواب.

وإذا كانت المرجعية الدينية تمارس أدوارا إرشادية وقيادية في المرحلة الانتقالية فإن دورها يمكن أن يتقلص بصورة كبيرة مع ترسخ العملية السياسية الديمقراطية.

الخلاصة

لماذا تفرق المسلمون؟

في محاولتنا الإجابة عن سؤال (لماذا تفرق المسلمون؟) رأينا خلال فصول الكتاب، بأنه لا يمكن قبول تفسير الخلافات التي حدثت بين الصحابة واقتتالهم في "الفتنة الكبرى" بأنها كانت فقط بسبب ابتعادهم عن الدين، أو خضوعهم للأهواء والشهوات، وابتعادهم عن الكتاب والسُنَّة، إذ يفترض أنهم خير القرون والجيل الذي حمل الاسلام على العالم، كما لا يمكن تعليل تلك الخلافات بالعصبية القبلية، كما ذهب القاضي أبو بكر ابن العربي (٥٤٣ هـ) .

ولا يمكن أيضا تفسير حدوث الفرقة والاختلاف بين المسلمين بسبب ابتعادهم عن أئمة أهل البيت، وعدم تولي الامام علي وتنصيبه في موقع الخلافة مباشرة بعد النبي، لأن هذا التفسير يغفل عن افتراض حدوث المعارضة له من بقية القبائل والزعامات الأخرى، فضلا عن حدوث الاختلاف بين أبناء الأئمة من أهل البيت في المستقبل، كما حدث لهم جميعا، حيث افترقوا الى فرق عديدة كالكيسانية والزيدية والاسماعيلية والموسوية والفطحية والمحمدية وغيرها. ثم إن الأئمة الإثني عشر من أهل البيت، غير موجودين في التاريخ منذ أكثر من ألف عام، ومع ذلك فان الخلافات مستمرة بين المسلمين.

وأما قول أهل السُنَّة: إن سبب التفرق والاختلاف هو اتباع الأهواء والبدع، وخروج طوائف عن نهج السُنَّة والجماعة، فهو أيضا غير صحيح، لأن الخلافات العنيفة تفجرت بين الصحابة قبل أن يولد الشيعة "الإمامية" أو ما يسمى "بالرافضة".

صحيح إن نشوء الغلو عند بعض الشيعة، أدى الى ابتعاد هؤلاء (الغلاة) عن جماعة المسلمين، ولكنهم لم يكونوا يشكلون تيارات مهمة أو فئات كبيرة، أو يمثلون عامة الشيعة، وقد انقرضوا أو كادوا، وعلى أيَّةِ حال فان افتراقهم لا يفسر أزمة الفرقة والخلاف العامة بين المسلمين.

كذلك فان تكفير الخوارج للامام علي، أو لعامة المسلمين، لا يمثل حالة دائمة وشاملة، وقد اعتدل الخوارج بعد حين وأصبحوا "إباضية" يتجنبون التكفير، مما يدفعنا الى التوقف في الاعتماد على التكفير في

تفسير الخلاف بين المسلمين بصورة عامة.

إن تضخيم الخلافات بين المسلمين الى درجة اعتبار هذه الفرقة أو تلك خارجة عن الاسلام، وكافرة بأصول الدين، يدفعنا الى اليأس والاستسلام أمام واقع الفرقة، والانصراف عن القيام بأي عمل إيجابي لتوحيد المسلمين. فضلا عن مجافاة هذا القول لواقع الفرق التي تعلن انتماءها للاسلام وتتشهد الشهادتين.

بالاضافة الى إغفال عوامل التوتر والفرقة والصراع بين "المسلمين" أي إن المشكلة لا تقتصر على تلك الفرق "الخارجة" عن الاسلام، وانما هي موجودة وكامنة في كل مجتمع إسلامي، سواء كان سُنّيّا أو شيعيا.

ونأتي الى القول بأن الاختلاف بين المسلمين سُنَّة من سنن المجتمع، وإنه لا بد أن يحدث عند المسلمين كما حدث عند اليهود والنصارى، فهو صحيح الى درجة معينة، ولكن لا يمكن القول بأنه قدر محتوم من الله، وإلا لما كان الله تعالى قد أمر المسلمين بالوحدة، وحبذها اليهم، ونهاهم عن التفرقة. ولذلك فان الاستسلام أمام القدر الموهوم يحول بيننا وبين البحث عن جذور المشاكل وتقديم العلاجات الناجعة لها.

أما التحليل الذي يلقي بمسؤولية الخلاف والفرقة بين المسلمين على عاتق اليهود والنصارى والمجوس والمستعمرين، فهو تحليل يبسط الأمور الى درجة كبيرة، ويغفل عن العوامل الذاتية والداخلية، ويعجز بالطبع، بعد ذلك عن معالجة الأزمة علاجا صحيحا. وفي نظري إن "الفتنة الكبرى" لم تنفجر فجأة، وليس بعامل التآمر الأجنبي "اليهودي" كما يزعم سيف بن عمر في روايته الأسطورية عن دور "ابن سبأ" والتي يذكرها الطبري في تاريخه، وانما ابتدأت من يوم السقيفة في يوم وفاة الرسول، وذلك بغياب الدستور الذي ينظم حياة المسلمين السياسية، ويحدد من يحق له بالمشاركة السياسية واختيار الخليفة، ومن يحق له الترشح للخلافة.

وكما يعترف عمر بن الخطاب، فقد كانت السقيفة التي تم فيها انتخاب أبي بكر "فلتة وقى الله المسلمين شرها" وفي الحقيقة إنها كانت فلتة، لأنها تمت على عجل، وكاد المهاجرون والأنصار أن يقتتلوا فيما بينهم أثناء جدالهم حول من يحق له الترشح، ومن هو أحق بالخلافة؟. ثم اتفقوا على أن يكون المهاجرون أمراء والأنصار وزراء، ولا يُبتُّ أمر دون مشورتهم. ولكن هذا لم يحدث فيما بعد، حيث أقصي الأنصار عن الوزارة والمشورة، وتم انتخاب عثمان بدون أن يكون أحدهم عضوا في "الشورى".

وعلى أيَّة حال كان اتفاق السقيفة اتفاقا محليا بين المهاجرين والأنصار، ولم يشترك فيه بقية العرب الذين رفض الكثير منهم بيعة أبي بكر وارتد بعضهم عن الاسلام بسبب ذلك.

ولم يستوعب الاتفاق (الدستور) بقية المسلمين من القوميات الأخرى، فأصبحت الدولة الاسلامية الكبرى بدون دستور ينظم علاقاتها السياسية الداخلية، ويرسم صلاحيات وحقوق مكوناتها المختلفة من القبائل والقوميات. وهذا ما أدى الى امتعاض العرب من تهميشهم من قبل قريش والأمويين في عهد عثمان.

وعندما قتل عثمان رفض معاوية تقديم البيعة للامام علي بحجة أنه وأهل الشام لم يُشاوَروا في أمر البيعة، وقد رد عليه الإمام بأن الشورى للمهاجرين والأنصار، وليس للغائب أو البعيد أن يرفض أو يحتج، كما كان الحال في عملية انتخاب الخلفاء السابقين.

وبالرغم من صحة التشبيه إلا أن اعتراض معاوية كان يمثل وجهة نظر بعض المسلمين خارج المدينة، ويعبر عن وجود ثغرة دستورية كبيرة في طريقة انتخاب الامام في الدولة الاسلامية الوليدة.

وكان ذلك أحد أسباب تفجر الحرب بين الطرفين في "صفين". واشتعالها مرة أخرى بين الحجاز (مكة والمدينة) والشام.[١٠٤٧]

وظلت الأزمة الدستورية مشتعلة طول التاريخ، وعندما وجد الفرس أنهم مهمشون عن القرار السياسي؛ وجدوا في الأحزاب الشيعية المعارضة للأمويين، ملجأ وصوتا للتعبير عن مطالبهم ومعارضتهم.

وبعد الفرس جاء دور الأتراك الذين وجدوا الخلفاء العباسيين يستخدمونهم لحمايتهم والدفاع عنهم في مواجهة الثورات، وليس لهم حقوق دستورية، فما كان منهم إلا أن استولوا على السلطة في العصر العباسي الثاني، فقتلوا المتوكل وعينوا عددا من الخلفاء بعده، وأعلنوا أنفسهم ملوكا، الى أن عاد الفرس الديالمة (البويهيون) لكي يسيطروا على مركز الخلافة العباسية مرة أخرى، وأخذوا يعزلون خليفة ويعينون آخر، الى

[١٠٤٧] – نحن بحاجة إذاً، الى العودة الى جيل الصحابة، ودراسة تجربتهم السياسية، والبحث بعمق عن عوامل التوتر والصراع، والسبب الرئيسي لتفرقهم واقتتالهم، ليس بهدف النقد والتجريح لهذا أو ذاك، وانما بهدف الدراسة والبحث الموضوعي. ومن الخطأ دفن الرؤوس في الرمال، كما يحاول الامام أحمد بن حنبل أن ينصحنا بالكف عما جرى بين الصحابة، ويقول في رسالة (أصول السنة):"ومن انتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أبغضه بحدث كان منه، أو ذكر مساوئه، كان مبتدعا، حتى يترحم عليهم جميعا، ويكون قلبه لهم سليما".

منتصف القرن الخامس الهجري، حيث أعاد الأتراك "السلاجقة" الكرة لكي يقضوا على البويهيين الفرس ويستولوا على السلطة والخلفاء العباسيين مرة ثانية.

وما أن كانت تسيطر قومية أو قبيلة أو عائلة على السلطة في مكان ما وفي زمن معين حتى تبادر القبائل والقوميات الأخرى لمحاربتها والانقلاب عليها، في دوامة لا تنتهي من الصراع على السلطة، في غياب الدستور الذي يوضح دور الأمة في الحياة السياسية ويحدد صلاحيات الحكام، ويبين كيفية الوصول الى السلطة، بدل الصراع الدموي العنيف عليها بين حين وآخر.

وفي خضم تلك المعارك كانت الحقوق تنتهك، والحريات العامة تصادر، والدماء تسيل أنهارا، وتتفشى العصبيات القبيلية والقومية والطائفية والحزبية، ويسود الظلم والاضطهاد، وتكثر البدع وينشط التطرف، وتتم عملية التلاعب بالقرآن، واستخدام الدين أداة في السياسة، إن لجهة تكريس الاستبداد، أو لتأليف نظريات المعارضة الثورية، ويتم الغلو في إضفاء العصمة على هذا، وصب اللعنات على ذاك.

ولسنا بحاجة الى تخيل التاريخ البديل، وتصور كيف كانت التجربة الاسلامية في الحكم ستكون لو كان المسلمون من البداية قد وضعوا أسسا دستورية عادلة لمشاركة جميع القبائل والقوميات والطوائف والأحزاب في السلطة، دون سيطرة أو طغيان أو استبداد، ويكفي أن نتصور اليوم كيف يشكل الاتفاق على دستور عادل في أي مجتمع حلا جذريا لكثير من المشاكل والأزمات، ويحفظ وحدة المجتمع، ويحول دون التشرذم والانقسام.

إن الحلول المقدمة لمعالجة مشكلة التفرق بين المسلمين، تتوقف على التحاليل المختلفة لعوامل الافتراق والاختلاف، وبالطبع فأن أي تحليل خاطئ أو غير دقيق سيؤثر على طبيعة الحل ومدى نجاعته.

وبما أن مشكلة التفرق بين المسلمين مشكلة معقدة ومزمنة، ولها عوامل متعددة ومختلفة فلا يمكن أن يكون الحل، بالطبع، ذا بعد واحد، وإنما ينبغي أن يكون مركبا.

واذا كانت الحلول المقترحة قد عجزت حتى الآن عن تقديم الدواء الأنجع، فلأن الحل لا يكمن في دواء واحد، وانما في دواء مركب من جميع تلك الحلول، لأن الأزمة عميقة ومعقدة ومتجذرة، وعلينا أن نأخذ بخلطة الحلول مجتمعة مع بعض، ولا نعتمد على بعد واحد أو حل واحد.

وهذا يقتضي منا دراسة مشكلة التفرق والانقسام في العالم الاسلامي دراسة عميقة وعدم تسليط

الضوء بسرعة على جانب واحد أو بُعد واحد من المشكلة، وإنما على مختلف الجوانب والأبعاد.

وقد رأينا في الصفحات الماضية، أن بعض الحلول المقدمة لمعالجة الفرقة وإعادة الوحدة بين المسلمين، تساهم بمزيد من التفرقة وتعميق الجراح القديمة، وذلك لأنها لا تقوم على تشخيص واقعي وحقيقي للمشكلة بقدر ما تقوم على شعارات عاطفية أو نظريات مبتسرة .

ففيما يَعتبرُ بعض المسلمين عاملا معينا (كنظرية الإمامة، أو التكفير) سبب المشكلة؛ يراهُ البعض الآخر دواءاً للحل، وبالتالي فإن الإصرار على ذلك التحليل وذلك الحل، لن يساهم بحل المشكلة بقدر ما يزيدها اشتعالا ولهيبا. ولذلك لا بد من دراستها بدقة وملاحظة تجربتها في التاريخ وفي الزمن المعاصر.

وفي نظري أن الفرقة التي حدثت بين المسلمين تعود بصورة رئيسية الى الظلم وانعدام الدستور الذي ينظم الحياة السياسية ويحدد صلاحيات الحاكم ويسيطر على تصرفاته، ويسمح بمراقبته ونقده وعزله وتغييره، وأما العوامل الأخرى (كالغلو والابتداع في الدين والتكفير) فانها عوامل مساعدة على تكريس الظلم والفساد والتفرقة.

الخاتمة

العدل هدف أسمى من الوحدة

مبدأ الوحدة الاسلامية في القرآن الكريم

لقد أمر الله تعالى في القرآن الكريم، في آيات عديدة، بالوحدة بين المسلمين، ونهى عن التفرقة، فأكد في البداية أنهم أمة واحدة، فقال:

- "إن هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون". (الأنبياء ٩٢) وفي آية أخرى:
- "وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون". (المؤمنون، ٥٢) وقال:
- "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون".(آل عمران ١٠٣) ونهاهم عن التفرقة والاختلاف، فقال:
- "ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم". (آل

عمران، ١٠٥)

- "وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، ان الله مع الصابرين". (الانفال ٤٦)

- " فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون". (المؤمنون، ٥٣)

- "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذي أوحينا اليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه... وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم..". (الشورى، ١٣ — ١٤) وقال تعالى:

- "وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد". (البقرة ١٧٦)

ومع ذلك فقد افترض الله عز وجل وقوع الاختلاف بين المسلمين، فأمر برد المسائل المتنازع فيها الى الله والرسول، فقال:

- "فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول". (النساء ٥٩) "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ الى أمر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون". (الحجرات، ٩ - ١٠)

إن الله عز وجل يربط في هذه الآية بين الوحدة والصلح والعدل والقسط، وذلك لأنه لا يمكن تحقيق الوحدة بعيدا عن العدل، فالظلم يولد الشقاق والتفرقة والاختلاف.. ومن هنا فلا بد من التمسك بالوحدة والسعي اليها والتمسك في نفس الوقت بالعدل، ولا مانع من استخدام القوة ضد الفئة الباغية الظالمة سواء كانت في السلطة أو في المعارضة، وسواء كانت حزبا أو طائفة .

إن العدل يعني المساواة بين الأشخاص والقبائل والشعوب والطوائف والأمم في الحقوق والواجبات، ويعني أيضا الحق في الثورة والدعوة الى القسط، والدفاع عن المحرومين والمظلومين والمستضعفين، ضد المستكبرين والمستبدين والطغاة والظالمين..

مبدأ العدل في القرآن الكريم

ومن هنا فقد حض الله عز وجل على العدل، في أكثر من ثلاثمائة آية في القرآن الكريم، فقال:

- "إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم

لعلكم تذكرون". (النحل، ٩٠)

- "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا". (النساء ٥٨) وخاطب نبيه الكريم قائلا:

- "وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين". (المائدة ٤٢) "قل أمر ربي بالقسط". (الأعراف ٢٩)

- "فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم". (الشورى، ١٥)

وحدث الله رسوله الكريم عن الهدف من إرسال الأنبياء:

- "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط..". (الحديد، ٢٥)
- "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب". (ص، ٢٦)

وهكذا يطالب الله تعالى المسلمين بإقامة العدل في كافة مجالات الحياة الاقتصادية والقضائية والسياسية والاجتماعية، فيقول:

- "وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفسا إلا وسعها، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون". (الانعام ١٥٢) "وأوفوا الكيل إذا كلتم، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ذلك خير وأحسن تأويلا". (الإسراء، ٣٥) "أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين". (الشعراء، ١٨١ — ١٨٢) "والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان". (الرحمن، ٩) "فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة". (النساء، ٣)

وبعد ترسيخ مبدأ العدل، يحذر الله المسلمين من العدوان على الآخرين، ويطالبهم بالتمسك بالعدل حتى مع أعدائهم، فيقول:

- "ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام، أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله، إن الله شديد العقاب ". (المائدة، آية ٢)
- "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله، شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله، ان الله خبير بما تعملون". (المائدة ٨)

- "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط، شهداء لله، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين... فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا..". (النساء ١٣٥)

ويحذر الله المسلمين من الظلم والفساد في الأرض، قائلا:

- "ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا". (الفرقان، ١٩) "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم". (محمد ٢٢ – ٢٣) "وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد". (البقرة ٢٠٥) "ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون". (هود، ١١٣) "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب". (الأنفال، ٢٥) "ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون". (يونس، ٥٤) "إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا". (النساء، ١٦٨) "ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار". (ابراهيم، ٤٢) "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون". (الشعراء، ٢٦)

ويريد الله تعالى اقتلاع روح التكبر والاستعلاء والسخرية من الآخرين من نفوس المؤمنين، فيقول:

- "يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تتنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون". (١١ الحجرات، آية ٤٩)

ويعطي الله الحق للمظلومين بالقتال من أجل حقوقهم، ويعدهم بالتأييد والنصر:

- "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله". (الحج ٣٩ – ٤٠) "والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا، لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر، لو كانوا يعلمون". (النحل ٤١) "والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إن الله لا يحب الظالمين، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، انما السبيل على الذين يظلمون ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم". (الشورى ٣٩ – ٤٢) "لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، وكان الله سميعا عليما". (النساء ١٤٨)

ويحث على القتال من أجل المظلومين والمستضعفين:

- "وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا". (النساء ٧٥) "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين". (البقرة ١٩٣)

ويدعو الله عز وجل المسلمين الى تشكيل فئة أو أمة منهم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر:

- "ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون". (آل عمران ١٠٤) "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...". (آل عمران ١١٠)

ويطلب من المسلمين استعمال القوة في ردع الباغين:

- ".. فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ الى أمر الله". (الحجرات، ٩)

ويهدد الظالمين الذين يقتلون الداعين الى العدل، والآمرين بالقسط، ويصنفهم مع الكفار الذين يقتلون الأنبياء:

- "ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فبشرهم بعذاب أليم. أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين". (آل عمران ٢١ – ٢٢)

إن الأمة الاسلامية ليست بدعا من الأمم، وليست خارج قانون التدافع والصراع بين الناس، كما يقول تعالى:

- "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين". (البقرة ٢٥١) "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز". (الحج، ٤٠)

وبالتالي فان الوحدة الاسلامية المنشودة، والمأمور بها من الله تعالى، لن تشمل الظالمين والطغاة، الذين يأمر الله تعالى بمقاومتهم ومحاربتهم:

- "ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، ولكن يدخل من يشاء في رحمته، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير". (الشورى، ٨) "وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون". (يونس، ١٩) "فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم". (مريم ٣٧) "فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم". (الزخرف، ٦٥)

الصراع الخالد بين المؤمنين والمنافقين في داخل الأمة الاسلامية

إذن فان الأمة الاسلامية الواحدة لن تكون بعيدة عن الصراع الداخلي، الذي لا مهرب منه، وفي ما عدا الاختلافات الآنية والجزئية والعرضية والشخصية التي قد تحدث بين المؤمنين، فان الصراع الأكبر والخالد هو بين المؤمنين الذين يشكلون عامة المسلمين، وبين الذين يتظاهرون بالاسلام، ولكنهم يتكبرون على الناس ويطغون في الأرض ويعتدون ويسرقون وينهبون الثروات العامة، ويقتلون الناس بغير حق، وهم في العادة أقرب ما يكونون الى الحكام الظلمة وأتباعهم من النخب الحاكمة التي لا تتورع عن إراقة الدماء والاستيلاء على السلطة بغير حق. وإذا قرأنا السطور الأولى من القرآن الكريم، في سورة البقرة، لوجدنا الله (عز وجل) يقسم المجتمع الى مؤمنين وكفار ومنافقين، ويتحدث في الآيات الخمس الأولى عن المؤمنين، ويعقبها بآيتين عن الكفار، وثلاث عشرة آية عن المنافقين. ويدعو الله عز وجل نبيه الكريم الى مواجهة الكفار والمنافقين:

- "يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين، واغلظ عليهم، ومأواهم جهنم وبئس المصير". (التوبة، ٧٣ و التحريم، ٩) وينهاه عن التعاون معهم: "يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين". (الاحزاب، ١)

ويحدثنا الله تعالى عن مؤامرات المنافقين ضد النبي الأكرم والاستعلاء عليه:

- "يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون". (المنافقون، ٨) ويحذر المنافقين قائلا: "لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا". (الاحزاب، ٦٠)

واذا كان الصراع بين المؤمنين والمنافقين في حياة الرسول (ص) على أشده، فهل نتوقع أن ينتهي ذلك الصراع بعده؟ أم يشتد أكثر ويستمر في كل زمان ومكان؟ إن التاريخ الاسلامي الطويل يجيب على ذلك بوضوح، ويؤكد أن وتيرة الصراع الداخلي لم تهدأ يوما من الأيام، وإن اتخذت اشكالا متعددة، ودرجات متفاوتة، وتسلحت باجتهادات مختلفة.

إن الأمة الاسلامية لم تعرف الوحدة السياسية الكاملة في حياتها الا لفترات قصيرة جدا، فقد انفجرت الفتنة الكبرى في جيل الصحابة، ثم انقسمت البلاد الاسلامية إلى دول وإمارات، وظلت تتشرذم وتتشرذم حتى أصبحت أكثر من خمسين دولة، وهي مرشحة – مع الأسف الشديد – لمزيد من التشرذم والانقسام، حيث يخيم خطر الانقسام على كثير من الدول الاسلامية. ولعل الانقسام الطائفي هو أخطر تلك الانقسامات، وذلك لأنه يمزق المجتمعات الاسلامية داخليا الى كتل متصارعة ومتناحرة، ويهريق شلالات من الدم، ويحول دون نهضة الأمة وقيامها من جديد.

وإذا كان المسلمون يحلمون بالوحدة الكبرى، ويسعون اليها، فلا بد أن يعلموا بأن الوحدة ليست دائما هدفا نهائيا وواجبا، وانما هي مطلوبة بشرط العدل والحرية والمساواة والديمقراطية.

وبما أن المجتمع، أي مجتمع، يضم فئات متكبرة ومستكبرة تسعى للسيطرة على الجماهير بالقوة والإرهاب، وسرقة ثرواتها ومصادرة حقوقها، فلا بد أن نتوقع استمرار الصراع في المجتمعات الاسلامية، وخرق المبادئ الوحدوية الأخوية، وهذا ما يستدعي رد فعل من الجماهير ضد الفئات الخارجة على القانون والدستور، وإن تطلب الأمر الثورة والحرب.

ويمكن القول إن الوحدة الشاملة التامة بين المسلمين، كما بين غيرهم، هي فكرة مثالية، ولا يمكن تحقيقها في المجتمع مائة بالمائة، كما يقول تعالى "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم". (هود، ١١٨-١١٩) فما دام هنالك ظلمة وطغاة ومفسدون ومنافقون فان الوحدة التامة مستحيلة، ولا يمكن لأية وحدة أن تترسخ إلا مع العدل والمساواة، ووحدة القوى الشعبية بعيدا عن العناوين الطائفية والخلافات الوهمية، وفي مواجهة الأعداء الحقيقيين للشعوب من النخب المستغلة والطغم الحاكمة، وذلك تحت ظل نظام دستوري ديمقراطي عادل، يكفل الحد الأدنى من الوحدة الاجتماعية،

ويمنع تفجر الخلافات الوهمية، ويحول دون عودة الظلم والديكتاتورية، ويسمح بالتعددية وينطوي على التسامح.

ومن المعلوم أن مشكلة الصراع على السلطة والثروة، لا تخص مجتمعا معينا دون آخر، ولا السُنَّة أو الشيعة، وانما توجد في كل مجتمع، ولكن بعض المستغلين والمتكبرين والمستبدين قد يحاولون التغطية على هذه الحقيقة بإشعال حروب طائفية وتصوير المعركة بأنها موجهة من هذه الطائفة ضد تلك، ولا سيما إذا كانوا هم يدعون تمثيل طائفة معينة ويلفون حولهم حزاما طائفيا قبليا مستفيدا من موائدهم.

وهنا لا بد من الإنتباه جيدا، إلى عدم الاستجابة لخدع المستبدين المتكبرين وأفخاخهم الطائفية، بالفصل بينهم وبين الجماهير، والتوحد معها في جبهة ديمقراطية عريضة من أجل المطالبة بالحرية والعدالة للجميع.

ولئن كان نخب "أهل السنة" يشكلون تاريخيا طوائف تابعة للحكام، وكان الشيعة يشكلون طوائف أقرب الى الثورة والحرمان، فانه ينبغي عدم الإنخداع بالعناوين الطائفية التاريخية الوهمية، وعدم الاصطفاف الى جانب هذا الزعيم أو ذاك لمجرد أنه يرفع شعارا طائفيا أو يلعب على الوتر الطائفي، والنظر بدلا من ذلك الى حقيقة عمله وممارساته وسياساته.

إن الجماهير "السُنيَّة" في كل بلد يحمل هوية سُنِّية، تعاني من النخب الحاكمة المستبدة العسكرية والسياسية، وتقوم بثورات وانتفاضات للمطالبة بحقوقها، كما هو الحال في البلاد الشيعية التي تعاني من حكامها ونخبها المستغلة والمستبدة، وبالتالي فإن الجماهير من الفريقين يقفون في جبهة واحدة ضد الظلم والاستغلال والاستبداد.

إن الخلافات الطائفية بين "السُنَّة" و"الشيعة" خلافات وهمية أو عقيمة أو بائدة، أو هامشية وغير حيوية، خصوصا بعد تحول المذاهب السياسية الى طوائف جماهيرية كبيرة، وهو ما يبدد الصراع القديم بين المذاهب والحركات السياسية في العصور الغابرة، ويفرض نوعا جديدا من الصراعات الحيوية بين الشعوب والجماهير المسحوقة المطالبة بالحرية والعدل والشورى والمشاركة السياسية الديمقراطية، وبين الحكومات

والنخب المستغلة والظالمة، فلم تعد الطائفة الشيعية – مثلا – بصورة عامة تمثل بجميع أبنائها خط علي والحسين، مع هيمنة أحزاب وشخصيات وحكومات ظالمة ومستبدة تسير على نهج معاوية ويزيد، وتعادي الجماهير الفقيرة والمظلومة والمستعبدة والثائرة، كما لم تعد الطائفة السنية – مثلا – وبصورة عامة، تمثل خط معاوية ويزيد، أو تتبنى الفكر السياسي السُنّي "السلطاني" الداعي للخنوع والاستسلام والقبول بالظلم والاستبداد، ما عدا الحكام الطغاة والنخب الدائرة حولها، بينما تناضل الشعوب والجماهير المسحوقة من أجل حقوقها وحريتها ودورها في الحياة السياسية.

وهذا ما يحتم تحطيم الأسوار الطائفية بين الشيعة والسُنَّة، أو بين الجماهير المسحوقة والمظلومة من كلتا الطائفتين، والالتحام في جبهة شعبية سياسية واحدة، في مواجهة الطغاة والظالمين من أية طائفة كانوا، سواء تسموا باسم الشيعة أو إسم السُنَّة، والنضال بصورة سلمية أو عسكرية، ضد الغزاة والانقلابيين والمستبدين.

وفي الختام نسأل الله أن يوفق الأمة الاسلامية الى ترسيخ العدل بين أبنائها تمهيدا لتوحيدها، إنه سميع مجيب

أحمد الكاتب

٢٠١٦/١/٨

لندن